٦

سلسلة
دراسات
إفريقيّة

سدّ عالٍ فوق أرض النوبة

تأليف: ليزلي جرينر

ترجمة: علي جمال الدين عزت

مراجعة: د. محمد جمال الدين مختار

الدار المصرية للتأليف والترجمة

سدّ عالٍ فوق أرض النوبة

تأليف : ليزلى جرينر

ترجمة : على جمال الدين عزت

مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هـذه ترجمـة كتـاب :

HIGH DAM OVER NUBIA

by Leslie Greener,

London 1962.

إهداء المؤلف

إلى أصدقائي المصريين

وإلى سدهم العالي :

حيـــاة ، ورخـاء ، وصحـة :

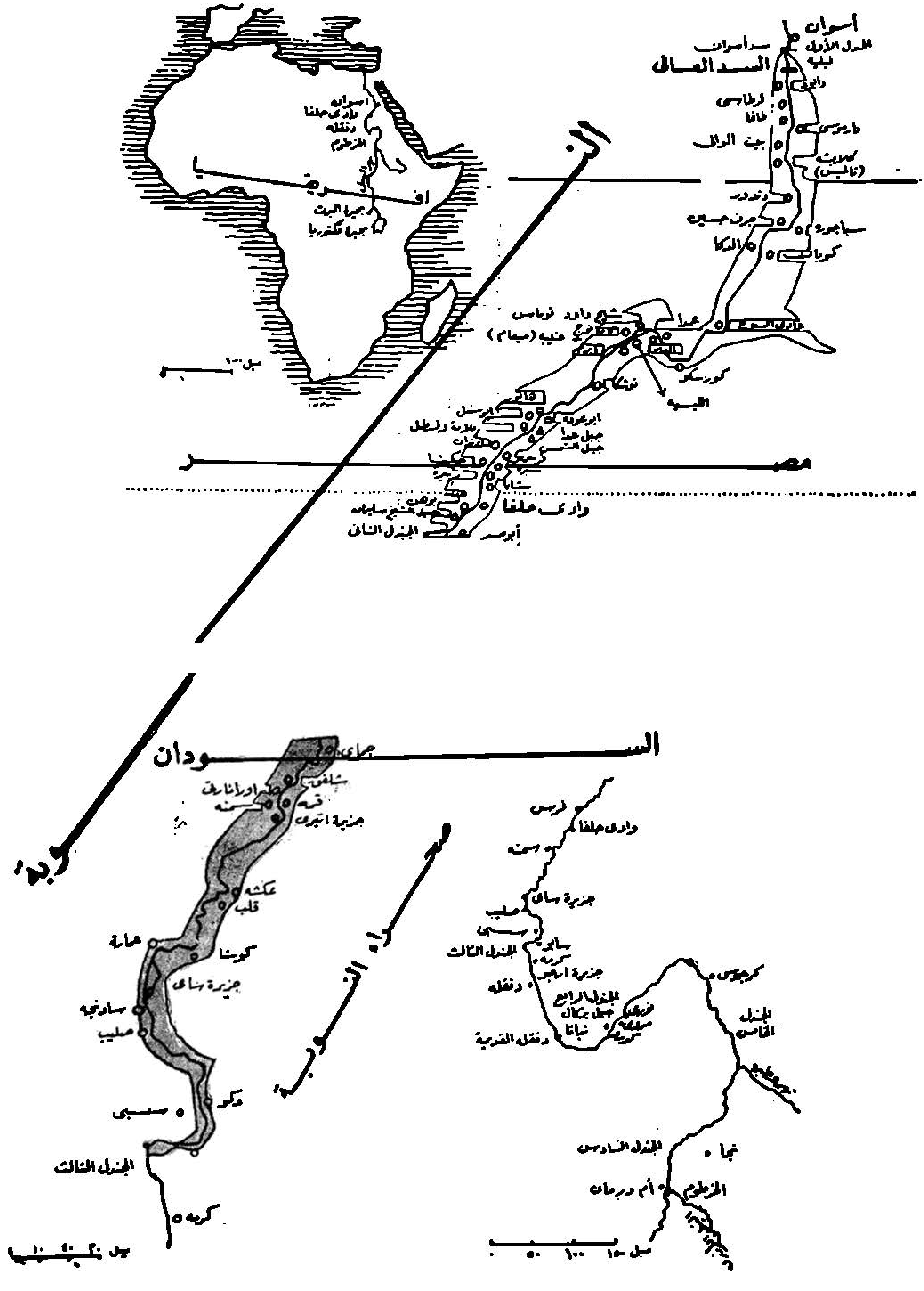
النوبة
أسوان
السد العالى
مصر
السودان
وادى حلفا
الجندل الثانى
الجندل الثالث
الخرطوم
أم درمان
صحراء النوبة

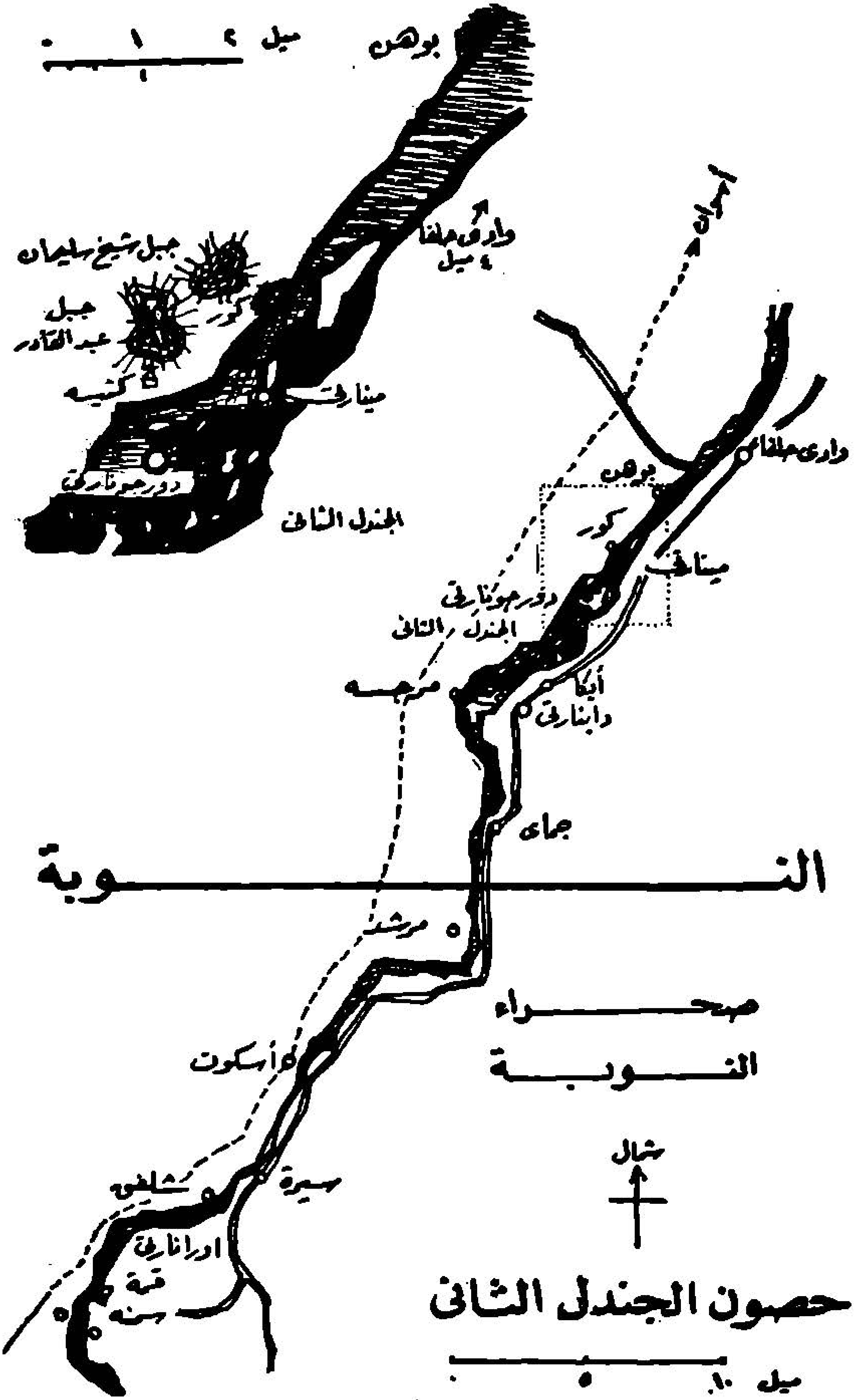
بوهن
ميل ٢ ١ ٠
وادى حلفا
٤ ميل
جبل شيخ سليمان
جبل
عبد القادر
كور
كشيه
ميناركت
دورجونارتى
الجندل الثانى
أسوان
وادى حلفا
بوهن
كور
ميناركت
دورجونارتى
الجندل الثانى
مرجسه
أيكا
وابنارتى
جماى
النوبة
مرشد
صحراء
النوبة
أسكوت
سيرة
شلفوه
اورانارتى
قمة
سمنه
شمال
حصون الجندل الثانى
ميل ١٠ ٥ ٠

ملحوظة للمؤلف

لقد كان من محاسن الصدف أن أذهب إلى بلاد النوبة كعضو فى البعثة المشتركة لمعهد الدراسات الشرقية لجامعة شيكاغو والمعهد السويسرى بالقاهرة . ومع ذلك فإن هذا الكتاب هو عمل شخصى بحت وإن المعلومات التى يشتمل عليها والأفكار التى ينطوى عليها لا تمت بصلة إلى أى من المعهدين .

وقد أمدتنى تجربة النوبة هذه ، وكذا مصادر المكتبة الرائعة لمعهد شيكاغو بالأقصر ، بفرصة نادرة لأن أقرن الحاضر بالماضى فى هذا البحث الذى أرجو أن يساعد الآخرين على فهم تلك القصة البشرية الساحرة قصة النوبة التى تكمن خلف محاولات اللحظة الأخيرة لإنقاذ المعابد والمقاصير التى سوف تغرقها مياه السد العالى .

وإنى لأسجل عميق شكرى لهذه الفرصة الطيبة .

الجزء الأول

اليـــوم

— ١ —

شقت الباخرة التي كانت تقل الحملة طريقها في النهر الذي يفيض من السماء . وعند المهندس المصري الذي كان يجلس بجواري ، لم يكن هذا النهر سوى نهر النيل ، الذي ينبع من بحيرة فيكتوريا أو ربما من بحيرة البرت ، فإني أحب أن أندى . كان هذا المهندس قد رأى العالم وكان يعرف كل شيء عن الآلات البحرية ، وكان إلى جانب ذلك ساحراً ، وقليل من المصريين من لا تتوافر فيهم هذه الصفة . وكنت أتساءل عما إذا كانت الأبخرة المتصاعدة من زيت الوقود هي أنفاس الحياة بالنسبة إليه ، وإن كانت تملأ نفسي غثياناً . ولذلك كنت أوثر قارباً شراعياً ، خاصة إذا كان يستغرق بضعة أسابيع للوصول بنا إلى المكان المقصود .

تمنيت لو أن أحداً لم يستطع الوصول إلى منابع النيل ، ذلك أنه بمجرد أن اكتشفت المكان الذي ينبع منه النهر ، فقد جردته من سره العجيب . وينطبق هذا نفسه على الآثار القديمة، فحينما نلم بكل شيء عنها فلن نهتم بها بعد ذلك فتيلا . ومن حسن الطالع أننا لن نلم بكل شيء قط . وحينما يكون للنهر أكثر من منبع واحد ، فإنه يفقد بعض أسراره حينما نهتدى إليها جميعاً .

وسارت السفينة تشق طريقها بين المياه السمراء الهادئة ، عبر الصخور العاتية التي تحيط بالشطآن البعيدة ، ذلك أن النهر هنا متسع على غير عادته في ذلك الخزان الذي يبلغ مداه مائتي ميل والذي يحده سد أسوان الحالي(١).

---

(١) أقيم سد أسوان سنة ١٩٠٢ ، ونتج عن إقامته ظهور بحيرة صناعية كبيرة كان منسوب الماء فيها حوالي ١٠٦ أمتار فوق مستوى سطح البحر المتوسط . وقد طغت مياه تلك البحيرة —

وكان الشريط الأخضر الرفيع الذى يقع عادة بين الصخور والنهر محتجباً عن الأنظار ، ولم تكن ثمة أشجار نخل سامقة تقطع المنظر عمودياً . وكانت بعض القرى تبدو كتلا بيضاء تتخلل كلا منها مئذنة مسجد ناصعة البياض ، وتتناثر هذه القرى بين الصخور ، غير أن ورقة خضراء واحدة لم تكن ترى نامية فى هذا المكان .

وأشار المهندس بيده نحو هذا المنظر الساحر ، وإن كان منظراً عارياً ، ثم قال : « لسوف يختفى كل هذا ، ويحل محله بحيرة جديدة أكبر بكثير . إنها جغرافية جديدة » . وابتسم فى وجهى ، ترنو عليه السعادة والسرور ، فى شىء من الفخر والكبرياء .. وقلت له فى جرأة :

— « ألا تظن أن هذا من دواعى الأسى ؟ » ثم أردفت قائلا : « من بعض الوجوه » ذلك أننى أفسدت عليه ابتسامته الهائلة ثم قلت : « قص على نبأ البحيرة الجديدة » .

قال : « ستبدأ البحيرة من أسوان ، من السد العالى الذى نقيمه جنوب سد أسوان بحوالى خمسة أميال ، وسيبلغ طول هذه البحيرة ثلاثمائة ميل ، تخترق النوبة وتصل إلى السودان » ، واتجهت ببصرى نحو بلاد النوبة التى تلفحها الشمس وقلت : « ألن يبقى شىء من هذا على الإطلاق ؟ » .

« لن يبقى شىء من بلاد النوبة . سوف تطفو وترتفع فوق كل هذا ، حتى فوق مستوى هذه المرتفعات . ولن تبدو بعد اليوم كما هى الآن ولسوف تمتلئ هذه الوديان جميعها بالمياه ، بل سوف تمتد سواحل البحيرة كثيراً إلى الوراء وستكون أشبه ببحر تشق عبابه السفن الكبيرة » .

= على أشرطة الأرض الزراعية الضيقة على جانبى النهر ، كما غمرت مياهها معابد فيلة ، على بعد بضعة كيلو مترات جنوب مدينة أسوان ، لارتفاع مترين فترة طويلة من السنة . ثم تمت فى سنة ١٩١٢ التعلية الأولى لخزان أسوان ، وارتفع منسوب المياه المخزونة إلى ١١٣ متراً ، كما حدثت التعلية الثانية سنة ١٩٣٣ التى ارتفع بسببها الحد الأقصى لمنسوب مياه التخزين إلى ١٢١ متراً .

وقد أدى ذلك إلى غرق الأراضى المحيطة بالنهر وتغير المظهر التضاريسى العام للمنطقة وانغمار الكثير من آثار المنطقة معظم شهور السنة تحت مياه التخزين (المراجع)

وسعلت من أثر رائحة زيت الوقود، ثم قلت: «وما بالك بهؤلاء الناس؟» فأجـــاب :

«لسوف ينقلون إلى مواقع خيراً من منطقتهم مقامة على أرض جديدة ، سوف تمد بمياه الرى . إنهم قوم فقراء للغاية ، وحتى إذا كان هناك شريط صالح للزراعة بجانب النهر كما هو الحال جنوب هذا المكان ، فإن هذا الشريط لا يزيد عرضه على مائتى ياردة أو نحو ذلك . فكيف يكون فى مقدورهم أن يعيشوا فى أرض لا يبلغ اتساعها سوى مائتى ياردة فحسب ؟» .

كان محقاً للغاية ، فمنذ عشرة آلاف عام على الأقل ، عاش الناس على هذه المياه التى تهبها السماء ، وهم يتقلبون بين السلام والحرب والرخاء . ولكن المياه الآن أضحت غير كافية ، أو بالأحرى زاد عدد الناس فلم تعد المياه تكفـــيهم .

كانت مصر مزدحمة بالسكان دون إرهاق عندما كان عددهم عشرة ملايين ، رغم أن الشك لا يخامرنى فى أن الأتراك ، والإقطاعيين الأثرياء ، والاستعمار الاقتصادى قد أذاقوا الملايين العشرة من الجوع ما لم يكن يستدعيه حالهم . ولكن قبل نهاية سنة ١٩٤٧ كان هناك تسعة عشر مليوناً من المصريين ، ثم بلغ عددهم حوالى خمسة وعشرين مليوناً عام ١٩٦٠ . ولن ينصرم عام ١٩٧٠ حتى يكون هناك أكثر من ثلاثين مليوناً فى ذلك الشريط الضيق الطويل من أرض مصر . ورغم أن مصر قد تحررت الآن من الأتراك والإقطاعيين والمستعمرين ، إلا أنها لا تستطيع أن تطعم جماهيرها الغفيرة عما لديها من التربة والماء فى الوقت الحالى .

وليس لهذه العملية الحسابية سوى حلين ، أحدهما فى حكم المستحيل ، وذلك أننا إما أن ننقص الخمسة والعشرين مليوناً من السكان إلى خمسة عشر مليوناً مثلا ، أو يتحتم علينا توفير المائة والثلاثين مليارا من الأمتار المكعبة التى تضيع سدى فى البحر أيام الفيضان كى تستخدم فى زيادة المحاصيل الغذائية

ولكى تمد الصناعات اللازمة لسد حاجة العدد المتزايد من السكان بالطاقة الكهربائية . وإن العلم لم يتوصل حتى الآن إلى اكتشاف دواء سهل رخيص لمنع الحمل ، وما زال بعض الناس يعتبرونها إهانة للذات العلية أن تتدخل فى نعمته الجزيلة التى يهبها لنا فى صورة ذرية عديدة . وهكذا لم يبق لمصر إلا الحل الوحيد الممكن ــ السد العالى . ولكى نقيم السد العالى يجب أن تغرق أرض النوبة ، ويجب أن تذهب معها كل تلك الآثار التى خلفها الإنسان إبان إقامته المديدة فى هذا المكان ــ والتى شغلنا عنها حتى الآن الجرى وراء المال كما شغلتنا الحروب التى نشبت بيننا فلم نستطع أن نقوم بدراستها على الوجه الأكمل بما فيها من الجبانات ، والمدن والقلاع ، ومعابد الوثنيين ، وكنائس المسيحيين الأوائل ، ومغارات القديسين ، وأطلال المسلمين الأوائل . وهناك فضلا عن ذلك حضارة انحدرت من كل تلك العصور ــ ألا وهى أسلوب الحياة النوبية فى هذا العصر ــ كل ذلك سوف يتلاشى إلى الأبد .

ثم قال المهندس : « لسوف يتمتعون بمستوى معيشة أعلى بكثير من مستواهم الحالى » .

فقلت فى نفسى : « أتعشم أن يتحقق لهم هذا ، بل لمصر جميعها . لقد حان الوقت » .

ولكن المرح والطرب سوف يتلاشيان . إن هذا هو الذى يزعجنى ويحزننى ، وقد يكون هذا هو الذى يجعلنى عاطفى النزعة ــ إننى أحب هؤلاء الناس كما هم . ولو أنهم حصلوا على نصيب أوفر من أطايب الحياة وتمتع أهل مصر جميعاً بالرخاء ، ولو أنهم استخدموا هذه الخيرات فى حكمة وتعقل ، لاستطاعوا أن يصلوا إلى درجة من السعادة الإنسانية لا نستطيع الوصول إليها .

هذه النعم كلها لن تأتى دفعة واحدة ؛ بل سوف تتحقق بمرور الزمن ، ذلك أنه حين تعم خيرات السد العالى ، سوف تحظى بلاد النوبة ، أرض

كوش[1] ، بمستوى عال من المعيشة فوق حقولها اليانعة الجديدة ، على حين يصبح ذلك المكان العتيق الماثل أمام عيني مغموراً إلى عمق ثلاثين قدماً كاملة .
إن بلاد النوبة الجنوبية ، هي أرض كوش القديمة التي تحدث عنها أشعيا حين قال : «سوف يحدث أن يأمر الرب مرة أخرى باستعادة فلول شعبه التي ستبقى ، من آشور ومصر وباثروس وكوش» . ومن المحتمل جداً أن تكون شعوب ما قبل الأسرات – وهم أسلاف الفراعنة – قد وصلت إلى الشمال عن هذا الطريق . ومما لا شك فيه أن بعض الشعوب قد جاءت إلى هذا المكان في الأيام الخالية لأغراض شريفة متجهة نحو الشمال ونحو الجنوب ؛ فهناك الفراعنة الذين أخذوا بنصيب من المدنية في الشمال يخوضون غمار الحروب ويشتغلون بالتجارة في إفريقية ؛ وهناك ملوك كوش الذين قويت شوكتهم وحكموا مصر كلها حيناً من الدهر ، وقد خلعوا على أنفسهم ألقاب الفراعنة بأكملها ؛ ثم هناك الجنود المرتزقة من اليونانيين الذين اتجهوا نحو الجنوب ونحتوا أسماءهم حيث استقر بهم المقام » وقد ركب «سترابو»[2] عربة يجرها أحد الثيران عبر هذه الصخور لكي يقوم بزيارة لجزيرة فيلة – شأن أي سائح في تلك الأيام – تلك الجزيرة التي كانت في ربع قرن من الزمان قبل مولد المسيح (وقت زيارة سترابو) أثراً عتيقاً »

وصوبت الطرف مرة أخرى نحو الشاطئ : أجل ، إنه مكان فقير ، بيد إن الإنسان قد عاش فيه ، وجاس خلاله ، وانتفع به ، وبنى على أرضه

---

(١) سمى المصريون تلك المنطقة بالأقاليم الجنوبية ، كما استخدموا كلمات كثيرة لتدل على جزء من المنطقة أو على الشعب الذي كان يقطن بها : مثل «واوات» ويقصد بها غالباً الجزء الشمالي من بلاد النوبة . و «كاش» أو «كوش» وهي منطقة تمتد إلى الجنوب من ذلك . وأطلق الإغريق على هذه المنطقة بالإضافة إلى مناطق أخرى اسم «أثيوبيا» . (المراجع)

(٢) سترابو الرحالة والجغرافي اليوناني الذي عاش من ٦٤ ق . م إلى سنة ١٩ م وخلف كتاباً في الجغرافيا ليس له قرين في العالم القديم . وقد عاش «سترابو» حوالي خمس سنوات في مصر ، وأبحر في النيل حتى جزيرة فيلة . كما حدثنا عن مصر وأثيوبيا وساحل إفريقية الشمالي في المجلد السابع عشر من كتابه . (المراجع)

المعابد لآلهته، وأحبه قبل أن يبدأ الإنسان فى تسجيل أعماله . لقد كانت أرض كوش هذه مثقلة بالأحداث التاريخية ، فى الوقت الذى كان فيه سكان بريطانيا يجرون الأحجار الجديدة عبر البرارى لكى يقيموا منها ستونهنج[1] . ولم تكن بلاد النوبة على هذه الحال دائماً ، راقدة هناك فى وهج الشمس تتلألأ بلونها الأعفر ، فيما عدا تلك البقاع التى تلمسها المياه فتحيلها فجأة إلى شريط داكن الخضرة .

وقلت فى نفسى لو أننى نزلت إلى الشاطئ ، وارتقيت هذه الصخور القابعة فى الشرق ، لتسنى لى أن أتجول فى أنحاء جبال مقفرة ذات ألوان مذهلة كتلك التى نسمع عنها فى الأساطير السحرية — ألوان الموف[2] والمغرة[3] والنحاسى الأزرق — وما من نبت أخضر ينمو على هذه الجبال ، بل لا يقع بصرك إلا على الأحجار والسحالى ، والذباب الذى تتغذى عليه تلك السحالى . والله وحده يعلم كيف يتغذى الذباب ، فثمة بعض الذباب دوماً فوق أبعد الذرى .

سوف يتسنى لى أن أجوب شرقاً خلال مائتى ميل من تلك الجبال — فى صحراء النوبة — فأصل إلى شواطئ البحر الأحمر اللفيتة حيث توجد الشعب المرجانية[4]، وبعض المدن الصغيرة المنعزلة ، وحيث رجال يتلدون فى إصلاح قواربهم ، ذات المقدمات الدقيقة والمؤخرات العالية على مقربة من الأمواج الدافئة التى أبحرت عليها فيما مضى سفن الفراعنة ذات الشراع المربع الشكل متجهة نحو بلاد بونت[5]. هذه الأرض المقفرة التى تبلغ مائتى ميل

---

(١) Stonehenge هو أثر من آثار الإنسان القديم يتكون من كتل حجرية ضخمة مقامة فى شكل دائرى وترجع إلى حوالى ٢٠٠٠ ق. م (عصر النحاس ونهاية العصر الحجرى) والمفروض أنه أقيم لدفن العظماء فى ذلك العصر Ancient Times by Breasted, p. 42

(٢) لون بنفسجى زاه .

(٣) تراب الحديد .

(٤) الشواطئ التى تتكون من الصخور المرجانية "reefs" .

(٥) الصومال الحالية غالباً .

تتعطش للمياه فى وقتنا الحاضر ؛ ومع ذلك فإن بعض الأمطار النادرة التى تسقط فوق هذه الجبال ـ جبال الأحلام ـ تكفى لكى ترطب غوراً هنا أو وادياً هناك ، وأن تملأ بعض البرك فى أماكن مجهولة أسفل الكهوف ، لا يعثر عليها سوى أولئك الذين يعرفون مواطنها .

وهكذا قد أصادف أخدوداً تنمو على جوانبه نباتات الميموزة ، وقد يكون هناك قليل من أشجار النخيل تكفى لكى تنمو فى ظلها بعض الأعشاب الرقيقة الفصلية ، وهكذا يمكن أن تبدو لناظرى على حين فجأة غزالة صغيرة فى هذا المكان الموحش فتنتابنى الدهشة ، ثم أبتئس ثانياً حين تولى الأدبار .

وقد أصادف بعد قليل فى ذاك الوادى ، رجلا يرعى عنزاته ـ التى لا تزيد على العشرين على الأكثر ـ إذ أن تلك الواحة سريعة الزوال ولا يمكن أن تحتمل أكثر من هذا العدد . وربما يكون أسلافه قد وفدوا منذ أمد وجيز من بلاد العرب ؛ ذلك أن هجرة الناس ما زالت مستمرة هنا ، كما كان الحال فى الأيام الخالية قبل بداية التاريخ ـ أسرة فأسرة ، وقبيلة فقبيلة ، وقطرة فقطرة ، يهيمون على وجوههم حسبما تهديهم جادة صوابهم ؛ حيثما تتساقط الأمطار وحيث تنمو الحشائش . وقد يكون من سلالة الجماعة المجهولة الغامضة التى وصلت ، لا ندرى من أين ، حوالى سنة مائتين بعد الميلاد لكى يسودوا رقعة النيل حيناً من الزمن ، ولكى يحيروا لب علماء الآثار حتى يومنا هذا .

ومهما يكن من أمر الأصل الذى انحدر منه ، فسوف يكون رجلى هذا أسمر اللون نحيل القوام ، ذلك أن أصحاب البدانة لا يستطيعون العيش هنا مع الإبقاء على بدانتهم فى الوقت نفسه . سوف يقف مكانه كالصخر الذى حوله حين اقترب منه ، دون أن يحفل بى ودون أن يناصبنى العداء ، ودون أن تبدو عليه دلائل الفضول ، فهو يعرف من يكون الغريب . فى هذا المكان لا يستطيع جمل أن يضل ، أو يذهب صبى فى رحلة ما دون أن يعرف هذا الرجل فأسلاك العنكبوت الممتدة فى هذا المكان الفسيح تبلغ هؤلاء الذين فى

مقدورهم أن يتعرفوا على أحداث الأسبوع من زحزحة بسيطة تجرى فى منحدر من الرمل ، أو من رماد أسود متخلف أو من حجر ينقلب فى مكانه .

وهذا الرجل الذى سوف أقابله فى هذه الأرض القفر سوف يحيينى دون أن تعتريه الدهشة ، وإلا فسيكون ذلك استخفافاً منه بإرادة الله التى شاءت أن تلتقى سبلنا . وهكذا تعتبر معالم الدهشة التى تشيع بيننا فى مثل هذه الحالة من الأخلاق المستهجنة بين سكان الفيافى ، وربما هذا هو السبب الذى من أجله نعتقد أن سكان الصحارى قوم صارمون . والواقع أنهم لا يختلفون عنا فى هذا الشأن ، ولكنه مجرد اختلاف فى طريقة النظر إلى الأحداث . سوف أجلس مع هذا الرجل فى الظل ونتحدث بتؤدة عن بعض الأمور التى تهمنا — مثل جفاف بئر أو ثمن الماعز . أما عن عينيه اللتين جعدتهما الشمس فسأقول فى نفسى : عجيب كيف يتلاءم الإنسان مع بيئته ، ومع ذلك يطور وسائل معيشته فى بطء بالغ إذا لم تضطره الظروف ! هذه القيود المفروضة على صاحبى من قحط وقيظ وعزلة ، هى الحرية ونسيم الحياة بالنسبة له ، ولكنها ظروف تكفى لأن تقتل رجل المدينة . هذا الرجل وسلالته قد عاشوا على هذه الوتيرة منذ آلاف الأجيال ، وأحبوا هذه المعيشة . ولكن لن يكون هناك مزيد من الأجيال ، فجيله يعتبر آخرها . إن العالم الذى كان خاوياً يمتلئ على وجه السرعة ، والسكان يفيضون على الجانبين ، ولذا يرتفع السد العالى ، وسرعان ما يمتلئ هو الآخر . وإذا لم يحول هذه الصحراء إلى جنة حقيقية وارفة الظلال ، فإن يد التطور التى لا تبقى ولا تذر ستمتد إليها لتختطف ما قد يكون فى أعماقها — بل ما هو فى أعماقها فعلا — من فوسفات وذهب ونحاس ورصاص ومعادن نادرة ذات أسماء غريبة ، بقيت مدفونة فى باطن الأرض أمداً طويلا — حتى جاءت البدعة الجديدة — علم الالكترونيات — فوجدت أن لتلك المعادن النادرة نفعاً .

وعلى الضفة الأخرى للنهر ، إذا قدر لى أن أرتقى تلك التلال التى تقل انحداراً عن الأخرى رغم أنها لا تقل عنها جفافاً وجدباً ، لسوف أتعجب من

تلك الأرض القاحلة التى تمتد أمامى – فهناك رحلة يفضل الإنسان أن يقطعها فى الخيال لا فى الواقع – حيث تمتد الصحراء الكبرى التى تتبع منحنى الكوكب الأرضى لمسافة ثلاثة آلاف ميل غرباً إلى ريو دى أورو Rio de Oro حيث تتكسر أمواج المحيط الأطلنطى على شاطئ البوجادور Bojador ولا تجد أمامك طوال هذا الطريق سوى الصحراء . إن الإنسان ليضل حين يفكر فى مثل هذه المساحة الشاسعة من القحط والجدب ، بل هى مفزعة حقاً . أما صحراء النوبة فتعتبر ركناً مرحاً بالنسبة لهذه الصحراء . ولن يتسنى لى أن أقابل رجلا واحداً فى الخمسمائة ميل الأولى ، ذلك إنه ليس ثمة شيء على الإطلاق ما بين نهر النيل والعوينات ، تلك القمة التى ترتفع وحيدة فوق مستوى سطح الصحراء إلى ارتفاع ستة آلاف قدم ، لتخترق السحاب المخيم فوقها . قد تصادف هناك رجلا فى واحة العوينات يسقى عنزاته فى حوض فى قلب الجبل . ولكن من المحتمل كذلك ألا تصادف إنساناً على الإطلاق .

وإذا اتجهت نحو الغرب مرة ثانية عبر الأحجار ، تجد أماكن هى مجرد أسماء على الخريطة ، ليست هناك طرق مؤدية إليها ، بل يمكنك الوصول إليها عن طريق الجو . وحين تصل إليها تكتشف أنها ليست أماكن مطلقاً ، كما نتوقع من مكان دون اسمه على الخريطة : فلا مساكن ولا حوانيت ولا محطات بنزين . وسوف تصل إلى سارا Sarra التى تبعد مائتى ميل عن العوينات . و « سارا » هذه عبارة عن حفرة من المياه لوثتها حوافر وأقدام الحيوانات التى كانت تستقى هناك منذ ستة أسابيع . وإذا واصلت السير لمسافة خمسمائة ميل أخرى تجد هضبة تبستى Tibesti وهى جزيرة من الجبال وسط محيط من الرمال . هناك تجد الرطوبة والحشائش وتجد أناساً لفترة وجيزة ، ثم بعد ذلك محيط الرمال القاتل مرة أخرى . وتجد بعد مسافة سبعمائة ميل أخرى مرتفعات الحجارة Ahaggar الشامخة ، ومن ثم تؤدى جميع الاتجاهات غرباً إلى حيث تتكسر أمواج البحر على الشاطئ الصحراوى لإفريقية تجاه جزر كناريا .

ولكن الحال لم يكن هكذا على الدوام ، فتلك الصحراء الحارقة وجدت

فى العصور المتأخرة للإنسان . أما فى الأزمان الغابرة جداً فكانت الأشجار الكثيفة تنمو فى بقاع كثيرة . وكثيراً ما تصادف جذوعها بين حين وآخر[1] وكل نسيج فيها قد تحول إلى حجر يحدث صليلا إذا ما داست قدمك عليه ، هذه الغابات نمت قبل أن يوجد الإنسان بأحقاب طوال ، ولكنه وصل إلى هذا المكان ، فى ميعاده الموقوت ، وإنك لتجد آثاره فى أقصى أجزاء هذا المكان السحيق : ممثلة فى رءوس السهام والمدى التى شطفها . هذه الأشياء فى « الجلف الكبير » الذى يمتد فى تلك المساحة الحاوية فى الطريق إلى العوينات ، كما تجدها فى المساحات القفر التى لا تجرؤ على ارتيادها سوى جماعات المكتشفين المزودين بعربات الجيب والمؤونة التى تأتى لهم بطريق الجو .

وعلى كل ، لا بد أن الإنسان القديم قد ذهب إلى كل مكان ، لكى يخلف هذه الآثار ، ولا بد أن تكون الحيوانات التى أصابها بسهامه قد ماتت وانقرضت فى أماكن لا نستطيع الوصول إليها الآن . ولقد تحولت عظامها إلى مسحوق ذرته الرياح فى تلك العصور المظلمة قبل أن يحتاج الإنسان إلى الكتابة ، وأما أحجار الظران التى دق صنعها فلعلها وقعت فى طريق حملاتنا لكى نلتقطها ونعجب لهؤلاء الراقدين فى مكان سحيق .

وإذا كان الإنسان والحيوان قد تجول فى أماكن نخشى أن تطأها قدمه اليوم ، فلا بد أن الحشائش والمياه كانت متوفرة فى تلك الأماكن فيما مضى . وربما — كما يدل على ذلك تاريخ حياة الإنسان — لم يمر وقت طويل جداً على الزمن الذى كانت فيه هذه الصحراء أرضاً خضراء صالحة للسكنى مثل السهول الغربية التى كان يمرح فيها الهنود الحمر . وفى الوقت الذى كانت تقام فيه

---

(١) كانت مصر فى العصر الجيولوجى السابق للعصر التاريخى أغزر مطراً وأوفر نباتاً مما هى عليه الآن ، مما ساعد الإنسان على الحياة والنشاط فى مناطق أضحت اليوم صحراوات قاحلة . وهناك أدلة كثيرة تثبت وجود ذلك العصر المطير مثل كثرة الوديان الجافة التى تخترق الصحراء ، وبعض بقايا نباتات وحيوانات لا تسمح الأحوال المناخية الحالية بوجودها ، بل لقد رسم الإنسان القديم بعض تلك الحيوانات على الصخور فيما يعرف بالرسوم والنقوش الصخرية . (المراجع)

أحجار ستونهنج[1] فى إنجلترا ، ربما كانت هناك بقاع زراعية شاسعة فى الصحراء ، كما كانت هناك حيوانات كثيرة ، وأناس يعيشون على الصيد . ومن الواضح لنا جميعاً أن الفراعنة أنفسهم كانوا يعتبرون الصيد رياضة الملوك ، وحيث إنهم كانوا يطاردون الأسد والغزال فلا بد أنهم كانوا يذهبون للصيد فى بقعة ما من هذا المكان الذى أصبح الآن صحراء مقفرة ، على الرغم من أن هذه البقعة ربما كانت قريبة من النهر .

ومرت القرون وتناقصت الأمطار بكميات غير محسوسة سنة بعد أخرى ، وربما كانت ماثلة بأذهان العجائز من الناس ؛ وعلى كل فإن الناس لا يجرؤون على الابتعاد كثيراً عن مصادر المياه المعروفة ، بل يضطرون للتجمع فى الواحات التى تنكمش شيئاً فشيئاً ، أو للانتقال إلى جانب النهر . وهكذا خلال عشرة آلاف سنة أو نحو ذلك لم يبق شىء من الأرض الطيبة — اللهم سوى هذا الخضم من الرمال والحجارة ، بواحاته المتخلفة الطافية كالأرماث[2] تتقاذفها الأمواج عقب وقوع الكارثة . وليس ثمة شىء الآن سوى الصحراء والنهر الأسمر يتهادى عبرها .

وكل هذا يعنى تغيراً جذرياً فى طريقة الحياة . وجاء هذاالتغير بالتدريج كلما يبست الأرض الخضراء ، وأصبح لزاماً على الإنسان أن يعيش بجوار النهر ، يتعلم بالمحاولة والخطأ ، وبالارتجال ، ولكنه لم يعرف قط خطة السنوات الخمس ، ذلك أن الإنسان لم يدرك ما كان يحدث له . وسرعان ما جف الوادى ، واضطر الإنسان ، راضياً أوكارهاً ، إلى أن يستأنس حيواناته ، ويحصد غلته ؛ ثم أخذ يقيم المعابد للآلهة ، ويتجمع فى المدن التجارية حيث يشترى ويبيع ؛ والواقع أنه أصبح متمديناً بالمعنى الذى نتعارف عليه عادة .

ولذا فإننا قد نشعر بصلة القرابة بيننا وبين الصحراء ، إذ أن مستوى المعيشة المادى المرتفع الذى نتمتع به الآن يرجع فى البداية إلى هذا المكان

---

(١) راجع ما ذكر فى هامش ص ٨

(٢) الأخشاب المشدودة يعبر بها الماء طفواً .

كما يرجع إليه بعض مستوانا الروحى كذلك ، وإن كان من العسير أن نعرف الحقيقة .

وارتد ذهنى بعد جولته فى هذه المتاهة إلى المهندس الذى كان يهز رأسه مكرراً قوله : « يا له من شعب مسكين ، ماذاق وسعهم أن يعملوافى أرض لا يزيد عرضها على مائتى ياردة ؟ »

وكان فى قوله بعض المبالغة بالطبع : حقيقة إن فى بعض الأماكن لا توجد أرض خضراء مطلقاً ، بل تتكون من صخور ممتدة حتى النهر ، بيد إن فى بعض الأماكن الأخرى توجد حقول قد تمتد إلى أربعة أميال قبل أن يخطو الإنسان خطوة واحدة نحو الجدب . وعلى كل ، فماذا يفعل الناس حينما لا يزيد اتساع أرضهم ، فى أكثر الأماكن اتساعاً ، على أربعة أميال ؟ لا شك أنهم يهاجرون منها . ولذا فإن بلاد النوبة المصرية هى أرض العجائز فحسب . أما الشبان فيذهبون شمالا مع النهر لكى يجدوا لهم عملا فى المـــدن المصرية . ويعمل الكثيرون منهم خدماًفى المنازل ، إذ أنهم قوم يمتازون بالنظافة وغالباً ما يضطرون إلى ترك عائلاتهم فى قراهم ، وإنى لأذكر النوبى المسن الذى كنت أتنقل بقاربه فى القاهرة ، وهو يقول لى ليلة أن كان مسافراً فى إجازة إلى بلد النوبة عقب غيبة دامت أربع سنوات عن زوجته ، « لكم تبلغ سعادتى حين أرى ولدى الذى لم أره مطلقاً حتى الآن » .

وقمت بزيارة صديق آخر مسن فى النوبة . وكان يقطن قرية صغيرة تتكون من منازل مطلية باللون الأبيض ومقامة على أفاريز وكأنها صناديق أحذية مرصوصة فوق الرفوف ، ولها مآذن تشبه ماعون الفلفل . وقد هرع عدد قليل من الأطفال ذوى الوجوه السود اللامعة ، وأسنانهم البيضاء تفتر عن ابتسامة حائرة، جاءوا لينظروا إلى الغريب القادم نحوهم . وظل شيوخ القرية جالسين داخل بناء منخفض مستطيل من الطين ومطلى بالجير ، حيث يجلسون طيلة النهار ليراقبوا ما يجرى حولهم . ونهض كبيرهم حينما أقبلت ورحب بى

بأن قدم لى قدحاً من الشاى الأسود القاتم الذى بدا وكأنه يغلى منذ أول أمس . ثم هب على حين فجأة رجل قصير عجوز قائلا : « يا سلام ! ولكننى أعرف هذا الأجنبى ! وقد كان ذلك منذ سنوات عديدة ! » .

فقلت ممسكاً بيده الصغيرة المعروقة التى أحسنت خدمتى فيما مضى : « نعم ، يا دهب ، إنك تعرفنى ، ولم تغب عن ذاكرتى قط طيلة هذه المدة » . ولم يكن فى مقدورى أن أنسى . . « دهب خليل محمود » ، الذى كان يعمل طاهياً وخادماً لى فى البيت العائم الذى اتخذته مقراً لى فى القاهرة . ولم يكن هناك طاه أكثر براعة واقتصاداً ، ولا خادم أكثر تفانياً ورعاية لمصالح سيده من « دهب » . كان فى استطاعتى أن أترك له كل حافظة نقودى لكى يذهب لابتياع أشيائى وكلى ثقة بأن قرشاً واحداً لن يضيع منها فى غير محله ، وكان فى إمكانى أن أعود إلى البيت العائم وأنا على ثقة بأن فى انتظارى غذاء شهياً وبيتاً نظيفاً . ومع ذلك كنت أشعر بشىء من القلق بشأن « دهب » ؛ كان يقلق بالى أن أرى إنساناً يتفانى فى خدمة غيره دون أن يكون له كيان خاص به ، ذلك أنه كان رجلا صامتاً ، منطوياً على نفسه ؛ وإذا ما شرعت فى سؤاله عن نفسه شكرنى بابتسامة عذبة حيية قائلا إنه سعيد بخدمتى . واستنتجت آخر الأمر أنه لا يملك شيئاً يقصه على ؛ وليس له فى الواقع تاريخ شخصى على الإطلاق . كانت حياته تنحصر فى النهوض مبكراً وفى قضاء يومه قائماً على قضاء شئونى ، ولا ينام إلا حين آوى إلى فراشى ، مهما سهر ضيوف إلى ساعة متأخرة من الليل ، ومهما كررت إليه الأمر بأن يذهب إلى فراشه .

وفى يوم من الأيام ، بعد أن أبدى كثيراً من التردد وبعد مقدمات عديدة زائفة ، سألنى إذا كان من الممكن أن يحضر صبياً لمعاونته فى العمل ، وقال لى إن ذلك لن يكلفنى شيئاً . وكم كانت دهشتى حين تبينت أن الغلام ابنه ، وهو صبى مليح فى التاسعة من عمره . وقد ألحقه دهب بإحدى المدارس فى القاهرة ، إذ لم تكن ثمة مدارس فى القرية ، كما كان يريد أن يعمل الصبى فى البيت العائم فى أثناء الإجازات حتى يظل مشغولا .

وبعد ذلك بعامين جاء «دهب» وأعطانى إنذاراً بأنه سيترك العمل، فسألته : « ألست سعيداً معى » فأجابنى قائلا : « لقد كنت سيادتكم بالغ العطف على ، ولكننى لا أود أن ينشأ ابنى خادماً مثلى . لقد وفرت ما يكفى لأن أفتح متجراً فى القرية ، وسوف يمكث ولدى هنا مع بعض الأصدقاء وسأرسل إليه نقوداً لكى يتم تعليمه » .

ولم أر «دهب» منذ ذلك الوقت حتى هذا اليوم . وسألته : « أو حصلت على ذلك المتجر ؟ » فأرانى حينئذ متجره الصغير . كان يحتوى على أقماع من السكر الأحمر وغيرها من الأشياء التى تباع فى الريف ، كما كانت هناك علب محفوظة ، وأنواع معروفة من الصابون ، والأدوية إلى جانب الأسبرين . ثم سألته : « وكيف حال ابنك ؟ » فأجابنى قائلا : إنه يعمل مهندساً ، مهندساً فى غاية الأهمية ، ذلك أنه يعمل فى السد العالى » .

— ٢ —

فى صبيحة ذلك اليوم غادرت الباخرة التى تقلنا « أسوان » وأسرعت بنا إلى شمال سد أسوان وهى تشق طريقها بين جلاميد الجرانيت اللامعة التى كانت تتلألأ كأنها فيلة تستحم فى الجندل العتيق . وكان علماء الآثار يرافقوننا يفسرون هنا وهناك النقوش المدونة على الصخور والتى سجل بها ملوك الفراعنة ونوابهم الطريق الذى سلكته جيوشهم أو سفنهم التجارية — وهى أول سجلات فى سفر التاريخ تصدت للفح الشمس والرمال التى تذروها الرياح أربعين قرناً من الزمان .

وتعتبر أسوان الحدود الطبيعية لمصر ، وقد استطاع المصريون بمجهوداتهم المتواصلة أن يعدوا حدودهم ويتوغلوا جهة الجنوب ؛ ولم يقوموا بهذا العمل إلا لكى يحصلوا على المزايا التى تعود عليهم من التجارة أو الإغارة على الأماكن المجاورة لقلب إفريقية المجهولة . وكان النيل بالنسبة لهم ، كما هو بالنسبة لنا ،

صالحاً للملاحة من البحر المتوسط حتى أسوان . وهى مسافة تبلغ حوالى ثمانمائة ميل . وكان يعتبر طريقهم الرئيسى . ولكن مشاق النقل تبدأ بعد أسوان ، ذلك أن النهر يخترق حاجزاً من الجرانيت فى هذا المكان ، فنجم عن ذلك الجندل الأول . وكان فى مقدور الناس أن يمرروا السفن عبر هذا الجندل بعد أن يجروها مسافة ما . ولكن بعد حوالى مائتى ميل جنوباً ، يبدأ حاجز أقوى من الأول يعرف باسم الجندل الثانى عند موقع وادى حلفا الحالى ؛ وبعد ذلك يصبح النهر صالحاً للملاحة فى أجزاء صغيرة منه بين الجنادل الباقية ؛ والواقع أن الطريق جنوب وادى حلفا سيئ جداً ، ولم يدفع قدماء المصريون إلى إنشاء نظام دقيق من القلاع ومراكز التجارة حتى الجندل الرابع — وسنتعرض له فيما بعد — سوى الرغبة الجامحة فى الحصول على الذهب ، والعبيد ، والعاج والأبنوس ، والأخشاب ذات الرائحة الذكية التى توجد فى إفريقية المظلمة .

بلاد النوبة ، إذن ، هى تلك البقعة الوعرة من النيل التى تبدأ عند شلال أسوان وتنتهى جنوباً عند نقطة غير محدودة قبل الخرطوم . وهى ليست قسماً سياسياً ، ولذا يعتبر الاسم غير رسمى ، كما يتحدث الإنسان عموماً عن الكوتسولد Cotswold فى بريطانيا أو عن (أقصى الجنوب) فى الولايات المتحدة . وهكذا يقع جزء من بلاد النوبة فى مصر ، بينما يقع الجزء الباقى منها فى السودان ، حيث إن الحدود الرسمية فى الوقت الحاضر تقع بالقرب من وادى حلفا[1] . ومما يزيد الأمور تعقيداً أن اليونانيين كانوا يطلقون على الجزء الواقع جنوبى أسوان ، بما فى ذلك ليبيا والهند ، اسم أثيوبيا . وكانت النتيجة أن علماء الآثار المصرية الأوائل أطلقوا على غزاة الوافدين من الجنوب اسم « الأسرة الأثيوبية » ، وكان هؤلاء فى الواقع هم ملوك كوش ، كما سنرى

---

(١) يمكن تقسيم بلاد النوبة إلى قسمين رئيسين : النوبة السودانية أو العليا وتمتد داخل حدود الجمهورية السودانية والنوبة المصرية أو السفلى ، وتمتد من الحدود السودانية حتى أسوان . وتكون بلاد النوبة بقسميها وحدة جغرافية متميزة يسكنها شعب متماثل جنسياً وثقافياً واجتماعياً .

(المراجع)

فيما بعد . وكان أولئك اليونانيون يطلقون اسم الأثيوبيين (أى ذوى الوجوه المحروقة) على الشعوب ذات البشرة السوداء التى كانت تقطن الأصقاع الجنوبية ، وانتهى الأمر بأن أطلق هذا التعبير على البلاد التى كانت تقيم فيها الشعوب السوداء ، الأمر الذى لا يثير دهشة كبيرة ، إذ لم يكن يعرف من أمر هذه المنطقة سوى النزر القليل . ولذلك فمن الأفضل أن ننسى كلمة أثيوبيا ، فيما عدا أنها تستخدم للدلالة على الاسم الحديث للحبشة ، وعلينا أن نذكر بلاد النوبة فحسب ، بلاد كوش القديمة ، ذلك الطريق الرئيسى بين مصر بلاد الفراعنة وبين إفريقية المظلمة الغامضة التى ظلت سراً مغلقاً حتى وقتنا الحاضر .

والسفن فى هذه الأيام لا تجذب أو تدفع عبر الجندل الأول . وقد رفعت سفينتنا فى هدوء وثبات خلال خمسة الأهوسة التى وصلت بها إلى أربعمائةقدم فوق سطح البحر ، إلى مستوى سطح الخزان الذى يحده سد أسوان الحالى وقد خفف كثيراً من دهشتى لهذه المناورة ، صديقى المهندس الذى أخبرنى أن السد العالى سوف يبلغ ارتفاعه حوالى ستمائة قدم فوق سطح البحر . وحينما نظرت إلى بقعة فى الفضاء ، حيث تخيلت أربعة آلاف وستمائة مليون مليون قدم مكعب من الماء تشرف من عليائها على مصر ، دار رأسى .

وتذكرت وصف سترابو لهذا المكان،وقد جاء هذا العالم الجغرافى اليونانى المجتهد إلى هذا المكان مع صديق له هو « ايليوس جاللوس » Aelius Gallus أحد الولاة الرومان ، سنة ٢٥ ق . م ، وقام النوتية ببعض الاستعراضات إكراماً لهما :

« يقع الشلال فى وسط النهر ، وهو عبارة عن بروز من الصخر قمته منبسطة حيث يستقبل النهر ، ولكنه ينتهى بمنحدر تندفع من فوقه المياه ؛ بينما يوجد على كل من الجانبين المواجهين للبر مجرى يمكن الملاحة فيه بوجه عام ، حتى ضد التيار . وعلى هذا بعد أن أبحر النوتية جنوباً فى هذا المجرى ثم

اندفعوا إلى الشلال ، قذفت المياه بهم وبالقارب من فوق المنحدر ، ونجوا هم وقاربهم دون أن يمسهم أذى » .

وربما كان هذا العرض السار مبعث تسلية لكبار ضباط فرعون ، مدى ألفي عام ، قبل أن يلقى سترابو « بالبقشيش » للنوتية ، ولست أشك فى أن هذا العرض قد استمر حتى بناء خزان أسوان الأصلى سنة ١٩٠٢ ووضع حداً لمثل هذا العرض البارع ، ذلك لأن عدداً كبيراً من السائحين الذين وفدوا فى القرن الماضى قد تركوا وصفاً لصعودهم ونزولهم عبر هذا الشلال ، ومن بين هؤلاء كانت « أمليـــا ادواردز » Amelia Edwards وهى عانس إنجليزية كانت تمتاز بقوة الملاحظة وعلى قسط كبير من التعليم وتوقد الذهن وقد مرت بهذه المنطقة سنة ١٨٧٤ . وكان الشلال يمتد فى تلك الأيام عبر موقع الســـد الحالى حتى جزيرة فيلة ، وكانت القوارب تدفع عبر تلك البقعة التى أطلقت عليها « هذا الأرخبيل الخيالى » ويقوم بذلك بعض النوبيين الأشداء تحت إمرة شيخ الشلال الذى كانت القوارب كلها تحت رحمته . وقد أتيح لأولئك الذين عبروا الشلال بالاندفاع مع التيار (قبل سنة ١٩٠٢) فرصة مثيرة لم تتح لنا نحن الذين قمنا بهذا العبور بشكل ميسر عن طريق « الأهوسة » ، وتقول أمليا إن كل شيء على ظهر الباخرة كان يعد كما لو كانت الباخرة تستعد لمواجهة عاصفة فى البحر . ثم يأخذ المجدفون ، بحيث يمسك كل اثنين بمجداف ، فى قيادة السفينة حتى يصلوا بها إلى الباب الكبير ، وهو مضيق طويل يقع بين جدارين من الصخر حيث تتدفق كمية كبيرة مرتدة من المياه من فوق منحدر وعر محدثة هديراً عالياً ، وتقول « أمليا » فى هذا الصدد : « لقد رأينا السفينة كلها تنحدر بجسمها من تحت أقدامنا ، وشعرنا بالقفزة — أو السقطة التامة — ثم بترنح السفينة وهى تندفع إلى الأمام » . وأرغى الماء وأزبد فوق سطح السفينة السفلى ثم وضع الرجال مجاديفهم فى أماكنها فى السفينة ، تاركين الأمر كله للدفة وللتيار . وعند نهاية المضيق يوجد منعطف ضيق على اليمين كأى شارع ضيق فى لندن ، ومع هذا استطاع الشيخ البارع

أن يدير (الدهبية) التي كان يبلغ طولها مائة قدم حول هذا المنعطف في اللحظة المناسبة تماماً . وكان الباب الكبير ممراً صعباً للغاية بحيث أبدت « أمليا » شكها في أن يستطيع أي ملاحين إنجليز أن يقودوا مثل هذه السفينة من فوق مثل هذا المنحدر . ويعتبر هذا القول شيئاً كثيراً بالنسبة لسيدة عاشت في العصر الفكتوري في وقت كان فيه الإنجليزي يساوي عشرة من الأجانب ، وبخاصة السود .

وتعتبر « أمليا ب . ادواردز » من أولئك الكتاب الذين كانوا يعدون السفر إلى بلاد النوبة في القرن الغابر متعة حقيقية ، حتى ولو كان الإنسان يذهب هناك لاستعادة صورة هذه البلاد إبان العصور الفرعونية والرومانية وأوائل العصر المسيحي ؛ كما يعتبر الاطلاع على هذه البلاد كما كانت منذ قرن أو نحو ذلك جسراً آخر يربط الماضي السحيق بالحاضر القريب ، إلى جانب أنه يكشف عن خباياه كشفاً مبيناً . وغالباً ما نجد الفروق بين الماضي – حتى الماضي القريب – وبين الوقت الحاضر فروقاً مثيرة للدهشة .

ولدت أمليا سنة ١٨٣١ ، ووفدت إلى مصر في تلك الأيام التي كان فيها الأغنياء يتمتعون بثراء عريض والفقراء فقراء حقاً ، لأن ذلك من إرادة الله ، ولم تكن أمليا من الأغنياء المتعجرفين ، بل كانت تعامل من هم في خدمتها من النوبيين بكل عطف واحترام ، إلى جانب أنها كانت تحبهم . بيد إنها كانت من سعة العيش بحيث تستطيع أن تنتقل في يسر وراحة ، فاستأجرت (دهبية)،وهي إحدى هذه اليخوت النهرية الأنيقة التي لم يبق منها الآن سوى ثلاثة أو أربعة مزودة بآلة ديزل ، كما كان يمكن جرها .

كانت أمليا قد نشرت عدة قصص قبل أن تحضر إلى مصر ، وكانت زيارتها هذه بمحض الصدفة،ذلك أن الجو كان ممطراً في إيطاليا،ولكنها كانت تبحث عن شمس الشتاء الدافئة، ولذا اتجهت جنوباً؛وكانت النتيجة أن أثارت فيها مصر القديمة اهتماماً لازمها طوال حياتها،ثم نشرت كتاباً بعنوان « ألف ميل إلى أعالي النيل » A Thousand Miles up the Nile لا يزال حجة،يحترمه

علماء الآثار المصرية ، كما أسست « صندوق التنقيب عن الآثار المصرية » سنة ١٨٨٢ . وكانت أول سكرتيرة لتلك الهيئة التي لا تزال موجودة تحت اسم « جمعية الكشف عن الآثار المصرية » . وتجرى هذه الجمعية حفرياتها الآن في بوهن في ذلك الجزء من النوبة الواقع في الأراضي السودانية ، تحت إشراف الأستاذ « ولتر ب . امرى » Walter B. Emery استجابة للنداء العالمي الخاص بإنقاذ آثار النوبة من البحيرة الجديدة التي ستكون نتيجة لبناء السد العالي . وحينما توفيت أمليا إدواردز عام ١٨٩٢ وهبت مكتبتها ومجموعاتها ومبلغ ٢٤٠٠ جنيه استرليني لإنشاء كرسي لعلم الآثار المصرية في جامعة لندن وقد عين الأستاذ « فلندرز بترى » Flinders Petrie أول أستاذ لهذا العلم ، بناء على رغبتها ، وقد ظل شاغلا لهذا المنصب مدة أربعين عاماً حتى وفاته سنة ١٩٣٣ .

ولا يستغرق السفر بالباخرة من خزان أسوان إلى جزيرة فيلة المقدسة أكثر من بضع دقائق . وعلى كل ، حينما مرت سفينتنا بهذا المكان لم تكن هناك جزيرة ما ، ذلك أن المياه كانت تغمر معظم « فيلة » كل عام منذ أول تعلية لسد أسوان سنة ١٩٠٧ . وكانت النية متجهة أصلا إلى بناء السد إلى مثل هذا الارتفاع ، ولكن صرخة الاحتجاج التي صدرت من علماء الآثار المصرية ومن العاطفين كانت عالية بحيث حددت ارتفاع السد الذي تم سنة ١٩٠٢ لكي يحجز اثنتين وسبعين قدماً من المياه بدلا من مائة قدم تقريباً ، مما جعل ونستن تشرشل يعلق بأسلوبه اللاذع : « هذا القربان البالغ ١٥٠٠ مليون قدم مكعب من المياه ، التي يقدمها حكماء الغرب لحتحور هي أقسى وأضل تضحية قدمت على مذبح دين زائف . إن الدولة يجب أن تصارع والشعب ينبغي عليه أن يتضور جوعاً لكي يبتهج بعض الأساتذة ، وحتى يمكن أن يجد السائحون مكاناً يحفرون عليه أسماءهم » .

وقد يكون من بوادر هذا العصر الهامة ومما يبشر بالخير أن ما من عالم قد ندت عنه صرخة احتجاج عندما قدم اقتراح بناء السد العالي الجديد ، على

الرغم من أن آثاراً كثيرة أقدم وأعظم من جزيرة فيلة مهددة بالفناء . ولذا أود أن أصدق أن هذه الظاهرة تعنى اتخاذ موقف أكثر واقعية ، بل أكثر إنسانية عن ذى قبل . وكل ما فعله الأساتذة وهؤلاء الذين يشاركونهم وجدانهم هو أنهم أخذوا يفكرون فى الوسائل الكفيلة بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الآثار ، وأن يسجلوا ما لا يمكن أن ينقل من مكانه ، وأن يتأكدوا من أنهم لن يتركوا موقعاً هاماً دون تنقيب قبل أن تغرق مياه البحيرة الجديدة بلاد النوبة السفلى ٥ وقد بدا شىء من هذا الاتجاه الواقعى فى ملاحظة أبداها الأستاذ امرى فى سياق تعليقه على أول تعلية للسد سنة ١٩٠٧ وذلك فى كتابه « كنوز النوبة » Nubian Treasure : « وقد أفزعت التعلية كثيراً من علماء الآثار المصرية ، ولكن القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية قد عوض الخسارة تعويضاً كافياً ، ذلك القرار الذى يقضى بإرسال حملة لتسجيل الآثار والبحث عنها فى كل المواقع القديمة فى المنطقة المهددة بالغرق » . وكانت النتيجة أن أجريت أول عملية مسح أثرى منظمة لم يجر مثلها فى مصر من قبل . ولقد توافر على هذا العمل الدكتور « جورج ريزنر » Dr. George Reisner ثم « سيسل م . فيرث » Cecil B. Firth فيما بعد . برغم أنهما لم يقوما باكتشافات مثيرة إلا أنهما ، على حد تعبير أمرى ، « قد وضعا أساساً سليماً لمعلوماتنا عن بلاد النوبة القديمة » .

وعند أمرى الخبر اليقين ، فقد كلف بمهمة القيام بعملية المسح المنظمة الثانية حينما تقررت تعلية السد للمرة الثانية سنة ١٩٢٩ . وكانت المنطقة التى ستغمرها المياه نتيجة لهذه التعلية تصل إلى « أدندان » على حدود السودان مباشرة . وكان « أمرى » وفريقه أحسن حظاً فى عملية المسح هذه ممن سبقوهم فى العملية السابقة : ففى الثالث من نوفمبر سنة ١٩٣١ ، فى أواخر المدة التى تنتهى فيها عملية المسح ، وفى أطراف حدود الأراضى المسموح لهم بتنقيبها ، عثروا على جثث ملوك مدفونة لشعب لم يعرف كنهه على وجه الدقة حتى الآن . ويعتبر هذا أعظم اكتشاف تم لعدة سنوات ، وكان ذلك فى « بلانة » التى سنحكى قصتها فيما بعد فى مكانها المناسب .

وفى هذه الأثناء أبحرت سفينتنا عبر جزيرة فيلة المسكينة[1] الغارقة تماماً . ولم يعد يرى شىء من أفنيتها القديمة المشهورة سوى إفريز الجوسق بارزاً على مستوى منخفض فوق المياه كأنه « بزغ »[2] طاف فوق سطح الماء . ولم نتوقف عند ذلك المكان . ولم يكن فى مقدورى أن أنظر إلى جزيرة فيلة إلا من خلال عينى « أمليا » ، كما رأتها فى عصرها الذهبى :

« . . . الشلال ، النهر ، الصحراء ، والجبال المحيطة بها . تلك الجزيرة المقدسة رائعة بكل ثروتها من النحت ، والرسم ، والتاريخ ، والشعر ، والتقاليد — ترقد وسط كل هذا . وتبدو الجزيرة بنخيلها ، وأبهائها وأعمدتها ، وصروحها ، وكأنها سراب يرتفع من النهر ،وهذه الأبراج المنحوتة لا تظهر عليها بادرة من خراب أو تقادم عهد » . ثم تضيف قولها : « إن الألوان المطلية بها تلك الرسوم البارزة فى مدخلها تبدو وكأنها تحتفظ برونقها فى أول يوم طليت فيه . وكل ما فيها يبدو صلداً ، فخماً ، دقيق الصنع . وهى من أجمل المناظر المشهورة فى العالم ، وإنها لجديرة بشهرتها » .

لقد أقسم المصريون « بذلك الذى يرقد فى جزيرة فيلة » قسماً مغلظاً فى الأيام الغابرة ، إذ اشتهرت الجزيرة بأنها تضم رفات أوزيريس ، ومن هنا جاءت شهرتها بأنها جزيرة مقدسة . ولكن يبدو أن هذه الشهرة كانت تزداد

---

(١) تقع جزيرة فيلة عند الطرف الشمالى للجندل الأول على بعد أربعة كيلومترات إلى الجنوب من خزان أسوان ، وتتميز بمعابدها الرائعة التى سميت فى العصر العربى « قصر أنس الوجود » ، بعد ربطها بقصة من قصص ألف ليلة وليلة . وقد أضحت هذه الجزيرة مقراً لعبادة الآلهة ايزيس التى ظل تقديسها قائماً حتى بعد دخول المسيحية مصر . ويرجع معظم مبانيها إلى العصر اليونانى الرومانى ، ومن أهمها معبد ايزيس ، والجوسق الذى أقامه الإمبراطور الرومانى تراجان إلى الشرق منه .

وتمتاز جزيرة فيلة بأعمدتها البديعة وصروحها الضخمة ونقوشها الجميلة ونصوصها الدينية الهامة . وتغطى مياه خزان أسوان هذه الجزيرة طوال أيام السنة فيما عدا شهرى يوليه وأغسطس . أما بعد إنشاء السد العالى ، والذى سوف لا تتأثر الجزيرة بمياه تخزينه — لأنها تقع خارج نطاقه — فينخفض مستوى مياه التخزين فى خزان أسوان مما سيؤدى إلى تغطية جزء محدود من جدران معابدها بالمياه من وقت لآخر . (المراجع)

(٢) سفينة كبيرة مسطحة القاع لنقل البضائع وهى ترجمة كلمة "barge" .

كلما اضمحلت شهرة « أبيدوس » . وكانت أبيدوس – التى تقع فى مصر[1] – تعرف منذ فجر التاريخ بأنها مقبرة الإله ، ولذلك كانت موضع تقديس بالغ . ولسنا ندرى متى وكيف تم نقل هذه المقبرة ، ولكن ربما تكون الأزمات السياسية والاقتصادية قد أثرت فى الجانب العملى من أسطورة إيزيس وأوزيريس الدينية ، وقد تكون قد انتقلت هذه العقيدة إلى جزيرة فيلة فى الأزمنة الأخيرة نسبياً ، ومن المحتمل أن يكون قد تم هذا ما بين عصر هيرودوت حوالى سنة ٤٥٠ ق . م الذى لم يذكر جزيرة فيلة وما بين زيارة « سترابو » لها قبل المسيح بربع قرن من الزمان ، فقد ذكر « سترابو » أن أبيدوس قد تضاءلت حينذاك إلى مجرد قرية . ومما لا شك فيه أن جزيرة فيلة قد دخلت التاريخ فى عصر متأخر إذ أن أقدم أثر من آثار الجزيرة هو هيكل « طهارقة » وهو أحد ملوك كوش (الذين أطلق عليهم اسم الأسرة الأثيوبية أى النوبية) الذى توج فرعوناً على مصر فى « تانيس » فى الدلتا[2] حوالى عام ٦٨٩ ق . م . ومن الواضح أن جزيرة فيلة كانت تعتبر قبل هذا الوقت غير ذات أهمية ولذا لم يجر فيها تحصينات تذكر . ومع نمو عبادة إيزيس وأوزوريس هناك قام ملوك البطالمة والرومان الذين كونوا الأسرات المتأخرة ببناء معابد فخمة فى جزيرة فيلة جعلتها قبلة الأنظار ومنحت الكهنة النفوذ والسلطان . وقد يكون لوجود مناجم الذهب فى « وادى العلاق » بالقرب من الجزيرة علاقة بهذه الشهرة . وكانت جزيرة فيلة فى القرن الثالث قبل الميلاد مقراً لمعهد للاهوت كان معقلا لسلطة دينية قوية ، وربما كان أحب كعبة للحجاج فى مصر العليا وبلاد النوبة .

ولا بد أن تكون غرفة أوزيريس موجودة فى مكان ما غير بعيد تحت سطح الماء فقد كانت فوق سطح المعبد ، وكانت أكثر قداسة من جميع

---

(١) مكان العرابة المدفونة الحالية مركز البلينا بمحافظة سوهاج . وقد تخيل المصريون قبر أوزوريس فيها فكانوا يحجون إليها ويطوفون حول قبره التماساً للبركة فى هذه الدنيا .

(٢) صان الحجر الحالية على بحيرة المنزلة بشمال شرق الدلتا . (المراجع)

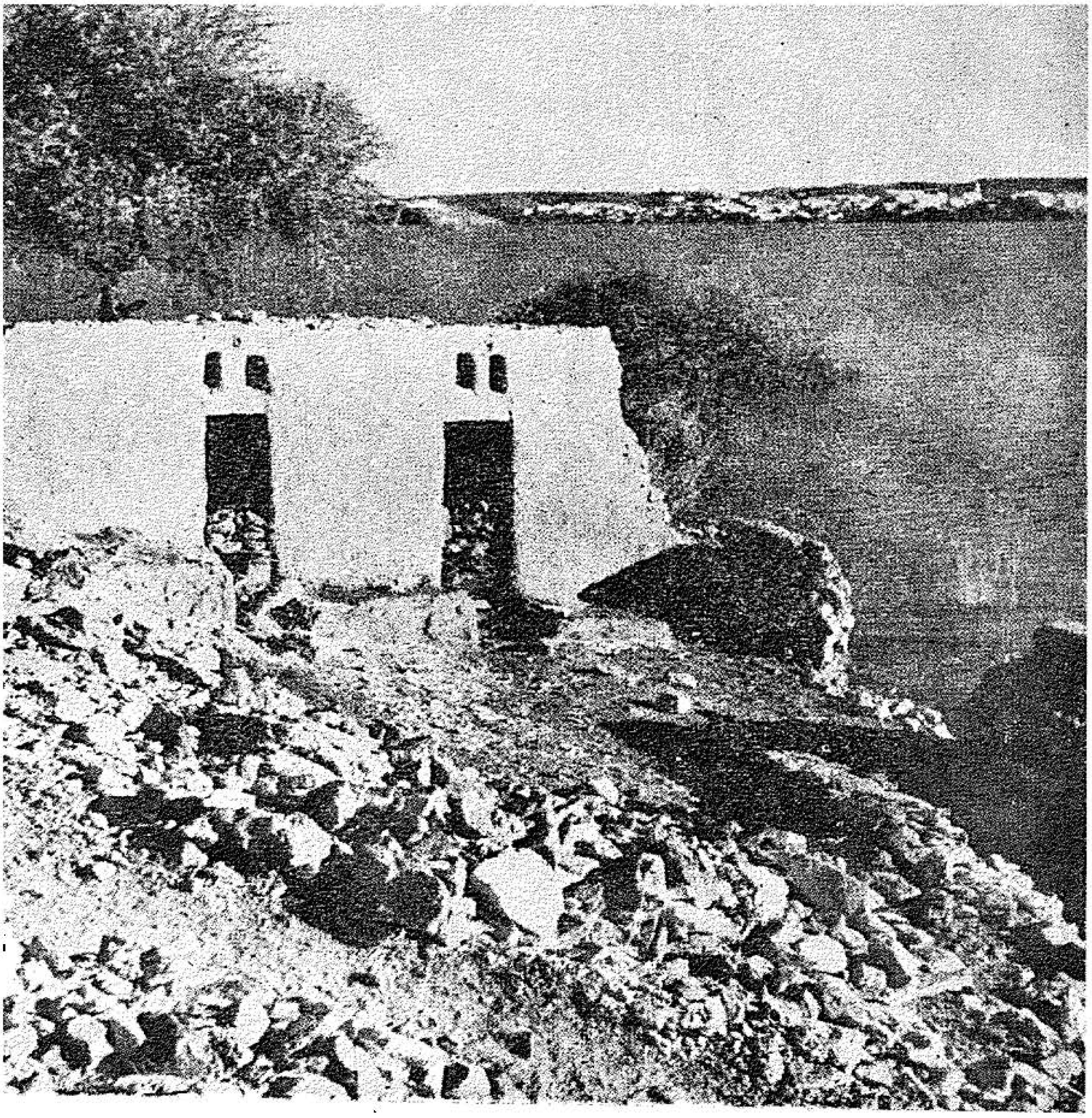

عندما تأخذ مياه التخزين فى الارتفاع فوق بلاد النوبة تكاد تغرق أشجار النخل ، ويهجر الناس المنزل المتاخم لحافة النهر . وعندما يتم تشييد السد العالى سوف تبتلع المياه القرية البعيدة

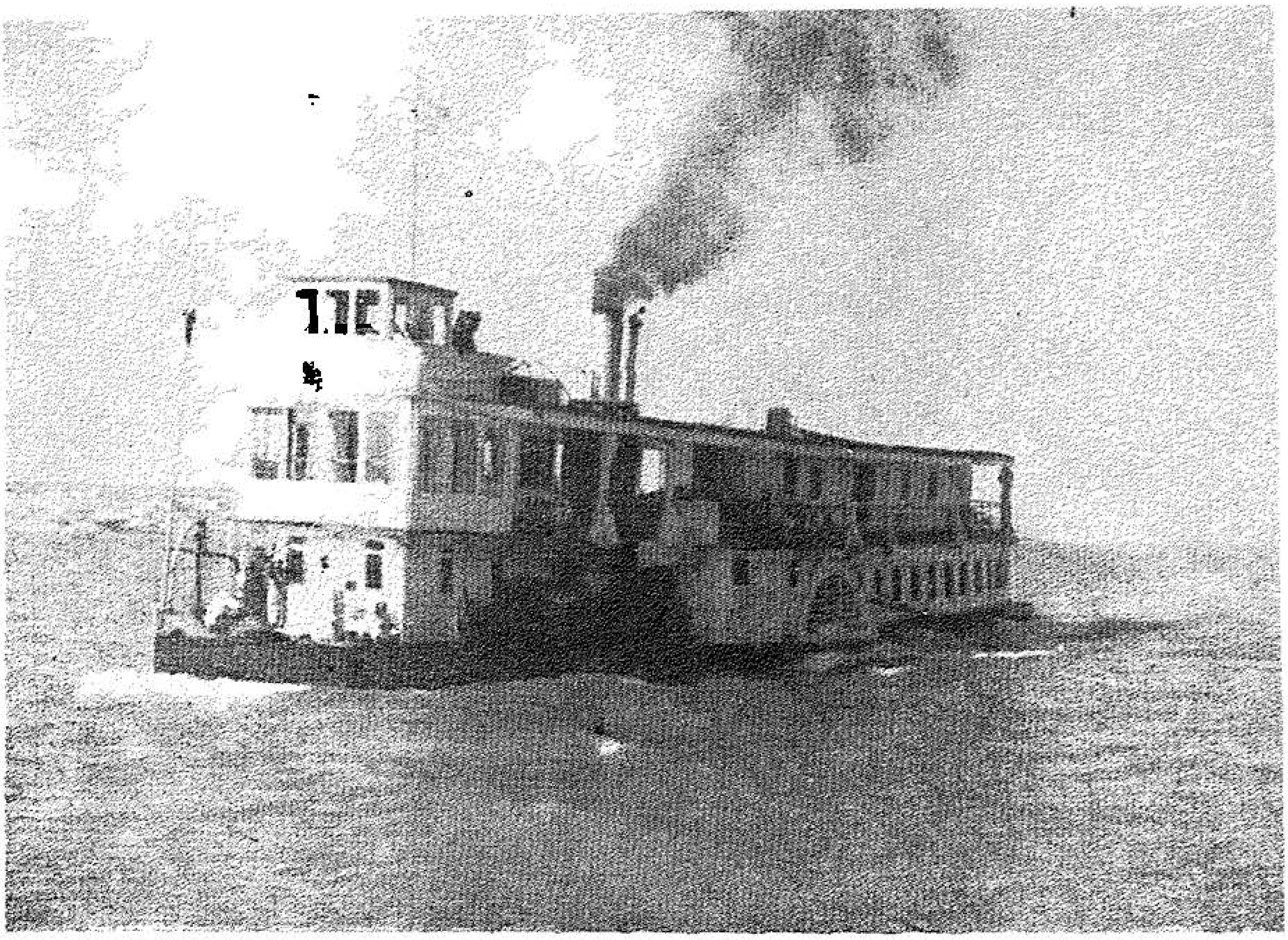

الباخرة ممنون ، متجهة إلى النوبة ، تقل البعثة المشتركة لمعهد
الدراسات الشرقية بشيكاغو ، والمعهـد السويسرى بالقاهرة

شريط كبير من الطلاء الأبيض يحدد موقع جانب من السد العالى

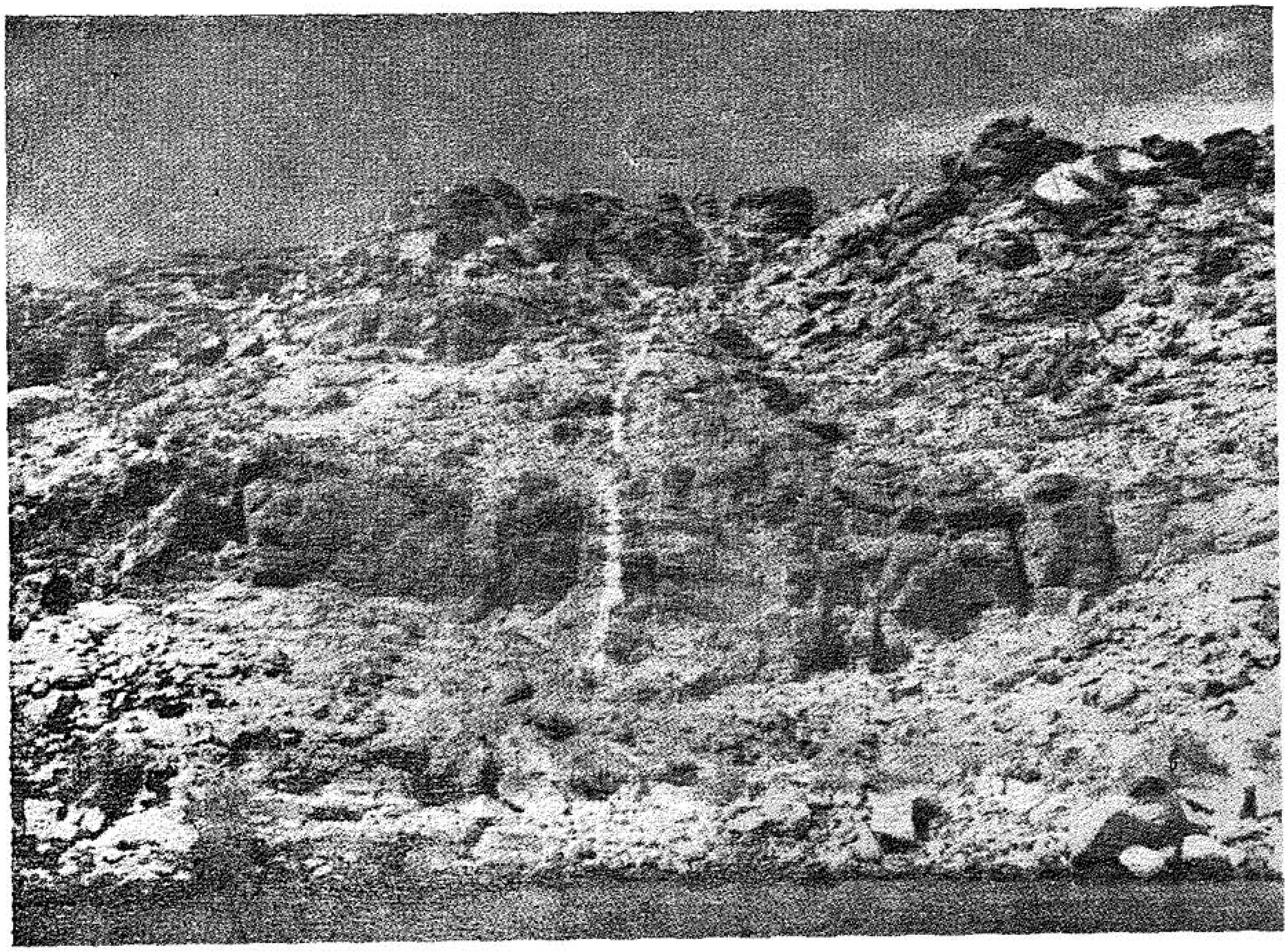

الغرف الأخرى ، ولم تكن مباحة للزائرين أيام ازدهار المعبد . وتوضح الرسوم البارزة فى هذه الغرفة التى تبلغ مساحتها اثنتى عشرة قدماً مربعاً تحنيط الآله البطل وبعثه ، وقد كتب عنه « ماريت » عالم الآثار العظيم الذى عاش فى القرن الماضى يقول : « أوزيريس هو مبدأ الخير .. ولما كانت مهمته إنقاذ الأرواح من الموت الأبدى فقد اعتبر الوسيط بين الإنسان والإله ؛ وهو بذلك يعتبر نموذج الإنسانية ومنقذها » . ولم يكن من العسير ترجمة هذا القول إلى ما يماثله فى العقائد المسيحية حينما أصدر « تيودوسيس » Theodosius مرسومه الذى يقضى بأن تكون المسيحية هى الدين الرسمى لمصر سنة ٣٧٩ بعد الميلاد . والواقع أن هذا ليغرى الإنسان على التساؤل عما إذا كانت أفكار الدين الجديد كلها مبتكرة تماماً ، كما يغرى بالاعتقاد بأن التغيير لم يكن من الصعب بحيث يتعذر التلاؤم معه كما دخل فى روعنا بادئ الأمر ، ما دام الوثنى قد استطاع أن يحدد عدد الآلهة بإله واحد ، وأن يغير اسم الآله . ومع ذلك يقوم الدليل على أن العقائد القديمة التى كانت سائدة فى جزيرة فيلة لم تنقرض على وجه السرعة ، ذلك أن جزيرة فيلة النائية ظلت تتبع دين ايزيس وأوزيريس ، ولم تنس ابنهما حوريس ، ولعل ذلك امتد حتى نهاية القرن السادس بعد الميلاد .

وما زال هناك أمل فى إنقاذ جزيرة فيلة ، وقد تبعث أبهاؤها وأروقتها الفخمة فى القريب العاجل ، شأنها شأن أوزيريس ، قديسها الذى يحميها . وقد وضع عثمان رستم أحد المهندسين المصريين مشروعاً لإنقاذ جزيرة فيلة عن طريق إقامة سلسلة من السدود بين الجزر المجاورة ، وهكذا تعزل جزيرة المعبد هذه فى بحيرة صغيرة خاصة بها تحت منسوب الماء المخزون أمام سد أسوان الحالى ، والذى توجد فيه الجزيرة الآن . وقد أدخل المستشارون من المهندسين الهولنديين بعض التعديلات على فكرة السيد رستم بناء على العرض الذى تقدمت به الحكومة الهولندية ، وتقدر التكاليف بمبلغ ٢,١٢٢,٠٠٠ جنيه

استرليني . وعلى كل ، لا يمكن أن يبدأ العمل قبل سنة ١٩٦٨ حينما يوشك أن يتم بناء السد العالي أو يكون قد تم فعلا .

وهكذا ستبدو جزيرة فيلة المجيدة ، مرة أخرى وكأنما « ترتفع من النهر كالسراب » بعد أن يكون لونها قد زال بلا شك ، وإن كان من المحتمل ألا تبدو أقل بهاء من ذي قبل بعد حمامها الطويل ؛ وقد قال « السير وليام ويلكوكس » Sir William Willcocks المدير العام للخزانات في مصر عند بداية القرن الحالي ، وصاحب فكرة مشروع سد أسوان الحالي ، إن مياه النيل التي تتجدد دائماً « ذات أثر فعال » في صيانة الأحجار وحفظها ، إذ أن العامل الذي يسبب القضاء على الآثار المصنوعة من الحجر ، إلى جانب الرمال التي تأتي بها الرياح ، هو تخلل المياه الملحة في مسام الحجارة التي تمتصها من التربة ، وهذه مشكلة كبرى بالنسبة لآثار الأقصر العظيمة في مصر العليا حيث كادت تطمس تماماً النقوش البارزة في بعض المقابر — وبخاصة في وادي الملكات — بفعل رشح الملح على مدى ثلاثين عاماً منذ أن وقع بصري عليها .

هذا ولم تضع نهائياً الرسوم والنقوش المحفورة في جزيرة فيلة بالنسبة للعلم ، حتى ولو لم ترتفع معابدها مرة ثانية فوق الأمواج ، ذلك أن « الأستاذ يونكر » Professor Junker أحد علماء النمسا قد نشر بعض هذه الرسوم والنقوش في كتاب ألفه أخيراً ، وينبغي أن يعتبر سجلا كافياً لعلماء الآثار المصرية . ومع هذا فإن مثل هذه المؤلفات التي يكتبها الباحثون يندر أن توفى بحق العظمة الفنية التي تمتاز بها الآثار التي يبحثونها ؛ فإن نقل ونشر معلومات دقيقة صحيحة عن معبد من المعابد الكبيرة يتكلف كثيراً من المال ، ومع هذا من المؤسف أنه ما من أحد في العالم أخذ على عاتقه أن يقوم بتكاليف حملة مجهزة تجهيزاً تاماً لتسجيل آثار معابد جزيرة فيلة على مقياس رسم كبير قبل أن تطويها المياه . وعلى كل فلا بد أن « الأستاذ يونكر » اعتمد في تأليف كتابه على الصور الفوتوغرافية والمذكرات التي كتبت منذ ثلاثين عاماً . وهذا لا يعتبر عملا دقيقاً يمكن الاعتماد عليه إلا بنسبة عشرة في المائة بالنسبة إلى النقل

من الآثار الأصلية ، فضلا عن أن هذا العمل قد يكون مضللا فى بعض الأحيـــان .

ولقد تحسنت الأحوال بعض الشيء إزاء مواجهة التهديد الجديد الناجم عن هذا الفيضان العظيم ؛ ذلك أن مركز تسجيل الآثار بالقاهرة قد صور جزيرة فيلة تصويراً دقيقاً ، كما أن بعثتنا التى أرسلها معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو والتى تتكون من أعضاء ذوى خبرة قد قامت بتسجيل واحد على الأقل من المعابد المهددة لكى تقوم بنشره على نطاق يمكن أن يرضى الباحثين والفنانين معاً . ومع ذلك فإن الجهود المتضافرة التى تبذل فى بلاد النوبة ليست كافية للقيام بالعمل المطلوب ولو أن الآثار جميعها نقلت دون أن ينالها أى ضرر — حتى ولو لم يكن هناك تهديد بالغرق قط — فإن التحلل والفناء سوف يحلان بها تحت وطأة الرياح العاتية والرمال المتطايرة ، وتحت لظى الشمس الملتهب الذى يفتت الحجارة ، إلى جانب برودة ليالى الصحراء . سوف تتلاشى هذه الآثار إذن آجلا ، إن لم يكن عاجلا ، وقد حان الوقت لتسجيلها ، طالما أن هناك جانباً منها ما زال قائماً . وهذا القول ينطبق بالطبع على آثار مصر العظيمة أيضاً ، إذ على الرغم من أنها تبدو سرمدية خالدة ، إلا أن فى مقدور الباحث الذى عمل فى مصر عدة سنين أن يرى هذه الآثار تتلاشى شيئاً فشيئاً ، وكانت بعثتنا قد انتهت من كتابة آخر حرف هيروغليفى فى معبد رمسيس الثالث الضخم عند مدينة « هابو » بالقرب من الأقصر حينما انصرفت عنه إلى الأزمة الطارئة فى بلاد النوبة . ولكن ثمة معابد أخرى كبيرة ورائعة فى مصر لم ينقل نقش واحد منها نقلا وافياً دقيقاً . ومن المدهش كذلك أن ترى أنه حتى مقابر الفراعنة الشهيرة فى وادى الملوك — والتى زارها كل سائح فى المائة أربع وأربعين سنة الأخيرة — قد التقطت المعلومات الخاصة بها من الناحيتين العلمية والفنية من هنا وهناك . إن من دواعى الفخر حقاً أن نرى كل هذه الثروة من المعلومات والفن

مسجلة فى أمان فى عصرنا هذا . ولكن بعثتنا هى الهيئة الأجنبية الوحيدة التى تواصل العمل حالياً فى مثل هذا العمل التسجيلى .

ولنعد إلى جزيرة فيلة وإلى قصة « سير وليام جارستن » Sir William Garstin فقد اقترح أن تعطى مصلحة الآثار المصرية مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى لكى تنقل معبد فيلة إلى جزيرة « بيجة » المجاورة حينما اقترحوا التعلية الأولى لسد أسوان . ومن حسن الطالع لم ينفذ رأيه حيث إن التعلية الثانية أغرقت جزيرة « بيجة » إلى مستوى أعلى من الموقع الذى اقترح أصلا .

وعلى مقربة من هذه الجزيرة ، جزيرة أخرى تعرف باسم « هيسا » ، وهى أعلى مستوى ، حتى إن قممها الصخرية ما زالت بارزة فوق سطح الماء ، وبها متسع لإحدى القرى . وعندما بلغت باخرتنا هذه الجزيرة هبت ريح قوية من الشمال ، فقرر النوتى النوبى الذى كان يرافقنا أنه من الأصوب أن نقضى الليل فى حمى الجزيرة بعيداً عن الريح . وقال البعض إن للنوتى زوجة فى ذلك الميناء . ومهما يكن من أمر فإن الباخرة رست فى خليج صخرى على الجوانب المنحدرة التى تقوم عليها القرية ، التى كانت تشبه تماماً إحدى موانئ صيد السمك فى الجزر اليونانية ، بمنازلها النظيفة البيضاء المتلاصقة . وكل هذه القرى الموجودة فى بلاد النوبة السفلى بالطبع جديدة نسبياً حيث إن القرويين كانوا يضطرون لإعادة بنائها على مستوى جديد كلما تمت تعلية السد . وهكذا لا تجد منزلا يرجع بناؤه إلى أكثر من ثلاثين عاماً .

ومع هذا فجدتها ليست هى المسئولة عن نظافتها ، ذلك أنه من الممكن أن تتسخ قرية من قرى مصر العليا منذ أول يوم تبنى فيه . وما من شىء يبين الفرق بين بلاد النوبة وسائر أجزاء مصر أوضح من هذا ؛ ولذا فالنوبيون شعب يمتاز بعادات أخرى مختلفة . وإنك لتلاحظ هذا الاختلاف بمجرد أن تعبر أسوان ، وهى الحدود الطبيعية ، وإن لم تكن السياسية . إنه ليخيل إليك أن هناك بوابة يقف عليها حراس أشداء ، ومع هذا ليس ثمة ما يمنعك عن دخول المدينة والخروج من الجانب الآخر . ومما يثير الاهتمام أن ترى

كيف أمكن لحاجز طبيعى ضئيل نسبياً مثل الجندل الأول عند أسوان أن يفصل بين شعبى مصر والنوبة على مدى زهاء خمسين قرناً من الزمان رغم أن النهر الطبيعى جنوب هذا الحاجز مباشرة لا يختلف كثيراً عن شماله . ومهمة المؤرخين أن يعثروا على سبب هذا الاختلاف وعن أصل النوبيين والمكان الذى وفدوا منه . والحقيقة أن العلماء لم يتفقوا على رأى فيما يختص بالموطن الذى جاء منه قدماء المصريين أنفسهم . ولو أن النوبة تركت الآن دون التنقيب عن كل أثر من آثار هجرات الناس وتطور ثقافتهم ، لضاعت الفرصة تماماً للعثور على إجابة لهذه الأسئلة ، ذلك أن الشواهد سوف تغرق إلى الأبد تحت مياه البحيرة التى سترتفع خلف السد العالى .

توجهنا إلى شاطئ جزيرة « هيسا » وتسلقنا قمتها الصخرية ثم دخلنا القرية . وانضم إلينا فى سيرنا بعض القرويين ، بما فيهم جماعة من صغار الصبية ، ولكنهم كانوا يسيرون فى أدب دون ما إلحاح — ذلك الإلحاح الذى يشوه غالباً جمال رحلة كهذه فى مصر — فى أرض ، وإن كانت فى متناول اليد فهى أشبه ما تكون بالأرض الغريبة .

وتختلف جزيرة « هيسا » عن غيرها من جزر هذا الأرخبيل الحالم إذ ليس بها إلا القليل من النقوش . وعلى كل فقد كانت لها أهميتها فيما مضى ، ذلك أنها ضمت مدافن الكهنة والكاهنات الذين كانوا يعملون فى جزيرة فيلة . وقد فحصنا هذه المقابر المنحوتة فى الصخر ، ولكننا لم نجد بها أية جثة ، فقد نقلت المومياات بعيداً عن متناول الفيضانات وأيدى اللصوص ، وهى الآن ترقد مبجلة فى المتحف الصغير القائم فى جزيرة الفنتين فى مواجهة أسوان .

هناك بعض الناس يعتقدون أن علماء الآثار ممن ينبشون القبور ، قساة القلوب لأنهم يزعجون الموتى فى مراقدهم ، ولا شأن فى ذلك لطول الزمن . وقد أطلعنى « هوارد كارتر » Howard Carter مكتشف مقبرة توت عنخ أمون على خطاب من بين الخطابات التى أطلق عليها اسم « بريد المناوئين »

ويرجع تاريخ ذلك الخطاب إلى سنة ١٩٣٢ . وقد بدأ الخطاب كما يلي :
« أيها الضبع غليظ القلب . . . » .

وقد يحمل هذا الرأي بعض الصواب إذا تجاهلنا المعلومات التاريخية القيمة التي نحصل عليها غالباً نتيجة للتنقيب عن المقابر ، وإذا كنا على يقين من أن إنساناً آخر لن يزعج الموتى . ولكن علماء الآثار المحدثين ليسوا بأي حال من الأحوال أول من أقلق راحة الفراعنة ومن هم دونهم من الناس الذين ماتوا منذ قرون عديدة . فمنذ اللحظة التي تم فيها بناء المقابر الملكية العظيمة في الأقصر ، وختمت أبوابها ، ثم أخفيت مداخلها بقطع من الأحجار ثم غطى بكسر للتمويه على اللصوص حتى تظل مجهولة إلى الأبد ، منذ تلك اللحظة بدأ لصوص المقابر — في عصابات منظمة لا شك أنها كانت على علم بهذا السر — بدأت في حفر الأنفاق . إننا نعرف هذا من السجلات الخاصة بمحاكم التحقيق والتي وصلت إلينا . وأصبحت هذه الحوادث الغادرة ترتكب بدرجة صارخة في وقت من الأوقات بحيث لجأت بعض الأيدي الأمينة إلى إنقاذ ما يقرب من عشرين مومياء من المقابر الملكية وقامت بإخفائها في سرداب خاص . وقصة اكتشاف هذه الجثث في هذا المكان بعد مرور ثلاثة آلاف سنة معروفة جداً بحيث لا أحتاج إلى تكرارها مرة ثانية . والمهم هو أن هذا المخبأ السري اكتشف بواسطة لصوص مقابر محدثين في أواخر القرن الماضي . وكان من المحتمل أن تمزق الجثث المحنطة إرباً من أجل الذهب والحلي المدفونة معها لولا أن اختلف اللصوص فيما بينهم ، فقام أحدهم بتبليغ السلطات المختصة وهكذا ترقد هذه المومياث الملكية في قبو ملكي في القاهرة ، حيث تتاح لها فرصة البقاء سليمة أكثر مما لو كانت راقدة في تلال طيبة في الأقصر ، التي لا بد أن تكون الآن قد ملئت بالأنفاق السرية قديماً وحديثاً . وإنها لمعجزة أن ظلت مقبرة توت عنخ آمون سليمة حتى عثر عليها « هوارد كارتر » ولم تكن لتظل سليمة يوماً واحداً لو أن اللصوص عثروا عليها بما فيها من أقنعة ذهبية[1]

(١) يقصد بذلك آثار توت عنخ آمون الذهبية المتنوعة . (المراجع)

ضخمة خاصة بالملك ، ولكانت قد صهرت وبيعت فى نفس الليلة . والواقع أن هذه المقبرة قد امتدت إليها يد التخريب فى الماضى ، ولكنها أعيدت إلى حالتها الأولى وتم إغلاقها مرة ثانية .

وكانت الليلة التى قضيناها راسين بجوار « هيسا » ليلة هادئة ، وكانت النجوم أوضح وأكثر تحديداً منها فى أى مكان آخر . وفى الصباح التالى هبت الريح مع بزوغ الشمس وأخذت تزأر بين الصخور وهى تحيل النهر ظلاماً [1] وتدفع برغاو بيضاء ضد التيار . هذه الرياح القوية التى تهب يومياً تعتبر إحدى معالم النوبة ويذكرها كل مسافر ، وفى الغالب ينزل عليها اللعنات إذ أنها تعوق ملاحة البيوت العائمة والقوارب الشراعية المتجهة نحو المصب لعدة أيام بأكملها . وقد قاسينا شخصياً من برودتها الدائمة ونحن مكبون على عملنا . ومع هذا كان لها بعض المزايا بالنسبة للقدماء فهى تجعل النهر طريقاً عاماً عملياً للغاية على طول البلاد كلها ، ذلك أنها كانت تدفع سفنهم ذات الشراع المربعة ضد التيار وتسمح لها بالعودة مرة ثانية حينما تخف وطأة الفيضان . وأن رياح النوبة هذه لتوحى إلى دائماً بشعور من البهجة والانطلاق .

ورغم أن الرياح كانت لا تزال قوية كشأنها بالأمس ، إلا أن الحاج عبدالله استقر عزمه على أن يستأنف المسير . ولم يكن فى مقدورنا أن نتصور باخرة يبلغ طولها ١٣٠ قدماً يمكن أن تجد مشقة بسبب عاصفة الأمس أو عاصفة اليوم فى مثل هذه المجارى الضيقة ، بيد أننا لم نبد أى تعليق ، لأننا جميعاً أمضينا وقتاً طيباً خلال المدة التى قضيناها فى « هيسا » كما تمتع بها قبطان باخرتنا على ما أعتقد . أضف إلى ذلك أن باخرتنا « ممنون » لم تصب بأى أذى حتى الآن . وسارت السفينة الطيبة على عجل لا تلوى على شىء حتى وصلت إلى مكان رسم عليه خط واضح من الجير الأبيض طوله ربع ميل على الشاطئ الحجرى ، مبيناً البقعة التى سوف يقام عليها السد العالى ، ذلك السد العظيم

---

(١) بما تحمله من رمال .

الجديد . وكانت الصخور هنا أعلى من الصخور فى الأماكن الأخرى كما أن النهر كان أقل اتساعاً نسبياً ؛ ولكن أبعد من ذلك ، أى عند باب كلبشة ، كانت الصخور أكثر ارتفاعاً والنهر أكثر ضيقاً ، حتى إن بعض الأشخاص من غير المطلعين تساءلوا عن السر فى اختيار هذه البقعة التى وضعت عليها العلامة دون غيرها . وحينئذ أخبرنى صديقى المهندس أن الأماكن الأكثر ارتفاعاً والأقل اتساعاً والتى قد تبدو أصلح من غيرها ليست دائماً من أفضل المواقع لإقامة الجسور والسدود ، فإن طبيعة قاع النهر يجب أن تؤخذ فى الاعتبار ، أضف إلى ذلك أن العملية ليست مجرد إفراغ أطنان من الصخر فى النهر ثم إطلاق اسم سد عليه ؛ إذ أنه ينبغى على الموقع الذى يقع عليه الاختيار أن يسمح بشق قناة تحويل أول الأمر ، حتى يمكن أن توضع الأساسات فى قاع النهر الصخرى . ثم قال إن هذا يعلل قلة مظاهر النشاط التى يمكن رؤيتها من النهر ، رغم أن البناء قد بدأ منذ أكثر من عام . فقد بدأ العمل بشق قناة التحويل ، ثم شرع فى تأسيس الطرق ومد الخطوط الحديدية ، ثم جلبت آلات توليد الطاقة ، كما نقلت مواد البناء ، وكل هذا يجرى خلف الكواليس — إن صح القول — والواقع أن آخر شىء يقع عليه بصرك فى عملية إقامة السد هو بطبيعة الحال السد نفسه . وكل ما استطعت رؤيته من فوق ظهر السفينة هو أحدورة طويلة مشقوقة فى الصخر يشتغل فيها المهندسون بآلات ميكانيكية تحدث صوتاً عالياً كهدير البعير . وكان هناك سلك كهربائى ضخم عبر النهر ، ونقالتان مائيتان تقوم عليهما آلات وروافع ، وهما راسيتان فى المجرى دون أن يبدو عليهما أنهما تؤديان شيئاً على الإطلاق . ومما لا شك فيه أنهما كانتا تقومان بعمليات غير مرئية فى قاع النهر ، ولكنى أدركت فى الحال كيف أن مثيرى الفتن فى القاهرة قد ينتهزون فرصة هذا المنظر الهادئ ويشنون حملة من الإشاعات الخافتة بأن بناء السد الشهير لم يحرز أى تقدم منذ فجر الرئيس جمال عبد الناصر عشرة أطنان من الديناميت يوم ٩ يناير سنة ١٩٦٠ للبدء فى حفر قناة التحويل . وقد وجدت بعض هذه الإشاعات

طريقها إلى الصحف البريطانية والأمريكية ، حسب الخطة التى وضعها المغرضون ، لأن الحكومة ومشروعاتها لا تعلم وجود بعض الأعداء . ومن الأفضل ألا نلقى بالا إلى هذه الأراجيف ، والأجدر بنا أن ننتظر ونرى . ولا يفوتنا أن نذكر أن الروس الذين يعملون هذا المشروع الضخم بالمعدات والمهارات الفنية هم ذوو خبرة فى بناء السدود ، كما أنهم برهنوا على كفايتهم فى مجالات أخرى فى الأيام الأخيرة . ومهما بلغ رأينا فى نظامهم الاجتماعى فمن الحماقة أن نفترض أنهم سوف يسمحون لأنفسهم أن يخفقوا فى مشروع كهذا تتعلق به أبصار العالم جميعاً ، وهو أقل صعوبة بكثير ، فى نظرى ، عن اطلاق رجل فى الفضاء . فلنكن على يقين من أن السد العالى سوف يقام ويتم بناؤه قبل سنة ١٩٧٠ وهو الحد الأقصى لإتمامه ، على شرط توفر أسباب الاستقرار السياسى .

وسوف يتم إنجاز المرحلة الأولى للبنــاء سنة ١٩٦٤ (١) ؛ أو حتى قبل ذلك . وخلال هذه المرحلة سوف يتم تحويل النهر عن طريق القناة ، ويقام السدان الإضافيان الأمامى والخلفى . وحينما يتم هذا سوف يبدأ السد فى العمل إلى حد ما ، حيث يستخدم سد التخزين الجنوبى فى تخزين المياه حتى ارتفاع ١٣٣ متراً . وهذا سوف يسمح باستصلاح مليون آخر من الأفدنة فى مصر . وبالإضافة إلى ذلك سوف يتم تحويل ما يقرب من ٧٠٠,٠٠٠ فدان تروى حالياً برى الحياض – وهى تعتمد الآن على رى الأرض مرة واحدة كل عام بواسطة الفيضان – إلى أراض تروى رياً دائماً – أى على مدار السنة – وهكذا يتم مضاعفة المحصول . ويقدر المصريون أن هذا سوف يرفع دخلهم من الزراعة بنسبة خمسة وثلاثين فى المائة . وخلال المرحلة الثانية والنهائية سوف تتم إقامة السد نفسه ، بما فيه الأنفاق التى ستتدفق فيها المياه لتشغيل المولدات الكهربائية التى سوف تنتج عشرة آلاف مليون كيلووات من

---

(١) وتم ذلك فى ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ .

الكهرباء كل عام أى حوالى عشرة أضعاف الكمية التى تستهلكها البلاد فى الوقت الحالى .

ويقع السد العالى على بعد أربعة أميال ونصف جنوب سد أسوان الحالى ، وسوف يرتفع سطحه ٥٨٦ قدماً فوق مستوى سطح البحر . وسوف يبلغ طوله ميلان – حوالى واحد وثلاثة أرباع ضعف السد الحالى ، كما يصل ارتفاعه إلى ٣٦٤ قدماً على حين أن السد الحالى يصل إلى ارتفاع ١٢٥ قدماً فقط فوق أساساته . يتسع السد الجديد لكمية من المياه تبلغ ضعف الكمية الحالية خمساً وعشرين مرة ، فى بحيرة يبلغ طولها ثلثمائة ميل تمتد إلى « كوشا » فى بلاد النوبة السودانية ، وتحتوى على ٤٦٠٠ مليون قدم مكعب من المياه ، تلك الكمية التى جعلتنى أشعر بالدوار كما سبق أن ذكرت . وتبلغ تكاليف بناء هذا السد حداً يجعل الإنسان يشعر بالدوار أيضاً ، فبناء السد فقط سوف يتكلف ١١١½ مليوناً من الجنيهات المصرية تساوى رسمياً نفس المبلغ بالعملة الأسترلينية . أضف بعد ذلك ١٤٩½ مليونا أخرى من الجنيهات الاسترلينية قيمة تكاليف مصانع القوى ، وخطوط النقل على امتداد مصر ، ورى مليون جديد من الأفدنة ، وتحويل ٧٠٠,٠٠٠ فدان من رى الحياض إلى الرى الدائم ، إلى جانب تكاليف الطرق فى المناطق المستصلحة . ويضاف إلى هذا المبلغ عشرة ملايين من الجنيهات الإسترلينية فتدفع بمثابة تعويض لأصحاب الأراضى التى ستغرقها البحيرة ، فإذا جمعنا هذه المبالغ يصبح المجموع الكلى لنفقات الاستثمار العام ٢٧١ مليوناً من الجنيهات الأسترلينية بينما تبلغ قيمة الاستثمار الخاص فى الأراضى الجديدة حوالى ٩٦ مليوناً من الجنيهات .

وبعد أن نترنح عند ذكر هذا المبلغ الضخم المذهل ، سرعان ما نستعيد توازننا حين ندرك أن مبلغ ٣٦٧ مليوناً من الجنيهات لا يغطى سوى تكاليف حرب صغيرة متواضعة فحسب ، وهى عملية تجد استعداداً للإنفاق عليها من جانب أى دولة فى العالم . وبالإضافة إلى ذلك لا شك فى أن هذا السد سوف يعوض هذه التكاليف حين يتم بناؤه على حين أن الحروب الحديثة نادراً

ما تجلب خيراً لأى من الجانبين . ويقدر المصريون أن التحسين فى الزراعة والصناعة سوف يجلب فى الحال دخلا سنوياً قدره ٢٢ مليوناً من الجنيهات وهو دخل مباشر للحكومة ، قيمة الضرائب على الأراضى الجديدة وقيمة ما ستوفره من تكاليف إصلاح الجسور وغيرها ، كما أن ٢٣٤ مليوناً من الجنيهات سوف تضاف كل عام إلى الدخل القومى عن طريق الزراعة وتوفير المياه بصفة مستديمة ، والوقاية من الفيضان والتحسن فى الملاحة ، وزيادة الطاقة الكهربائية . ويقولون إن هذا يعنى أن المشروع سوف يغطى تكاليفه قبل نهاية العامين الأولين لتشغيله .

ويلوح أن هذا يعد من أبرع الاستثمارات التى تمت ، وأعتقد أنه ما من سبب يحول دون كل هذه العائدات إذا سار كل شيء وفق الخطة المرسومة . وعلى كل فإن حسن الطالع لا ينحصر فى مثل هذا الاعتقاد فحسب ، ذلك أن تغطية التكاليف بالعملية الحسابية سالفة الذكر لا تعنى أن المستثمر سوف يسترد أمواله فى السنتين الأوليين بعد انتهاء السد ، إذ أن مبلغ المائتين وأربعة وثلاثين مليوناً من الجنيهات التى تضاف إلى الدخل القومى سوف توزع بطبيعة الحال على الأشخاص الذين يقومون بزراعة الأرض ويستخدمون الماء والطاقة الكهربائية اللذين يحصلون عليهما من السد فى أغراض مختلفة . وبعض هذا المبلغ سوف يصل إلى أيدى الحكومة فى صورة ضرائب ، وهذه بدورها ، مضافة إلى الدخل المتحصل من بيع الكهرباء ، سوف تكفى على مر السنين لسداد قيمة المشتروات التى حصلت عليها الحكومة بنظام التقسيط .

والاستثمار فى مشروع السد العالى هو كما نعلم لروسيا[1]. ولقد اختلط على الأمر فى مجال السياسة لدرجة لا أدرك معها كيف أن الدول الغربية لم تقم بهذا العمل ، عما يجلبه من ربح ونفوذ وهيبة فى الشرق الأوسط . وتقول وسائل الإعلام فى الجمهورية العربية المتحدة فى لباقة :

---

(١) الواقع أن حكومة الاتحاد السوفيتى قد قامت بالاشتراك فى هذا المشروع عن طريق تزويد المشروع بالمعدات والفنيين ، وكذا المعونة المادية . (المراجع)

« فى سنة ١٩٥٦ حاولنا أن نمول المشروع ، ولكننا لم ننجح . وقد استخدمت بعض دول معينة نفوذها لدى البنك الدولى لكى تحول بينه وبين منحنا قرضاً لتمويل المرحلة الأولى من المشروع . وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة استعدادها لقبول قروض بشروط معقولة تحترم سيادتها واستقلالها . وفى أكتوبر سنة ١٩٥٨ تلقينا عرضاً من الاتحاد السوفيتى بالمساهمة فنياً ومادياً فى بناء المرحلة الأولى من السد ، وعقد بمقتضى هذا اتفاق وقعت عليه الدولتان فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٥٨ . وينص الاتفاق على أن الاتحاد السوفيتى يقدم للجمهورية العربية المتحدة قرضاً قيمته ٣٧ مليوناً من الجنيهات المصرية يسدد على اثنى عشر قسطاً سنوياً اعتباراً من عام ١٩٦٤ بفائدة سنوية قدرها ٢,٥٪ » .

ومنذ ذلك الوقت وافق الاتحاد السوفيتى على أن يمول المشروع كله . وإذا كانت « بعض الدول » تتهم عبد الناصر الآن بالميل نحو الشرق فلا تلومن إلا نفسها ، فقد كان فى مقدورها أن تكون هى القائمة بهذا المشروع الآن . وكان ينبغى على هذه الدول أن تدرك فى ذلك الحين أن مشروع السد لم يكن مجرد نزوة مباهاة وتفاخر من جانب عبد الناصر ، إنما كان مشروعاً حيوياً بالنسبة لمصر . وحكومة الجمهورية العربية المتحدة لا تعطف على الشيوعية من حيث هى أسلوب من أساليب الحياة ، ولكن كان على الحكومة أن تحصل على المال والمعونة لإقامة هذا السد من أى مصدر كان ، ومن ثم أظهر الروس استعدادهم للقيام بهذا العمل . سوف تتسع البحيرة التى تقوم خلف السد العالى لكمية من المياه تبلغ أربعة أضعاف ما يتسع له سد هوفر على نهر « كلورادو » وهو أكبر سد من الخرسانة المسلحة فى الولايات المتحدة . ولو أن ثلاثة من أهم السدود الصخرية فى العالم صبت مياهها فى بحيرة السد العالى فلن تملأ إلا نصفها ، ولن تبلغ طاقتها الكهربية مجتمعة سوى ثلث الطاقة التى ستولد من السد العالى . وهذه السدود الثلاثة هى سد دافيز Davis على نهر « كلورادو » وسد « ميبورو » فى اليابان ، وسد « سربونسون »

فى فرنسا ، وهى من السدود الصخرية كالسد العالى تماماً .

ولا نذكر هذه المقارنات لكى ندفع الملل إلى نفس القارئ — وأنا أيضاً سئمت هذه المقارنات — بل لنؤكد مرة بعد مرة ضخامة البحيرة التى سوف تنشأ ، كما تبدو للعالم الأثرى . فإن هذه البحيرة سوف تغرق كثيراً من الكنوز التى يعتز بها .

وتتفاوت هذه الكنوز فى الحجم ما بين حصى صغير صنعت منه شعوب ما قبل التاريخ أدوات بسيطة ، وما بين جبال نحتها فراعنة الأسرات إلى معابد . وكل هذه الأشياء تتساوى قيمتها بالنسبة للمؤرخ ، أو هذا هو ما ينبغى أن يكون . ويتعين علينا أن نفحص كل هذه الأشياء بقدر متساو من العناية قبل أن ترتفع مياه السد ، إذا كنا نرجو أن نتم قصة تاريخ مصر القديم .

ومن حسن الطالع أن المنحة البالغ قدرها حوالى ٣٩,٠٠٠ دولار والتى قدمتها « مؤسسة العلوم القومية الأمريكية » U.S. National Science Foundation سوف تمكن فريقاً من جامعة كولومبيا من القيام بدراسة شاملة لآثار العصر الحجرى القديم فى النوبة المصرية والسودانية . وبالإضافة إلى ذلك، عرض عدد من العلماء المتخصصين فى آثار ما قبل التاريخ ، والذين ينتمون إلى بلدان مختلفة أن يعملوا بصفتهم الفردية مع الفرق المصرح لها بالعمل ، إذا لم يكن بينها علماء متخصصون فى عصر ما قبل التاريخ .

وطبيعى أن النوبة لا تشتمل على الإجابة النهائية لكل شىء . ومع ذلك فإن من المعلوم أنها قطاع عرضى للتاريخ يبدأ فى الماضى السحيق بهجرات الشعوب الذين قد يكونون أسلافاً للمصريين الأصليين . وتلقى آثار النوبة أضواء جانبية على قدماء المصريين : على تجارتهم ، وانتصاراتهم ، وهزائمهم » كما أن النوبة تستطيع أن تنبئنا عن الأيام التى زحف فيها دين جديد يقوم على مثل عجيبة من الاستكانة والحب ، زحف ذلك الدين يحدوه الاضطهاد ، وظل مع ذلك مثابراً صاعداً فى النيل ، حتى انتشرت المسيحية فى ربوع شمال

شرق إفريقية من البحر المتوسط حتى جبال الحبشة . وتعد آثار بلاد النوبة خير شاهد على تلك الأمواج الطاغية الخارقة التى طفرت فى صحراوات بلاد العرب والتى دفعت بإحدى موجاتها العظيمة لتكتسح الشاطئ الشمالى لإفريقية عن طريق أسبانيا ، ثم تتكسر أخيراً على صخرة « شارل مارتل » فى بواتييه فى فرنسا . وقد وصل رذاذ إحدى هذه الأمواج الإسلامية إلى بلاد النوبة لتطفئ نيران المسيحية الواحدة تلو الأخرى ، فيما عدا بضع جمرات ما زالت تومض ، تاركة الحبشة وحدها وقد بقيت على دينها رغم سرعة انتشار الدين الإسلامى فى العصر الوسيط .

وسوف تغطى المياه المتزايدة المأوى البسيطة لشعوب العصر الحجرى ، كما تغطى رسوماتهم الحية التى نقشوها على الصخر ممثلة لحيواناتهم ، وهى تلك الحيوانات التى هجرت هذه الأماكن منذ قرون عديدة لذهاب العشب ، وذلك بالإضافة إلى صخور الظران التى نحتوا منها الأدوات التى كانوا يستخدمونها . ولسوف تغمر مياه البحيرة قلاعاً حصينة بناها ملوك مصر منذ أربعة آلاف سنة بحذاء جنادل النيل فى دهاء عسكرى ستراتيجى لكى تحرس منافذ النهر والمحطات التجارية على الجانب السودانى لهذا الطريق الرئيسى المؤدى إلى إفريقية الاستوائية . وليس فى مقدورنا أن نقوم بإنقاذ هـــذه الحصون ، أو المدن التى تحيط بها والتى ما زالت آثارها مدفونة ، إذ أنها مبنية بالطوب البسيط ، كما أنها كثيرة العدد ضخمة البنيان . ولم يكتشف حتى الآن عدد كبير من هذه القلاع والمدن ، ولسوف تغمر المياه كذلك معابد الحاميات التى ما زالت قائمة فى بعض هذه القلاع ، إذا لم يتيسر إنقاذها . ومن الممكن أن يتم هذا حيث إنها مبنية من الحجارة ، ولكن الأمر يتطلب الأموال والرجال والوقت لإنجاز ذلك العمل . والقول نفسه ينطبق على المعابد الكثيرة التى ترجع إلى عهد الدولة الحديثة ، والتى تشتمل على أشهر هذه المعابد كلها ، وهو « أبو سنبل » الفخم المنحوت فى وجه الجبل على بعد ١٧٥ ميلا من أسوان . وقد قدم اقتراح هندسى جرىء — بحيث يبدو مأخوذاً من

صفحات الكاتب « جول فرن » — وهو الآن محل بحث جدى . ويقضى هذا الاقتراح بفصل المعبد عن الصخر الذى يكون جزءاً منه ثم رفعه حوالى مائتى قدم بعيداً عن الخطر . وقاعات هذا المعبد الفسيحة منحوتة لمسافة ١٨٠ قدماً فى بطن الجبل ، ويبلغ ارتفاع تماثيل رمسيس الثانى الضخمة المقامة على واجهة المعبد اثنين وسبعين قدماً . ويقدر وزن كتلة الصخر التى يلزم أن ترفع فى كل مرة بثلاثة أضعاف وزن الباخرة « كوين مارى » . ولسوف يتكلف هذا العمل ١٨ مليوناً من الجنيهات(١) .

ومن الآثار المهددة بالفناء أيضاً بقايا المعابد المصرية ، التى أنشئت أيام حكم اليونان والرومان ، وبعض الكنائس التى أقيمت فى أوائل العهد المسيحى ، وقد نقشت عليها صور القديسين ، ومنها بعض المدن البيزنطية المدفونة ، وبعض الأديرة المحصنة حيث دافع المسيحيون عن أنفسهم ضد المغيرين من الوثنيين ، وضد المسلمين فى بعض الأحيان ، إذ استمات المسيحيون فى الدفاع عن عقيدتهم فى هذه البقعة . كما أن هناك بعض المقابر المنحوتة فى الصخر والتى خصصت لنواب الملوك والنبلاء ، إلى جانب مقابر أخرى منحوتة فى الصخر كذلك وعليها بعض النقوش ؛ وفى كل بقعة فى هذه الصحراء الصخرية على طول النهر تجد مقابر أناس عاديين من كل الأجناس التى نزحت إلى هنا وعاشت فوق هذه الأرض منذ العصور السابقة لمعرفة الكتابة ، حتى أيامنا هذه .

وليست كل هذه الأشياء آثاراً جميلة بحيث يثير زوالها عاطفة الإنسان ، كما أن الكثير منها لا يتوفر فيه حتى العنصر الفنى . ولكنها رغم ذلك سجلات للتاريخ ، لم نطلع على الكثير منها بعد . ومن حسن الطالع أن ثمة جهوداً جبارة تبذل لجمع هذه السجلات قبل فوات الأوان ؛ والفضل فى ذلك يرجع إلى بعد نظر حكومتى الجمهورية العربية المتحدة والسودان ؛ إذ أنهما حين

---

(١) لم يؤخذ بهذا المشروع واستبدل به مشروع يهدف إلى تقطيع معبدى أبو سنبل إلى قطع صغيرة ثم إعادة تركيبها أعلى الجبل . (المراجع)

أدركنا أن هذا العمل لا طاقة لها به قامت كل منهما تنشد عون اليونسكو .
وكانت النتيجة أن وجهت منظمة اليونسكو حملة دولية يوم ٨ مارس ١٩٦٠ وذلك حين قال « فيتورينو فيرونيز » Vittorino Veronese المدير العام للمنظمة : « إن ثمة مباني عجيبة ، تعد من أروع ما أقيم على الأرض ، مهددة بخطر الفناء . . . وليس من اليسير أن نختار بين تراث الماضي وبين رفاهية الناس في الحاضر ، هؤلاء الذين يستشعرون الحاجة في ظل إحدى المفاخر التي خلفها التاريخ ؛ ليس من اليسير أن نختار بين المعابد وبين المحاصيل . . هذه الآثار التي قد تكون فجيعة فقدها وشيكة الوقوع ، لا تنتمي إلى البلدان التي أؤتمنت عليها فحسب ، بل العالم بأسره له الحق في أن يراها قائمة على مر الأزمان ، ذلك أنها جزء من تراث مشترك يشمل رسالة سقراط ونقوش أجانتا (في الهند) وسيمفونيات بيتهوفن . والكنوز ذات القيمة العالمية جديرة بأن يقوم العالم بأكمله بحمايتها » .

وكانت تلك الحملة نداء من أجل التعاون الدولي على نطاق واسع . وقد تقدمت الهيئة تطلب مساهمة الحكومات ، والمعاهد العامة والخاصة ، والأفراد المهتمين بالأمر ، في شكل تبرعات مالية ، وأجهزة ، وإرسال الخبراء والفنيين ، وتدريب المتخصصين ، وإجراء الحفريات . وتؤدي اليونسكو دور الوسيط بين الأطراف المشتركة في هذا العمل وبين الحكومتين صاحبتي الشأن .

وقد عبرت الهيئات الرسمية عن رضاها لنتيجة الاستجابة لندائها ، ومع هذا فمن العسير أن نقول إن هذه الاستجابة هي كل ما كان يمكن أن يقدم ، ذلك أن الأمر يستلزم مبالغ طائلة لإنقاذ معبدي فيلة وأبي سمبل بمفردهما ، بصرف النظر عن إنقاذ بقية المعابد الأخرى . ومثل هذه الأموال لا يمكن أن تتوافر إلا عن طريق مساهمة الحكومات الأخرى مباشرة ، فهي مبالغ كبيرة جداً ، بحيث لا يمكن للأفراد والمؤسسات المهتمة بالآثار أن تساهم بها وحدها .
وحتى كتابة هذا المؤلف ، لم تستجب لنداء الأمم المتحدة وتقدم بعض المبالغ

سوى حكومات قليلة من بين الحكومات الأعضاء فى المنظمة ، وكانت حكومات بلچيكا والبرازيل ويوغوسلافيا وباكستان وكمبوديا قد قامت بدفع تبرعاتها لصندوق منظمة اليونسكو حتى ديسمبر ١٩٦٠ ، رغم أن هذه المبالغ لم تحدد قيمتها فى نشرة اليونسكو . وقد خصصت الجمهورية العربية المتحدة مبلغ ٣,٥٠٠,٠٠٠ جنيه (٩,٨٠٠,٠٠٠ دولار) فى ميزانيتها عن المدة ما بين ١٩٦١ ، ١٩٦٧ لبلاد النوبة ؛ وأوصى الرئيس كنيدى الكونجرس الأمريكى فى أبريل ١٩٦١ بأن يخصص مبلغاً مماثلا قدره ١٠ ملايين دولاراً ، منها ٦ ملايين دولار لإنقاذ معبد فيلة ، ٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار لنقل المعابد الأخرى (وخصص من هذا المبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دولار للسودان) ، ١,٥٠٠,٠٠٠ دولار للأعمال التى يقوم بها علماء الآثار الأمريكيون (منها ٣٠٠,٠٠٠ دولار للسودان)[1] . وحيث إن الولايات المتحدة لها مبالغ كبيرة فى الجمهورية العربية المتحدة ينبغى أن تنفق هناك ، يبدو من المعقول أن تنفق بعض هذه المبالغ فى هذا السبيل . ولسوف تربح أمريكا من وراء هذا العمل امتنان الأجيال المقبلة بكل تأكيد ، وحتى بعض الامتنان من الأجيال الحاضرة ، وسط مظاهر الاستخفاف والحسد التى غالباً ما تثيرها فى العادة العطايا الكبيرة فى نفوس الآخرين .

هذه التبرعات سوف تكفى لإنقاذ معبد فيلة ، فقد نشرت حكومة هولندا بحثاً تحت إشرافها قدرت فيه التكاليف اللازمة لإقامة السدود ومحطة رفع المياه بمبلغ ٥,٥٠٠,٠٠٠ دولار ، وتبلغ تكاليف نقل سبعة عشر أثراً من الآثار فى النوبة المصرية (فيما عدا معبدى أبى سمبل) مبلغ ٨,٨٧٠,٠٠٠ دولار ، وتكاليف سبعة آثار فى السودان مبلغ ٦٦٠,٠٠٠ دولار — ويبلغ المجموع الكلى ٩,٥٣٦,٠٠٠ دولار . وإذا أخذنا فى الاعتبار الميزانية التى أقرتها حكومة الجمهورية العربية المتحدة لهذا العمل فى مدى ست سنوات يبدو أن من

---

(١) تعهدت حكومة الولايات المتحدة بالمساهمة فى مشروع إنقاذ معبدى أبى سنبل بثلث التكاليف ، كما تعهدت حكومة الجمهورية العربية المتحدة بدفع مبلغ مماثل . (المراجع)

المحتمل إنقاذ الآثار المصرية الصغرى . ومن الممكن أن يكون قد تم تدبير المبالغ اللازمة لإنقاذ آثار السودان حين يتم نشر هذا الكتاب[1] .

وإلى جانب العون المالي الدولي ، بل أكثر أهمية منه ، توجد بعثات علماء الآثار والمهندسين وغيرهم من الاخصائيين الذين كانوا يعملون في هذا المجال فعلا أو الذين وعدت دول كثيرة بإرسالهم إلى هناك ، ومن بين هذه الدول الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وألمانيا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، وبولندا ، ودول اسكندناوة ، وتشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، وأسبانيا ، وغانا ، والمكسيك ، واليابان . وهكذا كانت الباخرة « ممنون » التي شقت طريقها من أسوان ، جزءاً من هذه الحملة الدولية . وكانت الباخرة تحمل فريقنا موفداً من معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو برئاسة الدكتور « چورج ر. هيوز » Dr. George R. Hughes ، كما تحمل بعثة أخرى يقوم بتمويلها المعهد السويسري بالقاهرة ، وتتكون البعثة من الدكتور « هربرت ريكي » Dr. Herbert Ricke ، وزوجته ، ومساعد معماري — وكنا نعتبر جماعة دولية — وكانت هذه البعثة المشتركة برئاسة الدكتور « كيث . س . سيلي » Dr. Keith C. Seele من شيكاغو وقد حظينا بخدمات السيد لبيب حبشي ورفقته الطيبة بصفته مستشاراً أثرياً لنا ، وهو من كبار الباحثين وأحد موظفي مصلحة الآثار المصرية السابقين . وكانت الباخرة « ممنون » التي استأجرناها من أحد الأفراد ، من أسطول شركة كوك النهري ويرجع عهدها إلى أيام العصر الادواردي حين كان الناس قادرين على أن يقضوا بضعة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء في مصر . وحتى أدوات المطبخ ما زالت تحمل شارة « خطوط كوك النيلية » . وكان سطح الباخرة يبدو في الخيال مزدحماً بظلال السيدات والسادة الذين عاشوا منذ خمسين عاماً ، وهم يتجولون بسيجارهم الفخم وأكمامهم على شكل « ساق

---

(1) أي سنة ١٩٦٢ .

الحروف » وهم يتغازلون فى خبث بين الفينة والفينة فى ضوء القمر . وكانت السفينة تستخدم كوسيلة لنقل البعثة ومقراً لسكناها .

وكانت وجهتنا معبد رمسيس الثانى الصغير المنحوت فى الصخر عند « بيت الوالى » ، على بعد حوالى خمسة وثلاثين ميلا من موقع السد ، وكان على البعثة المشتركة أن تنقل نقوشه ورسومه وتفحصه من الوجهة المعمارية . وبالإضافة إلى ذلك كان علينا مهمة اكتشاف منطقة تقع على جانبى النهر ، طولها حوالى خمسة عشر ميلا ، وكذلك مهمة القيام بحفر أى أجزاء تبدو هامة فى هذه المنطقة .

وعند جنوبى أسوان بحوالى عشرة أميال مررنا بدابود ، وهى التى وصفها « إمرى » بأنها قرية كبيرة تعتبر نموذجاً للقرية النوبية ، ومنازلها مبنية بالطوب اللبن ، ومطلية بالجير وسقوفها مقبوة على شكل البرميل . هذه القرى النوبية النظيفة المنسقة لافتة للأنظار وقد أحاطت بها الصخور القائمة والرمال الصفراء ، وقامت خلفها سلاسل جبال أرجوانية بعيدة . وقد كتبت « أمليا ادواردز » تقول : « فى مصر ينسى الإنسان تلك الصحراوات الصخرية القابعة وراء حقول القمح ، ولكن فى بلاد النوبة لا تفارقنا الصحراء قط ، كما أن الجبال الجرداء تفرض نفسها على طريقنا . . جلاميد من الجرانيت فى جانب وسيولا جارفة من الرمال الصفراء فى الجانب الآخر . . هذه الصخور تتساقط على الدوام ؛ وتلك الرمال تزحف باستمرار ، والنهر يجد مشقة فى الاحتفاظ بحدوده ، ذلك أن الصحراء تطغى عليه كل يوم فى سكون . ولكن بعد أمد وجيز لن يصبح طغيانها فى هذا المكان بذى بال ، إذ لن تنسى رؤية جبال هذه السيول الرملية الذهبية . كانت هنا مدينة أطلق عليها الرومان اسم « پارامبول كانت قائمة فى هذا المكان ، ولكنها ضاعت بعد التعلية الثانية للسد الحالى ، كما لم يعد يرى المعبد الذى أقامه أحد ملوك كوش منذ حوالى مائتى عام قبل ميلاد المسيح . والواقع إننى رأيت أجزاءه منذ أيام فى جزيرة الفنتين . وهو أحد آثار النوبة التى تقرر فك أجزائها ونقلها إبان الحملة الحالية ، وقد

قامت مصلحة الآثار المصرية بإنجاز هذا العمل فى حرص بالغ .

وحينا وصلنا موقع المعبد التالى ، معبد « قرطاسى » ، كان الحجر الرملى النوبى قد حل مكان جرانيت أسوان ، وقد أحالت الشمس لونه إلى لون قاتم يقارب السواد . وقد اعتبر « ويجل » Weigall ، أحد علماء الآثار المصرية معبد قرطاسى أحد نفائس البلاد ، كما أنه معبد جميل فى نظر أمليا : « مجرد مجموعة من الأعمدة تسند طنفاً[1] وتقبع عالية على شفا صخرة تطل على النهر . ولكن هذه الصورة الجميلة ستختفى بعد اليوم . وقد تم إنقاذ معبد قرطاسى كذلك ، وقد رأيت فيه منظراً من أعجب المناظر التى رأيتها فى حياتى — معبد صغير بأكمله بين جدران قارب نقل . ولكنه قد أصبح على الأقل فى أمان من التلف[2] .

ثم يضيق النهر بعد معبد قرطاسى حتى يصل إلى باب كلابشة المهيب الذى يشبه إلى حد ما « الباب الحديدى » على نهر الدانوب . ولقد شاهدت أمليا ادواردز فى هذا المكان عام ١٨٧٤ معبدين ، « أحدهما حطام له جمال الصورة والآخر سليم تماماً[3] » . وعند نهاية القرن الذى عاشت فيه لم يعد هناك سوى معبد واحد ، فقد استخدم الأهالى ذلك الحطام البديع كمحجر من المحاجر . وقد اختفى المعبد الآخر كذلك ؛ ولكنه يقبع الآن فى أمان فى جزيرة الفنتين مع معبدى قرطاسى ودابود .

هذا الجزء من النيل الذى كنا نعبره هو ذلك الجزء الذى تكون نتيجة إقامة سد أسوان الحالى ، ولذا فهو أكثر اتساعاً من المعتاد ، كما أن شواطئه الصخرية كانت تمثل أجزاء مرتفعة من الصحراء على جانبى المجرى الطبيعى فى الأزمنة السالفة . وكانت القرى التى وقعت عليها أبصارنا متلاصقة فى مجموعات بيضاء نظيفة جديدة كلها تشبه قرية هيسا ، إذ أنها أقيمت حين

---

(١) إفريز الحائط وما أشرف خارجاً عن البناء أى (كورنيش) . (المترجم)

(٢) أعادت مصلحة الآثار تركيبه على الضفة الغربية للنيل فى منطقة السد العالى .

(٣) يعرف بمعبد طافا ، وقد قامت بفك أحجاره مصلحة الآثار . (المراجع)

هجر السكان ديارهم القديمة التي أغرقتها المياه الآن . وسرعان ماتعلو المياه فوق هذه المنازل الجديدة – وفوق القمم كذلك ، وسوف تمتد بحيرة واحدة شاسعة لن يرى على شاطئها الجديد الخالي من السكان سوى الصحراء . ولقد قطعت جزءاً من هذه الرحلة الخلابة على ظهر الزورق التابع للبعثة ، وهو مركب ذو محركين كان تابعاً للبحرية الأمريكية سابقاً ، ويبلغ طوله ثلاثة وستين قدماً ، ولا شك أنه أجمل زورق من نوعه على النيل . ولقد أهدى هذا الزورق إلى معهد الدراسات الشرقية « مستر بويد » أحد أصدقاء المعهد المخلصين ، ويستخدم فى التنقل من مكان إلى مكان داخل حدود منطقة عملنا ، كما يستخدم فى نقل المؤن إلى الباخرة من أسوان .

ووصلنا إلى « بيت الوالى » بعد الظهر ، ووقفنا بمحاذاة واجهة عمودية من الصخر المنحوت . وكنا نطفو فى مكان كان أصلا محجراً مصرياً قديماً حيث كان الناس يقطعون منه الحجارة لإقامة معبد كلابشة القريب الذى يعد من أكبر المعابد المستقلة بنفسها فى النوبة[1] على الاطلاق . وكان من العجيب أن أنظر خلال نافذة حجرتى فى السفينة وعلى ركبتى كتاب شامبليون : « الرسائل المدونة عن مصر والنوبة »[2] اقرأ فيه عن أهمية زيارة معبد كلابشة ، بالإضافة إلى المعابد الأخرى . وها هو المعبد ، على بعد مائتى ياردة ، وقد برزت أعالى أروقته من الماء . ويستطيع الإنسان أن يسير حول المعبد دون أن تبتل قدماه ، وذلك أثناء حرارة الصيف الشديدة ، حينما يكون منسوب الخزان منخفضاً ، ولكن لمدة يوم أو يومين فقط . وسرعان ما يختفى هذا المعبد من هذا المكان ، هذا المعبد الذى وجد فيه شامبليون اللون «الموف» مستخدماً كقاعدة للون الذهبى (وأعتقد أنه كان مخطئاً فى ذلك) والذى كتب عنه يقول : « لقد أقاموا له الجدران الفاخرة ، لأنهم لم يعرفوا كيف يحاولونها

---

(١) أى غير المنحوتة فى الصخر مثل معبد أبى سنبل .
(٢) "Lettres écrites de l'Egypte et de Nubie"

أكثر جمالا » . ويرجع هذا المعبد إلى العهد الركوكي[1] للفن المصرى ، ولكنه جدير بالإنقاذ كغيره . ولقد أرسلت حكومة ألمانيا الغربية فريقاً من العلماء لكي يتولوا فك المعبد إلى أجزاء ثم يعيدوا تركيبه فى موقع قريب من السد الجديد[2] .

وعندما أقبل الليل وظهر البدر ، عبرت النيل فى رفقة « كارل فنجرهوث » المهندس المعمارى السويسرى ، و « جون فوستر » ، أحمد فنانينا . وقد كانت تجربة مثيرة أن نتجول فى أنحاء جزيرة المعبد وأن نطل فى تلك المياه الخضراء القاتمة التى أخفت فى ظلامها أعمدة المعبد وملأت أبهاءه التى طالما سار فيها الكهنة والملوك .

وكانت القرية متعة للناظرين ، وكنا فى مواجهتها تماماً ، وقد أقيمت منازلها البيضاء والقرنفلية والسمراء كيفما اتفق على المنحدرات الصخرية ، تصل بينها جدران ودرجات وسلالم معوجة وعلى سبيل الزينة . وكانت الصحون والأطباق وحتى أغطية أوعية الحساء مغروسة فى سطح الجدران . وهى تذكارات لأجيال من الخدمة بالمنازل فى مدن نائية ويتخللها قطع غريبة نفيسة مما يعتاد جمعه الهواة .

وعلى الرغم من أننا رسونا بينهم دون دعوة منهم فقد كان أهل القرية أهل وقار ومودة ، كما أنهم بالتأكيد لم يكونوا فضوليين . وقد جرت العادة أنه فى اللحظة التى تطأ أقدامنا فيها أية قرية مصرية يتزاحم الناس علينا فى طلب « البقشيش »[3] . ولكن فى هذه القرية كان الرجل منهم يقابلنا فيقول فى شيء من الوقار « صباح الخير » بالإنجليزية لكى يدخل فى روعنا أنه « قد رأى العالم » . أما النساء فقد انطوين على أنفسهن ولم يقحمن أنوفهن إلا حينما كن يتحدثن مع بعضهن البعض باللغة النوبية التى لا يعرف معظمهن غيرها ،

---

(١) الركوك نوع من الزخرفة غير الراقية .

(٢) تمت هذه العملية الآن .

(٣) هذه العادة انقرضت تقريباً من القرى المصرية .

على حين أن معظم الرجال يستطيعون التكلم باللغة العربية ، ولكن لا يوجد منهم فى القرية إلا عدد قليل ، وهم غالباً الطاعنون فى السن ، إذ أن الشبان يسعون وراء رزقهم فى مكان آخر ، وهذه هى الطريقة التى يقوم عليها اقتصاد البلاد ، فهى بلاد تعتمد على التحويل المالى من غيرها . وليس ثمة ما يعيشون عليه فى أرضهم ؛ ذلك أن أشجار نخيلهم قد اختفت ؛ واختفت معها الحقول ، ولم يبق سوى بضع ياردات مربعةمن الأحواض يزرع فيها الشيوخ الخضر التى تصلح « للسلاطة » . ورغم ذلك يعشق النوبيون أرضهم الصخرية ، ويأبون الهجرة إلى أماكن أخرى .

وقد أحسست أن هؤلاء القوم ليس عندهم شىء من العداء بقدر ما لهم من شعور جارف بالاستقلال والريبة فى الأجانب . ولا يبدو هذا غريباً بعد أن عرفنا تاريخهم . ورغم أن سفينتنا كانت راسيةتحت منازلهم مباشرة إلا أنهم لم يتطلعوا إلينا أو يتفرسوا فينا ، كما يفعل غيرهم عادة ، ويعتبرون التفرس والحملقة نوعاً من الثناء على الشخص الذى يحملقون فيه ، إذ أن هذا يدل على أنك تثير الاهتمام . وربما يشاركنا النوبيون سلوكنا العجيب حين نعتبر أنه ليس من الأدب فى شىء أن يحملق الإنسان فى آخر .

ولم يحاول أى شخص منهم أن يبيع لنا شيئاً ، بل إن القارب الذى يحمل البقالة لا يتوقف حين يمر بنا إلا إذا ناديناه . ولقد اشتكى إلى أحد رفاقى من أنه ما من شخص فى القرية جاء ليعرض عليه خدماته ، على أمل أن يربح قليلا من النقود ؛ ولما سألته عن نوع الخدمات التى يحتاج إليها أجابنى بقوله : « لا شىء ، ولكن ألا ترى أنه يجب علينا الاعتماد على أنفسنا تماماً فى هذه البعثة ، لأن هؤلاء الناس ليس لديهم الإقدام على العمل . إنهم لا يملكون حتى محل تجارة واحداً فى القرية » . وتلك هى الحقيقة ، وكان علينا أن نبتاع حاجياتنا من البدال الذى يسير بالقارب ، إذا تصادف مروره أثناء وجود بعض المال لدينا ، وإذا تصادف وجود الأشياء التى نحتاج إليها فى حوزته .

ولقد أدركت على حين فجأة أن روح الإحجام وعدم المخاطرة هى

ما أحب فى بلاد النوبة . لقد عثرت أخيراً على جزء من العالم لا يحاول فيه الناس أن يبيعوا لبعضهم البعض أشياء ليسوا فى حاجة إليها — مكان لا ينفق فيه الناس أيام عمرهم يغرى كل واحد منهم الآخر بأن له احتياجات لا بد أن يرضيها — مكان يصحو الناس فيه فى الصباح ثم يعيشون فى بساطة . هنا طريقه فى الحياة عكس طريقتنا ، بل إن القوم فى ذلك متطرفون .

وكنا نغدو كل يوم إلى المعبد ونجيء منه عن طريق ممر حجرى بجانب النهر ، وكنا نمر على منزل لصياد السمك الفقير مبنى بالحجارة البسيطة . وكانت زوجته تنظف أوعيتها وأوانيها القليلة ، وكان هناك لحاف أنيق تعرضه كل صباح للهواء ، رغم أنهم فقراء معدمون ؛ كما كانت تكنس التراب والحجارة بعيداً عن المنزل كل صباح شأن أى زوجة إنجليزية وهى تنظف واجهة منزلها ، وكانت تكنس بمقشة مصنوعة من جناح ديك رومى . وفى وقت الظهيرة كانت غالباً ما تنظف ابنتها الصغيرة بالماء فى وعاء صغير ، ولكنها لم تكن تنظف جميع أجزاء جسمها ، بل أطرافها فقط . وكان بجوارها ولد صغير يبلغ من العمر سبع سنين ، ولما كان ابن أخيها ، كما أخبرنى بعضهم ، فهو لا يتلقى من النظافة القدر الذى تلقاه ابنتها . وكان ظريفاً مع ابنة عمه الصغيرة ، فكان يساعدها على تخطى السلالم الصخرية العالية فى ذلك الممر . وكان يقوم بدور السيارة من تلقاء نفسه يقلد حركة السيارة وينفخ بوقها فى واقعية تامة ، رغم أنه ليس فى مقدور أى سيارة أن تقترب من هذا المكان الصخرى ولو على بعد أميال . ولا بد أن الغلام سافر إلى بعض المدن فى وقت مـــا .

وقد قمنا بزيارة بيت آخر من بيوت القرية . ولكنه أحسن حالا ، ورغم أننا قمنا بالزيارة دون أخطار إلا أن الشرفة التى تقع أمام البيت والتى كانت ممهدة بالطين الجاف ، ومحاطة بجدار منخفض مطلى بالجير ، كانت نظيفة للغاية بحيث إننى أعدت إلى العلبة عود ثقاب كنت قد أشعلته ، إذ تخيلت أن العود سينظر إلى شذراً لو أننى ألقيت به هناك . وكانت واجهة المنزل مطلية

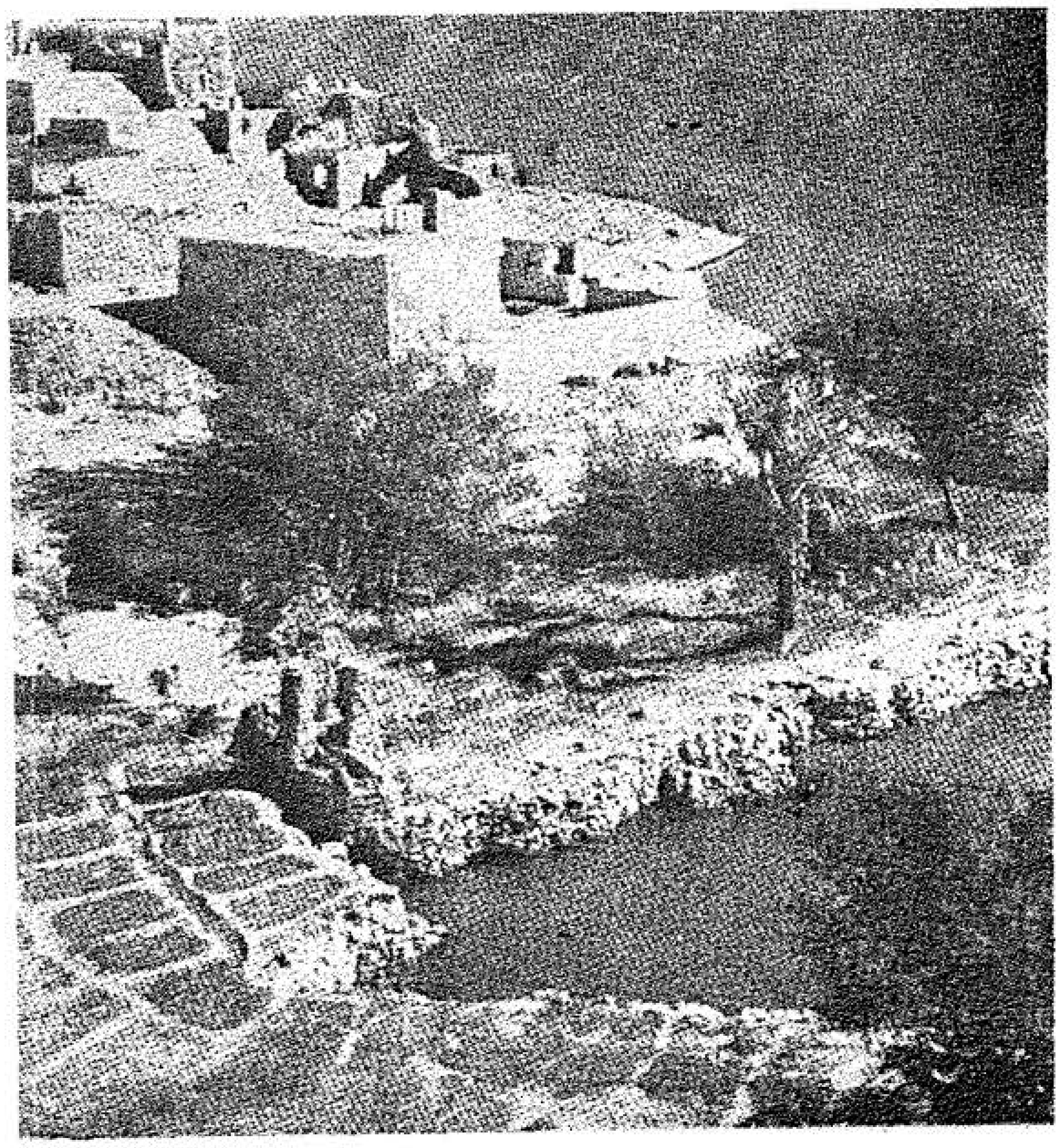

تتلاصق القرى النوبية فوق الشواطئ القاحلة للنهر حيث ارتفع منسوبه بسبب سد أسوان الحالى . ولا يزرع سوى مساحات صغيرة من الأرض تروى بالماء فيما عدا خلال بضعة أسابيع قلائل فى الصيف حين ينخفض منسوب المياه فى الخزان وتستخدم الحقول التى كانت تزرع فيما سبق من أجل محصول عاجل .

يجرى العمل فى توسيع قنوات الرى فى انتظار التغير الذى سوف يحدث من رى الحياض إلى الرى الدائم . وتستخدم أيضاً الآلات الخاصة برفع الأتربة ، بيد أن ذلك يتم تدريجياً .

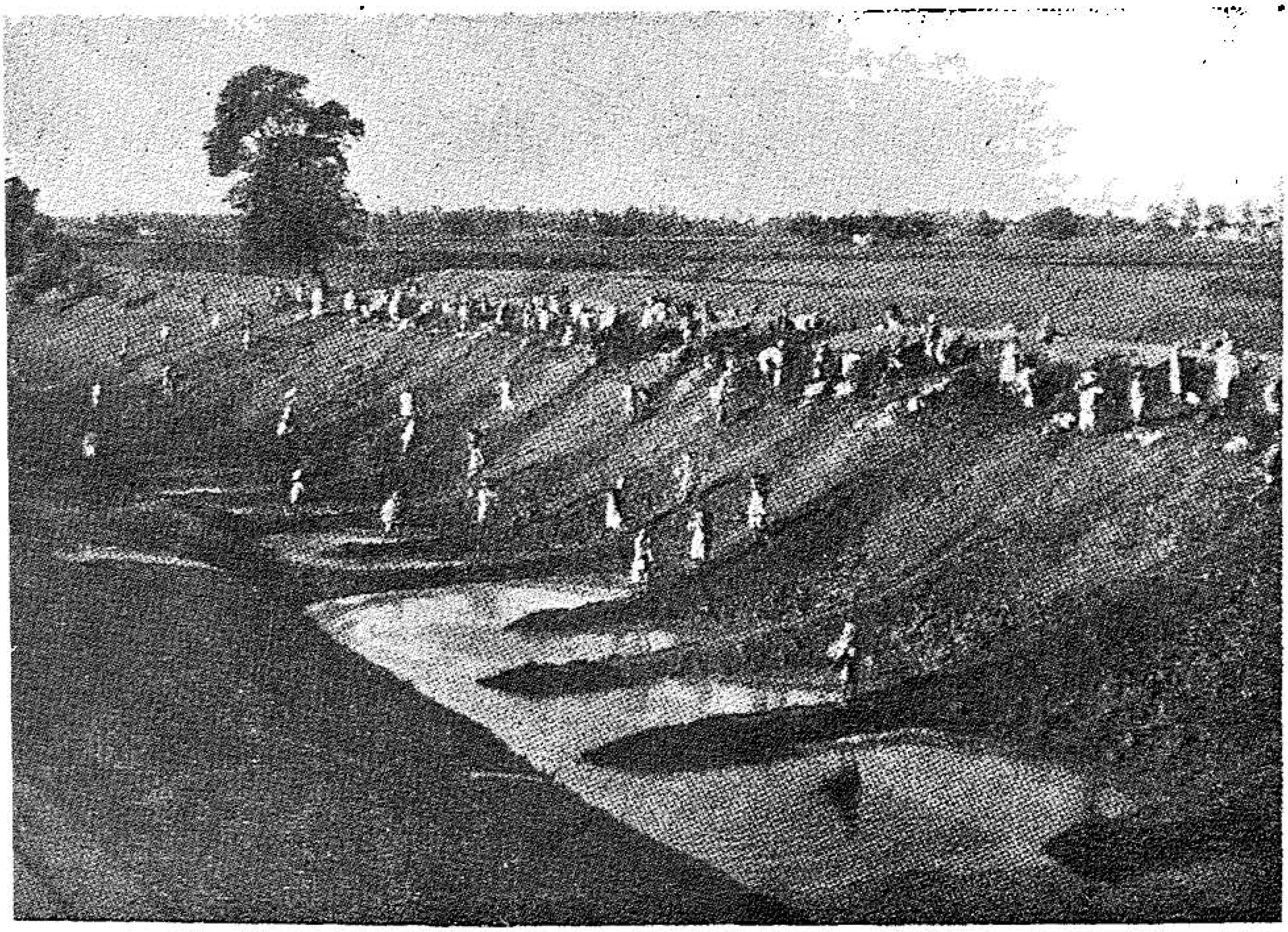

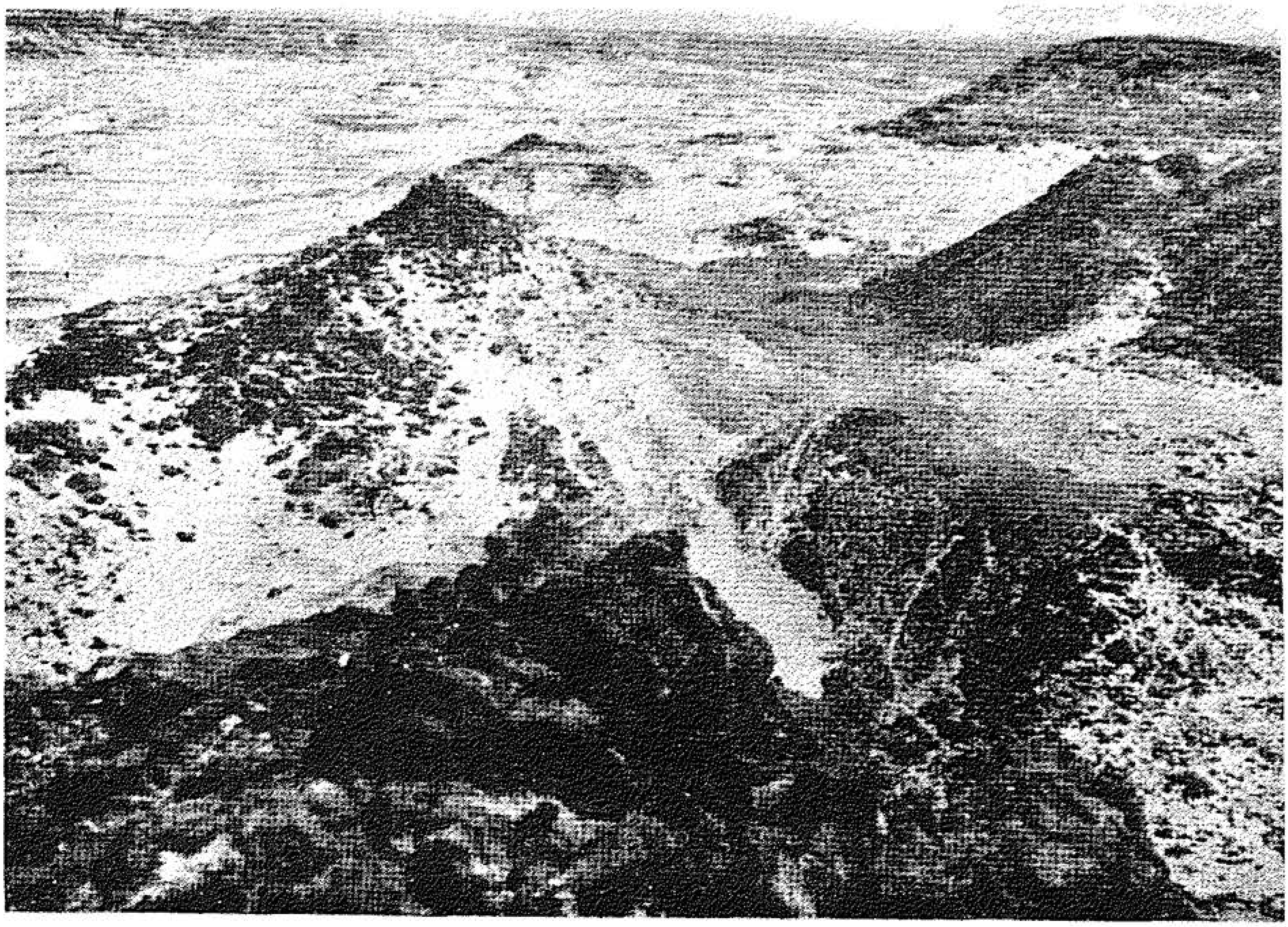

طبيعة الصحراء الوعرة في بلاد النوبة وهي تطل نحو الشرق . ويرى النهر بين الخافة البعيدة وبين الجبال النائية

الصحراء النوبية تطل نحو الغرب ، على مقربة من النهر

بالجير ومزخرفة على هيئة الأسقلوب[1] ذات ثقوب ، وتحمل المجموعة العادية من الآنية الخزفية ؛ ورغم أن أثرها الكلى كان زخرفياً إلا أنها كانت تدعم بطابع المهابة وغاية فى الروعة . ويفضى الباب مباشرة إلى غرفة للضيوف من الرجال ، وفيها أربعة أسرة — سريران متنقلان كأسرة المعسكرات وسريران خشبيان سودانيان مجدولان باللوف فى شكل جميل . وكانت الأغطية من النسيج القروى له خطوط ملونة ، وبعضها تنتشر فيها وحدة زخرفية على شكل الماس ، وهى من السودان . وكانت الغرفة مجددة الهواء نظيفة ، أنام فيها عن طيب خاطر . وقد علق على الحوائط بعض الصور لممثلات الأفلام ، الأوربية والعربية ، المنزوعة من الصحف ، إلى جانب صور بعض الخيول ، وصورة زاهية اللون مرسوم عليها رئيس الملائكة جبريل وهو يهبط فى أرض القاهرة ممتطياً جواداً أبيض اللون ذيله على هيئة ذيل الطاووس . وإلى جانب هذه الصورة توجد صورة مطبوعة زاهية للعذراء مريم وطفلها ، اختيرت فى اعتقادى على أساس ألوانها الزاهية أكثر من دلالتها الدينية ، إذ أن هؤلاء الناس الطيبين كانوا مسلمين . وكان يشرف على تنظيف المكان امرأة طاعنة فى السن قريبة لصاحب المنزل الغائب ، وقد قادتنا إلى الغرفة الداخلية ، وهى تعتذر لظهورها أمام الرجال بعبارة مؤثرة : « إننى عجوز ، ولذا فإن الأمر لا يهم » .

ويوصل إلى الغرف الداخلية فناء صغير خلف حجرة الضيوف فى واجهة المنزل . وكان يقبع فى زاوية من الفناء جرو صغير وهو يعوى مبتهجاً بأنه لفت الأنظار ، وكانت هناك بضع دجاجات صغيرة ولكنها لم تكن تصيح . وكانت الغرفة التى قادتنا إليها المرأة — والتى كان الضوء يأتى إليها من فتحة الباب — مثل محل لبيع التحف الفنية . وقد اعترتنى الدهشة لحظة من الزمن ، بحيث استفسرت عما إذا كانت حقيقة محلا لبيع التحف . ولكن لا ؛ فقد كانت

---

(١) صدف مروحى الشكل . وزخرفة الأسقلوب هى زخرفة لها هامش مكون من أقواس متداخلة .

تلك عادة النوبة أن تحوى غرفة العرس كل ما يعتز به العروسان ، وهو يعرض كأنه فى متحف من المتاحف . وكانت الجدران مغطاة بمراوح ، على هيئة الأعلام ، ذات ألوان زاهية ، وعليها حصر منسوجة من القش الملون والقطن ، مكونة من أربع طبقات فى بعض الأحيان ، ثم أشغال من السلال على هيئة الدروع المستديرة ، والتى أعتقد أنها تصنع للزينة فقط . ويتدلى من أخشاب السقف مئات من السيور ذات شرابات وقد علق فيها قرعات مزخرفة ، وأوان من الخزف ، وحتى أطباق مطلية بالمينـــا بأعداد وفيرة .

وعلى الرفوف حول الغرفة وضعت عشرات من اللعب ما بين ملاعق رسولية[1] إلى بط مصنوع من الخزف الأوروبى وفناجين للقهوة من اليابان . وقد علق كذلك فوق حبال قريبة من السقف عشرات من الأوشحة الملونة وأطوال غير مستعملة من قماش « الموسلين » . أما الحزام والرداء الحربيين لصاحب المنزل فهما معلقان على أحد المسامير ، كما يتدلى من السقف سبط من بلح أصفر جاف ، تلك كانت هدايا عاد بها رب البيت من إحدى الرحلات . ومن الجدير بالذكر أنه لم يكن ثمة تراب كثير على هذه المجموعة رغم كثرتها وتنوعهـــا ، وهى مجموعة تخلب لب أية زوجة إنجليزية أو أمريكية .

وقد كتب « امرى » ذات مرة يقول إن السبب فى نظافة النوبيين إنما يرجع إلى أن الكثيرين منهم يعملون خدماً فى منازل الطبقة الموسرة فى مصر . ولكننى أعتقد أن العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم يحصلون على عمل فى البيوت المتيسرة لأنهم شعب نظيف . والنظافة تعتبر صفة من صفات الجنس شأن كثير غيرها من العادات الاجتماعية والشخصية . هذه المميزات قد

---

(١) ملاعق فضية على يدها نقش يمثل بعض الرسل المسيحيين وكانت العادة إهداءها وقت التعميد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (قاموس القرن العشرين الإنجليزى) .

لا يتوارثها القوم من الناحية الجسمانية ، ولكنها مشروطة بالجنس ومستمرة معه . وهكذا يعتبر النوبيون جنساً منفصلا عن المصريين ، كما هو الحال خلال عصور التاريخ المدون . ومع ذلك فلا بد أنهم فى زمن قديم انحدروا من سلالة واحدة [1] .

---

(١) اتصل النوبيون بالمصريين ثقـافياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً منـذ أقدم العصور المعروفة . (المراجع)

الجزء الثانى

البـــــارحة

— ١ —

لقد طرأت على الحياة فى بلاد النوبة تغييرات كثيرة فى مائة السنة الأخيرة أو نحو ذلك ، كما حدث كذلك فى مصر . كانت الأيام الخوالى أيام الأتراك والاستبداد ومحمد على . أما أيامنا هذه فهى أسعد حالا ، حتى لو كان الناس أكثر تكلفاً عن ذى قبل .

وقد كتبت « أمليا ادواردز » سنة ١٨٧٤ تقول : « إن النوبيين ما زالوا برابرة فى أعماقهم » ؛ ولكن الإنسان لا يرى دليلا قاطعاً على صدق هذا القول فى هذه الأيام . وقد رسمت على جدران المقابر المصرية القديمة رقصات بربرية يقوم بها بعض النوبيين ، وتورد أمليا وصفاً لمثل هذه الرقصة فى جناز من الجنازات . ثم تقول : « إن من المحتمل أن تكون هذه الرقصة أثيوبية » . ولكنها تصرح بأن من الواضح أن عصابة الرأس التى ترتديها جماعة النائحات هى عصابة مصرية بحتة ، كما هو الحال بالنسبة للتراب يلقونه على رءوسهن . أما النواح الذى يرتل على ثلاث دفعات ، فمن المحتمل أنه نفس النواح الذى كان يرتله الناس على الفراعنة وهم يشيعونهم إلى قبورهم .

وكان الرقص الوحيد فى قريتنا تؤديه الابنة الصغيرة لصياد السمك الفقير ، وقد اعتادت أن تعرى عن والديها أمام منزلها وقت الشفق . ومع ذلك كان يجرى فى عروق تلك الشيطانة الصغيرة بقية من إفريقية الأصيلة ، تتمثل فى الكيفية التى كانت تتحرك بها دون أن يلقنها أحد ، ولكنها كانت ترقص بطريقة خلابة .

ويبدو أن النساء أصبحن أكثر عزلة فى القرن الأخير ؛ ذلك أن السائح « ج . ا . سانت چون » J.A. St John الذى مر بهذا الطريق حوالى سنة ١٨٣٨ – والذى سوف نتعرض فيما بعد لكراهيته لقدماء المصريين – قال إن نساء « بيت الوالى » أردن أن يبعن له منطقة صغيرة من سيور الجلد هى كل ما يستترن به .

« منطقة ضئيلة ، تبلغ حوالى تسع بوصات من الأمام ، وأقصر من ذلك عند الجانب الأيسر معلقة على حزام ضيق يمر حول خصرهن ، وهى مزينة بأصداف بيضاء جميلة مختلطة بحبات من الخرز الأحمر والأزرق ، تلك هى اللباس الوحيد الذى ترتديه الفتيات العذارى . . أما بقية الجسد ولونه نحاسى قاتم مخضب باللون الأحمر ، فكان يبدو وقد كسته طبقة من الزيت ، أملس ناعماً . وكان شعرهن غالباً ما تزينه التمائم والحلى التى تتكون من الأصداف والخرز ، معقوصاً إلى عدد كبير من الجدائل الصغيرة المستقيمة ، وقد ضفرت بعضها ببعض بشحم الضأن أو زيت الخروع وعندما يذوب فى وهج الشمس يتصبب فوق أكتافهن وصدورهن وتتصاعد منه رائحة كريهة بحيث لم يكن فى مقدورنا أن نقف على مقربة منهن إلا بشق الأنفس . وقد وصف « بريور » Prior جنساً إفريقياً آخر بقوله :

« قبل أن يقع بصرك عليها ، تشم رائحة الخبز المحمر وأحلاهن من تفوح رائحتها أكثر من الأخريات » .

ولقد وصف سائح آخر ، هو « چون جادزبى » John Gadsby الذى جاء بعد ذلك بعشر سنوات ، حفل زفاف مر به على الشاطئ : « كانت النسوة يرقصن ، وكلهن يرتدين أجمل ما عندهن ، أى الدهان الجديد بالزيت . وكان الزيت والعرق يتصببان فوق وجوههن كقطرات الندى ، وكن يلمعن كما لو كن قد غطسن فى خزان من الدهان » .

أما نساء النوبة اليوم فهن يرتدين مثلما ترتدى أخواتهن المصريات ، وهن ملتفات من قمة رءوسهن إلى أخمص أقدامهن ، ولكن مع مزيد من الألوان

الزاهية . ولم تعرض علينا إحداهن أن تبيع لنا ملابسها الشخصية أو اقتربت منا بحيث نشم منها رائحة ما ، والحقيقة أنه حينما كان قارب البدال يبيع لنا بعض الأشياء على مقربة من السفينة ، قطعت النساء شوطاً بعيداً جداً خلال أفنية المنازل الخلفية،وذلك لكي يتجنبن المرور من أمامنا ؛ وحين تصادف أن وقع بصر فتاتين — وكانتا ذاهبتين إلى البحر لجلب الماء — على « كارل فنجرهوث » ، وهو شاب لطيف ، ألقت كل منهما صفيحتها وولت هاربة وهي تصرخ .

لكم تغيرت الأحوال ! استمع إلى « جادزبي » سنة ١٨٤٦ : « إن النوبيين لا يعترضون على أن يتحدث زوجاتهن إلى الرجال ، حتى لو كن غير محجبات . وهم لا يشتبهون فيهن بسرعة ، ولكنهم سريعو التنفيذ ، فحين يقتنعون بأن لديهم من الأسباب ما يكفي للاشتباه في إخلاص زوجاتهن ، يقومون بربطهن في زكيبة من الركائب ويغرقونهن في النيل ، بدلا من أن يطلقوهن . بيد أنه من الحقائق التي لا ريب فيها ، أن النوبيات يعتبرن من أكثر نساء الشرق كلهن فضيلة » . وليس في ذلك ما يدعو إلى الغرابة .

كلا ، إن بنات النوبة يقعن شيئاً فشيئاً تحت طائلة الأزياء الحديثة ، ذلك أن نفوذ القاهرة يزحف رويداً رويداً ، حتى اختفى تماماً زيت الخروع كدهان للزينة .

وجون جادزبي هذا سائح آخر تعتبر صحبته خلال تاريخ النوبة رحلة مسلية ومثقفة في أغلب الأحيان . كان يعمل ناشراً في لندن ويمتاز بأنه ڤكتوري[1] للغاية ، وغالباً ما يقتبس من الإنجيل بشكل ممل ، ومع ذلك فإن كتاباته قيمة لما توضحه لنا من صورة مصر المعاصرة . وهو يستهل كتابته بقوله : ما الذي يغريني ، وأنا زوج وأب ، بترك كل ما هو عزيز لدى على وجه الأرض ، والقيام بهذه « الجولات » التي سأقص عليكم

(١) يسير وفق التقاليد التي سادت إبان عصر الملكة ڤكتوريا .

قصتها ؟ ثم يتبع ذلك وصف طويل لسعاله ونزفه الدم من فمه ، وذلك لكى يمهد الطريق لتصريحه بأن سوء الصحة الدافع الوحيد له على مبارحة بلاده .

ولا بد أن ذلك كان دواء شافياً أو قاتلا ، فهو يقول : « لا أستطيع أن أقول سوى أنه على الرغم من أننى اخترقت بلاد النوبة ، وعلى الرغم من أنى اجتزت مصر ، وعبرت الصحراء الموحشة ؛ وعلى الرغم من أنى وطئت أرض تركيا ، وشاهدت قصورها المبنية من الرخام وجوامعها الوضاءة ، وشققت طريقى بين الآثار الرشيقة لليونان القديمة ؛ ورغم . . . ومع ذلك فإننى فى مقابل ذلك كله ، لا ، بل فى مقابل عشرة أضعاف ذلك كله ، لن أتخلى عن وطنى العزيز ، أو أبارح شواطئه مرة أخرى ، ما لم تدفعنى الضرورة لذلك »

هذا المحتال العجوز — كان مغرماً بالرحلات ! فقد سافر خمس مرات وعاد ثانية بمذكرات ضخمة .

وجادزبى شاعر غنائى ، حين يتحدث عن جو النوبة . وهذا على الأقل ، لم يتغير .

« لا شىء فى العالم يماثل حلاوة الأصباح والأمسيات فى النوبة . فإن مجرد التنفس يعتبر رفاهية ، كما لو كانت الرئتان تستمتعان بإجازة . . كان فى مقدورى أن أقرأ على ضوء القمر ولم يك إلا فى ربعه الأول فقط . كان الهواء ساكناً ، وأوراق الشجر لا تتحرك ، والنهر يتهادى فى مجراه دون موجة صغيرة . لم يكن بك حاجة إلى أن تصيح « هدوءاً ! » إذ كانت الطبيعة تبدو وكأنها فى غيبوبة . وإذا حدث أن قطع هذا السكون صوت فإنما تقطعه سمكة كبيرة تقفز من الماء فيتطاير بعض الرذاذ أو تقطعه بجعة مذعورة وهى تصيح وتنتقل من مكانها ، وبعد قليل يعود كل شىء سيرته الأولى من الاسترخاء . . إن القول بأن هذا الجو فاتن إنما يعبر عن جزء بسيط من الحقيقة . إنه جو يخلب اللب بما يحوى هذا التعبير من معنى ؛ جو يعجز المرء عن وصفه »

ولكن هذه الفتنة كانت على نقيض البؤس الذى كان يعانيه النوبيون فى تلك الأيام ، كان الرق شيئاً معترفاً به ، وليس وقفاً على إفريقية وحدها ؛

وكانت مصر تئن تحت حكم الباشوات الجشعين الذين أعقبوا حكم محمد على . وحينما صعد جادزبى على الشاطئ عند وادى حلفا أخذ « يتجول فى القرية . وجاءت النساء وكلهن غير محجبات . وكانت كلمة « بقشيش » هى صيحة الجميع . كيف يعيش هؤلاء الناس ؟ هذا ما لا يمكننى التكهن به فكل مسكن يبدو لى وكأنه مأوى للبؤس والحرمان » .

ويعتبر تاريخ النوبة ، شأن التاريخ عامة ، مما يثير الأسى فى النفس » ويقول جادزبى : « إن الناس كانوا يعيشون فى سعادة نسبية على أرضهم الحرة . ولكن المدمرين من أفراد الجيوش المصرية[1] قضوا على عدة آلاف من السكان ، واستعبدوا عدة آلاف أخرى » . وهؤلاء الذين فروا من الرق أكرهوا على الالتحاق بالخدمة العسكرية . وكان جادزبى يرى كل يوم مئات من الرجال « تتبعهم نسوة يصحن ويولولن ، ويضربن بأيديهن على صدورهن التى لطخنها بالوحل ، ويخدشن وجوههن من الأسى حتى تسيل الدماء منها » كان بعضهن يصحن ؛ « أخى ، أخى العزيز ! » على حين يصيح البعض الآخر « ولدى ، ولدى ، يا ولدى ! » وكانت امرأة مسكينة تصيح وقد استبد بها اليأس : « ولدى ، ولدى الوحيد ! ماذا يكون مصيرى — أنا وأخته المسكينة . إنه يعول كلينا » . كانت هذه المرأة قد فقدت زوجها حين قضى نحبه ، وها هى الآن تفقد ابنها الوحيد الذى اختطفته منها يد الاستبداد التى لا تقل قسوة عن الموت . ولكن الضباط لم يكونوا ليأبهوا بصياحها . كان القارب تلو القارب يملأ بهؤلاء المساكين ، ولا تعود الغالبية العظمى منهم قط » .

وكان البحارة يهجرون قواربهم فى هذه المناسبات خشية أن يقبض عليهم الجنود . وكانت المزارع والسواقى والقرى تخلو من الرجال الذين كانوا

(١) هذا الوصف يشير إلى عصر كانت فيه الجيوش المصرية تحت إمرة ضباط من الأتراك والشراكسة وأمثالهم وهو العصر السابق للثورة العرابية وهو عهد ساد فيه الظلم (حوالى سنة ١٨٥٠)

يلجأون إلى الصحراء مختبئون فيها حتى ينصرف عصب التجنيد[1]. وقد التقى جادزبى بنفر من السائحين الإنجليز وقد انتشلوا جثة رجل من النهر موثق اليدين ، اتضح أنه آثر الموت على التجنيد حيث يظل الرجال فى المعسكرات حتى يصبحوا عاجزين عن أداء الخدمة ، ومن ثم يلقى بهم فى عرض الطريق يتولون إلى أن يلقوا حتفهم .

ولو أن الفلاح نجا من كل هذا ولازم أرضه ، فإن عليه أن يدفع ضرائب عن ساقيته وعن أشجار نخله ، تبلغ جنيهاً عن كل فدان ، ولم يكن هذا بالمبلغ الهين فى ذلك الحين ؛ كما لم يكن ليسمح له بتخفيض قيمة تلك الضرائب نظير طغيان الصحراء على أرضه . وإذا لم يستطع تسديد ما عليه من الضرائب تصادر محصولات حقله وثيرانه وجماله وكل ما ملكت يمينه . ويقول جادزبى فى هذا الصدد : « إنه ليس نظاماً استبدادياً فحسب ، ولكنه نظام مبيد ، ذلك أنه يصل بالإنسان إلى أسفل درك من البؤس والانحطاط . . . » .

وإنه لمن العجيب حقاً أن نتصور أن الحياة كانت تسير على هذا النمط فى بلاد النوبة منذ نيف ومائة عام خلت . ولكننى حينما أقارن هذه الحال بما عليه النوبة اليوم من أمن بالغ ورخاء نسبى أزداد ثقة فى التطور الحقيقى الذى يحرزه الإنسان — ولا أعنى بهذا التطور الآلى ، فذلك ليس إلا وسيلة لغاية ، بل التطور من حيث التسامح والتعاطف . إننى أدرك أن الإنسان قد ارتكب أخطاء شنيعة فى الأعوام الأخيرة ؛ ومع ذلك إذا تسنى لك أن تطلع على أعماق التاريخ لرأيت أن الإنسان — على الرغم من زلاته وأخطائه — قد أحرز تقدماً فى هذه الناحية على مر العصور ، وربما يوضح تاريخ النوبة ذلك التقدم إلى حد ما ، فهو تاريخ طويل بما فيه الكفاية . ويضيف جادزبى قوله : « ووسط هذا الفقر المدقع يتسم النوبيون بالأمانة المطلقة . ولذا يستطيع السائحون أن يستلقوا فى قواربهم فى أمان تام » .

---

(١) مفردها عصبة التجنيد ، وهى جماعة من الرجال كان يخول لها اصطياد المجندين للجيش أو البحرية . (المترجم)

ويشهد بذلك سائح آخر زار هذه المنطقة بعد جادزبى ، وهو « جان لاپورت » أحد الفرنسيين الذين يمتازون بسعة الاطلاع ودقة الملاحظة ، وأول من قطع النيل كله من أقصى منابعه إلى البحر منذ حوالى عشر سنوات خلت . وقد قام بهذه الرحلة الشاقة فى قارب مصنوع من المطاط كان يتركه فى أى جزء من أجزاء النوبة دون أن يمسه أحد . ويقول أن ما من أحد طلب منه أية هدية من أى نوع طوال ١١٠٠ ميل سوى مرة واحدة فحسب ، ذلك أن أحد النوبيين الطاعنين فى السن ممن كانوا يرتدون ثياباً مهلهلة طلب منه فى أدب أن يعطيه سرواله فأعطاه له . ويقول لاپورت فى هذا الصدد : « إن النوبيين فى المدن الكبرى ، الذين ما زالوا يحتفظون بطباع سكان الصحراء يتصفون بالصراحة والكبرياء والأمانة والكرم . ولسوف يجعل وجودهم مع ما لهم من فطنة ، والخلوة الكبرى لهذه الصحراء – من هذا الجزء من الرحلة التى نقوم بها – شيئاً لا تمحى ذكراه الطيبة » .

وكانت بلاد النوبة سفراً مغلقاً أمام علماء الآثار إلى العهد الذى تمت فيه عملية مسح الآثار الأولى التى ذكرناها سالفاً ، عند أول تعلية لسد أسوان الحالى سنة ١٩٠٧ . وفى ذلك الوقت لم يكن يعرف شىء عن شعوب تلك البلاد وثقافاتهم فيما عدا بعض إشارات عابرة إلى القبائل النوبية ورد ذكرها فى السجلات الرسمية للحملات المصرية فى عهد الأسرات . وقد كشف مسح الآثار جنوب شلال أسوان عن وجود سلسلة من المراكز الآهلة بالسكان فى العصور القديمة تعاقبت عليها الأجيال وزخرت بالدلائل التى تشير إلى وجود مجتمعات كانت تعيش على الزراعة ، وصيد الأسماك ، والقنص ، بالإضافة إلى شبكة من وسائل المواصلات .

ويبدو أن السكان الأوائل كانوا يشبهون المصريين الذين ينتمون إلى عصر ما قبل الأسرات ، أى أنهم كانوا من نفس الجنس الذى ينتمى إليه المصريون الأوائل ، وكانوا يستخدمون نفس الأنواع من الفخار والصوان والجلود والزخارف . ويشير هذا إلى أن المصريين فى عهد ما قبل الأسرات

كانوا يحتلون وادى النيل من الدلتا إلى جنوب الشلال الأول ، ولا بد أنه كان ثمة اتصال دائم بين القبائل على طول النهر .

وعلى كل ، فقد لوحظ اختلاف بين فى تطور كل من الشعبين عقب عصر الأسرات الأولى . ويبدو أن سكان النوبة جنوب الشلال قد تخلفوا عن ركب التطور الثقافى الذى كان يواصل سيره فى الجزء السفلى من النهر ، ركب التطور الذى أحرزته المدنية المصرية القديمة . وقد تمسك هؤلاء السكان بصناعاتهم البسيطة وبطريقتهم فى الحياة — وهى سمة لم تفارقهم منذ ذلك العصر . وفى الوقت الذى حلت فيه الأوانى المصنوعة من الحجارة أو النحاس محل الأوانى الفخارية فى مصر ، كان سكان الجنوب يواصلون صنع الأوانى بأيديهم . وعندما عرف دولاب الخزاف فى مصر قام المصريون بصنع بعض الأوانى والسلع الجميلة من الفخار الذى عاد ثانية إلى الظهور ، ولكن النوبيين لم يألفوا قط استخدام آلة من طراز جديد مثل دولاب الخزاف ، ولذا استمروا فى تشكيل الأوانى باليد . وتدل الآثار التى وجدت فى المقابر القديمة على أن هذا التخلف الثقافى كان مصحوباً بازدياد فى العناصر الزنجية بين السكان . وهكذا بدأت تتميز الأجناس شمال وجنوب ذلك الحاجز البسيط ، الشلال الأول .

ومع ذلك يظل هذا السؤال معلقاً : من أين جاء هؤلاء المصريون الأوائل فى أول الأمر ؟ وتتفاوت الإجابات ما بين الهجرة من آسيا الصغرى إلى النظرية القائلة بأن قدماء المصريين ظهروا مزودين بسلاح الحكمة من قارة « أتلانتيس » Atlantis المفقودة . وقد ألف « ديودور الصقلى » فى عصر « يوليوس قيصر » كتاباً عن تاريخ العالم قال فيه : « يعتبر الأثيوبيون ، كما يخبرنا التاريخ ، أول الناس قاطبة . . وهم يؤكدون أن معظم عادات المصريين إنما هى عادات أثيوبية » .

ويميل علماء الآثار المصرية المحدثون إلى الأخذ بنظرية « ديودور » ، وفى هذا يقول « أ . ج . آركل » A.J. Arkell ، المدير العام السابق للآثار فى

السودان : « ثمة شيء من الحقيقة يكمن غالباً وراء رواية مأثورة تتناقلها الأجيال » ، ثم يضيف قوله : « إن كثيراً من معالم المدينة المصرية جاءت من آسيا ، ولكن الروايات المأثورة فى مصر القديمة تقول بأن أسلاف المصريين وفدوا من بلاد پونت . غير أن بلاد پونت « أرض الآلهة » ، قد تكون هى بلاد الصومال التى ربما وفد منها الجنس الأسمر الذى ينتمى إليه المصريون فيما قبل الأسرات » .

وقد أخبرنى البروفسور « پلوملى » Plumley الأستاذ بجامعة كمبردج[1] والذى زار بلاد النوبة فى عام ١٩٦٠ – ١٩٦١ أنه يعتقد أن أهل بابل ومصر قد انحدروا من شعب ثالث ، هو أصلهم المشترك . وهذا الشعب الثالث ربما وفد من القرن الإفريقى ، بلاد الصومال ، أى بلاد پونت ، ولكن لم تجر هناك حفائر علمية قط . ومن الممكن أن يكون بعض هؤلاء الناس قد جاءوا على طول ساحل البحر الأحمر ، ذلك أن الظروف كانت مواتية فى ذلك الحين ، ومن الممكن أن يكونوا قد وصلوا إلى نهر النيل خلال ممر جبلى عن طريق القصير ، وهى ميناء صغيرة على البحر الأحمر فى الوقت الحاضر . وقد تتكشف بعض الحقائق عن هذا الموضوع إذا أجريت بعض التنقيبات حول تلك البقعة . وأعتقد أن من المحتمل كذلك أن هذا الشعب الثالث قد يكون أصلا من جنوب بلاد العرب ، وأن البعض قد عبر البحر الأحمر واستقر على الساحل الإفريقى . ومن بين الرسوم التى ترجع إلى العصور الأولى قبل الأسرات يوجد رسوم لبعض القوارب . وسيكون شيئاً مثيراً للاهتمام إذا وجدنا رسوماً مشابهة على الساحل الصومالى .

وبغض النظر عن هذه التأملات ، فمن الواضح أن ثمة حقائق كثيرة يجدر بنا أن نكتشفها فيما يختص بالهجرات الأولى للشعوب فى إفريقية قبل أن نستطيع تكوين صورة واضحة عن الكيفية التى بدأ بها التاريخ . ولكن لو

---

(١) يقوم الأستاذ پلوملى شتاء كل عام بحفائر بمنطقة إبريم ببلاد النوبة .

أننا فقدنا الدلالات التي ما زالت مدفونة فى أرض النوبة المهددة بالغرق ، لما استطعنا أن نأمل فى الحصول على تلك الصورة كاملة ، إذ أن إتمام هذه الصورة يتطلب جمع الأدلة والشواهد من أماكن غالباً ما تكون بعيدة عن بعضها البعض ، ثم استنباط النتائج من مقارنة هـــذه الشواهد ببعضها البعض .

وعلى سبيل المثال قام آركل بنفسه بحفر موقع من المواقع فى الخرطوم ، وهو جنوبى الجزء من النهر الذى نتحدث عنه حالياً . وقــد اكتشف وجود جنس من الصيادين الزنوج الذين وصلوا إلى شىء من أوليات المدنية فصنعوا الأوانى الخزفية المحلاة بخطوط متعرجة ، كما صنعوا الرماح ذات الرءوس المدببة من العظام ، وكلها تبدو أقدم من الأنواع المماثلة المعروفة فى مصر . ولذلك « من المعقول القول بأن هؤلاء الناس ربما نقلوا هذه الأشياء إلى المصريين فى عهد ما قبل الأسرات بطريقة لم تكتشف حتى الآن » . وقد حير هذا الأمر علماء الحفائر الخاصة بمصر فيما قبل الأسرات وهم الذين استنتجوا أن الشعوب القديمة قد دخلت مصر من الجنوب . ومن الطبيعى أنهم كانوا يتوقعون أن يعثروا على بعض الروابط الثقافية البسيطة بين المصريين وبين الأماكن الواقعة فى أقصى الجنوب ، ولكنهم لم يتوقعوا وجود شعب من الزنوج توصل إلى صناعة الخزف المحلى بالخطوط المتموجة ورءوس الرماح من العظام ، وذلك قبل عهد الأسرات المصرية . ويقول آركل إن الخطوة التالية فى السودان هى أن نقوم بفحص نوعين آخرين من الثقافة ، أحدهما يعرف باسم « الثقافة المجوبية »[1] والآخر يعرف باسم « ثقافة قنطرة أم درمان » وذلك لكى نكتشف ما إذا كانت هاتين الحضارتين تنتسبان إلى الجنس الزنجى مثل الصيادين بالرماح صناع الخزف ذى الخطوط المموجة أم أنهما تنتسبان إلى الجنس الأسمر ، شأن المصريين فى عهد ما قبل الأسرات .

---

(١) نسبة إلى المجوب وهى آلة لقطع العظم وهى تقابل كلمة Gouge بالإنجليزية (المترجم)

وهناك فى أقصى الغرب ، على بعد سبعمائة ميل من « تمبكتو » يوجد نهر منقرض هو نهر « أزاواك » Azaouak كان يصب يوماً من الأيام فى نهر « النيجر » . وعلى شواطئ بحيرة غاضت مياهها كان يصب فيها نهر أزاواك عثروا على بعض قطع من الخزف تشير إلى تقابل مع ثقافة الخزف المموج والثقافة الحجرية وثقافة قنطرة أم درمان ، كما أن بعض قطع الخزف المموج وجدت فى « كسلا » على الطريق الذى يوصل إلى البحر الأحمر من الخرطوم وإلى جانب ذلك عثروا على قطع شبيهة بالخزف المموج فى « نوزى » Nuzi فى شمال العراق . ويقول آركل فى هذا الصدد إن من المحتمل أن يكون هذا النوع من الخزف قد اخترع فى آسيا ثم انتشر بواسطة صيادى السمك والقناصة من الزنوج فى ربوع إفريقية عن طريق شمال السودان والصحراء الجنوبية « وذلك قبل أن يدخل وادى النيل السفلى ويكون أحد معالم المدنية القديمة فى مصر » . ولعل هذا حدث حينما كانت الصحراء خضراء يانعة ، وربما كان وادى النيل فى مصر فى ذلك الوقت مليئاً بالمستنقعات ، وأقل ملاءمة للاستقرار عما هو عليه اليوم . وتوضح الحياة الحيوانية فى الوقت الحاضر على تلك الهضاب المنعزلة : الحجارة و « آير » Air قرب نهر ازاواك المنقرض ، توضح كيف كانت سبل الاتصال بالنيل فى العصور الأولى أيسر مما هى عليه الآن . ونحن نعلم أن الثدييات هى من الأنواع السودانية أو قريبة الشبه منها ؛ ولهذا فإن العثور على بعض البقايا المتحجرة لنوع منقرض من الجرذان — يعرف علمياً باسم « ثريونوميز أركيلى »(١) فى موقع الخرطوم ، وشبيه ببعض الأنواع التى عثر عليها فى بعض الرواسب شمال وغرب الصحراء لما يدل على أن الصحراء العظيمة كانت فيما مضى منطقة خصبة يستطيع أن يتجول فيها الإنسان .

هذه ليست سوى لمحات موجزة عن العمل الضخم الذى يقوم به الباحثون فى جميع أنحاء إفريقية اليوم والذى نعتشم أن يتمخض عن معلومات أفضل عن

---

(١) Thryonomys Arkelli

بدء سكنى مصر القديمة – وعن سكنى النوبة كذلك ، بالإضافة إلى معلومات أخرى .

وقد ترك لنا سكان العصر الحجرى لبلاد النوبة آثاراً كثيرة كفيلة بإثارة اهتمامنا ، وقد جمع بعض هذه الآثار ونشر ، ولكنه ليس ذلك سوى جزء صغير فحسب . ويصف « ج . ه . دنبر » J.H. Dunbar فى كتابه « بعض الصور الصخرية فى بلاد النوبة السفلى »[1] عدداً كبيراً من النقوش الموجودة على الصخر وعدداً من الرسوم النادرة جداً على الصخور ما بين أسوان ووادى حلفا . وفى هذا يقول : « إن هذه البقعة الممتدة بحذاء النيل هى معرض النقوش الصخرية يبلغ طوله مائتى ميل » . ومن أغنى هذه البقاع وأكثرها تنوعاً بقعة من هذا المتحف الفنى للعصر الحجرى تمتد حوالى الميل نحو الشرق من « خور رحمة » وهى القرية التى تلى قريتنا « بيت الوالى » عبر النهر . ولا محالة فى أن عدداً كبيراً من الأعمال الفنية التى ترجع إلى أقدم العهود سوف تغمرها مياه الخزان ، حيث إنه لن يمكن نقل سوى عدد ضئيل منها . ولا بد أن هناك عدداً كبيراً آخر لم يكتشف بعد . وعلى كل فقد عرض معهد الآثار التشيكى بالقاهرة أن يبعث بحملة خاصة لكى يعين مواقع النقوش والرسوم الصخرية حتى خط المياه الجديد ثم يقوم بنسخ هذه النقوش والرسوم[2]. وقد عرضت جامعة « همبولدت » ببرلين نفس العرض على السودان .

ولسوء الحظ أن النقوش والرسوم التى ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ليست بإمضاء أصحابها ، ونادراً ما نجد أى أثر يدل على الناس الذين قاموا برسمها وعن الكيفية التى كانوا يعيشون بها . وعلى كل ، فقد اكتشف « أو . ه . مايرز » O.H. Myers والدكتور « بالمادى سزنولا » Dr. Palma di Cesnola منذ زمن وجيز موقعاً يبعد اثنى عشر ميلا جنوب وادى حلفا ، عند « عكبة » ووجدا هنالك رسوماً صخرية مرتبطة ببقايا حياة بشرية ،

---

(1) Rock pictures of Lower Nubia

(2) قد تم ذلك بالفعل .

يرجع تاريخها إلى الفترة من أواسط العصر الحجرى حتى العصور المسيحية ، وقد دلت أقدم هذه الرسوم على وجود حيوانات لم تعد موجودة فى المنطقة ، مثل الفيل ، والخرتيت ، والزرافة ، والأسد ، والنعامة ، وقد جمعت بعض عينات من الصدف والفحم النباتى التى اقترنت ببعض الرسوم المختارة ثم أجريت عليها اختبارات «كربون ١٤» فى معمل الكربون الإشعاعى لجامعة ميتشجان تحت إشراف البروفسور «إ. ر. كرين» . وقد دلت النتائج على أن بعض هذه الرسوم القديمة يرجع عهدها إلى ما بين ٧٥٠٠ — ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد ، كما أن بعض القطع الخاصة بحضارة الخزف المموج وجدت فى موقع يرجع تاريخه إلى ٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد على وجه التقريب ؛ وقد أدت بعض الرسوم الأخرى بالباحثين إلى أن يصلوا إلى استنتاجات مذهلة تفيد بأن أسلوب هذه الأعمال الفنية قد تأثر بأسلوب فنانى العصر الحجرى الوسيط فى أسبانيا .

وإن البحوث التى أجراها الدكتور «أ. س. هوفمان» Dr. A.C. Hoffman منذ زمن وجيز فى جنوب إفريقية على بقايا شعب يرجع إلى العصر الحجرى ويطلق عليه اسم «شعب ويلتون» The Wilton People توحى بأن هذا الشعب وفد من جنوب أوروبا عن طريق شمال إفريقية وجلب معه فن الرسم على الصخور . وتدل اختبارات «كربون ١٤» على أن شعب «عكبة» قاموا برسم صورهم قبل أن يبدأ «شعب ويلتون» بالرسم بألفى سنة . وهكذا قد تتجمع الأشياء لكى تكشف عن شىء من التقدم الوئيد الطويل للإنسان وفنونه عبر قارات العالم الحاوى القديم . ويتجلى لنا ذلك العالم القديم على حين بغتة عالماً أصغر وأقل تشتتاً ، بل وأقل رعباً مما كان الإنسان يتصوره لو تكشف لنا أن بلاد النوبة كانت على صلة ما بأسبانيا فى ذلك العهد السحيق . ولم تكن إفريقية هى المكان الوحيد الذى كانت تنتشر فيه الفنون والحضارات ، ذلك أن الإنسان كان دائب الحركة فى جميع أنحاء العالم القديم . حتى فى المحيط الهادى البعيد كان أهل جزائر «بولينيزيا» يتحسسون طريقهم نحو مطلع الشمس ، حتى اهتدوا أخيراً إلى جزائر هاواى .

ولما كان لزاماً علينا بهذه الطريقة أن نفكر تفكيراً على مستوى القارات حينما نقوم بدراسة شعب النوبة ومصر ، يجب علينا أن نعى حاجتنا إلى التفكير على مستوى التاريخ كله ، ولا نحصر تفكيرنا فى مجال ضيق عندما نقوم بدراسة تاريخ مكان معين أو حقبة معينة . وهكذا على الرغم من أن تفكيرنا الآن ينصب على بلاد النوبة إلا أنه يتعين علينا ألا نفكر فيها على مستوى مصر فحسب ، ذلك أن تاريخها برمته قد تأثر تأثراً حيوياً وتشكل بواسطة أحداث جرت فى أقصى الجنوب منها ، فى السودان الحالى . وقد كتب أركل يقول : « ما دام تاريخ السودان فى عصريه المؤرخ وقبل المؤرخ باعتباره تاريخاً منفصلا عن تاريخ مصر ، يظل مجهول المعالم ، فإن من المحال أن تربط بين الآثار التى تكتشف فى الأجزاء الأخرى من إفريقية وبين الآثار التى يعثر عليها فى مصر ، كما يصعب تحديد تواريخ هذه الآثار على وجه الدقة » .

وقد قال « ج . فيركوتر » J. Vercoutter ؛ آخر مديرى الآثار الأجانب فى السودان إن الجزء من النوبة الواقع فى السودان والذى سوف تغمره المياه غنى للغاية ببقاياه الأثرية ، فهو لا يحتوى على المعابد والقلاع والكنائس فحسب ، بل كذلك على مدن مدفونة ومقابر ونقوش على الصخور . وكل هذه الأشياء فى انتظار أعمال الحفر لكى تكشف عن المزيد من تاريخ السودان الذى يساعد بدوره ، كما رأينا ، على كشف المزيد من تاريخ بقية القارة الإفريقية . ويعتقد « فيركوتر » أن اكتشاف قيمة ومقدار المادة التاريخية المطمورة فى السودان لهو أكثر أهمية وأعظم ضرورة من إنقاذ ونقل المعابد والكنائس مهما بلغ ثراؤها من الوجهة الفنية . ولقد قيل على سبيل المثال إنه فى عصر ما قبل الأسرات ، من ٥٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، كان الوجه القبلى والنوبة — بما فى ذلك الجزء الشمالى من السودان — وحدة متصلة من الناحيتين الثقافية والعنصرية ؛ أى أن شعوب السودان لعبت دوراً هاماً فى مطلع الحضارة فى وادى النيل ، ولذا ينبغى فحص جميع الآثار بعناية بالغة ، بل إننا فى العصور المتأخرة لا نعرف الشىء الكثير عن السكان الذين عاشوا فى

الباخرة ممنون عند اجتيازها المجرى الذى يوصل إلى الأحوسة فى سد أسوان

الحاج عبدالله مرشد السفينة النوبى

إحدى القرى النوبية جنوب سد أسوان ، وهى تقع فى جزيرة « هيسا » حيث قضت « منون »
ليلتها ، وهى لا تقل جمالا وأناقة عن إحدى موانئ الجزر اليونانية

طريق ضيق بين المنازل فى إحدى القرى النوبية ، والمنازل كلها حديثة البناء إذ تم
تشييدها حوالى عام ١٩٣٤ إبان التعلية الثانية لسد أسوان الحالى

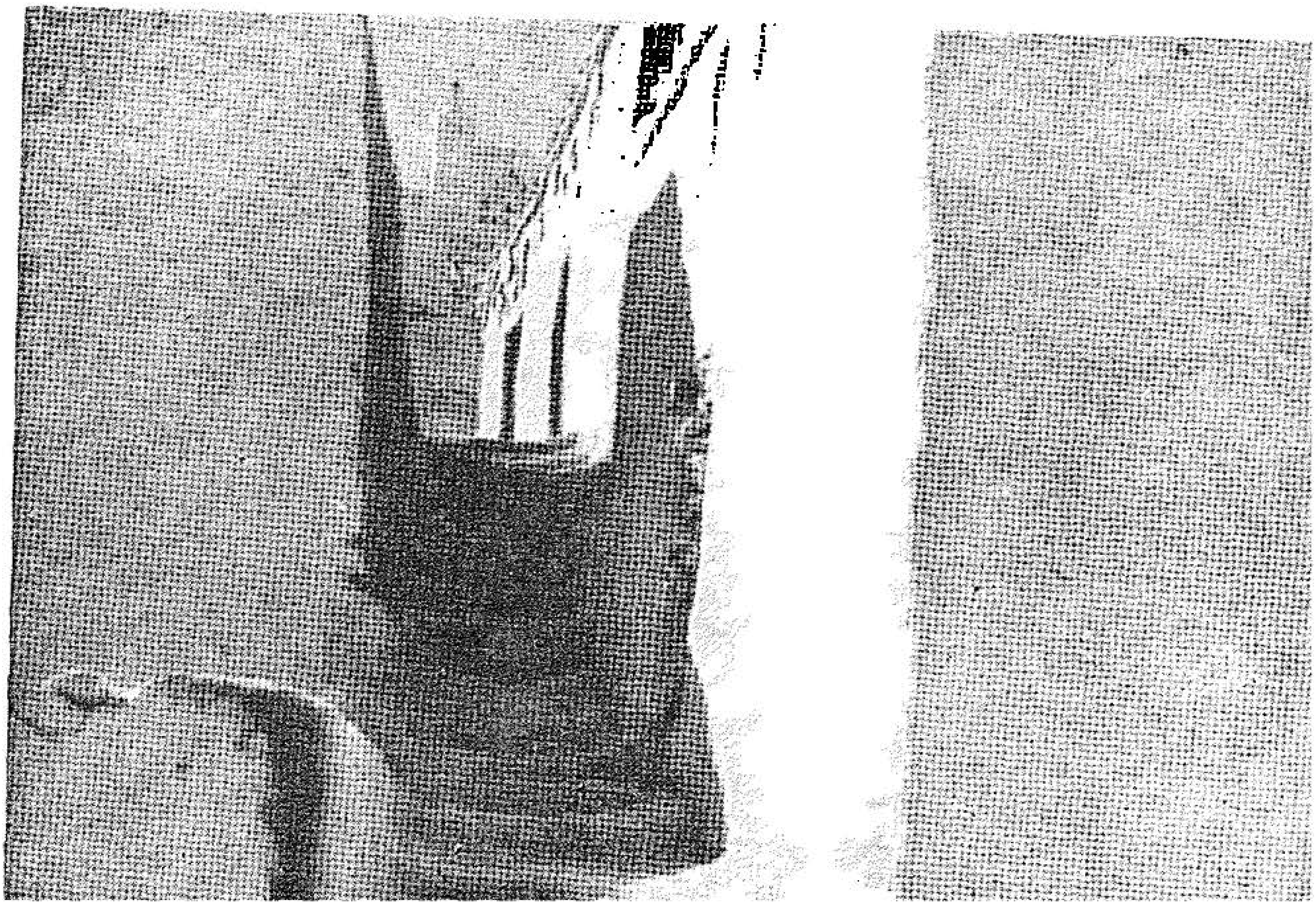

تلك المنطقة ؛ ومع ذلك ، لا بد من وجود معلومات مدفونة فى باطن الأرض عن العناصر المختلفة وعن السكان فى مختلف العصور ، وعن كيفية معيشتهم وماهية ثقافتهم . وتشتمل المنطقة المهددة بالغرق على مواقع من العصر الحجرى القديم لم تكتشف بعد تستطيع أن تمدنا بالمزيد من المعرفة عن تاريخ البشرية الأولى ، كما أن ثمة مواد تاريخية ، لم تمسسها يد ، ترجع إلى العصور الوسطى فى بلاد النوبة حينما كانت دولة مسيحية مستقلة من سنة ٦٠٠ ميلادية إلى حوالى سنة ١٣٢٣ ميلادية ، وكان النوبيون يستخدمون الحروف اليونانية لكتابة لغتهم الخاصة بهم ، وهى لغة لا نكاد نعرفها .

وقد تغطى البحيرة على الأقل ستين أثراً وموقعاً تاريخياً من الآثار والمواقع السودانية — وقد تصل إلى مائة — على حين أننا لا نملك فى الواقع أية معلومات عن معظمها . ويقول « فيركوتر » إن ضياع ما تبقى من الآثار فى بلاد النوبة السفلى (الجزء المصرى من بلاد النوبة) لن تبلغ خسارته مقدار الخسارة الناتجة عن ضياع الحقائق التاريخية المندثرة فى أرض السودان ، ذلك أن بلاد النوبة المصرية هى « أفضل قسم من وادى النيل من حيث معرفتنا به » .

والواقع أن بلاد النوبة المصرية قد نقبت أرضها بدقة أكثر من النوبة السودانية ، وإذا كان هناك نقص فى الإمكانيات ، فمن الأفضل للأجيال القادمة أن نركز اهتمامنا على الجزء الأقل اكتشافاً . ومع ذلك فما زال ثمة أعمال باقية فى بلاد النوبة المصرية تحتاج إلى إنجاز أعمال هامة من حفر وتسجيل وإنقاذ . والحقيقة أن بلاد النوبة كلها لا يمكن تجزئتها من الوجهة الأثرية ، ومن دواعى الأسف أن هناك حدوداً سياسية تقسمها وتزيد من صعوبة إنجاز مثل هذا العمل البالغ الأهمية . وعلى الرغم من بعض الجهود التى تبذلها المصالح الحكومية التابعة لكلتا الدولتين ، وعلى الرغم من المجاملات الكثيرة ، إلا أن هناك عقبات كثوداً بشأن جوازات السفر ، والجمارك ، وتصريحات الملاحة ، وتبديل النقد ، وفضلا عن الإصرار على الحصول على تصريحات بالعمل لهؤلاء الذين يفدون من الخارج للمساهمة فى إنقاذ آثار النوبة . ويعتبر

هذا مما يثبط هم المنظمات الأجنبية التي استجابت لنداء اليونسكو .

وقد قدمت الحكومة المصرية بعض العروض المغرية لكي تشجع التنقيب فى الجزء المصرى من بلاد النوبة ، مثل منح التصاريح للقيام بأعمال الحفر بعد ذلك فى بعض المواقع الشهيرة فى مصر ، ومثل منح بعض الهدايا من احتياطى النفائس من الآثار الموجودة بالمتحف المصرى ، وحتى منح بعض المعابد النوبية ونقلها إلى الخارج . وكان نتيجة هذا العرض أن أصدر وزير المعارف فى السودان ، « زيادة أرباب » ، نداء عاطفياً يقول فيه :

« . . . كل منقب فى بلادنا كان ولا يزال له الحق فى خمسين فى المائة من الأشياء التى يقوم باكتشافها ، وهذا هو العرض الوحيد الذى نستطيع أن نقدمه ؛ ذلك أننا لا نملك آثاراً احتياطية هامة فى متحفنا يمكننا أن نستغنى عنها ؛ وليس لدينا مواقع جذابة مغرية مثل سقارة لكى نعرضها بمثابة هدية لقاء الجهود التى تبذل إذا كانت الآثار التى يعثر عليها فى موقع معرض للخطر غير كافية . زد على ذلك أننا لا نملك قدراً كافياً من المعابد والكنائس فى المنطقة المهددة لكى نسمح بنقل بعضها إلى الدول الأجنبية . ولذا فإن الأمل الوحيد المتبقى لنا ، بعد العرض الذى تقدمت به مصر ، ينحصر فى أن حقائق ما قبل التاريخ وحقائق العصور التاريخية وآثار المنطقة المعرضة للخطر فى بلادنا مجهولة أكثر من بلاد النوبة المصرية ، ولهذا السبب قد تغرى عدداً كافياً من الباحثين بأن يعاونونا خلال المدة الوجيزة الباقية ، فى إنجاز الأعمال الضرورية الخاصة بالمسح والتنقيب والحفر والنقل والتسجيل اللازمة للتأكد من أن على الأقل جزءاً من تاريخ بلادنا ، وبالتالى تاريخ العالم عامة ، سوف يحفظ من أجل الأجيال المقبلة » .

ولسوء الحظ أن المهتمين بالمتاحف وكذا جمعيات الآثار يودون الحصول على شىء فى مقابل ما ينفقون من أموال ، شأنهم شأن ممولى أى مشروع آخر . إن فى مقدور مصر أن تقدم الزائد من رصيد متاحفها ومواقعها الفنية الشهيرة ضماناً ضد الخروج صفر اليدين من النوبة . ولكن السودان لا تستطيع

أن تقدم شيئاً سوى المغامرة . وتميل الهيئات إلى الاتجاه نحو العمل المضمون العواقب فى بلاد النوبة المصرية ؛ وعلينا أن نذكر أن على الجمعيات العلمية أن تفكر فى مستقبل حفرياتها إذا ما انتهت الأزمة النوبية ؛ فقد لا يكون لهم مستقبل فى مصر إذا تخلوا عنها فى الوقت الحاضر من أجل السودان . وعلى كل ؛ هذه لحظة ينبغى أن نكون فيها كبار النفوس فنجرى العمل على كل من جانبي الحدود دون تحيز . ورب مغامرة فى السودان تصبح مشروعاً له أهمية بالغة ، مثل النتائج التي توصلت إليها جمعية الكشف عن الآثار المصرية برئاسة الأستاذ أمرى فى القلاع التى شيدها الفراعنة على الحدود . وقد تؤدى إلى اكتشاف حفنة من أحجار الظران أو عدد من الأوانى وجمجمة أو اثنتين — وهى أشياء لا تصلح كثيراً للعرض فى المتاحف أو تساوى ما استلزمته من نفقات ، ومع ذلك ربما تكون صفحة مفقودة من تاريخ البشرية الأولى ، صفحة ستغمرها المياه . وعلى كل لن تسنح الفرصة مرة ثانية.

وقد بعث إلى مدير الآثار فى السودان قائمة تحتوى على أسماء مواقع معروفة فى المنطقة المهددة من السودان ، وهى قائمة تنذر بالخطر . لقد أحصيت أكثر من مائة موقع بعضها قد تم حفره ، والجزء الأكبر لم يحفر بعد . وفيما يلى الصفحة الأخيرة من هذه القائمة ، وهى تنتهى عند كوشا ، الحد الأقصى لما ينتظر أن يغمره الفيضان :

سوسينارتى	موطن حصين من العهد المسيحى	لم يحفر بعد
أوكما شرق	كنيسة محصنة وبعض المقابر	لم يحفر بعد
شيخ فرج	كنيسة وبعض النقوش	لم يحفر بعد
كولبنارتى	كنيسة وقرية وبعض بقايا من النقوش	لم يحفر بعد
قلب	كنيسة	لم يحفر بعد
دابكى	بعض الرسوم والكتابات ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ وعصر الأسرات	يحتاج إلى تسجيل
ديفينارتى	قلعة (؟)	لم يحفر بعد

فبركة شرق	مدافن ترجع إلى المملكة النوبية الوسطى	تم حفر جزء منها
فبركة شرق	مجموعة مصاطب الدفن للمجموعة	تم حفر جزء منها
فبركة شرق	جبانة مسيحية	تم حفر جزء منها
فبركينارتى	قلعة وجبانة مسيحية	لم يحفر بعد
فبركة غرب	كنيسة ومبنى	لم يحفر بعد
موجراكا	كنيسة	لم يحفر بعد
كوشا	مقابر لمجموعة	حفر جزء منها
كوشا	مقابر ترجع إلى عصر المملكة النوبية الوسطى	لم يحفر بعد

وفى صفحات أخرى وضعت علامات على بضعة مواقع أعطيت لمنظمات من بولندا ، والولايات المتحدة ، وفرنسا ، وأسبانيا ، وبريطانيا ، وتعشم أن تعطى المواقع الباقية لدول أخرى قبل أن يصل هذا الكتاب إلى الطبع ؛ ومع ذلك فمن المؤكد أن قائمة المواقع سوف تزداد طولا حينما تكتشف الثلاث بعثات المختصة بمسح بلاد النوبة مواقع أخرى ما زالت مجهولة حتى وقتنا هذا . وقد قام الدكتور و. آدامز W. Adams خبير اليونسكو للآثار فى السودان بفحص الشاطئ الغربى ما بين « فرس » و « بوهن » . وتقوم البعثة الاسكندنافية المشتركة بمسح الشاطئ الشرقى من « فرس شرق » إلى « جماعى » ، ويعمل البروفسور « ب . ل . شينى » Professor P.L. Shinnie الأستاذ بجامعة غانا من هذا المكان حتى بلدة « عكشة » .

وفى الجزء المصرى من بلاد النوبة بدأ « هارى سميث » من جامعة كمبردج عملية مسح لمواقع الآثار بتكليف من الحكومة المصرية فى عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ . وقد أشار « هارى » إلى عاة مواقع مجهولة ، ولكنها تبشر بالخير ، على أنها تستحق الحفر . ولو أمكن حدوث هذا فى بلاد النوبة السفلى فمن المحتمل أن يتضاعف طول هذه القائمة الواردة من السودان .

وأن الإنسان ليتساءل عن عدد الأماكن التى يمكن فحصها فى مثل هذا الوقت الوجيز ، مهما أوتى من صدر رحب .

— ٢ —

فى الوقت الذى كان فيه السومريون يضعون أساس المدنية البابلية والصينيون ينقشون على الخزف ، كانت سلالة من الجنس الأسمر تضع أسس المدنية المصرية المديدة فى الجزء الجنوبى من النيل على بعد من المكان الذى نتحدث عنه ، كما كان أفرادها يقومون بالنقش على الخزف . وإذا كان ثمة علاقة بعيدة بين مناحى النشاط هذه فعلينا أن نكتشف هذه العلاقة . ولكن ما يهمنا الآن هو أنه على الرغم من أن هؤلاء المصريين الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات ربما أخذوا فن صناعة الخزف من جنوب الشلال إلا أنه لم يتسرب من هذه الصناعة الحديثة إلى الناحية الأخرى من النيل مرة ثانية سوى النزر اليسير .

وأخذ الشعبان ، شمال الشلال وجنوبه فى الاختلاف كل منهما عن الآخر . ومن الجائز أن الشلال بصفته حاجزاً بين الجزأين ليس هو السبب الوحيد — فقد رأينا من قبل أنه لم يكن حاجزاً منيعاً قط — بل كانت طبيعة الأرض الصلدة الوعرة فى الجنوب سبباً آخر . هذه الطبيعة ، مع جفاف المناخ المطرد كان يجعل من العسير الاتصال ببلاد كوش التى تقع وراء النوبة . زد على ذلك أنه لم يكن ثمة حافز للتوسع ، فإن شعوب العصر الحجرى الحديث وما قبل الأسرات لم تورط نفسها فى تلك الالتزامات التى نقع نحن فريسة لها ، وهى الزحف بتجارتنا وأعلامنا إلى أقاصى الأرض وأكثر البقاع مشقة على نفوسنا . وحينما قام « ريزنر » وآخرون بعملية مسح الآثار قبل

التعلية الأولى لخزان أسوان سنة ١٩٠٧ لم يعثروا على آوان خزفية مصرية قديمة فى أعالى المجرى من ناحية الشلال .

وعلى كل فقد عثروا على قرائن أخرى تدل على وجود شعب آخر من شعوب الجنس الأسمر كان على اتصال بالمصريين إبان الأسرة الأولى بعد تلك الفترة بقليل . وكانت الأمور قد تغيرت حينذاك فى وادى النيل ؛ فقد أصبح للمصريين ملك فى ذلك الوقت ، ومجتمع ، واحتياجات كذلك . وقد عثروا على بعض الأدوات المصنوعة من النحاس وعلى قطع خزفية — كان من الواضح أنها مستوردة من مصر — فى مقابر أفراد هذا الشعب الأسمر الجديد ، كما عثروا على أوان أخرى خاصة بهم . ويطلق « ريزنر » على هؤلاء الوافدين الجدد اسم المجموعة (A) ؛ إذ لم يكن لهم كتابة خاصة بهم يسجلون بها اسمهم . ولابد أنهم وفدوا حوالى سنة ٣١٠٠ ق . م ، ويبقى علينا أن نعرف الكثير عن الأماكن التى وفدوا منها . ولم يفحص من مواقع المجموعة (A) بدقة سوى موقعين اثنين فى العقد الثانى من القرن العشرين ، وهما يقعان شمال وجنوب وادى حلفا عند « فرس » و « جباعى » ، ولا يبعدان عن بعضهما كثيراً ، وتتكرر نفس القصة القديمة ؛ القيام بأعمال ضخمة فى ظاهرها بالمبالغ المحدودة المتيسرة ؛ والهيئات مضطرة ، بوجه عام ، إلى أن تراعى مصالح مموليها . وقد يلاقى العثور على تمثال بديع ترحيباً أكبر من العثور على آنية قديمة ، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين لا يدركون مدى الأهمية التاريخية لكل منهما . ومما يدعو إلى التشجيع أن نرى ازدياد التقييم السليم لهذه الأشياء فى كل مكان ، وإن كان هذا التقييم قد جاء متأخراً بعض الشىء بالنسبة لبلاد النوبة .

وقد ألقت هذه الأزمة النوبية الطارئة على حين فجأة ضوءاً من الاتهام لجهلنا بالمجموعة (A) . لقد كان شعب هذه المجموعة يشبه إلى حد كبير المصريين فى عصر ما قبل الأسرات ، ولا ريب فى أن بينهما وشائج قرابة . فقد كانوا يدفنون موتاهم فى حفر مستطيلة أو بيضاوية الشكل يبلغ عمقها

حوالى ثلاث أقدام وطولها ثلاث أقدام فقط . ونتيجة لهذا كانت الجثة تدفن فى وضع القرفصاء ، كما هو الحال فى مصر قبل عهد الأسرات . ولا شك فى أن عمليات المسح سوف تصادف مواقع أخرى للمجموعة (A) إلى جانب المواقع التى اكتشفت . ويقول « آركل » إن أحد المواقع التى يحتمل العثور عليها يقع بالقرب من الحدود ، عند « عكشة » حيث رأى قطعاً من الأوانى محلاة أعاليها بخطوط سوداء متموجة ، كما شاهد أوانى بديعة بها حزوز صنعت بواسطة عظام الأسماك وبها زخارف أخرى تدل على وجود احتلال مبكر . وهناك موقعان يرجع عهدهما إلى عصر ما قبل التاريخ تتضمنهما قائمة الحفائر لإدارة الآثار السودانية ، ويقعان على مقربة من « قور » ، على مسافة بضعة أميال جنوب وادى حلفا ؛ ولكن قد يرجع عهدهما إلى ما قبل عصر المجموعة (A) .

هذا وقد عثر على بعض الفخار الخاص بالمجموعة (A) على سطح الأرض جنوب هذه المناطق ، كما عثر على أحد الآنية على مقربة من الخرطوم . ويقول الأستاذ « آركل » إننا سوف نعرف المزيد عن كل من تاريخ مصر والنوبة فى القرن الأربعين قبل الميلاد حينما نعلم المزيد عن توزيع هذا الفخار . ورأيه أن البحوث المقبلة قد تدل على أن الخزف الخاص بكل من المجموعة (A) والمصريين قبل عهد الأسرات قد نبع من أصل واحد نشأ فى شرق السودان فى مكان ما يقع على خط عرض الخرطوم .

وبعد أن اتحدت مصر تحت حكم ملوك الأسرات ، اشتد نهم الملوك للعاج والقردة والذهب والأخشاب المعطرة التى يمكن أن تزودهم بها أقاصى الجنوب . ولا شك فى أن « النوبة » كانت هى أيضاً مشتاقة إلى نصيب من هذه الأشياء ، فقد كانت النوبة الطريق الرئيسى المؤدى إلى أرض كوش ، وهكذا سارت الحملات التجارية للفراعنة الأوائل مخترقة هذه البلاد . ويقول « ريزنر » فى هذا الصدد إن هذه الحملات المصرية أيام الدولة القديمة إنما كانت موجهة فى العادة لأغراض تجارية سليمة تعود على الطرفين بالنفع

والقائلة . وكانت سياسة الحكومة تنحصر فى تكوين علاقات ودية مع الزعماء المحليين ، وكان أفراد الحملات لا يحملون من الأسلحة إلا ما يكفى لحماية أنفسهم ويبدو لهذا القول وقع مألوف ، ذلك أن المصريين كانوا يجلبون معهم العاج والراتينج والأخشاب الثمينة والزيرت والحبوب والبخور وجلود الفهد . وكانت هذه الجلود تستخدم للملابس الرسمية ؛ وأن الإنسان ليتساءل عن كنه العلاقة السابقة بين مصر وبين بلاد الفهود مما كان يقتضى طلب هذه الجلود التى ظلت تستخدم أثناء عصور الأسرات فى مصر .

ولدينا قصة واحدة باقية بمثابة مفتاح لما كان المصريون يأخذون معهم من بضائع فى مقابل السلع التى يجلبونها . استطاع شخص يدعى « سابنى » Sebni كان يعيش فى عصر الأسرة السادسة أن يحصل على إذن ملكى بالذهاب إلى الجنوب لكى يعود بجثة أبيه « ميخو » Mekhuw الذى مات أثناء الخدمة هناك ، وذلك لكى يقوم بتحنيطها . وحينئذ أخذ معه مائة حمار تحمل « الدهون والعسل الأبيض ، والأقمشة ، والقاشانى من كل نوع » .

نقش بارز للملك « جر » (Jer) عند جبل شيخ سليمان
يمثل غارة من عهد الأسرة الأولى على بلاد النوبة .

ومع ذلك لا بد أنه وقعت فى البداية بعض أحداث أدت إلى قيام حملات تأديبية بواسطة الفراعنة الأوائل ، الذين اغتنموا الفرصة لتوقيع غرامات باهظة من العبيد وقطعان الماشية . وعلى بعد بضعة أميال جنوبى وادى حلفا على الشاطئ الغربى للنيل يقع تل صغير من الحجر الرملى يعرف باسم الشيخ

سليمان . وقد نقش على لوح يقع فى طرف التل منظر يفسره آركل بأنه يمثل الملك « چر » jer من ملوك الأسرة الأولى وهو يغير على بقعة من بلاد النوبة تمتد ما بين أسوان ووادى حلفا . ويرى قارب يرجع طرازه إلى عهد الأسرة الأولى ، له مؤخرة عمودية ومقدمة مرتفعة ، ويطفو هذا القارب فوق جثث نوبية بينما يتدلى زعيم من زعماء النوبة من المقدمة . ويدل رسمان يشبهان العجلتين على أسماء المدن التى تم إخضاعها ، ثم تأتى بعد ذلك الخطوط المموجة الدالة على الماء ، ويقف بجوارها شخص موثق اليدين من الخلف ويمسك بقوس «تا - زيتى » الرسمى وهو يشير إلى « تا - زيتى » (بلاد النوبة) . وخلف هذا الرجل يوجد اسم الملك « چر » ثالث ملوك الأسرة الأولى ، منقوشاً على واجهة لأحد القصور .

هذا النحت البدائى الذى يخلد البطولة والمنقوش على قمة جبل سليمان قد يكون الأصل الذى نقل عنه التقليد الخاص بإقامة النصب التذكارية وهو ما جرى عليه الفراعنة أصحاب الفتوحات الواسعة احتفالا بأعمالهم البطولية حتى أوائل حكم اليونان . ويتوفر فى هذا النقش كل العناصر المألوفة : جثث الأعداء – وقد جعل منها خيال الفنانين فيما بعد تصميمات معقدة متشابكة – وقائمة المدن المغلوبة ، والسجين الرمزى الموثق اليدين ، واسم الملك الفخور بنصره .

ومنذ سنوات عديدة اكتشف متحف مدينة « بالرمو » فى صقلية أنه يمتلك قطعة من الحجر نقشت فى أواخر الدولة القديمة فى مصر . وقد سميت باسم حجر بالرمو ، وقد نقش عليها أسماء بعض ملوك الأسرة الأولى ، والحوادث الرئيسية لكل عصر ، بغرض تدوين التواريخ الهامة . وهكذا نقرأ أمام اسم الملك سنفرو الذى يرجع عصره إلى الأسرة الرابعة « عام تدمير بلاد الزنوج وإحضار سبعة آلاف أسير ، من الرجال والنساء ، ومائتى ألف رأس من الماشية والضأن والماعز » . ولا بد أن جيش سنفرو ، فى سبيل إقرار السلام ، توغل جنوباً إلى الشلال الرابع ولا بد أن الانتصار الذى أحرزه كان ضربة جعلت كوش تترنح . وإن كوش لم تكن فى أى وقت من

الأوقات كثيرة السكان ولم تقم لها قائمة من أثر هذه الصدمة مدة ثلثمائة عام على الأقل .

وعلى بعد ثلاثين ميلا جنوب قرية بيت الوالى موقع مدينة كان يطلق عليها اليونانيون اسم « پسلخيس » Pselchis ، وهى مكان تاريخى سوف نصادفه مرة أخرى . وحينما كان « س . م فيرث » يقوم بعملية مسح آثار بلاد النوبة عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ على مقربة من « پسلخيس » ، وصل إلى جدران قلعة « ايقور » القديمة ، وهى جدران عالية مهدمة مقامة من قوالب اللبن ، ثم أخذ فيرث فى حفر هذا الموقع إذ أنه كان مهدداً بالتعلية الأولى لخزان أسوان . وفى تقديره أن الأسوار الخارجية قد بنيت إبان عصر الدولة الوسطى ما بين الأسرتين الثانية عشرة والسابعة عشرة ، ولكنه قدر أن البناء الداخلى يرجع إلى الدولة القديمة ، وهى الحقبة التى نتحدث عنها الآن . ومن الممكن أن تكون القلعة القديمة فى « ايقور » قد بنيت فى عهد الأسرة الثالثة أى حوالى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . ويحتمل ألا تكون قلعة على الإطلاق بالمعنى الحربى ، بل كانت أصلا ميناء مصرياً محصناً يرجع إلى عهد الدولة القديمة - أو مركزاً للتجارة مثل تلك المراكز التى كانت تقع فى أقصى الغرب والشمال من أمريكا منذ عهد قريب ، أو بالأحرى مثل مراكز التجارة والرقيق التى كانت تقع فى أعالى النيل الأبيض منذ أقل من قرن من الزمان ، و « إيقور » لا يرد اسمها فى قوائم الحصون النوبية فى السجلات القديمة . وربما لم تعتبر قلعة ، وإنما يرجح أنها أصبحت وحدة حصينة فيما بعد خاصة وأنها تقع فى مواجهة قلعة « كوبان » Kubban المنيعة التى أقيمت فى عهد الأسرة الثانية عشرة .

وقد عرفنا أن « إيقور » لم تكن سوى مستودع وهذا يؤيد أن أهالى النوبة الشماليين كانوا من الضعف بحيث لا يحتمل أن يكونوا مصدر تهديد للمصريين فى الوقت الذى كان فيه هرم خوفو الأكبر ما زال قشيباً مصقول البنيان ، ولا بد أنهم كانوا شعباً فقيراً صغير العدد نسبيا ، ما زال فى العصر

الحجرى ، ينظر إليهم المصريون المتقدمون على أنهم برابرة مساكين ، متجاهلين وشائج القرابة بين أصول جنسهم . وإنما أقام المصريون فى ذلك العهد فى وجه المغيرين رجال الحرب القادمين من أرض كوش جنوباً ، أقاموا « باب القنتين » ورسموا الحدود الرسمية عند أسوان على الجندل الأول . وكان هذا يعنى أن بلاد النوبة السفلى كانت أرضاً محايدة معرضة لمرور الجيوش المسلحة وغالباً للعدوان المسلح من جانب كل من المغيرين من الجنوب ومن الشمال وفى مثل هذه الظروف يستحيل أن يعم رخاء أو يكون تقدم فى مجال الثقافة والحضارة .

وهكذا كان المصريون يستخدمون هذه البقعة من بلاد النوبة — المهددة فى هذه الأيام — كخط مواصلات من أجل التجارة والحرب . ويتضح من السجلات القليلة التى وصلت إلى أيدينا أنهم كانوا غالباً ما يمرون عن هذا الطريق لكلا الغرضين . وقد ذهب أحد الموظفين وهو القائد « خنوم حتب » Khnumhotep الذى رسمت صورته على جدار مقبرة النبيل « خوى » Khuwy فى أسوان — إلى كوش إحدى عشرة مرة ؛ كما أن الروايات تنبئنا بأنه فى عصر الملك « سيمى » توجه أحد حاملى أختام الملك إلى أقصى الجنوب وأحضر معه قزماً من الأقزام يستطيع أن يرقص لتسلية الملك .

وتشير بعض السجلات إلى البعثات التجارية إلى بلاد پونت الغامضة . ومن المعلومات التى لدينا حالياً يستطيع الإنسان أن يرجح أن بلاد پونت كانت عند مضيق باب المندب حيث تكاد الجزيرة العربية تلامس بلاد الصومال ، وحيث يحتمل أن يكون أسلاف المصريين قد عبروا من آسيا عن طريق جزيرة « بريم » . ولعل هذه الأماكن كانت أقل قحطاً وجفافاً حينما وقعت تلك الأحداث . ومن يعلم يا ترى أى الذكريات القديمة قد جعلت من هذه الأرض « بلاد پونت » ذكرى عالقة بأذهان المصريين طوال تاريخهم ؟ ويبدو أن البعثات إلى بلاد پونت قد ذهبت عن طريق البحر ، ولذا فهى لا تخصنا فى هذا المقام ، اللهم إلا أن نذكر أن أول إشارة إلى بعثة من بعثات بلاد پونت

ورد ذكرها على حجر پالرمو ، فقد كتب أمام الملك « ساحورع » من ملوك الأسرة الخامسة : « المواد التي جلبت من بلاد پونت : المر ، ٨٠,٠٠٠ ؛ كهرمان . . . أخشاب » . . الخ .

فى مواجهة جزيرة هيسا ، حيث نصحنا بحارنا النوبي بأن نقضى الليلة ، توجد صخرة من الجرانيت على الشاطئ الشرقى نقشت عليها صورة الملك « مرنرع » ، أحد ملوك الأسرة السادسة وهو يستند على عصاه ، بينما يتدلى من خلفه فى أسفل الصورة ذيل أسد ، رمز الملكية . ومن خلف الملك يقف الإله « خنوم » . وأمام الملك يقف زعماء بلاد النوبة السفلى يقدمون له فروض الطاعة . وقد كتب أعلى الصورة العبارة التالية : « ملك مصر العليا والسفلى ، مرنرع ، محبوب خنوم إله الشلال . السنة الخامسة ، الشهر الثانى من الفصل الثالث ، اليوم ٢٨ (حوالى سنة ٢٢٨٠ ق . م) وصول الملك نفسه ، وهو واقف خلف التل ، بينما زعماء « المازوى » و « ايرثت » و « واوات » يشمون التراب أمامه ويثنون عليه ثناء عظيما » .

ومن الواضح أن ملوك الأسرة السادسة احتفظوا بسلطانهم على هذا الجزء من بلاد النوبة ، وكان فى مقدور موظفيهم أن يجوبوا أنحاء البلاد ، دون أن يتصدى لهم أحد ويغترفون من موارد البلاد الطبيعية ، وبخاصة مواد البناء من الحجارة والأخشاب . ويتضح هذا من السجلات التى خلفها لنا بعض هؤلاء الموظفين أنفسهم . وكان أحد هؤلاء يدعى « أونى » عينه « مرنرع » حاكماً على جنوب مصر وأسند إليه حملة إلى محاجر الجرانيت عند الشلال الأول لإحضار بعض الأحجار لاستخدامها فى بناء الهرم الملكى الذى كان يقام فى ذلك الوقت فى سقارة . وما زال من الممكن زيارة هذه المحاجر وذلك الهرم .

وقد اكتشف « مريت » مقبرة « أونى » إبان القرن الماضى فى « أبيدوس » فى مصر الوسطى . وقرأ مريت تاريخ حياة « أونى » الذى كتبه بنفسه ونقشه على الجدران : « حينما كنت أباشر وظيفة حامل مسند الأقدام وحامل الصندل

فى القصر ، جعلنى ملك مصر العليا والسفلى ، مرنرع ، مليكى الخالد أبد الدهر ، أميراً وحاكماً على الجنوب ، إذ أننى كنت مقرباً إلى قلب جلالته ، وكنت أتمتع بالحظوة لدى جلالته ، ولأن جلالته كان يحبنى » .

وبعد مزيد من إطراء نفسه يواصل أونى حديثه ، « أرسلنى جلالته إلى « ابحت » Ibhet (محجر بجوار أســوان) لإحضار التابوت المسمى « صندوق الأحياء » مع الغطاء وحجر الذروة الرائع النفيس للهرم المسمى « مرنرع يضىء وهو جميل » وهو للملكة » .

ويروى « أونى » كيف أنه أرسل إلى جزيرة الفنتين لإحضار بوابات من الجرانيت وموائد للقرابين اوضعها فى الغرفة العليا من الهرم ، وكيف أبحر شمال المجرى فى صحبة ستة قوارب شحن ، وثلاثة قوارب ملحقة ، وسفينة أخرى « ثم سفينة حربية واحدة . ولم يحدث قط أن قام أحد بزيارة « ابحت » و « الفنتين » من قبل فى عصر أى ملك من الملوك بصحبة سفينة حربية واحدة . . . . »

« بعث بى جلالته لكى أقوم بحفر خمس قنوات فى الجنوب ولكى أبنى ثلاثة قوارب للشحن وأربعة قوارب ملحقة من خشب السنط المتوفر فى « واوات » . ثم قام الزعماء السود لإيرثت وواوات ويام ومازوى بتحضير الأخشاب لها . ومن ثم أنجزت العمل كله فى سنة واحدة . ودشنت القوارب وحملتها بكتل ضخمة من الجرانيت لبناء الهرم المسمى « مرنرع يضىء وهو جميل » . لقد كنت محبوباً لدى أبى ، مرضى على من أمى ؛ الابن البكر ، مبعث السرور فى نفس إخوتى ؛ الأمير ، الحاكم الحقيقى للجنوب ، ذو الحظوة لدى أوزيريس — أونى » .

وقد عثر « مريت » على تابوت « صندوق الأحياء » — وهو اسم غريب الوقع من وجهة نظرنا ، ولكنه اسم طبيعى تماماً بالنسبة للمصريين — فى هرم مرنرع بصقارة سنة ١٨٨٠ ، وهو مصنوع من الجرانيت الأسود ، وقد نهب اللصوص محتوياته فى الزمن الغابر ، ولكنه ما زال فى حالة جيدة . وعثر

على جثة الملكة عارية من اللفائف التى تحيط بالمومياء ، ولكنها كانت فى حالة لا بأس بها ، بحيث بدا أنها ماتت شابة ، وقد عثر حتى على خصلة باقية من شعرها . والجثة ترقد الآن فى متحف القاهرة .

واستغلت كذلك محاجر أخرى تقع جنوب هذه الأماكن دون أن يعترض أحد ، وذلك من عصر الأسرة الرابعة إلى عصر الأسرة السادسة . ويوجد فى الصحراء على بعد خمسين ميلا شمال غرب أبى سمبل محاجر من الديوريت تحمل أسماء خوفو ، بانى الهرم الأكبر ، وغيره من الملوك .

ولو أنك اتجهت ببصرك عبر النيل من فندق « جراند أوتيل » ، فى أسوان لرأيت عدداً من الفتحات فى التل الرملى المواجة ؛ وحينئذ يظهر على مقربة منك نوتى كأنه جنى ظهر فجأة يعرض عليك أن يصحبك فى القارب عبر النيل لزيارة مقابر النبلاء . وهى رحلة جديرة بالقيام بها وممتعة كذلك . وقد قام « الجنرال سير ف . و . جرنفل » و « واليس بدج » عامى ١٨٨٥ — ١٨٨٦ بحفر سبع عشرة مقبرة من مقابر النبلاء هذه فى أسوان والتى ترجع إلى عهد الأسرات الأولى . وقد أمدتنا هذه الحفائر بمعلومات قيمة عن معاملات المصريين مع شعوب أقصى الجنوب .

وكان الأمير « حرخوف »[1] أحد هؤلاء النبلاء . وكان ، مثل « أونى » ، حاكماً للجنوب ، وهو يصف نفسه بأنه حامل أختام الملك ، وصفيه الأوحد ، وكاهنه ، وقائد قوافله . هذا ونداؤه التالى إلى الأحياء الذين قد يتصادف مرور سفنهم على مقربة من قبره الواقع على شاطئ النهر يعتبر نداء ممتعاً ومؤثراً فى الوقت نفسه :

« معشر الأحياء الذين سوف تمرون على مقربة من هذا القبر ، سواء كنتم متجهين أسفل النهر أو أعلاه ، يا من ستقولون : « ألف رغيف ، وألف دن من الخمر لصاحب هذه المقبرة » : لسوف أصلى من أجلكم فى العالم الآخر .

---

(١) النطق السليم لاسمه « خوفحر » .

إننى روح بارعة مزودة بالتقى ، وكاهن ملم بالطقوس ينطق فمه بالمعرفة والحكمة » .

ويسترسل حرخوف قائلا كيف أن الملك أرسله فى صحبة أبيه لكى يكتشف طريقاً إلى « يام » Yam ، وهى أحد الأقطار التى جلب منها « أونى » الأخشاب لصناعة سفنه التى تستعمل فى حمل الجرانيت . وكانت المسافة بعيدة ، إذا أنه يفتخر بأنه أنجز المهمة فى « سبعة شهور فقط » .

ثم أرسل الملك « مرنرع » « حرخوف » مرة ثانية ، بمفرده . « ولقد واصل سيره عن طريق الفنتين » . وذكر هذا الطريق مهم إذ أنه قد يمهد لمعرفة المكان الذى اتجه إليه والكيفية التى ذهب بها . وعاد « حرخوف » بعد ثمانية شهور ، بعد أن وصل إلى « يام » واكتشف الطريق غرباً إلى غياهب المجهول ، راضياً عن نفسه . « ما من رفيق أو قائد قافلة ممن توجهوا شطر « يام » قبل الآن استطاع أن ينجز هذا العمل قط » .

وفى رحلة ثالثة إلى « يام » وجد « حرخوف » أن زعيم « يام » قد توجه إلى أرض « تيمه » Tameh لكى يؤدبها ويطيح بها « إلى الركن الغربى من السماء » . وسار حرخوف فى أعقابه و « أخذ يهون عليه حتى صار يبتهل بالدعاء للآلهة جميعاً من أجل الملك » . هاتان العبارتان لا بد وأن تكونا من أقوى العبارات إثارة للخاطر فى الأدب المصرى برمته .

وعاد حرخوف ومعه ثلاثمائة حمار « محملة بالبخور والأبنوس والحكنو (أيا كان هذا) والحبوب ، والفهود (أعتقد أنه يعنى جلود الفهود إذ من العسير أن تضع فهداً حياً على ظهر حمار) والعاج ، وعصى الرماية ، وكل ما تغله الأرض من طيبات » . كما عاد ومعه عدد كبير من أهل « يام » إلى بلاط الملك ، ولكن ليس من الواضح إذا كان هؤلاء قد جاءوا بصفة حراس أم أسرى . وعلى كل ، فقد أثر منظر حاشيته فى نفوس زعماء القبائل النوبية المعادية إلى حد ما لدرجة أن زعيمهم أهدى إليه بضعة رءوس من الماشية وصاحبه خلال مرتفعات النوبة العليا غرب النهر لأن حرخوف كان

« أبرع وأكثر يقظة من أى أمير أو رفيق أو قائد قافلة أرسل إلى يام من قبل » . ولا بد أن الملك سر لعودته كذلك ، لو أننا صدقنا الأمير حين يخبرنا أنه عندما اقترب من القصر الملكى وهو يبحر شمال النهر بعث جلالته بأحد النبلاء جنوب النهر ومعه سفينة محملة بخمر البلح ، والكعك ، والخبز ، والجعة . وكان استقبالا ملكياً . ويوقع حرخوف بهذه العبارة : « الأمير ، حامل أختام الملك ، الرفيق الأوحد ، الكاهن المزود بالطقوس ، أمين خزانة الاله ، عضو المجلس الخاص الذى وكلت إليه المراسيم ، حرخوف المبجل » .

وأن الإنسان ليتساءل كم رفيق أوحد كان للملك فى الوقت نفسه ، كما يتبادر إلى ذهنه أن ثمة تغييراً طفيفاً قد طرأ على الألقاب التى يخلعها الملوك فى أنحاء العالم على رجال حاشيتهم فى الخمسة آلاف سنة الأخيرة .

ولكن العمل المجيد الذى توج به « حرخوف » أعماله جاء على أثر ذلك ، إذ أن آخر أمجاده تتمثل فى رحلته الرابعة فى عهد آخر ملوك الأسرة السادسة ، الملك « ببى الثانى » . وفى طريق عودته من هذه الرحلة وصلته رسالة من الملك . وقد اعتز حرخوف بهذه الرسالة لدرجة أنه أمر بنقلها على واجهة مقبرته . والواقع أن المقبرة كانت قد انتهت فى الوقت الذى تسلم فيه الرسالة ، ذلك لأن جميع النبلاء ذوى المكانة البارزة كانوا ينفقون بعض وقتهم وثروتهم فى إعداد مقبرة تليق بهم ، وكان ذلك يشغل وقتهم إبان أفضل سنى حياتهم . وهكذا اضطر حرخوف إلى أن يفرد مكاناً فى أقصى اليمين من واجهة مقبرته ليحفظ لنا الرسالة الملكية الوحيدة الكاملة التى وصلت إلينا من الدولة القديمة : « بمقتضى الأمر الملكى ، فى السنة الثانية ، الشهر الثالث من الفصل الأول ، اليوم الخامس عشر . مرسوم ملكى إلى الرفيق الأوحد ، الكاهن الملم بالطقوس وقائد القافلة ، حرخوف » .

« لقد اطلعت على مضمون رسالتك التى بعثت بها إلى الملك فى قصره تبلغه فيها بأنك قد عدت فى أمان من « يام » مع جيشك ، ولقد ذكرت فى رسالتك أنك قد أحضرت معك هدايا عظيمة رائعة منحتها « حتحور » ربة

« أعو » إلى قرين ملك مصر العليا ومصر السفلى ، « نفر كارع » الخالد إلى الأبـــد .

وذكرت فى رسالتك أنك قد أحضرت معك قزماً راقصاً من بلاد « أختيو » يشبه ذلك القزم الذى عاد به حامل أختام الآله من بلاد « بونت » فى عهد « اسيسى » . لقد كتبت إلى جلالتى تقول : « لم يحضر أى زائر آخر إلى « يام » مثيله من قبل قط » . (وهنا يمتدحه الملك لتفانيه فى أداء واجبه ثم يواصل حديثه فى قلق) اتجه فى النهر شمالا إلى القصر فى الحال . وأحضر معك هذا القزم ، أحضره حياً ، مرفهاً ، صحيح البدن من أرض « أختيو » لكى يؤدى رقصات الآلهة ، وليدخل السرور على قلب ملك مصر العليا والسفلى ، نفر كارع ، الخالد إلى الأبد . وحينما يصعد على ظهر السفينة معك فلتعين أناساً موثوقاً بهم يظلون بجواره فى كل جانب من جوانب السفينة ؛ ولتحذر لئلا يسقط فى الماء . وعندما يأوى إلى فراشه فى الليل فلتعين أناساً أمناء ينامون بجواره فى غرفته ، ولتعاين مكان نومه عشر مرات كل ليلة . اشد ما يرغب جلالتى فى رؤية هذا القزم أكثر من رغبتى فى رؤية كل هدايا بلاد سيناء وبلاد پونت . وإذا ما وصلت القصر وفى رفقتك هذا القزم حياً ، مرفهاً ، صحيح البدن ، فإن جلالتى سيفعل من أجلك أكثر مما فعلوا من أجل حامل أختام الآله فى عهد « اسيسى » فإن ولع جلالتى برؤية هذا القزم لشديد » .

ونعتقد أن القزم وصل سالماً وأدى مهمته بما يرضى جلالته ، وإلا لما وجدنا الخطاب منقوشاً على المقبرة . وكتب صديقنا « لاپورت » وهو فرنسى سار فى النيل هابطاً فى قارب من المطاط ، معلقاً على إحضار رجل الأدغال الصغير إلى البلاط فى « ممفيس » قائلا : إن إحضار قزم إلى مصر القديمة لا يثبت أن المصريين كانوا على معرفة بأعالى النيل ؛ بل يبرهن بالأحرى على أنهم كانوا يعلمون مدى الصعاب التى تواجه المسافر فى هذه البقاع ، حيث إن القزم كان نادر الوجود وشيئاً يثير الإعجاب إلى هذا الحد . ولا بد أن المنطقة التى كان يسكنها الأقزام كانت أكثر اتساعاً فى تلك الأيام ، ومع

ذلك فإن هذا القزم بالذات لم تستول عليه بعثة حرخوف فى موطنه الأصلى من الغابات ، إنما انتقل من قبيلة إلى قبيلة عن طريق المقايضة .

ويعتقد الأستاذ « آركل » أنه ليس من المحتمل أن يكون حرخوف قد سار بمحاذاة النيل مطلقاً ، حيث إنه سافر مع عدد كبير من الحمير وغادر أسوان « عن طريق الفنتين » . وهذا الطريق يتصل بطريق القوافل القديم عبر واحتى « دنقل » و « سليمة » حتى يصل إلى دارفور الحديثة التى تقع جنوب خط عرض الخرطوم وعلى بعد خمسمائة ميل غرب النيل . ولا بد أن يكون قد وصل إلى المكان الذى يعرف باسم « الفاشر » فى الوقت الحالى ، وهو يبعد خمسين درجة عرض جنوب الموقع الذى تظهر فيه أول بوادر الحياة النباتية التى تعتمد على الأمطار فى وقتنا الحاضر . والرحلة يمكن القيام بها حتى فى وقتنا هذا ، إذا ما قام بها أناس متمرسون . ومن هذا المكان أصبح « حرخوف » على اتصال مباشر يمكنه من المقايضة مع القبائل التى تعيش فى الأدغال الممتدة حتى الكونغو ، مصدر البخور ، والأبنوس ، والحكنو ، وعصى الرماية ، وكل ما تغله الأرض من طيبات .

— ٣ —

وهكذا ينبغى ألا يتبادر إلى ذهننا أن النهر كان الطريق الوحيد المؤدى إلى الجنوب المعروف لدى قدماء المصريين ذلك أن طبيعة النيل جنوب وادى حلفا تجعله يكاد يكون عديم النفع بالنسبة للنقل المائى الثقيل . ففى جنوب وادى حلفا مباشرة يوجد الجندل الثانى وهو سلسلة طويلة منيعة من الجزر الصخرية ذات سيول متدفقة كفيلة بأن تنزع قاع أقوى القوارب . وهناك ستة جنادل رئيسية ، وليس فى مقدور أية حملة تجارية تنشد الربح أن تغامر بنقل البضائع جنوباً أو شمالا . ولا تستطيع سوى الحملات العسكرية أن تتحمل النسبة الكبيرة من الخسائر فى السفن والتى لا بد من حدوثها ؛ ولقد استطاعت هذه الحملات تحمل تلك الخسائر فى فخر وكبرياء سجلهما التاريخ فى إسهاب ، منذ عصر الفراعنة حتى عصر اللورد كتشنر .

وصل كتشنر إلى الخرطوم ، جنوب الشلال (الجندل) السادس ، ولكنه اضطر إلى أن يقيم خطاً حديدياً اختصر طريق الجندل الثانى والثالث والرابع . ولكن الفراعنة لم ينجحوا فى الوصول إلى أبعد من الشلال الرابع قط . وكانت حدودهم تتفاوت ما بين أسوان أيام ضعفهم ، والشلال الثانى أيام قوتهم وبأسهم . وفى عصر الدولة القديمة كان يبدو أنهم قانعون بالوقوف عند « الفنتين » ، وهى أسوان الحديثة ، وبتسيير الحملات التجارية أو قطع أحجار الجرانيت ، والقيام بحملات تأديبية بين حين وآخر . وبالإضافة إلى ذلك يبدو أنهم قد احتفظوا بمراكز للتجارة مثل « أبقور » .

ومن الطبيعى أنهم كانوا يستخدمون الجزء الكبير الصالح للملاحة

من البحـــر المتوسط إلى الفنتين ، وحتى إلى الجندل الثانى ، وذلك لنقل معظم البضائع فى كلا الاتجاهين ، ولكن عند الجنادل كانت تنقل البضائع إلى قوارب صغيرة أو الأرجح أنها كانت تنقل إلى الشاطئ ثم تنقل عن طرق القوافل . وبعض هذه الطرق كانت تسير بمحاذاة النهر لكى تتجنب المنحدرات الوعرة ، والبعض الآخر كان يتجه ناحية الجنوب الغربى إلى « يام » كما رأينا ، على حين كان البعض الآخر يتوغل فى جبال الصحراء الشرقية حيث كانت توجد بعض مناجم للذهب . وكان هناك طريق كهذا على مقربة من المركز التجارى فى أبقور ، مما يعلل وجود هذا الموقع .

وكانت القوافل عرضة دائماً للهجوم عليها وفرض الأتاوة بواسطة القبائل المنتشرة على طول الطرق ، وهذا هو أحد الأسباب التى أدت إلى إرسال بعض الحملات التأديبية ضدهم ، وقد قاد نبيل آخر من نبلاء أسوان ، هو « ببى نخت » Pepi Nakht حملتين من هذا النوع فى عهد « ببى الثانى » الذى بعث به « لكى يضرب على أيدى الواوات والأيرثت » وهم من سلالة المجموعة (A) فى بلاد النوبة السفلى . وقد ضرب على أيديهم حتى خضعوا له خضوعاً تاماً ، وأحضر زعماءهم إلى بلاط الملك حيث سبحوا بحمده . ويروى « ببى نخت » أيضاً : « بعث بى جلالته إلى بلاد « البدو » (قد تكون خليج السويس) لكى أعود بجثة الرفيق الأوحد ، أمير البحر ، قائد القوافل « إن — إن كچت » الذى كان يبنى سفينة لبلاد پونت حينما قتله البدو ، سكان الرمال ، وقتلوا من معه من الجنود الذين كانوا تحت إمرته » .

كانت التجارة الخارجية إذن تواجه أخطاراً جمة ، حتى قبل إنزال السفينة إلى البحر ، وتؤكد هذه القصة أن التجارة مع بلاد پونت كانت فى العادة ، إن لم تكن بصفة دائمة ، تتم عن طريق البحر ، على الرغم من أن المصريين لم يغامروا فى الأحوال الأخرى بالتوغل فى عرض البحار . كانوا على قدر كاف من المهارة ، وكان لديهم من العزم والإقدام ما يجعلهم بحارة بارعين ، ولذا لا بد أنه لم يتوفر الدافع الذى يحثهم على ركوب البحر . لم يكن

لعبة «الدامة» يرجع تاريخها إلى مئات السنين . ورقعة «الدامة» عبارة عن حفر صغيرة فى التراب ، وتحل قطع الحجارة وكسر الخزف محل قطع اللعب . وقد عثر على رقعات من الخشب وقطع لألعاب مماثلة فى المقابر القديمة

يوجد قليل من الحوانيت فى القرى النوبية . وبدلا من ذلك ينتقل البدال من قرية إلى أخرى فى قاربه منادياً على بضاعته أثناء مروره . ويرى فى الصورة التاجر وقد أنزل «صقالته» فى قرية من القرى معلناً استعداده للبيع

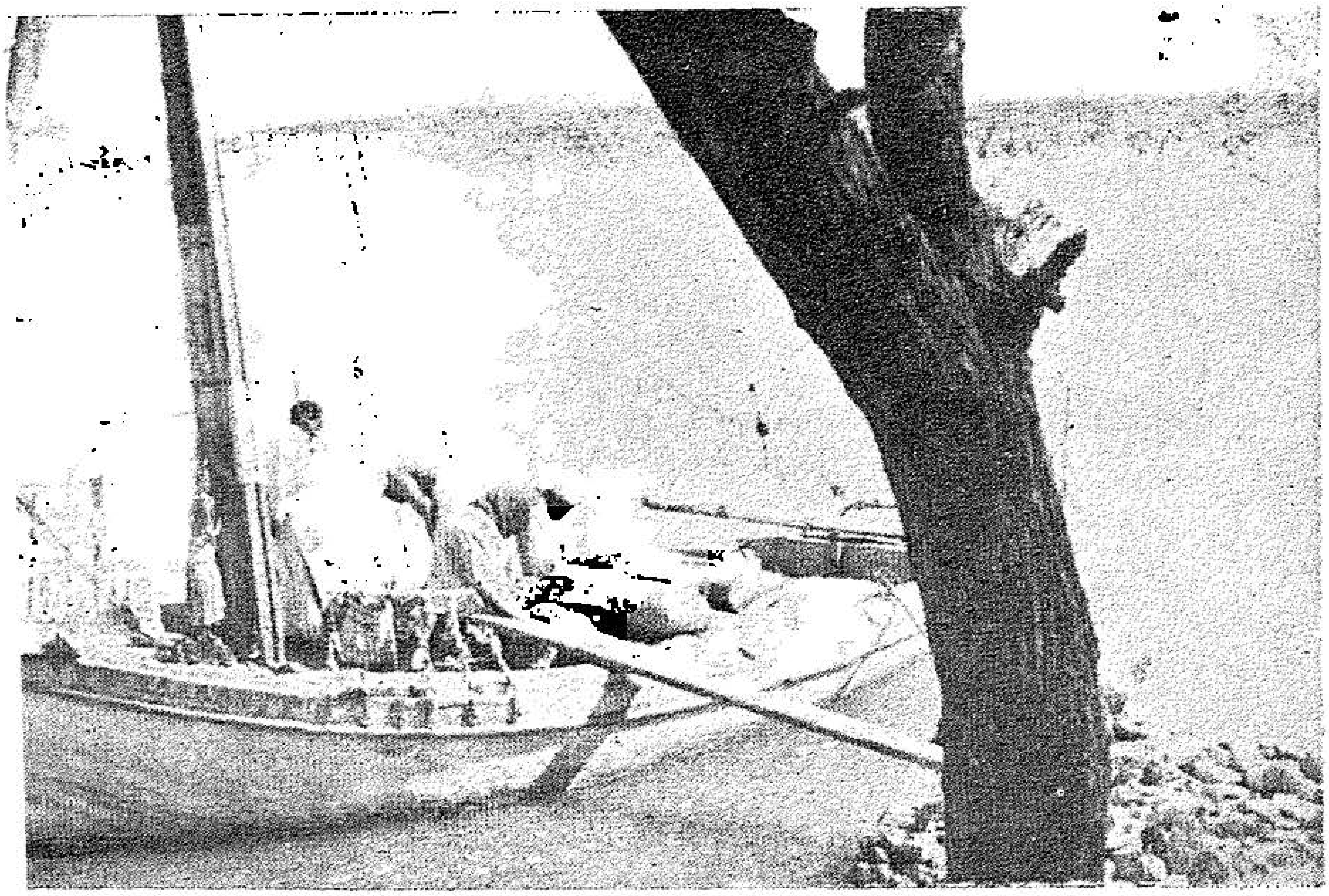

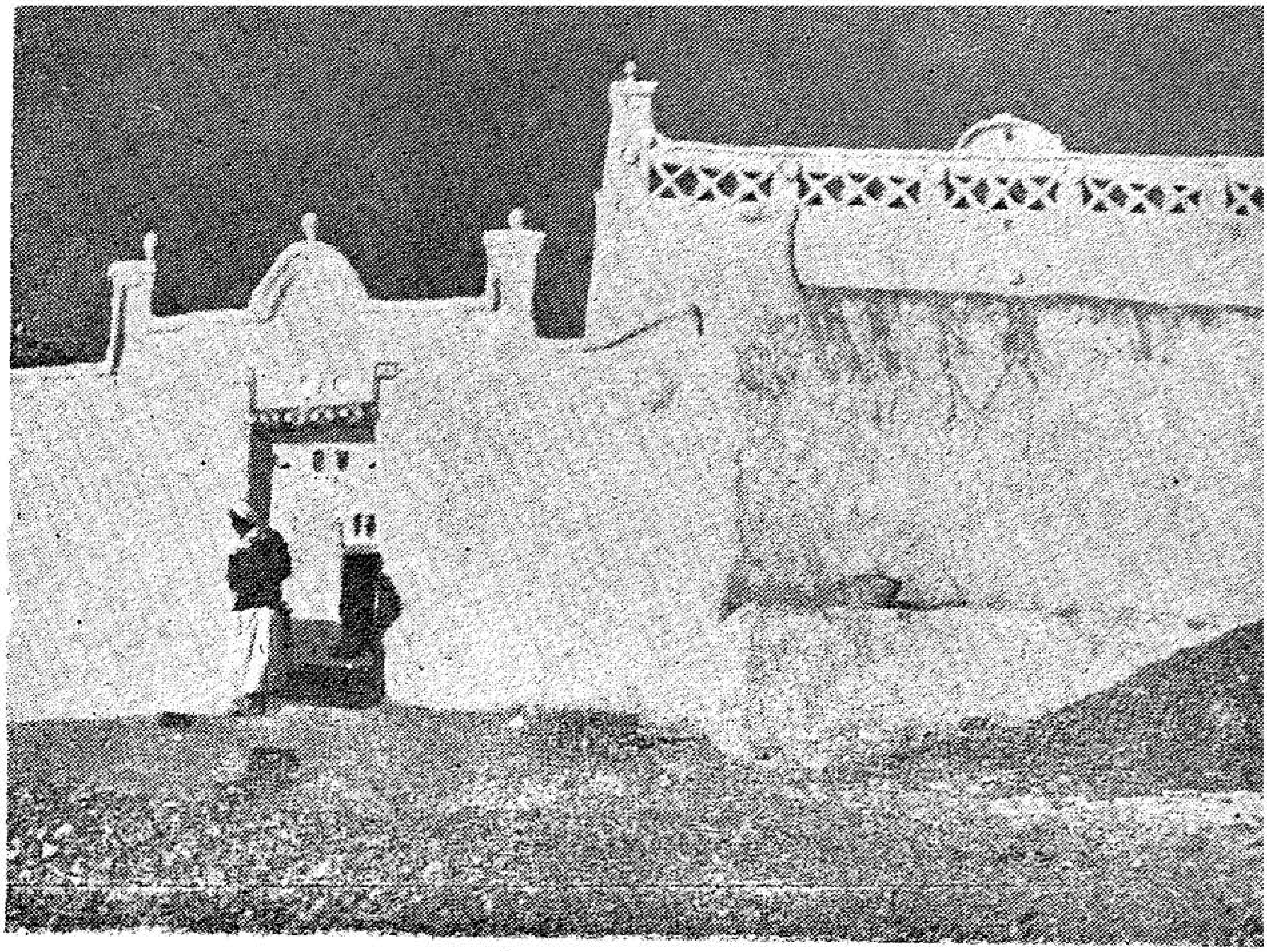

تطلى جدران المنازل النوبية بالطين ثم تطلى بالجير بعد ذلك . وتشاهد الأوانى الخزفية ملصقة فى الجدران بغرض الزينة . ويرجع أصل بعض التصميمات الخاصة بالمنازل إلى عهود غابرة وهى ذات أهمية كبرى بالنسبة لعلماء الأجناس البشرية من الوجهة الاجتماعية

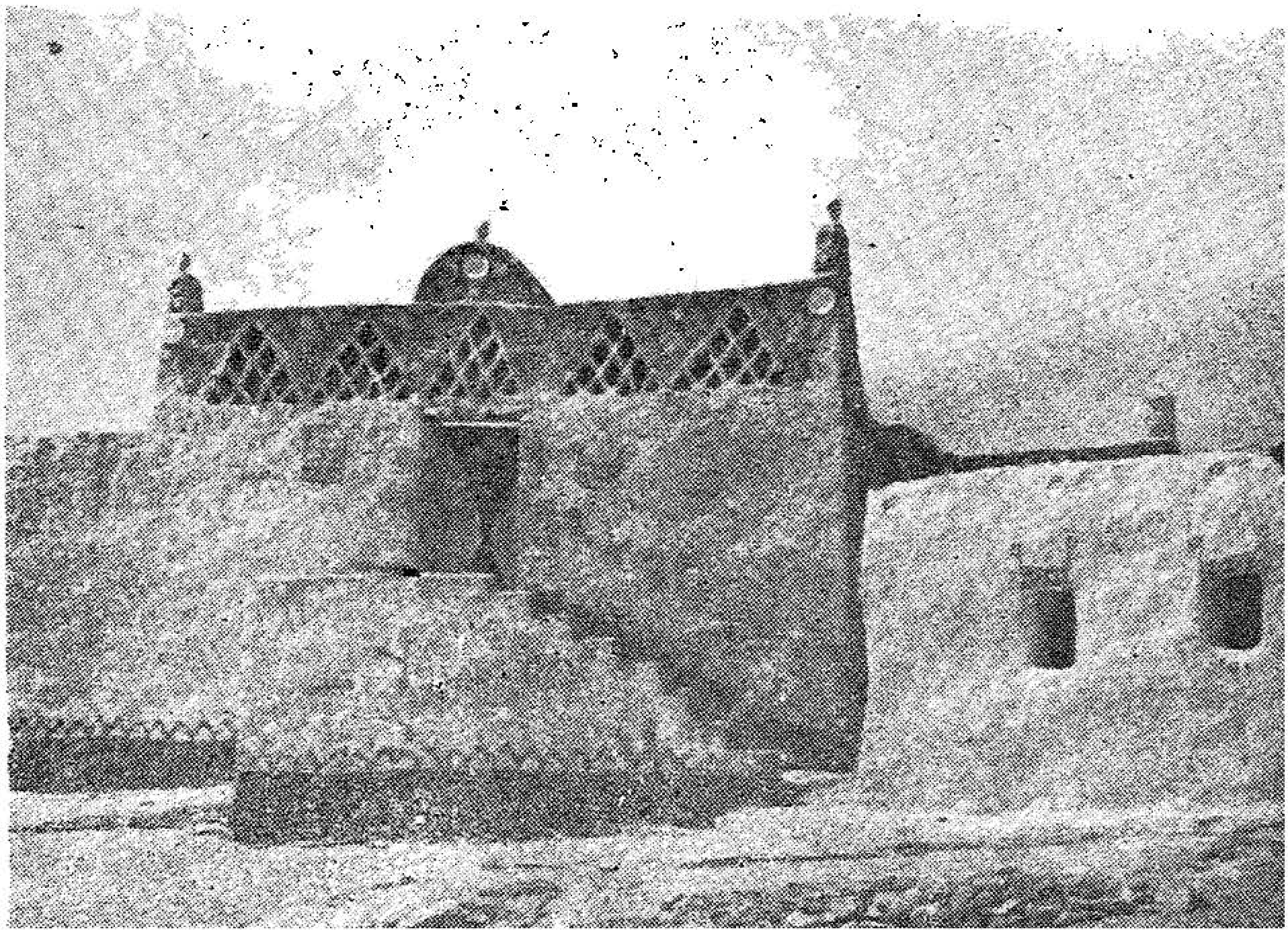

بعض أطفال قرية من قرى النوبة

تمصرت أزياء المرأة النوبية إلى حد كبير إبان المائة سنة الأخيرة

بعض رجال وشيوخ قرية نوبية يجلسون فى الشمس يراقبون السفن وهى تمر بهم ويتجاذبون شتى الأحاديث

مؤلف الكتاب يتحدث إلى بعض النوبيين

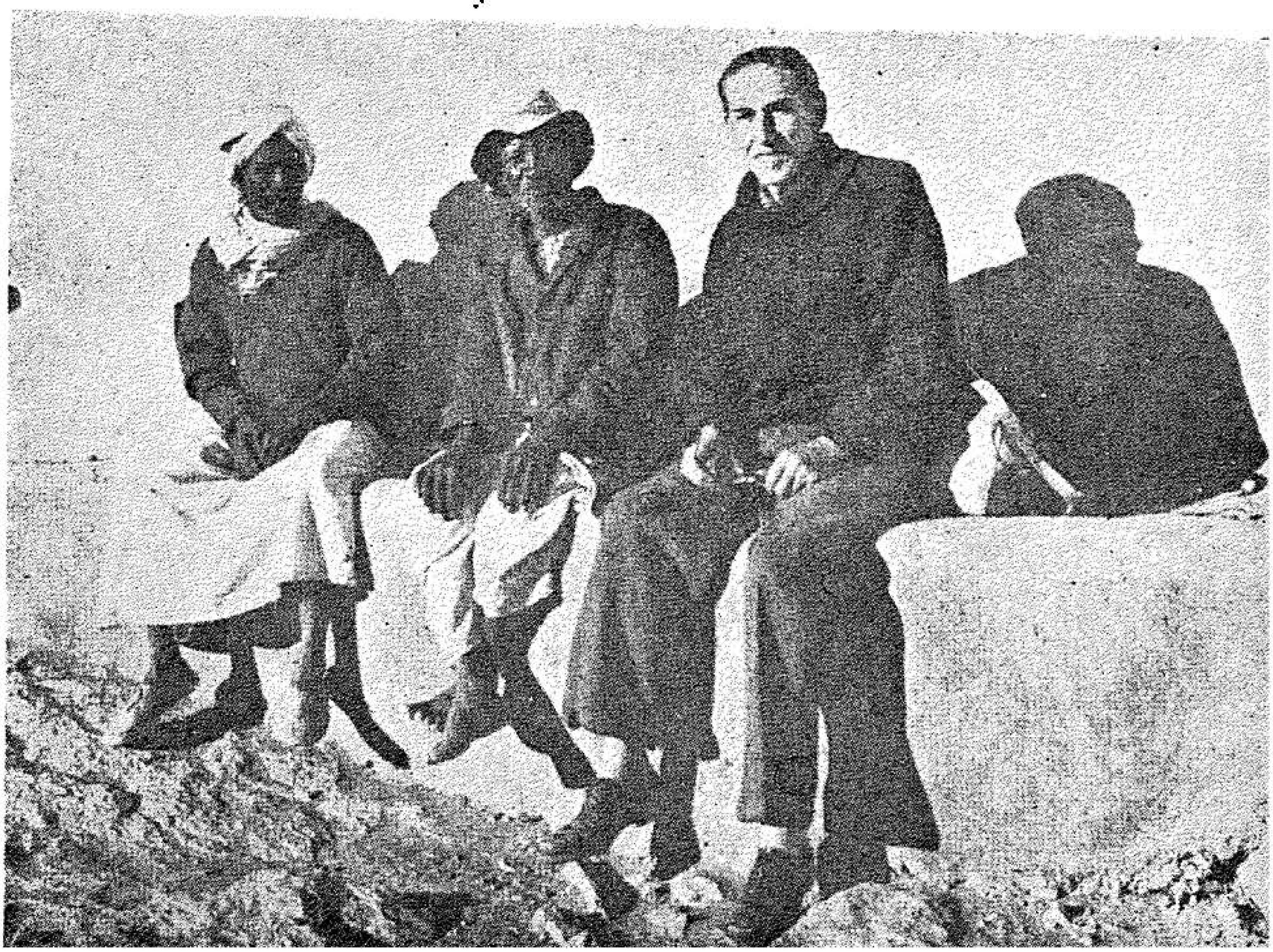

ثمة شيء يجلبونه من أوربا لا يستطيعون الحصول عليه من « يام » أو بلاد « كوش » . ولم يعانوا أزمات اقتصادية تدفع بهم إلى البحث عن أسواق عبر البحار . ولم يسمعوا قط عن التضخم فى الإنتاج ، كما لم يكن لديهم أسواق عالمية . إن الحاجة إلى هذه الأشياء كلها هى التى دفعت بالأجيال اللاحقة إلى ارتياد الأجزاء المجهولة من العالم . وليس المكتشف المغامر سوى وليد لحاجات الوطن ، ولا يولد هذا المكتشف قبل أوانه . ونحن معشر أبناء الثورة الصناعية لا يحق لنا أن نتيه على قدماء المصريين لأننا قمنا بهذه الأشياء — لأننا اهتدينا إلى منابع النيل ، الأمر الذى لم يصل إليه القدماء ، ذلك أن المصريين لم يتساءلوا حتى عن المكان الذى ينبع منه النيل ، بل يكفى أنه موجود ، هبة من الله . وكان هذا كافياً ، فليس ثمة حاجة إلى الذهاب أبعد من ذلك . أما نحن فقد كنا فى حاجة إلى إفريقية ، ولذا تدافعنا من أجلها عندما جاء الأوان . وكان فى مقدورنا أن نهتدى إلى منابع النيل قبل الآن لو كان هذا هو كل بغيتنا .

وتوجد مقبرة « پيپى نخت » بين المقابر القائمة على جانب التل المواجه لأسوان . وما زالت هذه المنطقة رهن البحث ، وينبغى علينا أن نعلم المزيد عن المشروعات التجارية الخاصة بالدولة القديمة . ولقد علمت من مصدر موثوق به فى أسوان أن « الأستاذ أيدل Professor Edel » الألمانى الذى كان يقوم بدراسة هذه المقابر ردحاً من الزمن ، عثر على مقبرة أخرى غير معروفة فى شتاء ١٩٦٠ — ١٩٦١ عليها نقوش مثيرة للاهتمام ، فى حالة سليمة . وسوف تظل المعلومات الجديدة — التى يمكن أن تمدنا بها هذه النقوش — سراً أثرياً مغلقاً حتى تنقل النصوص كاملة ثم تنشر .

كان «پيپى نخت» من أواخر نبلاء أسوان ، إذ بنهاية عصر مليكه ، نحو عام ٢٢٤٠ ق . م ، انهارت السلطة المركزية فى مصر ، وكان هذا نهاية ما يعرف باسم الدولة القديمة . وجاء على أعقاب ذلك العصر الوسيط الأول الذى يمكن أن نطلق عليه « العصر الأول غير المعين » ، ذلك أنه حتى الخبراء

لا يستطيعون أن يتبينوا على وجه التأكيد الاضطرابات التى سادت الأسرات من السابعة إلى العاشرة فى مصر . ويكفى أن نذكر أن البلاد قد مزقتها الخلافات الداخلية على السلطة ، وأنها انقسمت على نفسها نتيجة لتطاحن الأمراء فيما بينهم ، مما أدى إلى ضعفها حيال التدخل الأجنبى .

أما فى الجنوب فلم يكن ثمة تدخل من جانب سلالة « المجموعة (A) » . ومن المحتمل أن يكون تأديب « بيبى نخت » لقبائل واوات وايرثت تتمة لما بدأه « چر » Jer حينما جعل من جبل الشيخ سليمان شاهداً على ما بدأه من تأديب لسكان بلاد النوبة السفلى . وعلى أية حال ، لم نعد نسمع عن المجموعة ، فقد انتهى أمرهم وتلاشوا من التاريخ . أما بقية المعلومات التى كان يمكن أن نلم بها فيما يختص بالمجموعة (A) فإنها مطمورة فى رمال النوبة فى انتظار الفيضان[1] .

وقد جعل ضعف مصر فى ذلك الوقت من اليسير على شعب آخر أن يدخل البلاد ويحل محل المجموعة (A) أو يندمج مع ما تبقى من أفرادها . وقد أطلق علماء الآثار اسم « المجموعة (C) » على هذا الشعب الجديد ، وهو يشبه المجموعة (A) ، من الناحية الجثمانية ، إذ أن كلا الشعبين ينتميان إلى الجنس الأسمر للبحر المتوسط ، كما أن الخزف الخاص بالمجموعة (C) يشبه الخزف المصرى فيما قبل الأسرات . ويعتقد الأستاذ « آركل » أن من المحتمل أن موطن « المجموعة (C) » قبل أن تنتقل إلى بلاد النوبة كان فى الجنوب عامة ، لا فى وادى النيل فحسب وأنها انتشرت على كلا جانبى الوادى ، حيث عثر على بعض آثار حضارة هذه المجموعة . وفى بلاد النوبة كان هؤلاء الناس يربون الماشية ، وتدفن رءوس الماشية التى تنحر فى الجنازات حول مقابرهم ، فى احتفال كبير . وتتميز قبورهم بطابع خاص بهم : وهى عبارة عن سور دائرى أنيق من الحجارة . وكانت الجثة توضع فى وسط حفرة صغيرة فى الأرض ، ثم تملأ الدائرة بالرمال فتبدو وكأنها كعكة ضخمة مستديرة . ومن المحتمل أن تكون

(١) مجىء الفيضان تفتح بوابات خزان أسوان فتتدفق المياه منه وتنحسر عن جانب كبير من الأرض على جانبى النيل النوبى .

قد شيدت أصلا مخروطية الشكل ، ثم بعد ذلك بنيت غرفة من الحجارة دفنت فيها الجثة ، فى وضع القرفصاء دائماً ، بدلا من الحفرة التى كانت تعمل فى الأرض ، كما أضيف إليها هيكل على الجانب الشرقى للمقبرة لتقديم القرابين ه وهذا الهيكل ما زال باقياً فى شكل بدائى فى بلاد النوبة ، ذلك أنك ترى مقصورة صغيرة من الحجارة ناتئة من السور الذى يحيط بمقابر المسلمين وتحتوى على قدور من الماء . ومن المؤكد أنها خير قربان يقدم إلى الروح فى هذه البقعة الجافة . أما فى مقابر الفقراء ، فتوضع هناك قدور الماء بصفة دائمة ، إذا لم يكن ثمة مقصورة . وأحياناً تكون القدور عتيقة للغاية ، وغالباً ما تكون مسروقة من مقابر قديمة . وهكذا يعانى عالم الآثار من الطمع فى الحصول على العاديات وغير ذلك من المشكلات .

وقد عثر بجوار بعض مقابر « المجموعة (C) » على أعمدة حجرية وقد نقشت عليها رسوم بعض الماشية ، كما عثر على أعمدة ونقوش مشابهة على مقربة من بعض المقابر المقامة على أكمة فى أقصى الغرب من الصحراء ، مما يدل على احتمال أن هذه المجموعة العنصرية قد امتدت عبر إفريقية أو تنقلت بين أرجائها . وهذا دليل آخر على وحدة إفريقية من الناحية الأثرية . وإذا فقدنا المفتاح المتمثل فى بلاد النوبة فإن أبواباً عديدة فى أماكن سحيقة سوف تظل موصدة إلى الأبد .

ومن المحتمل أن تكون هذه المجموعة الخاصة من هذا الجنس قد اضطرت إلى الانتقال إلى وادى النيل فى بلاد النوبة بسبب جفاف مراعيها فى الأرض التى أصبحت الآن صحراء جرداء فى أنحاء الجنوب ؛ وهى نفس البلاد التى اجتازها « حرخوف » فى رحلاته الشهيرة إلى « يام » . وقد يكون هؤلاء الناس من سلالة شعب « تيمه » Temeh الذى توجه إليهم زعيم « يام » لكى يطيح بهم إلى الركن الغربى من السماء . ويقول « آركل » إن من المرجح أن اسم « تيمه » لا يزال يطلق على شعب « تاما » الذى يقيم فى هذه الأماكن حتى الآن ؛ كما أن من الغرابة بمكان أن اسم « ايرتث » ، وهو الشعب الذى نكل

به « بيبي نخت » والذى مر بأرضه « حرخوف » عائداً ومعه ثلاثمائة حمار محملة ، يشبه اسم « أورتى » Urti ، وهم قوم يتكلمون لهجة نوبية فى الوقت الحـــاضر .

وقد سنحت الفرصة للمجموعة (C) أن تدخل بلاد النوبة نتيجة لضعف مصر ، ويحتمل أن يكون الدافع الذى اضطرهم إلى الاكتشاف والاحتلال دافعاً اقتصادياً – أى جفاف أرضهم وجدبها – حيثما كانت تلك الأرض . ويجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن أرضهم فى هذه الحالة كانت أرضاً زراعية ، إنما كانت أرضاً من المراعى المكشوفة ، ذلك أن هؤلاء الناس كانوا رحلا بلا ريب . وحيثما اضطروا فى بلاد النوبة إلى أن يعيشوا على مقربة من موارد المياه ، استقروا بعض الشيء ، كما يدل على ذلك التحسن الذى طرأ على بناء مقابرهم . ونستطيع أن نرى شواهد صغيرة على انتقالهم من حياة التنقل إلى حياة الاستقرار عن طريق دراسة بعض الأدوات التى خلفوها – فمثلا نجد أن النقوش المتعرجة التى توجد حول عنق قدور الفخار الخاصة بالمجموعة مأخوذة أصلا من الحزام الجلدى الذى كان يوضع حول القرعة . فإن الرحل لا يفضلون استخدام الأوانى الفخارية إذ أنها تكسر بسهولة .

وبعد ذلك بعشرين قرناً ، كتب « سترابو » عن « الأثيوبيين » فى كتابة الجغرافيا فى سياق الحديث عن الأحوال السائدة قبل ميلاد المسيح ببضع سنوات : « أنهم يحيون فى الواقع حياة شاقة ، يسيرون عراة الأجسام ويتنقلون من مكان إلى مكان » . ولكن « سترابو » لم يذهب قط إلى أبعد من أسوان لكى يلقى نظرة على الأحوال بنفسه ، وكان يصف أهل « مروى » Meroe الذين كانوا يعيشون جنوباً استناداً على الأقاويل . والحقيقة أن كل الشعوب التى وفدت إلى الوادى فى أوقات متفاوتة كان لزاماً عليها أن تنفض عنها عادات الرحل وتستقر فى وقار ، من عهد ما قبل الأسرات حتى دخول العرب .

وقد تسرب بعض أفراد المجموعة (C) واستقروا شمال شلال أسوان . وقد

عثر الأستاذ « يونكر Junker » النمساوى على أحد مدافن المجموعة (C) فى « القوبانية » ، فى الصعيد منذ خمسين عاماً . ويحتمل أن يكون هذا هو المكان الذى توقف عنده أفراد هذه المجموعة تحت ضغط أمراء طيبة الذين كانوا يحاربون منافسيهم فى أسفل النهر . وقد كتب النصر لهؤلاء الأمراء آخر الأمر ، وكانت الأسرة الحادية عشرة التى أسسوها حوالى سنة ٢١٥٠ ق . م هى بداية الدولة الوسطى .

وقد اتخذ احتلال المصريين للنوبة حينئذ طابعاً حربياً أكثر خطورة عن ذى قبل ، وامتدت الحدود فى النهاية إلى الشلال الثانى . ويوجد شمال هذا الشلال مباشرة ، وعلى بعد ستة أميال غربى جبل الشيخ سليمان ، تل آخر من الحجر الرملى له شكل هرمى وعليه نقوش ورسوم (مخربشات[1]) عديدة ، وهى الاسم الذى يطلقه علماء الآثار على الكتابة والرسوم العشوائية ، فالطالب الذى يحفر اسمه على قمطره يقوم بعمل عشوائى . ومن الحكمة أن أطلق على هذا التل اسم « التل الهيروغليفى » وقد تناولته يد الإنسان منذ أقدم العصور ، وهذه النقوش والرسوم هى الكتابات العشوائية التى كان يدونها العمال والكتبة . ومن العسير أن تقرأ هذه النقوش فى معظم الأحوال ، شأن المخربشات التى توجد على الجدران فى وقتنا هذا . وقام الأستاذ « تشرنى Cerny » الأستاذ بجامعة أكسفورد بنقل وترجمة عدد كبير من هذه النقوش . ومن النماذج التى تمثل هذه النقوش توقيع يرجع إلى عهد المملكة الوسطى : « حامل الأحجار لبناء موائد القرابين ، « امينى » . وتوجد نقوش وكتابات مشابهة ترجع إلى عهد الدولتين القديمة والوسطى محفورة على جبل الشيخ سليمان نفسه ، مما يدل على أن عمال الدولة القديمة كان فى مقدورهم أن يمارسوا أعمالهم حتى الشلال الثانى .

وقد تخيل « الدكتور ريزنر Dr. Reisner » ، إبان عملية المسح الأثرى

---

(١) مخربشات ترجمة كلمة graffiti وهى عبارة عن نقش الشخص اسمه أو غير ذلك على مكان على سبيل التذكار .

التى تمت سنة ١٩٠٨ ، نتيجة لما تقدم ونتيجة لما عثر عليه من محتويات القبور ، صورة لسكان المجموعة (C) فى النوبة السفلى تمثلهم قوماً يعيشون فى أمن ورغد تحت ظل الاحتلال العسكرى المصرى ، آمنين غائلة هجمات الشعوب الهمجية إلى الجنوب من النهر . ورأى فى المجموعة (C) شعباً بسيطاً منعزلا يعيش فى طمأنينة سياسية ، شأن النوبيين الذين كان يراهم من حوله منذ خمسين عاماً خلت ، قبل أن تتلف أراضيهم نتيجة لإقامة سد أسوان . إذ كانوا يعيشون على الزراعة ، ينبتون النخيل ، ويصنعون السلال ، ويقومون بخدمات النقل النهرى ، ويبحثون عن عمل خارج حدودهم . ويقول « ريزنر » إن أدواتهم المستوردة كانت كلها مصرية ، ثم يضيف قوله : « ولكن الثقافة المحلية بقيت ثقافة تنتمى إلى العصر الحجرى الحديث من الوجهة العملية . والجنس الذى لا يستطيع أن ينتج أو حتى يستفيد فائدة كاملة من نتاج ثقافة أعلى من ثقافته ينبغى علينا ، من وجهة نظر التاريخ ، أن نعتبره على حالته السالفة » .

ومن المحتمل أن المجموعة (C) لم ترد أن تنتج وتستفيد من نتاج حضارة أخرى أرفع من حضارتها . وربما كانت تعارض تدخل المصريين فى عزلتها . وقد ساد رأى « ريزنر » القائل بأن المجموعة (C) كانت تعيش فى رخاء ، كما هو الحال مع المجتمعات الحالية فى بعض الأقطار التى أنشأت فيها الدول الكبرى قواعد صاروخية استراتيجية ، ساد هذا الرأى لبضع سنوات ، ومع ذلك فإنه لا يخلو من متناقضات . حقيقة إن شعباً ميسراً لا يستطيع أن يتجنب التأثر — إلى حد ما — بأصدقائه الذين يقومون على حمايته ، ولكن الصورة تبدو معكوسة تماماً ، ذلك أن الأشياء المستوردة من مصر والتى عثر عليها فى المقابر لا تزيد على السلع التى قد يبيعها الباعة المتجولون العابرون ؛ ورفض خزافو المجموعة فى إصرار أن يسمحوا لأسلوبهم التقليدى أن يتأثر أقل تأثر بأسلوب صناعة الخزف المصرى الذى كان يفوق أسلوبهم . ويبدو أن قوات الاحتلال والسكان المحليين لم يتآخوا تماماً . فما لاريب فيه أنها كانوا قوات احتلال فعلا .

وتدل حفائر مدافن المجموعة (C) فى « القوبانية » أن هؤلاء القوم قد وفدوا

إلى بلاد النوبة قبل احتلال الدولة الوسطى لها ؛ ولذا لم يدخلوا تحت الحماية طواعية منهم . ويرد فى كتابات « واليس بدج » Wallis Budge ذكر نقوش حجرية للملك « منتوحتب » أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة تمثله واقفاً فوق خمسة عشر قوساً ترمز إلى خمس عشرة قبيلة همجية قد أخضعها الملك لسلطانه ؛ كما تشير نقوش أخرى إلى الغزوات التى تمت فى عهد الأسرة الحادية عشرة فى بلاد النوبة والتى يحتمل أن يكون عملها احتلالا دائماً . وعلى كل فقد كان ثمة استيلاء على البلاد بالقوة ؛ وقد دون فى عهد الأسرة الثانية عشرة أن مؤسسها « امنمحات الأول » وفد إلى البلاد « لكى يتغلب على الواوات » . وقد واصل « سنوسرت الأول » ، ابن « امنمحات » الاحتلال العسكرى ، كما أن هؤلاء الملوك وخلفاءهم أقاموا شبكة من التحصينات ليس لها نظير فى أى مكان فى أى عصر ، حتى أيام إقامة القلاع والحصون فى أوروبا فى العصر الوسيط .

وبما أن المجموعة (C) قد وصلت قبل أن تبنى هذه الاستحكامات ، وبالنظر إلى تلك الحملات العسكرية المدونة فى بلاد النوبة ، فقد بدأ « آركل » وآخرون معه فى الاعتقاد بأن هذه القلاع لم تشيد حماية للمجموعة (C) ، بل وقاية ضدهم ، ولو جزئية على الأقل . والحقيقة أن السكان المحليين كانوا يعترضون على استغلال بلادهم بواسطة قوة استعمارية ، كما كانوا يرون فى القوافل المصرية المحملة بالبضاعة والأحجار فرصة طيبة لأعمال القرصنة وقطع الطرق ، مما اضطر المصريين إلى إقامة استحكامات ضدهم لحماية خطوط مواصلاتهم إلى الجنوب .

وكما هو الحال مع المجموعة (A) ، فإن القليل من الحفائر فقط قد تم فيما يختص بالمجموعة (C) . وينبغى علينا ألا ننسى أن عمليات المسح الأثرية فى الماضى كانت تنحصر فى خط المياه المرسوم الذى تصل إليه كل تعلية من تعليات السد لدرجة أن ما تبقى من الأماكن فوق المستوى الحالى لمياه سد أسوان نادراً ما جرت فيها أعمال التنقيب . وبصرف النظر عن « القوبانية » وهى

الموقع المصرى ، فإن أغلب المعلومات التى حصلنا عليها عن المجموعة مصدرها الجبانات التى يرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى والتى عثر عليها « شتيندورف » Steindorff عام ١٩١٢ ، والتى قام بحفرها عام ١٩٣١ . وأحياناً ما يستغرق الكشف عن أسرار العالم الأثرى وقتاً طويلا . والواقع أن هذه الجبانات هى جزء من منطقة كبيرة استخدمت للدفن ، ويرجع تاريخها إلى الدولة الوسطى ، وتمتد حتى العصور الرومانية ، وتقع بالقرب من « عنيبة » على ثلثى الطريق بين أسوان ووادى حلفا . وقد عثر « آركل » سنة ١٩٥٠ على بعض الآثار التى تدل على وجود موطن من مواطن المجموعة (C) عند « فرس غرب » شمال وادى حلفا . وقد رأى حلقات من الحجارة تدل على معالم أكواخ من العشب ، ثم ربط بينها وبين القطع الخزفية للمجموعة (A) ، والأسلحة المصنوعة من الظران ، ومعدات صناعة الخرز ، ومثقب صغير قرمزى اللون ، وبعض الخرز من العظام . وتشير قائمة مصلحة الآثار السودانية الخاصة بالمواقع المهددة بالغرق إلى هذا الموقع على أنه قد تم حفره ، ولكننى لم أعثر بعد على النتائج التى نشرت فيما يختص بهذا الموضوع . وعند « دبيرة شرق » على الجانب الآخر من النهر ، توجد مقبرة ينبغى أن تزودنا ببعض المعلومات الخاصة بالمجموعة (C) . وهذه المقبرة تدخل فى نطاق المساحة التى خصصت للبعثة الاسكندناوية المشتركة فى الأزمة الحالية . كما توجد مقابر أخرى تخص هذه المجموعة عند « فرس شرق » تشير إليها القائمة السودانية على أنها « حفرت جزئياً » ؛ وعند الطرف القصى من المنطقة المهددة ، أى عند « فوكة شرق » توجد بعض المقابر النوبية التى ترجع إلى الدولة الوسطى وقد تم حفر جزء منها ، بينما آخر موقع فى القائمة هو بعض مقابر المجموعة (C) النوبية من عهد الدولة الوسطى عند كوشا حيث ينتهى الفيضان ، وهذا الموقع لم يتم حفره بعد . ولا يسع الإنسان إلا أن يعبر عن أمله فى أن يتوفر الوقت والإرادة والرجال لكى يتم فحص هذا كله .

وتوجد فى أعلى النيل بعد منطقة الفيضان شواهد على وجود المجموعة (C) ،

مثل بعض القطع الخزفية ذات الطابع المميز ، كما توجد رسوم صخرية لبعض الماشية بطريقتهم الخاصة . ويعتقد « ريزنر » أن التنقيب فى هذا الاتجاه من النوبة السفلى قد يكشف لنا عن حدود الجنس النوبى فى الدولة الوسطى وصلاته الثقافية والعنصرية . ويحتمل أن يكون « ريزنر » محقاً جداً فى هذا الاعتقاد . وقد أدى ذلك به عام ١٩١٢ إلى أن مد منطقة المسح الأثرى الذى يقوم به حتى مديرية « دنقلة » فى السودان ، على مقربة من الشلال الثالث ، وعلى بعد حوالى مائتى ميل جنوب وادى حلفا . ولم يعثر على ما كان يتوقعه . ولكنه عثر على شيء مثير للدهشة سوف نتعرض له فى حينه .

وما زالت معظم القلاع قائمة هناك ، وقد تآكلت بقاياها بفعل الرياح كما طمر بعضها بفعل الرمال المتحركة . ولم يزل بعض هذه القلاع يستحق المشاهدة ويترك فى النفس أثراً طيباً . وقد أجريت أعمال كثيرة ، من الناحية الأثرية ، فى الماضى فى هذه القلاع ، وما زال العمل جارياً فيها حتى الآن . ومع ذلك ظل البعض مهملاً ، ولا يمكن إنقاذها من غائلة الفيضان النهائى ، لأنها مبنية من اللبن الذى لا يمكن نقله كما تنقل المعابد المبنية من الحجارة . وقد ورد ذكر أربع عشرة قلعة فى إحدى أوراق البردى القديمة ، وهى مقسمة إلى مجموعتين على طول النهر ، ومن الواضح أن هذا التقسيم لغرضين مختلفين ففى شمال المجرى ، فى المساحة الصالحة للملاحة ما بين الشلال الأول عند أسوان والثانى عند وادى حلفا ، أقيمت قلاع « كوبان » و « عنيبة » و « فرس » بحيث تشرف على مواطن المجتمعات المستقرة فى الأرض الزراعية التى وجدت هناك ، وتحمى مراكز التموين والموانئ والنقل النهرى ضد أى عبث يقوم به سكان المجموعة (C) . أما جنوب النهر فيما وراء وادى حلفا فقد أقيمت فى براعة سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض على صخور صلدة وعلى جزر صغيرة لكى تحمى الممر الوعر للشلال الثانى حتى « سمنة » حيث كانت تنتهى حدود الدولة الوسطى . وكان هذا النظام يحمى القوارب الصغيرة التى كانت البضائع تنقل إليها من السفن الكبيرة لاجتياز منطقة الشلال . وهذه

القوارب لم تكن لتغيب عن نظر قلعة من القلاع ، كما أنها كانت تحمى الطرق القريبة من النهر التى كانت تسير فيها القوافل . أضف إلى ذلك أنها كانت أقصى مراكز الدفاع للحدود الجنوبية . والباعث الذى يكمن وراء كل هذه النفقات وأعمال الصيانة لم يكن الحاجة إلى مركز دفاعى على الحدود عند هذه النقطة ، فقد كان من الممكن إقامة هذا المركز بنفقات أقل وفاعلية أكبر عند « باب الفتتين » ، إذ أن بلاد النوبة السفلى لم تكن لتستحق تكاليف ضمها إلى الممتلكات المصرية لذاتها . ولم يكن الباعث كذلك فرض حماية أبوية خالية من الغرض تقوم بها دولة كبيرة تجاه أمة أقل نمواً ، بغرض الأخذ بيدها إلى مستويات أعلى ، تماماً كما يحدث فى هذه الأيام حين تسارع الدول الكبرى لمنح الدول التى تحت حمايتها الحكم الذاتى بمجرد أن يقصر الميزان التجارى أو الاستراتيجى عن تحقيق أى ربح . وكان هذا هو الحال مع المصريين منذ أربعة آلاف عام خلت ؛ فقد كان الحافز الوحيد هو التجارة ، رغبتهم فى الحصول على العاج والأخشاب النفيسة ، وكل ما يغله الجنوب من طيبات . ولكى يضمنوا الحصول على هذه الأشياء ، لا بد أن يحافظوا على سلامة الطريق المؤدى إلى الجنوب ، ولو بالقوة إذا اقتضى الأمر .

ولو أن « ايقور » كانت حقاً قاعدة للأسرة الثالثة فى بلاد النوبة لكان قد انقضى حوالى ألف عام منذ أن أقيم هذا المركز التجارى القوى أيام المجموعة (A) التى كانت مسالمة تدع قوافل الدولة القديمة تمر دون أن تتعرض لها بسوء . وفى العصر الوسيط الأول المظلم لا بد أن « ايقور » كانت قابعة هناك تتآكل بفعل الرياح حتى لم يعد فى مقدور الرعاة أن ينبئوك بأمر المردة الذين عفا عليهم الدهر والذين أقاموا هذا المستودع هناك . ولا بد أن أفراد المجموعة (C) من الرحل كانوا يضربون خيامهم فى ظل جدرانها المتهدمة .

كانت هناك أغنية دينية قديمة تقول : « إن ألف سنة فى مرآك ليست إلا أمسية واحدة قد أدبرت » . لم تكن هذه الأغنية تثير فى نفسى سوى التثاؤب بين جدران الكنيسة الصغيرة الباردة فى المدرسة . ولكن الآن ،

وبعد أربعين عاماً ، برزت أهميتها : بمثل ذلك ولت فترات الزمن المذهلة بين العصور فى التاريخ المصرى . وأما تاريخنا فتتزاحم فيه الأحداث ، فقد وقعت أحداث كثيرة فى أوروبا ، وأمريكا ، وباقى العالم منذ هبط « وليم الفاتح » أرض بريطانيا — ولم يمر على ذلك ألف عام بعد . ولكن فى بلاد النوبة لم تقع أحداث كثيرة ، بل إن الناس عاشوا ما قدر لهم أن يعيشوا ، دون أن تشغل بالهم الجيوش المحتلة مدى ألف عام . وعلى كل ، فإن هذا يعد عملا له وزنه ، حينما يمعن الإنسان النظر فى الأمر ، ويحتمل أنه يتفق مع الغرض من الحياة أكثر مما يتفق مع صنع الأحداث المثيرة . ومما يدعو إلى الغرابة أن الأحداث المثيرة غالباً ما تبدأ باسم المعيشة السلمية .

وهكذا جاء الملك سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة ، حوالى سنة ١٩٧٠ ق . م وأعاد بناء « أيقور » . وكانت « أيقور » موقعاً هاماً ، أحسن اختياره عند المكان الذى يتجه فيه وادى العلاق نحو الجنوب الشرقى تجاه مناجم الذهب فى الصحراء وتجاه طرق القوافل المؤدية إلى شرق السودان ، وربما إلى بلاد بونت كذلك . وهذا هو ما عثر عليه « س . م . فيرث » بعد الحفائر التى قام بها إبان عملية المسح الأثرى عامى ١٩٠٨ — ١٩٠٩ كما سبق ذكره . وقد عارض البعض رأيه القائل بأن أيقور يرجع تاريخها أصلاً إلى الأسرة الثالثة ؛ ويقول آخرون بأن أيقور قد أسست وأعيد بناؤها على طراز آخر فى عهد الأسرة الثانية عشرة . وفى كلتا الحالتين قام « سونسرت الأول » ببناء قلعة حصينة عند « كوبان » فى مواجهة أيقور لحماية هذا المركز . وقد كتب « ماسبيرو » يقول : « هنا كانت تقوم مدينة عتيقة ، فى الوقت الذى لم تكن فيه بلخيس التى تقع فى مواجهتها إلا ضاحية جديدة » . وكتب « ويجل » عن « كوبان » منذ خمسين عاماً : « هذه القلعة المهدمة تعتبر من أقوى المناظر تأثيراً فى النفس فى بلاد النوبة ، ذلك أنها تعيد إلى المخيلة عهوداً ضائعة بطريقة يعجز عنها أى معبد من المعابد . هذه الجدران المحطمة الشاحبة ، التى ما زالت تشمخ إلى ارتفاع كبير ، وبطانة الخندق المتصدعة ، والخندق نفسه ،

والطريق المغطى ، كل هذه تعيد إلى ذهن الإنسان صوراً لمناحى النشاط فى مصر القديمة » . ثم يقول إن الجدران كانت مبنية من الطوب اللبن ، ويبلغ سمكها عشرين قدماً وارتفاعها ستة وعشرين ، ويحيط بها خندق أو حفرة جافة منحوتة فى الصخر . وكانت البوابات فى الشمال والجنوب محاطة من جانبيها بأبراج بارزة إلى الداخل تاركة فرجة لا يبلغ عرضها سوى عشر أقدام فحسب تستعمل للدخول إلى القلعة . وكان الوصول الدائم إلى النهر يتم بواسطة طريق مغطى ، وهذا الطريق مبطن ومسقوف بحجارة صلدة ومغلف من الخارج بقوالب سميكة من الطوب .

وقد ظلت هذه القلعة العظيمة تستخدم نحو ثمانمائة عام . ثم أصابها الكثير بعد ذلك على يد الزمان والإنسان . وحينما جاءت « أمليا ادواردز » إلى هذا المكان سنة ١٨٧٣ لاحظت أن الحصن الأوسط الكبير لقلعة « كوبان » قد استخدمه الزراع المحليون كمصدر للسماد ، ذلك أن التربات المتخلفة عن استخدام المكان لمدة طويلة دون أية وسائل صحية إنما يجعل من الأماكن العتيقة سماداً قيماً للحقول . وقد كان فى هذا قضاء على كنوز أثرية عديدة فى مصر والنوبة . وعلى الرغم من التآكل واحتياجات الزراعة ، فإن الأستاذ « أمرى » وصف « كوبان » بأنها « ربما تكون أكمل قلعة تنتمى إلى الدولة الوسطى فى الوجود كله » وذلك حينما وصل مع بعثة مسح الآثار عامى ١٩٣٠— ١٩٣١ لكى يتم حفر المكان . وقد عثر على قلعة ترجع إلى عصر سابق ويقع جزء منها تحت تلك القلعة التى وصفها « ويجل » . ومن بين الأشياء التى عثر عليها والتى تدل على تاريخ المكان قطعة من الحجر الجيرى نقش عليها اسم « سنوسرت الأول » . وحيث إن الباحثين لم يعثروا على شىء آخر يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ ، فقد رجح أن سنوسرت أقام القلعة الأولى التى يبلغ سمك جدرانها ست أقدام فقط ، وبنى حولها خندقاً يشبه خندق قلعة « أيقور » المواجهة ، وقد بناه من الطوب اللبن وجعله من الاتساع بحيث لا يستطيع الإنسان أن يتخطاه . أما القلعة الأخيرة التى وصفها « ويجل » فكانت أكبر

من تلك بكثير . ولا يحتمل أن تكون هذه القلعة قد أقيمت فى ذلك القسم من النهر سوى حماية ضد شعب المجموعة (C) .

وهكذا معظم ، إن لم يكن كل ، ما يمكن أن تقصه علينا قلعة « كوبان » من أنباء ، مسجل ومعروف . ولكن إلى جانب هذا ما زالت هناك أشياء كثيرة باقية فى هذه المنطقة المخصصة لبعثة الآثار الروسية .

وعلى الضفة الغربية للنيل ، على بعد ١٣٢ ميلا جنوب سد أسوان الحالى توجد بقايا مدينة « معام » القديمة والتى تعرف اليوم باسم « عنيبة » . فى هذا المكان عثر « شتيندورف » على بضع مقابر للمجموعة (C) سنة١٩١٢ . كما توجد بقايا قلعة أخرى فى هذا المكان ، وهى الآن متهدمة للغاية ، ومن المحتمل أن يكون قد بناها « سنوسرت الأول » فى عهد الأسرة الثانية عشرة . ولا بد أنها كانت قلعة ضخمة ، قد أقيمت لنفس الغرض الذى من أجله شيدت قلعة « كوبان » ، أى بقصد السيطرة على أهالى المنطقة . وعلى الرغم من أن « معام » لم تصبح مقراً لنائب الملك لمدة أربعمائة عام أخرى أو نحو ذلك ، فلا بد أنها كانت مدينة هامة فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، ذلك أن القطع الخزفية التى ترجع إلى ذلك العصر فصاعداً توجد بوفرة فى هذا الموقع .

ولقد ثار الحماس فى نفس السائح « ج . ا . سانت جون » — وهو الذى عرض عليه فتيات بيت الوالى أن يبعنه ملبسهن الوحيد وهو حزام من سيور الجلد — وذلك عند رؤيته لعدد آخر من الحصون عند « فرس » على الحدود المصرية السودانية الحالية . وقد شاهد سنة ١٩٣٨ قلعة مبنية من اللبن ذات معاقل ، وأبراج مربعة « تشبه تماماً القلعة التى دمرها المصريون كما تمثلها النقوش البارزة على معبد أبى سمبل » . هذه القلعة المرسومة كانت المعقل الحصين لقادش[1] ، على الرغم من أن « سانت جون » لم يكن يعرف هذه الحقيقة حينذاك ، وأعتقد أنها فى مكان ما فى بلاد النوبة ، ولكن فكرة هذه

---

(١) فى شمال سورية .

المعاقل الخيالية قد تلاشت قبل مطلع العشرينات من هذا القرن حينما قام الأستاذ « ف . ل . جريفيث » وزوجته بإجراء حفائر « اكسفورد » فى بلاد النوبة ولم يعثرا على برهان أكيد يدل على أن بقايا الجدران التى يبلغ سمكها ثلاثين قدماً ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة ، وحينما أجرى « آل جريفيث » حفريات فى الربوة التى تشرف على الحصن كأنها قلعة عثرا على كثل من معبد بنى بعد ذلك التاريخ ؛ ولذا مال معظم العلماء إلى الاعتقاد بأن تلك القلعة ترجع إلى العهد الرومانى . وعلى كل ، يعتقد « آركل » أن القلعة ربما كانت قائمة على إحدى الجزر فى تلك الآونة وأنها هى القلعة التى ذكرت فى القائمة القديمة تحت اسم « محتضنة الأرضين » Embracing the Two Lands وكان النيل يجرى خلال قناة تقع غرب هذا المكان ، وقد عثر « آل جريفيث » على بقايا قلعة صغيرة أخرى كانت تقوم على حراسة رصيف ساحلى صخرى جفت الآن مياهه فى الصحراء .

وتحاول اليوم بعثة بولندية موفدة من معهد ميكولوسكى أن تشق طريقها خلال تل يبلغ ارتفاعه اثنتين وثمانين قدماً وهو الذى بدأ « آل جريفيث » العمل فيه . ومن المؤكد أنه يوجد فى هذا التل بعض بقايا أثرية يمتد تاريخها من القرن الخامس عشر قبل المسيح حتى العصر العربى . ومن المحتمل أن يصل إلى علمنا قريباً ما إذا كانت قلعة « محتضنة الأرضين » ، كانت فعلا عند « فرس » أم لا .

ويحتمل أن يكون « صد الميچو » Repulse of the Medju هو اسم القلعة التالية — والميچو هو اسم قبيلة مشاكسة فى الصحراء الشرقية ، قد يكون أفرادها هم أسلاف الرحل الحاليين الذين يعرفون باسم « البجاة » . ويقع هذا الحصن عند « سيرة شرق » على بعد حوالى عشرة أميال جنوب « محتضنة الأرضين » . ولم تنقب القلعة بعد ، على الرغم من أن « جريفيث » قام بجس أغوارها سنة ١٩١٠ . وقد أخبرنى « هارى سميث » الذى قاد عملية المسح الأثرى فى بلاد النوبة المصرية التى سلف ذكرها ، إنه لم يتحقق حتى الآن

ما إذا كانت هذه القلعة المبنية من قوالب اللبن يرجع عهدها إلى الدولة الوسطى أم لا ، على الرغم من أنها تعد كذلك فى القائمة الخاصة بالمواقع السودانية . وإن اهتمامى الشخصى ليحلو بى إلى الأمل بأن يقوم الدليل على أن هذه القلعة هى « حيسف ميجو » Hesef Medju أى « صد الميجو » ، إذ أن معهد الدراسات الشرقية[1] هو الذى يقوم بحفر « سيرة » ويضم فريقنا الأستاذ « رونالد ج . وليامز » بجامعة « تورنتو » ، تسانده منحة من المجلس الكندى .

أما حصن « بوهن » الذى يقع جنوب وادى حلفا مباشرة على الشاطئ المقابل فهو أفضل الحصون المعروفة جميعاً ، وذلك بفضل أعمال التنقيب الدقيقة التى استغرقت وقتاً طويلا وقام بها فى هذه المنطقة « الأستاذ ولتر ب . أمرى » بجامعة لندن بتكليف من جمعية الكشف عن الآثار المصرية . وهو أفضل الحصون المعروفة عند جمهور الناس وكذلك عند الباحثين والدارسين ، ذلك أنه منذ أن دقت نواقيس الخطر بالنسبة لآثار النوبة ، ترى كل باخرة تسير فى النيل من مصر إلى السودان وقد زخرت بالزائرين من كل الأمم تحدوهم لهفة لمشاهدة هذه الآثار قبل أن تزول إلى الأبد . وأشهر هذه الآثار هى أبو سنبل وبوهن ؛ وأن أفواج السائحين قد تسبب للمنقبين كثيراً من الضيق ، فترى بعض الحمقى يتخطون الحواجز ويطئون بأقدامهم الحفائر التى أجريت فى حرص ؛ كما أن بعض الأفراد الأنانيين يعطلون علماء الآثار بأسئلتهم كما لو كانوا هناك يؤدون عمل المرشدين بلا أجر .

وتتكون « بوهن » من قلعة ومدينة . . أما القلعة فهى الأولى فى سلسلة من القلاع تشرف على الشلال الثانى لمسافة ستين ميلا حتى حدود الدولة الوسطى عند « سمنة » . وفى السنة الثامنة عشرة من حكم « سنوسرت الأول » أقام ضابط يدعى « منتوحتب » لوحاً حجرياً نقش عليه صورة الإله « منتو » وهو واقف فى مواجهة الملك يهديه كل بلاد النوبة بحيث يمل كل مدينة من

(١) مؤلف الكتاب عضو فى البعثة التى أوفدها هذا المعهد .

المدن أسير مكبل بالأغلال . وتشمل هذه المدن أماكن تقع بالقرب من « سمنة » مما يدل على أن « سنوسرت الأول » لا بد أن يكون قد وصل إلى الحدود الجنوبية حيث كانت تقع « بوهن » وحيث أقيم اللوح الحجرى .
وما زال هناك بقايا معبدين من المعابد ، ولكنهما يرجعان إلى عصر متأخر عن هذا ؛ وعلى كل فمن المرجح أن المعبد الشمالى منهما يحتل مكان معبد مبنى من اللبن أقامه « سنوسرت الأول » . وقد زار هذا المكان المؤرخ « چيمس هنرى برستد » سنة ١٩٠٦ ولاحظ على قطع صخرية منعزلة تقع غرب المدينة وجود نقوش تمثل بعض العمال الذين استخدموا فى إقامة المعبد ، الذى بنى أولا عقب الغزو الذى أتمته الأسرة الثانية عشرة . وتقترن أسماء هؤلاء العمال باسم « منتو » ، إله طيبة ، العاصمة المصرية التى كانت تقع عند مدينة الأقصر الحالية ، مما يدل على أن « هؤلاء المستعمرين القدامى لبلاد النوبة كانوا من سكان طيبة » . والواقع أن الاستعمار الفعلى لم يقع قبل أربعمائة سنة أخرى ، وحتى حينما وقع لم يكن على نطاق واسع . ولذا فإن هؤلاء العمال لا يمكن أن يكونوا ممن يقيمون هنالك ، بل لا بد أنهم أرسلوا إلى الجنوب لهذا العمل بالذات .

وقد أجرى أول كشف علمى لبوهن « د . راندل — ماك أيڤور » و « ليونارد وولى » بتكليف من بعثة « أيكلى ب . كوكس » سنة ١٩١٠ ، وقد واصلا العمل لمدة فصلين وهما ينقبان عن المقابر ويتتبعان أثر الحدود الخارجية للقلاع والحصون ؛ ثم ظل الموقع كما هو لم يقترب منه أحد حتى منحت جمعية لندن للكشف عن الآثار المصرية إذناً بالتنقيب والاكتشاف . وبدأ العمل سنة ١٩٥٧ تحت إشراف « الأستاذ أمرى » . ولحسن الطالع أن الموقع ظل فى مأمن من التآكل الذى تحدثه الرياح — وهو ألد أعداء الطوب اللبن — وذلك بفضل الرمال التى تراكمت فوقه .

ويرجع « أمرى » تاريخ القلعة الأصلية إلى سنة ١٩٩١ ق . م ، أى قرب بداية الأسرة الثانية عشرة ، وكانت عبارة عن مدينة مستطيلة محصنة ومحاطة بخندق جاف . وكان سمك الجدران الرئيسية ست عشرة قدماً ، أما وسائل الدفاع

الخارجية فهى عبارة عن متراس وحاجز ذى فتحات تشرف على المنحدر أو بطانة الخندق الذى شق فى الصخر . أما الجانب الآخر من الخندق ، أى البطانة المقابلة ، فقد أقيم عليها بناء من الآجر ليزيد من ارتفاعها ، ثم أقيم فوقه طريق ضيق غير مكشوف يطل على منحدر سهل يطلق عليه المهندسون الحربيون اسم « السند » أو المنحدر الخفيف . وبالإضافة إلى ذلك كان يوجد بضعة أبراج مستديرة بارزة من المتراس وبها صفوف مزدوجة من الفتحات الثلاثية بحيث يمكن للجندى أن يطلق سهامه فى أى اتجاه يشاء وهو فى مأمن من الأعداء .

كل هذه الاستحكامات جعلت من « بوهن » مكاناً منيعاً يصعب الهجوم عليه . فلا بد للمهاجم من أن يتقدم أولا عبر السند المكشوف تحت وابل من السهام والقذائف التى تنصب من المتاريس ومن معاقل القلعة الرئيسية فى عل . ومن ثم يتعين عليه أن يتغلب على أى مدافعين مرابطين فى الطريق المغطى حول الحدود الخارجية للخندق . ثم يهبط البطانة المقابلة إلى الخندق ، أى حوالى عشرين قدماً من جدار مكشوف معرضاً نفسه للقذائف تلقى من بعد قريب ، ثم يعبر الخندق الجاف ويصعد البطانة إلى المتراس . وكل هذا يتم تحت وابل من القذائف المصرية من ثلاث جهات ومن فوق الرءوس . وحتى إذا أفلح المهاجم المجازف فى الوصول إلى المتاريس ، فلسوف يجد نفسه فى شرفة ضيقة تجرى حول المبنى الرئيسى المركزى للقلعة ، تحت جدران مكشوفة يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً حيث يتساقط فوق أم رأسه كل شىء يمكن تصوره . ولكى يستولى على القلعة لا بد له من أن يحدث تصدعاً فى تلك الجدران السميكة ، أو يتسلقها رغم المعاقل المشرفة عليها ، أو يهاجم المدخل المتين ، وهو عبارة عن ردهة لا يتجاوز عرضها عشر أقدام ذات بوابات مزدوجة ضخمة وجسر متحرك على بكر .

ومن الواضح أن المكان كان منيعاً عزيز المنال عندما كانت تقوم على حمايته قوات نظامية ، ونفس القول ينطبق على كل قلعة من سلسلة القلاع

التى صممت تصميماً بارعاً والتى تقع جنوباً حتى الحدود . وقد أخبرنى « بلوملى » ، أستاذ علم الآثار المصرية بجامعة « كمبردج » ، عند زيارته لبلاد النوبة سنة ١٩٦٠ أن من الواضح أنه إذا كان المصريون يحتقرون أهل الجنوب فإنهم كانوا يخشونهم كذلك ، إذ أنهم لم يكونوا ليتحملوا كل هذه النفقات ويتجشموا كل هذا العناء ضد عدو لا يخشى بأسه . وكان الفراعنة يميلون إلى أن يبالغوا فى الدعاية لأعمالهم المجيدة ضد « أهل كوش البائسين » ، وقد أدى هذا فى الماضى إلى نوع من الاستخفاف من جانب بعض المفسرين الذين لم يدركوا مدى مناعة وسائل الدفاع التى اضطر المصريون إلى إقامتها . والدليل على مدى ما وصلت إليه مصر من وهن العزيمة عند انهيار صرح الأسرة التالية هو وجود طبقة من الرماد تدل على الكيفية التى هوجمت بها أخيراً هذه القطعة المتينة من الهندسة الحربية على يد « أهل كوش الممتهنين » أو أفراد المجموعة (C)، أو حلف شرير جمع بينهما ، فكان أن تهدم جزء منها. ويقول « أمرى » إن المهاجمين دخلوا الحصن عن طريق الهجوم العنيف على البوابة ، إذ أن التصدع الذى تسبب عن الحريق كان أكثر عنفاً فى هذا الموقع .

وفى أثناء الحفائر التى كان يجريها الأستاذ « أمرى » سنة ١٩٥٩ عثر على هيكل حصان راقد على إفريز متراس الدولة الوسطى ، تحت طبقة من رماد متخلف من حريق الحصن . وقد دلت اختبارات الكربون الإشعاعى التى أجريت فى معامل المتحف البريطانى على أن تاريخ هذا الرماد يرجع إلى حوالى سنة ١٦٧٠ ق . م . وهذا التاريخ يتفق تماماً مع الموعد المتعارف عليه عادة لغزو الهكسوس فى الشمال ، ذلك الغزو الذى أضعف شوكة مصر وأتاح للجنوبيين أن يستولوا على بوهن وغيرها من الحصون . ولم يعثر على أثر سابق للحصان فى مصر قبل سنة ١٥٨٠ ق . م . ، ولذا رجح أن استخدام هذا السلاح الجديد كان هو السر فى نجاح الغزو الذى قام به الهكسوس . ومما يدعو إلى الحيرة والدهشة الكيفية التى أمكن بها أن يمر حصان من الشمال إلى الجنوب وبالتالى يكون موجوداً عند سقوط حصن « بوهن » .

وفى نفس الموسم وجه « أمرى » جهود بعثة جمعية الكشف عن الآثار المصرية إلى توضيح معالم مدينة « بوهن » التى أدرجها مدير عام الآثار فى السودان ضمن قائمة الأماكن التى لها الأسبقية على غيرها ، ذلك أنها من أولى المواقع التى سوف تغرقها مياه السد . وبدأت البعثة فى دراسة مكان يبدو أنه كان مقر القائد ، وهو عبارة عن بيت مكون من طابقين مقام فى مقابل الجدران الداخلية للقلعة ، وهو متصل اتصالا مباشراً بسلم يؤدى إلى المعاقل . وقد كشفت البعثة كذلك عن قاعتين ذاتى أعمدة خشبية مطلية بطلاء أحمر ، وزخارف أخرى ملونة . أما الأرضية فكانت مغطاة بالآجر ومطلية بالجبس ؛ مما يدل على أن القائد كان يهتم بسكنه .

وقد عثر على أختام صغيرة من الطين فى أماكن متفرقة ويبدو أن هذه الأختام قد سقطت من أنشوطات[1] الخيوط التى كانت ملفوفة حول وثائق البردى التى ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة . وقد تمخضت عملية نخل الأنقاض عن عدد كبير من قطع البردى الدقيقة . وقد مزقت هذه الوثائق عمداً ربما بواسطة « أحد رجال الأمن العسكريين فى ذلك العهد الغابر » كما يقول « أمرى » . وقد نقرأ عن رجال مخابرات يفتشون فى سلال المهملات ، ثم يضمون القصاصات بعضها إلى بعض ويستخرجون مضمونها ؛ ولكنه أمر عجيب أن يقوم الإنسان بهذا العمل بالذات بعد انقضاء ٣٩٠٠ عام على إلقاء هذه الوثائق ، ذلك أن المتحف البريطانى يضم هذه القصاصات بعضها إلى بعض بتصريح من مصلحة الآثار السودانية ، ومن المعتقد أن هذه الوثائق هى بقايا بعض الرسائل الصادرة من مصر . ومن يدرى أى مزيد من المعلومات مطمور هنا فى « بوهن » ، وفى مواقع أخرى لم تمس حتى الآن ؟ ومن أجل إنقاذ أشياء كهذه أهابت حكومة السودان ، عن طريق اليونسكو بالحكومات الأخرى ، والمنظمات ، والخبراء فى جميع أنحاء العالم أن يسارعوا لتقديم يد المعونة قبل أن تفيض المياه وتزيحها عن طريق المعرفة الإنسانية إلى الأبد .

---

(١) عقد والمفرد أنشوطة .

— ٤ —

كان أبونا إبراهيم الخليل « شيخ البدو الرحل » يقيم خيامه — فى الوقت الذى كانت تتمزق فيه هذه الرسائل — على مقربة من شطآن ذلك النهر الآخر فى أرض ما بين النهرين ، وهو يفكر فى أمر تلك الرحلة الطويلة حتى يصل إلى أرض كنعان .

ولم يسمع إبراهيم بأن الناس يقيمون قلاعاً فى أقصى صعيد نهر النيل للدفاع ضد رعاة رحل مثله . ولم يكن بناة القلاع هؤلاء ليأبهوا كثيراً بالأنباء التى تفيد بأن راعياً آخر من الرعاة الرحل كان على وشك أن يغادر أرض « بابل » لكى يجرب حظه فى مكان آخر ومع ذلك فإن التاريخ يشبه جراباً سحرياً يحمل قطعاً عشوائية ليس لها صلة ببعضها البعض — تماماً كهذه الأحداث — ويطويها القدر الانتهازى تحت أصابعه ، ومن ثم يشكلها نماذج فى براعة ؛ وقد تكون هذه النماذج جميلة فى بعض الأحيان ، وإن كان ذلك فى القليل النادر ، وقد تكون فى أغلب الأحيان نماذج شيطانية ، وهى نماذج لا تخطر لأحد على بال أبداً . ولم يكن أحد ليدرى أن بذرة إبراهيم سوف تنجب المسيح الذى سوف يغير من وجه الأرض ، وحتى هذه البقعة النائية من أرض النيل سوف تستمتع بالسلام والطمأنينة فى جو من العلاقات الإنسانية السليمة لبضعة قرون قبل أن يمزق الجنس البشرى تعاليم عيسى المسيح إرباً فيتنافرون ويتخاصمون ويشنون الحروب فيما بينهم . بيد أن هذا كله لم يحدث سوى بعد ثلاثة آلاف عام ، فى إبانها ظهر اليونان والرومان ثم تلاشوا كما وقعت أحداث أخرى كثـيرة .

ولنعد إلى عصرنا الذى نحن بصدده : فى سنة ١٨٩٥ كان « ج . ا . كويبل » ينقب قبراً من أواخر الدولة الوسطى ، يقع تحت المعبد المعروف باسم « الرمسيوم » فى الأقصر ، حين عثر على ورقة من أوراق البردى كانت مخبأة هنالك . وكانت هذه الورقة عبارة عن القائمة القديمة لقلاع النوبة التى سلف ذكرها . وكان حدثاً مثيراً بعض الشيء أن أمكن التعرف أخيراً على القلاع بأسمائها الأصلية ؛ بيد أنه كانت هناك بعض ثغرات أيضاً ، ذلك أن بعد حصن « بوهن » ورد ذكر قلعة فى القائمة باسم « إيكن » ، ولكن لم يمكن العثور عليها على الطبيعة . والمكان الوحيد المرشح لاسم « إيكن » هو مكان متآكل للغاية يقع حوالى ثلاثة أميال جنوب « بوهن » ، ويحمل اسماً حديثاً هو « قور » . والواقع أن هذا المكان يقع أسفل صديقنا العتيق جبل الشيخ سليمان حيث حفر الملك « جر » نقشه البارز الشهير ، هنا بعض الاستحكامات التى تبدو كأنها حطام مبنى من مبانى الإدارة ، كما يوجد قطع فى صخور الحجر الرملى يشبه ميناء صناعياً . وعلى كل فإن الجدران رفيعة ومنخفضة للغاية بحيث لا يمكن أن تصد أى هجوم من جهة البر ، وعلى أية حال يشرف عليها جبل الشيخ سليمان ، وليس ثمة دليل على وجود أى معبد فى « قور » . وكان المعبد من لوازم الحصن ، تماماً مثل كنيسة الحامية التى تقام فى الثكنات البريطانية اليوم . وقد أوضح « ڤيركوتر » — الذى حفر جزءاً من « قور » عامى ١٩٥٣ — ١٩٥٤ هذه الأشياء وأضاف قائلا إنه من الصعب أن نحدد تاريخ هذا المكان إذ أن إحدى عصابات اللصوص المنظمة منذ حوالى أربعين عاماً قامت بنهب المنطقة نهباً منتظماً .

ماذا كانت « قور » إذن ؟ من حيث إنها قلعة فهى تشبه « إيقور » إلى حد كبير و « إيقور » هذه مستودع كبير أسفل المجرى عند موقع « بسلخيس » القديمة . وليس لإيقور معبد أيضاً ، كما أن إيقور ، مثل « قور » ، لم تدرج فى القائمة على أنها حصن من الحصون ؛ إنما هى مستودع تحميه القلعة الموجودة فى « كوبان » ، فهل كانت « قور » مستودعاً كذلك ؟ من الممكن أن تكون

القلعة القائمة على حمايتها هى تلك القلعة الموجودة فى جزيرة « مينارتى » فى النهر القريب منها . ويقترح « فير كوتر » أن « قور » + مينارتى = أيكن . ولم يبق سوى أن تقرر الحفائر ما إذا كانت قلعة « مينارتى » ترجع إلى الدولة القديمة . هذا وكل من موقعى « قور » و « مينارتى » مدرجان فى قائمة الطوارئ التى لها الأولوية على غيرها من المواقع ، ولجمعية الكشف عن الآثار المصرية الخيار بينهما . [!]

ومن المعقول أن نتوقع أن تثبت الأيام أن « قور » هى « أيكن » أى مستودع تقوم على حمايته قلعة ، ويجاور ميناء تصل إليه السفن محملة بالبضائع المعدة للتصدير عند نهاية الجزء من النيل الصالح للملاحة ، ذلك أن « قور » تقع عند طرف الشلال الثانى بالذات . فى هذا المكان كان يعاد شحن البضائع فى قوارب صغيرة يجرونها فوق المياه المتدفقة ، حتى تصل إلى مقصدها على بعد مائتى ميل وراء القلاع القائمة على الحدود ، عند المركز التجارى فى « كرمة » . حيث قرر الدكتور « ريزنر » أن يجرى أعمال التنقيب سنة ١٩١٢ لكى يتعقب أثر انتشار المجموعة (C) نحو الجنوب . ومن الطبيعى أن يحدث عكس العملية حينما تأتى القوارب الصغيرة محملة بمنتجات الجنوب المرغوب فيها لكى تنقل إلى السفن الكبيرة عند « أيكن » .

وعلى مقربة من « مينارتى » (بحيث يمكن تبادل الإشارات) توجد جزيرة أخرى ، هى « دور جونارتى » تقوم عليها قلعة يرجح أنها ترجع إلى عهد الدولة الوسطى . وتبلغ مساحة الأطلال فى هذه البقعة ٦٠٠ قدم فى ٢٥٥ قدماً ، وكانت القلعة مبنية على رفد حجرى لكى يحفظ الجدران المبنية من اللبن فوق الفيضانات العالية . و « دور جونارتى » مدرجة كذلك فى قائمة الطوارئ العاجلة ، وهى لم تحفر حتى الآن قط .

وعلى بعد أربعة أميال جنوباً تقع جزيرة « دابنارتى » وهى جزيرة صغيرة متغضنة ، وهى مغطاة ببقايا قلعتها التى تبلغ مساحتها ٩٥٠ فى ١٩٠ قدماً ، وهى مبنية من الطوب اللبن على قاعدة عريضة من الحجارة . وهى فى موقع

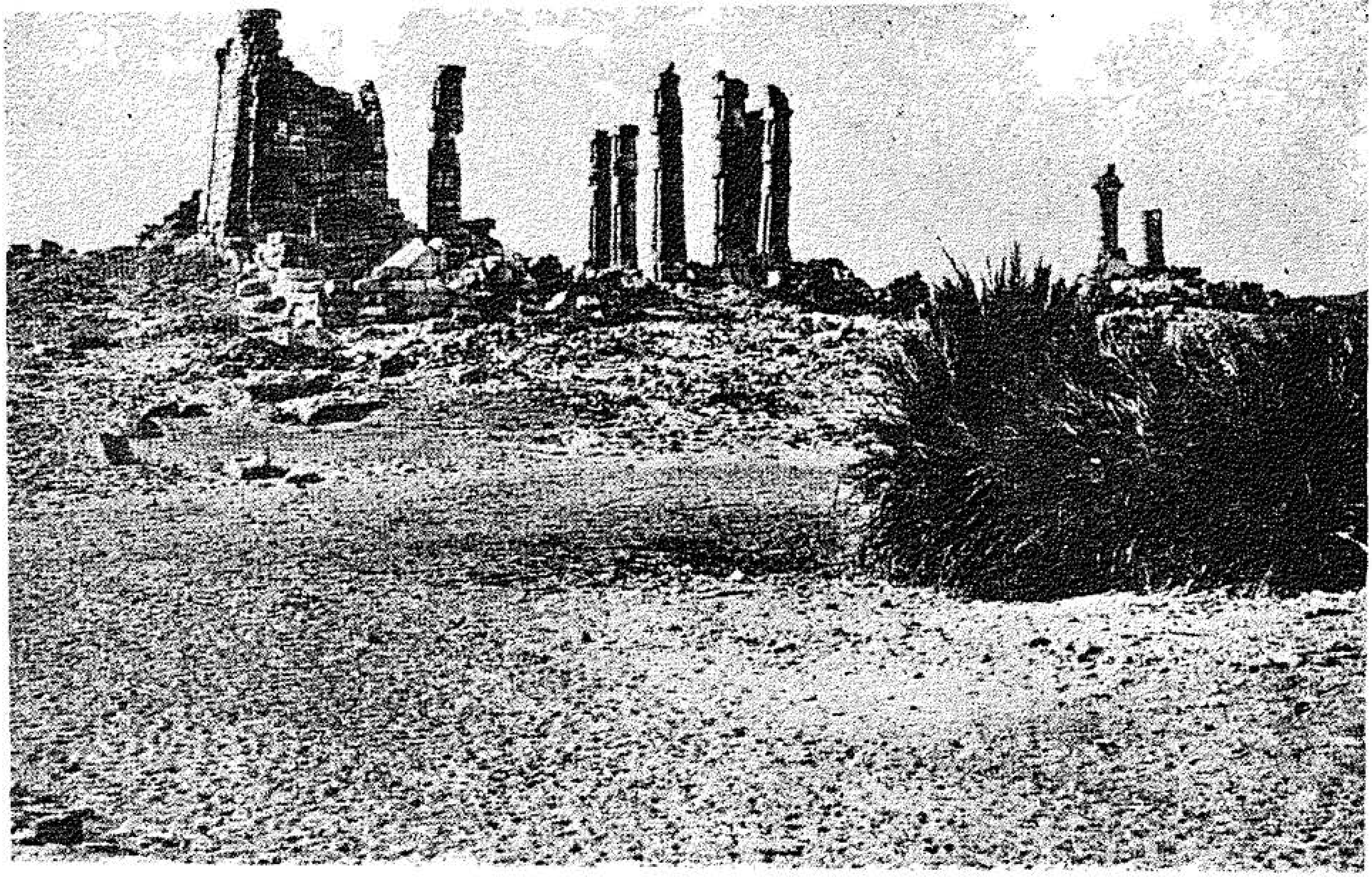

معبد «المتألق» بنور الحق» في «صلب» بالنوبة السودانية ، وهو لا يقل في عظمته عن الأقصر . ويضم النقوش البارزة الوحيدة الباقية من عهد الملك الثائر «أخناتون»

كل ما تبقى من معبد الشمس الوحيد لأخناتون ويقع في «صسبى» في النوبة السودانية . وهو بعيد عن متناول يد الفيضان

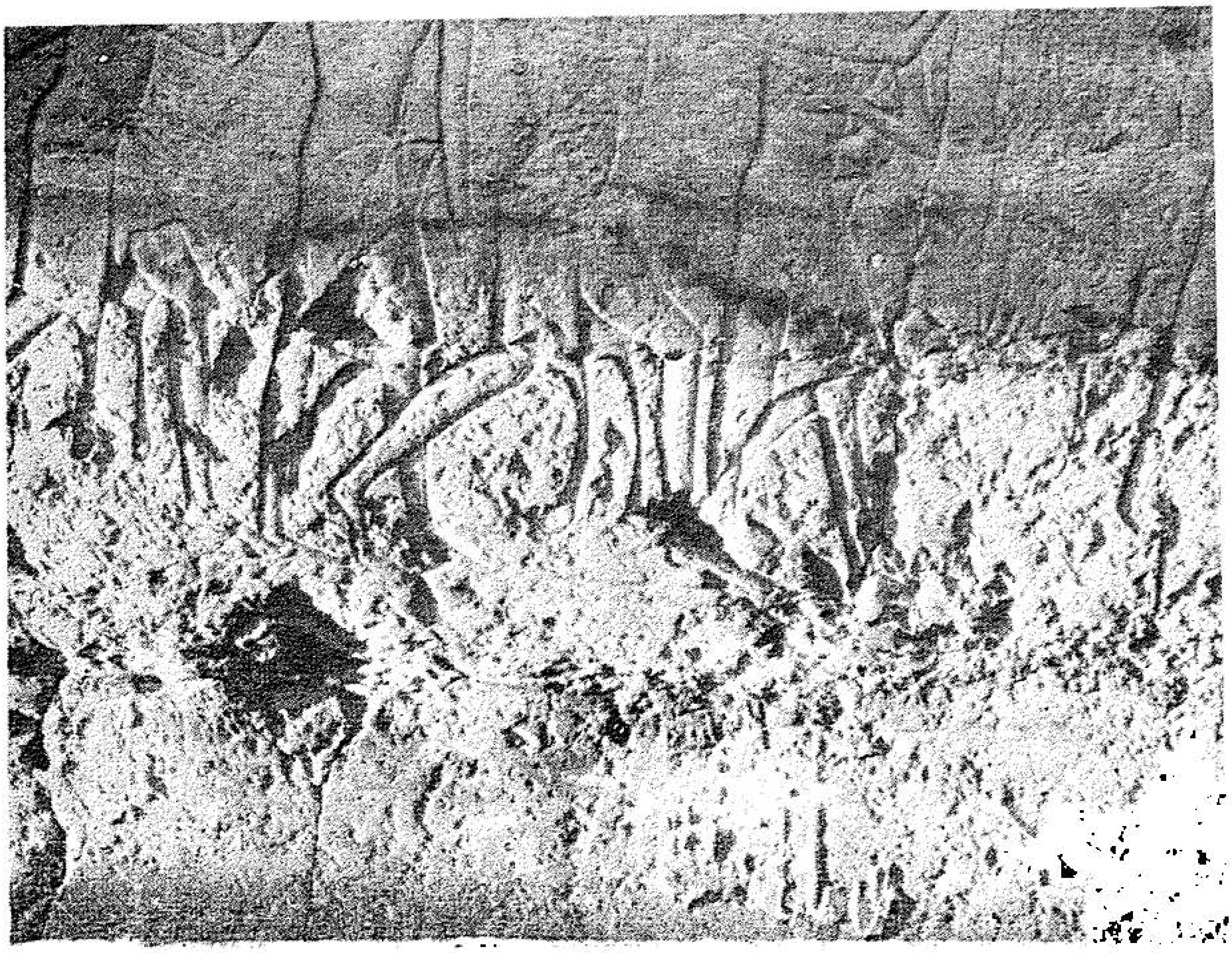

الجص الذى تساقط عند أخذ نموذج لجدار المعبد القائم فى بيت الوالى ما زال ملتصقاً بالجدار . وكان هذا النموذج قد نقل للمتحف البريطانى منذ ١٣٦ عاماً . وما زال القالب الذى تساقطت منه هذه القطرات الموضحة بالصورة معروضاً فى لندن وقد أعيد طلاؤه بألوانه الأصلية

حصار قادش : منظر من الحملة التى قام بها رمسيس على سوريا ، وهو منحوت على جدار المعبد فى بيت الوالى . وإلى اليسار يبدو ابن الملك وهو يقرع باب القلعة . وعلى المتاريس يظهر كبار المدينة وهم يستعدون للتسليم . أما إلى اليمين فيبدو أحد الضحايا وهو يهوى على الأرض . وفى الوسط . تدلى إحدى النسوة طفلها وهى تلتمس الرحمة

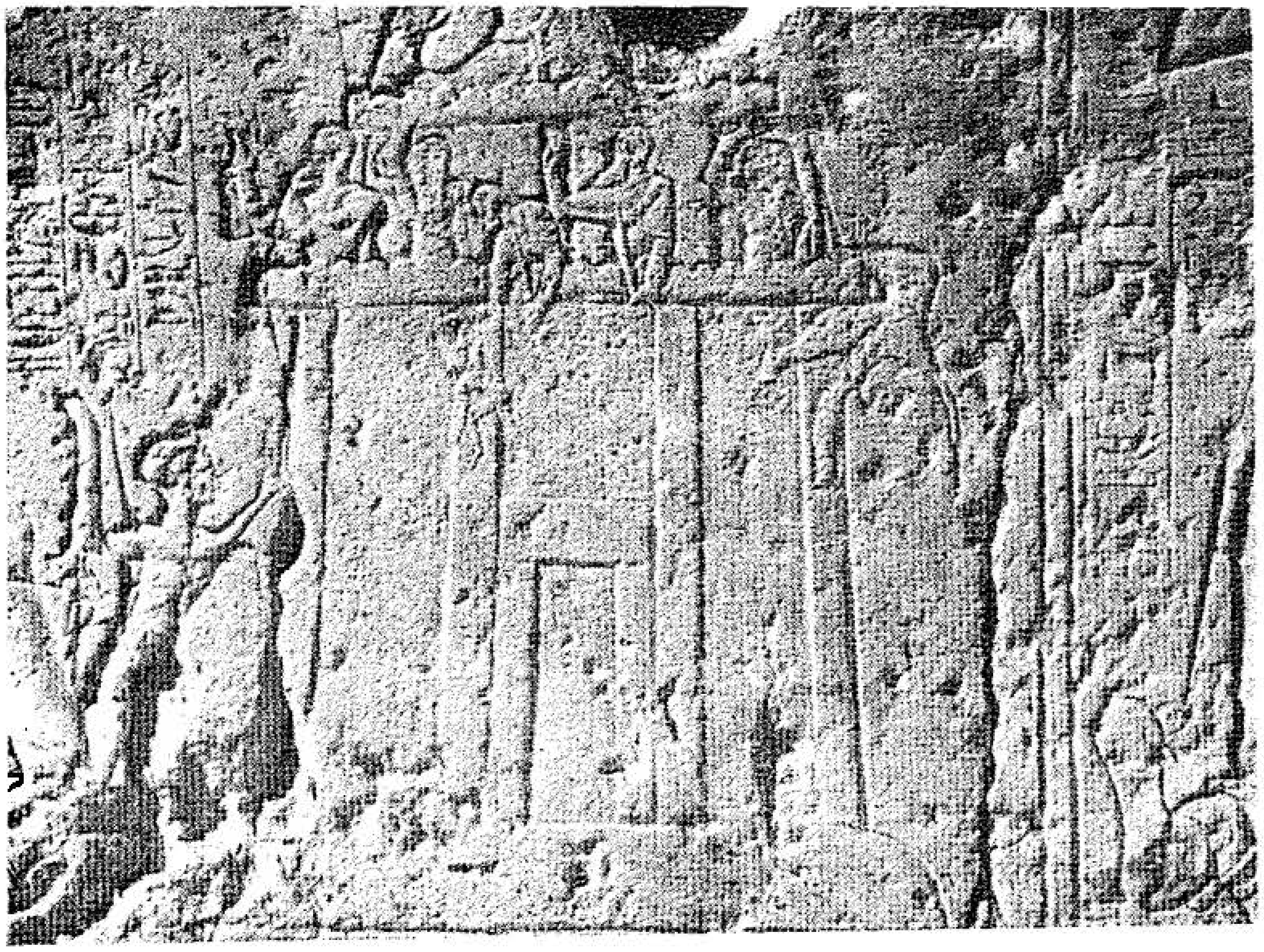

الأحداث التي تجرى أثناء القيام « بحملة نوبية » ولو أنه يرجح أن رمسيس الثانى لم يقم بها قط ، وهى محفورة على جدار المعبد فى بيت الوالى . وفى الصورة العليا يبدو النوبيون وقد وطئتهم سنابك خيل رمسيس . أما الصورة السفلى فيظهر فى يسارها امرأة نوبية تطهو الطعام تحت شجرة يقف عليها أحد القردة ، بينما يهرع أحد الصبية إليها لكي ينبئها بأن الملك الفاتح فى طريقه إلى البلدة .

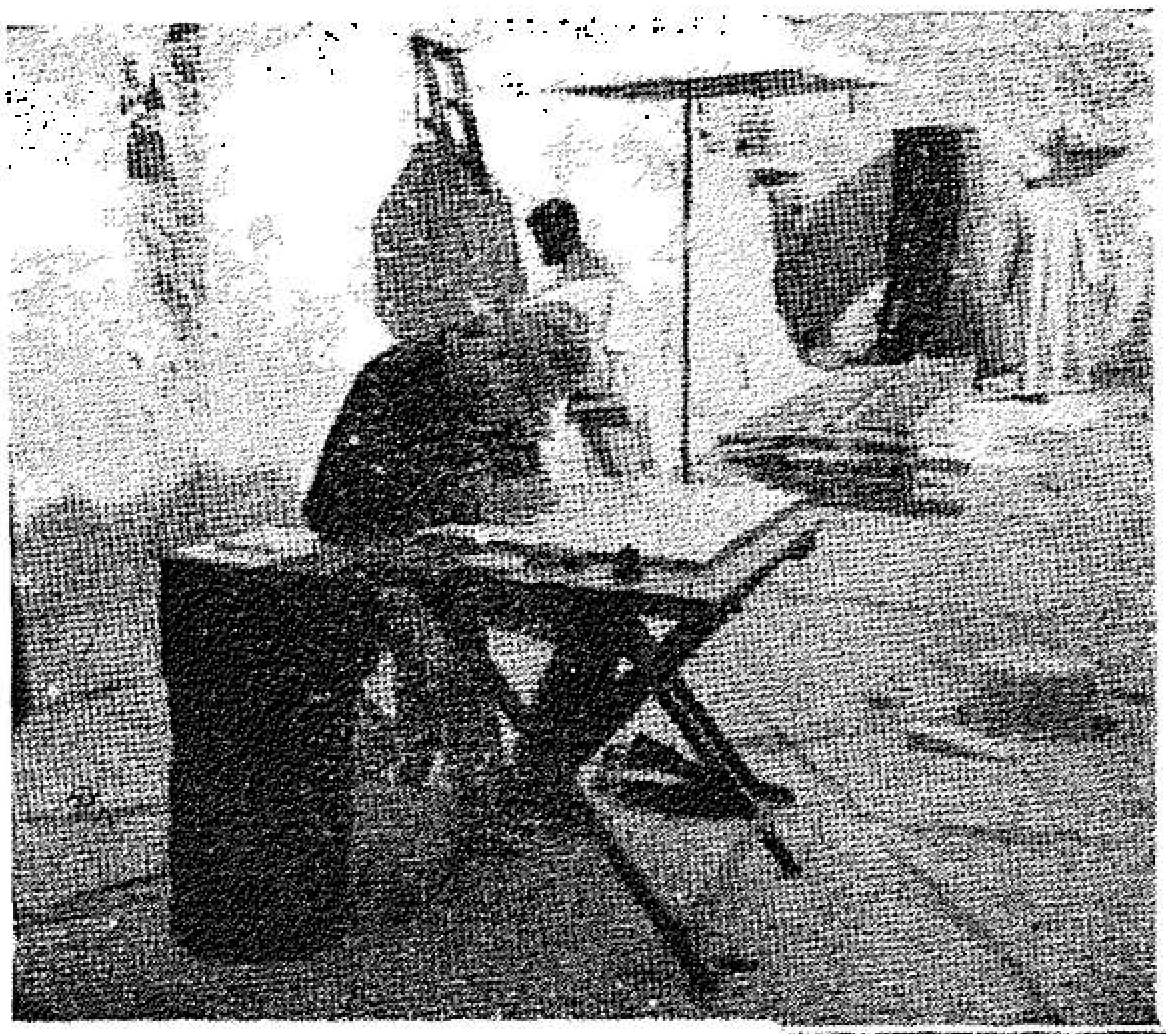

المهندس المعماري السويسري « كارل فنجرهوت » يسجل رسم معبد بيت الوالي بينما يقوم الفنان « جون فوستر » برسم منظر معركة قادش محتمياً بإحدى المظلات

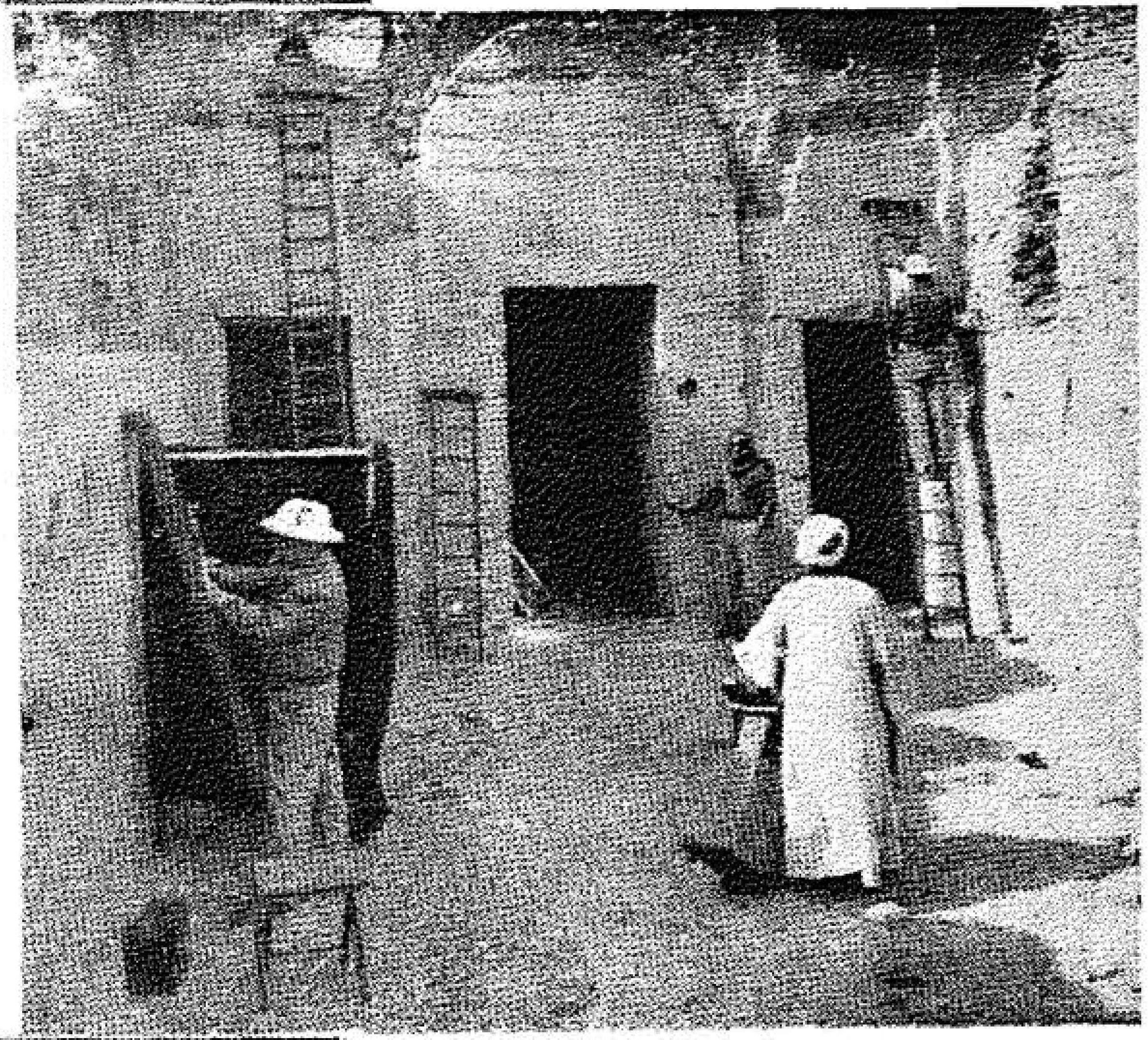

واجهة المعبد المنحوت في الصخر ، ويقف الدكتور « إدوارد ونت » عالم الآثار المصرية على السلم ، بينما يحتمي الدكتور « چورج هيوز » ، من معهد الدراسات الشرقية بشيكاغو ، بستار يصد الرياح

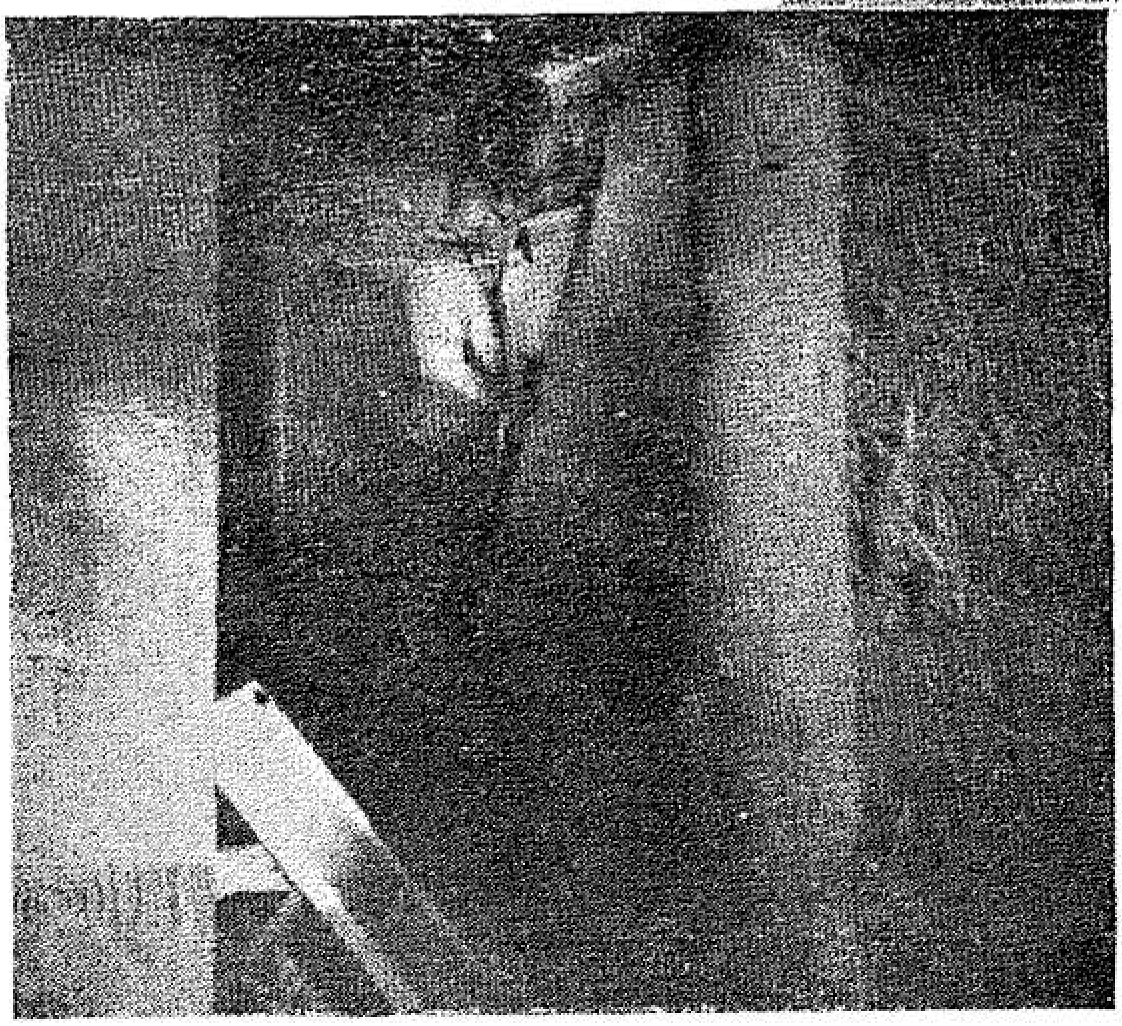

في « قدس الأقداس » تحت سطح الأرض ينقل « جون فوستر » النقوش البارزة مستعيناً بضوء إحدى المرايا التي تعكس ضوء الشمس من الخارج

ممتاز بحيث تشرف على أفضل الطرق المائية فى الشلالات عند هذه النقطة . والقلعة لم تجر فيها أية حفائر قط ، وهى مدرجة كذلك فى قائمة الأولوية ، تترقب مجىء شخص يعنى بأمرها . وتقع فى مواجهتها على الشاطئ الغربى القلعة المكملة لها ، قلعة « ميرجيسة » ، وقد بدأت الرمال تزحف ثانية إلى حطامها منذ أن تركها « ريزنر » من ثلاثين عاماً خلت بعد أن حفر جزءاً منها . وقد مات « ريزنر » سنة ١٩٤٢ تاركاً وراءه كمية ضخمة من المذكرات . ولم ينشر بحثه عن القلاع والحصون مطلقاً فيما عدا شذرات منه . ولحسن الطالع أن كل ما هو معروف عن خمس على الأقل من القلاع الواقعة فى نطاق الشلالات قد تم نشره بمعرفة متحف الفنون الجميلة فى « بوسطن » . وقد ظهر سنة ١٩٦٠ المجلد الأول من سلسلة « قلاع الشلال الثانى » تأليف دوزدنهام وجوزيف چانسن .

ولكن من ذا الذى سيقوم بحفر ونشر جزيرتى « دور جونارتى » ؟ و « دابنارتى » ؟ هل من سميع ؟ وتقوم « ميرجسة » على نتوء صخرى شامخ يرتفع خمساً وسبعين قدماً عن النهر ، وتبلغ مساحتها ٩٠٠ فى ٦٠٠ من الأقدام ، وهى قلعة متينة البنيان فى موقع طبيعى ممتاز . وتستطيع هى وزميلتها قلعة « دابنارتى » على الضفة المقابلة أن تتحكما فى مرور السفن فى المجرى تماماً . وتقوم الجدران الشرقية بغتة على حافة النهر ؛ أما الجدران الشمالية والجنوبية فهى جدران مزدوجة تحميها أخاديد تتجه نحو النهر ، كأنها خنادق طبيعية جافة . وفيما بين الجدران المزدوجة عثر « سير هنرى ليونز » منذ أمد طويل على اسم « سنوسرت الثالث » منقوشاً على أساس معبد حجرى صغير . وعثر « ريزنر » على لوح حجرى كتب عليه اسم ملك من ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، هو الملك رمسيس الأول . ومن الممكن أن نستنتج من هذا أن سنوسرت قام ببناء المعبد والقلعة ، وأن رمسيس الأول قام بإصلاح المعبد أو توسيعه فيما بعد . وعلى كل ، لم يكن هذا رأى « ريزنر » ؛ فقد رفع سنوسرت الثالث ، فى العصور المتأخرة ، إلى مصاف الآلهة ، ولذا فمن

الطبيعى أن نجد اسم ملك من الأسرة الثانية عشرة منقوشاً فوق معبد من المعابد التى بنيت فيما بعد . وهناك أمثلة عديدة على ذلك . ولهذا استنتج « ريزنر » أن المعبد الحجرى فى « ميرجيسة » قد بنى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة — ومن المحتمل أن يكون قد بنى فوق معبد من الطوب أقامه سنوسرت فى عهد سالف — فى الوقت الذى بنيت فيه معظم المعابد الحجرية الموجودة فى الحصون ، وأن « رمسيس الأول » قام بإصلاحه فى عهد الأسرة التاسعة عشرة . وينبغى على الإنسان ألا يتقبل الأدلة الواضحة فى الاستنتاجات المتعلقة بالآثار أكثر مما يتقبل رجل البوليس البارع الأدلة السطحية فى اقتفاء أثر جريمة من الجرائم . ومن العجيب — أو قد يكون من الطبيعى — أن معظم علماء الآثار البارزين فى وقتنا الحاضر يخلدون فى أوقات فراغهم إلى تلك الكتب التى تقدم حلولا يسيرة .

وكان لقلعة « ميرجيسة » بوابتان ، وقد عثر « ريزنر » على بعض بقايا الأبواب الضخمة المزدوجة التى كانت تستخدم فى إغلاق هاتين البوابتين ، ومن بينها دعامة خشبية — مقطعها اثنتا عشرة بوصة مربعة — وقطعة خشبية ثقيلة كهذه فى قطر لا شجر فيه لا بد أن تكون قد جلبت من أعالى النهر فى مقابل ما غلا ثمنه من الطيب والأقمشة والقاشانى من كل نوع . وكان الجزء السفلى من الباب الخارجى ما زال موجوداً هنالك ، وهو عبارة عن ستة ألواح من الخشب ، يبلغ عرض كل منها سبع بوصات وسمكه ثلاث بوصات .

وكان للغرف فى القلعة دعامات خشبية مثمنة الشكل تستند عليها السقوف كما هو الحال فى « بوهن » ، وهى مطلية باللون الأحمر ؛ كما كان هناك ثلاثة أحواض دائرية من الحجارة ذات بالوعات تتفرع منها ربما كانت تستعمل مغاسل للاستحمام أو أماكن للسكيبة[1] .

---

(١) خمر تراق على الأرض أو على ذبيحة تكريماً لأحد الآلهة .

أما الأسوار الدفاعية فقد كان بها ظاهرة عجيبة حيرت «ريزنر» ، ذلك أنه وجد ثلاثة صفوف من الفتحات ، يبلغ عرض كل فتحة مقدار قالب من الطوب ، ويبلغ ارتفاعها مقدار قالبين ، تخترق عرض هذه الجدران ، بينما توجد فتحة أخرى على طول الجدار . ولم يستطع «ريزنر» أن يجد تفسيراً لهذه الظاهرة .

وقد عثروا على عدد كبير من طبعات الأختام المصنوعة من الصلصال ، وما بين خطابات وأختام اللفائف الرسمية ، وأختام شخصية . وأمكن قراءة بعضها ، فمثلا على أحدها : «الإله الطيب ، رب الأرضين ، سنوسرت الثالث ، خاتم المخزن العظيم» ، كما عثر على آخر طبع على خطاب شخصى ورد من «صبي الحجرات الداخلية للحريم الملكى» ، «محتب - اب» وأن الإنسان ليتساءل عن نوع الوظيفة التى كان يشغلها «محتب - اب» !

ويبدو أن المدنية الغربية قد نقلت ، فيما نقلته عن التراث الثقافى العظيم لقدماء المصريين ، الختم «المطاط» .

ونقلا عن مصدر موثوق به ، يوجد حصن آخر من حصون الدولة الوسطى يبعد عن هذه الحصون أربعة أميال ونصف ميل ويقع عند «جماعى» ؛ ولكن لم يحفر واحد منها حتى الآن . وعلى كل ، فإن موقع «جماعى» مدرج فى قائمة الأسبقية ، لوجود بعض المدافن به تتدرج عصورها حتى العصر المسيحى . وقد أجريت بعض الحفائر على بعض المقابر التى تقع على إحدى الآكام ، وذلك تحت إشراف «ا. بيتس» و «دوز دنهام» منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وتحتاج هذه الحفائر إلى من يتمها ؛ كما أن هناك بعض الكنائس التى ترجع إلى أوائل العهد المسيحى فى انتظار من ينقذها .

وتقع القلعة التالية المعروفة على بعد مسافة طويلة — تبلغ حوالى تسعة عشر ميلا ، وهى قلعة «شلفق» . وليس من المعقول أن يكون المهندسون العسكريون المصريون قد تركوا ثغرة كهذه ، حيث لا تجد القوافل وسائل لحمايتها وهى بعيدة عن الأنظار لمسافة مسيرة بضع ساعات ، إذ أن النظام

كله ، سواء لحماية القوافل أو لغرض الدفاع ، لا بد أنه قد صمم على أساس تبادل الاتصال على طول الطريق ، ولا بد أن كل قلعة قد صمم موقعها بحيث تستطيع أن ترسل الإشارات إلى القلعة التى تليها ، وأن تبعث إليها بالمدد على وجه السرعة إذا اقتضى الأمر . وإذا لم يكن نظام الإشارات يتم بواسطة رؤية كل قلعة للأخرى بطريق مباشر ، فلا بد أنه كانت هناك محطات دائمة لإعادة إرسال الإشارات بين كل قلعتين متباعدتين كهذه القلاع . وعلى قدر معلوماتى ، لم تدرس حتى الآن وسائل ونظام الإشارات المصرية . ولا بد أن المصريين كان لهم مثل هذه الوسائل . وقد رجح البعض أن الحروف الهيروغليفية كانت تستخدم فى هذه الإشارات .

وهكذا نبحث عن قلعة أو محطة لإعادة إرسال الإشارات فيما بين « جماعى » و « شلفق » فنجد فى طريقنا « أسكوت » حيث تضع إدارة الآثار السودانية علامة استفهام فى قائمة الآثار الخاصة بها أمام احتمال وجود قلعة فى هذا المكان ترجع إلى الدولة الوسطى . ولم تجر أية حفائر للاهتداء إلى مكان هذه القلعة .

ومن ثم نصل إلى « شلفق » ، وهى قلعة أخرى أجرى حفرها « ريزنر » ولكن معالمها لم تنشر بعد بقدر كاف . وتقوم هذه القلعة على قمة مرتفع صخرى تشرف على المناظر المحيطة بها من عل ، وكل الطرق المؤدية إليها عبارة عن طرق وعرة منحدرة . وهى قلعة صغيرة ، ولكنها على مدى إشارات القلعة التى تليها ، وعن طريقها يمكن الاتصال بالحدود نفسها . ويتضمن المجلد الثانى من « قلاع الشلال الثانى » الذى وضعه « دوز دنهام » تفصيلا محدداً لهذه القلعة ، مع غيرها من القلاع .

وكان الفرنسى « جان لاپورت » ، الذى سار هابطاً فى النهر فى قاربه المصنوع من المطاط حوالى سنة ١٩٥٢ من القلة المعدودة من الأوربيين الذين أمكنهم مشاهدة هذه القلاع المتهدمة من مستوى النهر ، ذلك أن هبوط الشلال مجازفة تنطوى على الخطورة حتى فى أنسب الأوقات ، وليست من السبل

العملية فى شىء بالنسبة لعالم آثار باحث . فإذا ما وقع بصرك على شىء هام فى طريقك إلى الشمال فلن يكون فى مقدورك أن تتوقف ، ولذلك فإن معظم السائحين يفدون من مصر ويتجهون جنوباً بطريق البر . وليس عددهم كبيراً ، لأن ذلك يعنى تنظيم حملة مجهزة تمام التجهيز ؛ فضلا عن أن الأرض يابسة عارية وليست ثمة وسيلة عامة للنقل من أى نوع . وبينما كان « لاپورت » يندفع عبر الجنادل ماراً بالمجموعة الأخيرة من القلاع بالنسبة لنا (والمجموعة الأولى بالنسبة له ما دام متجهاً نحو أسفل المجرى) حيث تزداد الهوة الصخرية عمقاً وتطل المرتفعات الوعرة من فوقه ، وقد أعادت بقايا القلاع المتهدمة إلى ذهن « لاپورت » منظر « قلعة من قلاع العصور الوسطى فى إحدى القصص الخيالية » .

وفى سنة ١٩٠٠ كان ثلاثة من علماء الآثار الألمان ، « بوركاردت » ، و « شيفر » و « شتايندورف » ، وكلهم من مشاهير عصرهم ، يرسمون المبانى المتهدمة بجزيرة « أورانارتى » التى تبعد نحو أربعة أميال جنوب « شلفق » ، حين عثروا على لوح من الجرانيت ظهر أنه صورة طبق الأصل من لوح آخر عثر عليه عالم أثرى ألمانى آخر يدعى « لپسيوس » قبل ذلك بعدة سنوات فى قلعة أخرى . وعلى كل ، تعود أهمية هذا اللوح إلى هذه الإضافة عليه :

(أقيم هذا اللوح فى السنة السادسة عشرة من الشهر الثالث للفصل الثانى ، فى الوقت الذى شيدت فيه « قلعة صد أهل الكهوف ») .

وقد وجد اسم « خسف يونيو » Khesef Yuwnuw ضمن قائمة من البردى كتب عليها أسماء الحصون التى عثر عليها فى « الرمسيوم » ، بالأقصر ، قبل ذلك بخمس سنوات . واستنتج « بوكاردت » وزملاؤه حينئذ أن البقايا المتهدمة الموجودة بجزيرة « أورانارتى » هى بقايا قلعة قام ببنائها سنوسرت الثالث ، حفيد سنوسرت بانى حصن « بوهن » ، وذلك فى السنة السادسة عشرة من حكمه . وتدلنا السجلات الأخرى التى دونت فى نفس السنة أنه كان لزاماً على سنوسرت الثالث أن يقوم بحملة مسلحة فى بلاد النوبة ، ربما

لكي يخضع ثورة قامت هناك ، وبالأحرى لكي يصد أهل الكهوف « الأطرغليين » . وقد كتب « سترابو » يقول : « الأطرغليون والبايميون والنوباديون والميجاباريون ، هم هؤلاء الأثيوبيون الذين يعيشون جنوب أسوان » . ثم يضيف قوله : « إن هؤلاء عبارة عن أقوام رحل ، وليسوا كثيرى العدد ، أو محبين للحروب ، على الرغم من أن الأقدمين كانوا يعتقدون أنهم كذلك ، نظراً لأنهم غالباً ما يهاجمون الأشخاص العزل ، شأن قطاع الطرق » .

وقد كتب « سترابو » ذلك بعد هذا التاريخ بألف وثمانمائة عام بعد أن كان الأطرغليون – والبليميون والنوباديون وما شاكلهم قد مروا بأطوار من التهدئة والاستسلام – وكان آخر هذه الأطوار فى عهد صديق سترابو ، الحاكم الرومانى الثالث « آليوس جالوس » – ولذا ربما كانوا أكثر خضوعاً فى ذلك الوقت عن ذى قبل . وكان سنوسرت الثالث يعتقد أنهم من الشعب بحيث يلزم إقامة حصون باهظة التكاليف . ونفس القول ينطبق على « الباتهان » (قبائل أفغانية) الذين كانوا يعيشون على حدود الهند الشمالية الغربية ؛ وكان عددهم محدوداً ، مثل « الأطرغليين سكان الكهوف » ، ومع ذلك شيد البريطانيون سلسلة طويلة من القلاع لكسر شوكة الباتهان وأصبحت الحدود ميدان تدريب رائع للقيام بتمرينات حربية يمكن أن تنطلق منه الذخيرة الحية صوب عدو مشاكس .

وتقع « أورانارتى » على مدى الإشارات من سمنة عند الحدود . وهى قلعة أخرى من بين القلاع التى قام بحفرها « ريزنر » منذ أكثر من ثلاثين عاماً خلت ، ولم تنشر عنها تفاصيل خاصة . وسوف يتناولها بالتفصيل المجلد الثانى لسلسلة المجلدات المقترح نشرها بواسطة متحف بوسطن للفنون الجميلة .

وكان « ريزنر » يرأس بعثة « هارفارد – بوسطن » حين أتم حفر هذه القلعة . وهى تقع فوق أحد تلين مرتفعين تتكون منهما الجزيرة ، وتتخذ

(١) يقصد سكان بلاد النوبة والأقطار المحيطة بها .

شكلها المثلث من شكل الأرض نفسها . ولما كانت حافة من الحواف المرتفعة تتجه نحو الشمال ، فقد بنى على طولها جدار عظيم تتسنمه معاقل تمنع العدو من أن يطأها أو يهاجمها من هذا الاتجاه . ويعتبر هذا الجدار حماية كذلك لدرج نهرى منحوت فى الصخر يؤدى إلى مستوى المياه وقت التحاريق ، وهى مسافة تبلغ على الأقل ٢٦٠ قدماً من الدرج تستغرق وقتاً طويلا لرفع دلو مملوء بالماء . وكان هذا الدرج شأن غيره فى القلاع الأخرى مغطى بألواح من الأحجار ، تجعل منه فى الواقع نفقاً . وكان المدخل الرئيسى جهة الجنوب يتكون من جدران عظيمة بها أبراج ، وكان الممر الضيق الطويل بينها يغلق بواسطة الأبواب المزدوجة السميكة المعتادة . وكان سمك جدران القلعة يبلغ من ست عشرة إلى عشرين قدماً وتقوم على « دبش » من الصخر أو الجرانيت ؛ وبالإضافة إلى هذا التحصين المتين اتخذ المهندسون احتياطات إضافية ضد الخدع العسكرية فى ذلك العصر . فإذا كان العدو من الدهاء بحيث يستطيع الوصول إلى الجدران الدفاعية تحت ستار من دروعه ثم يقيم هنالك لكى يحفر حفرة فى الجدران ، فإن دعامات من الخشب قد ثبتت فى البناء فى كلا الاتجاهين ، لكى تحبط عمل معاولهم . ويمكن لأولئك الذين حاولوا أن يقتلعوا جذور الأشجار أن يدركوا كيف أن محاولة تقويض مثل هذه الجدران بالنيران يكون غالباً عملا فاشلا .

والحقيقة أن مثل هذه الاحتياطات التى اتخذت ضد « البرابرة » الذين يسكنون فى الجنوب تدل على أنهم لم يكونوا على جهل بفنون الحرب وتجعل من إشارات الفراعنة إليهم بما يحط من شأنهم ، وسوف نقتبس طرفاً منها بعد قليل ، أمراً يصعب تفسيره . وقد تم كشف بعض المكاتب والمخازن ومنزل يرجح أنه كان بيت القائد . وقد عثر بين هذه الأشياء على ما يقرب من خمسة آلاف ختم ، كسر معظمها بالطبع عندما فضت من اللفائف . وعلى كل ، فقد كانت مجموعة قيمة ذات تصميمات مبتكرة ألقت ضوءاً جديداً على الوسيلة التى كانت تستخدم بها الأختام فى أعمال الإدارة قديماً . وأن الإنسان

كيود أن يقول فى خبث إن الدراسة التى نشرها الدكتور « ريزنر » ، و « نويل ف. هويلر » عن استخدام الأختام قد توعز ببعض التوجيهات القيمة لمصالحنا الحكوميـــة .

وقد عثروا على بعض شذرات من رسائل كتبت على أوراق البردى ، ولكن من الواضح أنها كانت من الصغر والقلة بحيث لم يمكن إعادة تجميعها إلى أصولها .

وكانت قلعة « أورنارتى » منيعة للغاية ، ويرى « ريزنر » أن رجال القبائل النوبيين لم يستطيعوا الإغارة والاستيلاء عليها قط .

والآن نصل أخيراً إلى حدود الدولة الوسطى ، على بعد سبعة وثلاثين ميلا من وادى حلفا وبوهن ، وما يقرب من ثلاثمائة ميل حول ثنيات النهر من أسوان . وهنا يشق النهر مجراه خلال حاجز صخرى يتكون من صخور بلورية حمراء وشهباء تجعل المجرى يضيق حتى يبلغ ١٣٠٠ قدم . ويتدفق النهر عند الفيضان فوق هذا الحاجز بقوة وحركة شديدتين ؛ ولكن عندما ينخفض منسوب النيل يسد الحاجز الصخرى المجرى فيما عدا قناة مركزية لا يكاد يزيد اتساعها على ١٣٠ قدماً ، تنزلق فيها مياه النيل كلها فى عمق يصل إلى خمسة وستين قدماً . وهنا يعتبر المكان المثالى لإقامة بوابة تحرس الجهة الجنوبية . فإن الباب قد أعدته الطبيعة(١).

فى هذا المكان أقام سنوسرت الثالث أهم وأعظم قلعتين مصريتين ، وهما قلعة « قمة » على الشاطئ الشرقى ، وقلعة « سمنة » على الشاطئ الغربى ، وكل منهما قائمة على صخرتها الخاصة بها تسيطر على النهر سيطرة عجيبة .

وقلعة « سمنة » هى القلعة الرئيسية وكبرى القلعتين الحارستين ، وتبلغ مساحتها ٧٤٧ × ٥٨٥ قدماً ، وبها خنادق ومنحدرات لا تترك أثراً لأرض

---

(١) يقصد بذلك أن القناة التى تنزلق فيها مياه النيل وقت انخفاض النيل تعتبر باباً طبيعياً بين الشمال والجنوب .

مستوية ، وهي على شكل حرف (L) ، وقد عثر « ريزنر » داخل الجدران الخارجية الضخمة على ثكنات الحامية وبعض المخازن ، كما أن البوابات الأرضية شمالا وجنوباً سميكة صلدة ، شأن بوابات غيرها من القلاع ، وكانت متصلة بعضها ببعض بواسطة شارع مرصوف بالجرانيت مواز لطريق القوافل على طول الشاطئ . وهكذا فإن كل شيء ، سواء أطفى على النيل أو سار على الأرض ، وعن طريق النهر أو البر ، كان عليه أن يسير بين القلعتين ، أو عن طريق « سمنة » لكي تتم مراجعته والتحقق منه .

ويوجد فى قلعة « سمنة » معبدان يرجع تاريخهما إلى ما بعد الدولة الوسطى ، ويقوم أحدهما على أساس معبد أصلى بناه سنوسرت الثالث . وكان هذا المعبد الأصلى قد بنى للاحتفال بعيد أطلق عايه « صد الأطرغليين ، أهل الكهوف » ، ولا شك أنه كان لتخليد ذكرى حملة السنة السادسة عشرة التى قر عزم الملك ألا تغرب عن ذهن إنسان . وتأكيداً لهذا الاحتفال كان يقام احتفال آخر أطلق عليه « إحكام وثاق البرابرة » كانت تقدم فيه القرابين إلى « مريسيجر زوجة الملك العظيم » .

ويمكننا أن ندرك شغف جلالته ببقاء ذكرى هذه الأحداث غضة يانعة ، ذلك أنها كلفته أموالا طائلة . وبجزيرة « سهيل » جنوب الشلال الأول نقوش على بعض الصخور تمثل الملك سنوسرت الثالث مع الآلهة « انوكت » من آلهة بلاد النوبة ، والآلهة « ساتت » آلهة جزيرة الفنتين ، وقد كتب تحتها : «تمثاله من أجل أنوكت ، ربة النوبة ، قناة تسمى « جميلة هى طرق سنوسرت»

وثمة نص آخر ، دونوه حينما كانت القناة فى حاجة إلى إصلاح : « السنة الثامنة من حكم جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى ، سنوسرت الخالد إلى الأبد . وقد أمر جلالته بتجديد القناة التى تسمى « جميلة هى طرق سنوسرت الخالد إلى الأبد » ، وذلك إبان رحلة الملك أعلى النهر للضرب على أيدى أهل « كوش » . ويبلغ طول هذه القناة ٢٥٠ قدماً وأربع بوصات ؛ وعرضها ٣٤ قدماً و ٧ بوصات ؛ وعمقها ٢٥ قدماً و ١٠ بوصات . وقد حولت

مقاسات هذه الأبعاد من الأذرع . وأن الشك ليتطرق إلى الإنسان فى أن رئيس العمال هو الذى ألف هذا النص ، ذلك أنها تتميز عما تمتاز به أعمال إدارة العلاقات العامة بوزارة الأشغال من صرامة وجد ؛ وفى الصورة المرافقة لهذا النص يقف رئيس العمال خلف الملك ، وبصحبته كبير أمناء الخزانة — ويمكن أن نتخيل مشاوراتهم بشأن التكاليف والعمل — بينما تقدم الآلهة « ساتت » ، بنفسها هذه المرة ، حياة مديدة لصاحب الجلالة ، وهو بهذا يتبع أسلم الطرق باستعطافه أقرب آلهة مقيمة بجواره ؛ إذ أن « ساتت » هى آلهة جزيرة الفنتين .

وقد عثر على لوحين فى « سمنة » ، ولكن قبل « ريزنر » بزمن طويل — والواقع أن الذى عثر عليهما هو « لپسيوس » Lepsius العالم الكبير فى العقد الرابع من القرن الماضى . ولهذين الأثرين أهمية تاريخية بالغة لأنهما يوضحان لنا حدود الإمبراطورية المصرية فى ذلك الحين ، وسياستها التى تتسم بالمهادنة والتهدئة (على الأقل على ورق البردى) تجاه سكان الجنوب .

وينص اللوح الأول على أن هذا المكان هو الحد الجنوبى فى السنة الثامنة من حكم الملك سنوسرت الثالث ، وأن ما من جنوبى يستطيع أن يجتازه بحراً أو براً فيما عدا أولئك الذين يقومون بأعمال التجارة المشروعة متجهين إلى « أيكن » . وينبغى أن يلاقى الجنوبيون كل معاملة طيبة ممكنة ، كما تنص الكتابة الموجودة على اللوح ، « ومع ذلك لن يسمح لأى سفينة للجنوبيين بالسير إلى أسفل المجرى عبر « سمنة » ، إلى الأبد » .

ويعلق « چان لاپورت » بقوله إن هذه المجازفة فى سن مراسيم تسرى أبد الدهر لها ما يبررها ، ذلك أن المصريين لم يكن فى مقدورهم أن يستفيدوا من دروس التاريخ ، فقد كانوا أول من كتب التاريخ .

أما اللوح الآخر فلا تقل أهميته التاريخية عن الأول ، كما أن له تاريخاً حديثاً عجيباً كذلك ، إذ حين عثر عليه « لپسيوس » فى المعبد ، وضع الجزء العلوى منه (إذ أنه كسر إلى جزأين) فى صندوق خاص مع اللوح الأول

لنقله إلى برلين . أما الجزء السفلى فقد وضع بمفرده فى صندوق آخر . ولم يصل إلى برلين إلا هذا الجزء الأخير . ثم ظهر أن القطعة العلوية واللوح الأول تركا فى مصر بطريق الخطأ . ولم يكن خطأ يمكن تصحيحه بسهولة ، لأن الأمر يحتاج إلى بعثة كاملة للعودة إلى مصر وإحضار ما فقد . ومر بعد ذلك أربعون عاماً . ولم يكن الناس يزورون « سمنة » إلا نادراً . ثم حدث أن مر العالم الأثرى الهولندى « چان انسنجر » Jan Insinger بهذا الطريق وعثر على الأحجار المفقودة ، وكانت لم تزل فى صندوقها ، ومن ثم نقلت إلى القاهرة ، وبقيت هناك حتى سنة ١٨٩٩ حينما حصل عليها متحف برلين ، واجتمع شمل القطعتين الخاصتين باللوح الذى وجد فى « سمنة » مرة ثانية بعد انفصال دام أكثر من خمسين عاماً .

وليس باللوح الثانى معلومات قيمة ، بعد أن شجعنا الأول على أن نأمل فى التعرف على الخطوات التاريخية الأولى للمعاملة الطيبة لأهالى النوبة ، ولكنه خيب رجاءنا حين قال : « أنا الملك وأمرى مطاع » .

« الفرار شيمة الجبان . وذاك الذى يسمح لنفسه أن يندحر فوق أرض وطنه وتذل رقبته لا يرتفع إلى مصاف الرجال . وهذا هو شأن الجنوبى الذى ينكب على وجهه عند سماع كلمة وحدة . فإذا ما هوجم تجنب النزال ؛ وإذا ما طورد أدار ظهره ولاذ بالفرار » .

وقد كتب « چان لاپورت » وهو يندفع فى قاربه المطاط بين القلعتين يقول : « ها نحن عند المدخل إلى حضارة قديمة كانت تدار شئونها وفقاً لأحدث النظريات فى عصرنا » . كان يفكر فيما حدث فى أوروبا منذ أقل من عشرين عاماً ، إذ لم يكن يختلف كثيراً عما حدث منذ أربعة آلاف عام .

وثمة قصة أخرى عن لقاء سعيد بين أجزاء لوح آخر ، وهذه القصة لها علاقة بخط الحدود الذى نحن بصدده ؛ ففى عهد سنوسرت الأول ، الجد الأكبر لبانى القلعة التى على الحدود ، أقام أحد القواد ، وهو منتوحتب ، نصباً حجرياً يذكر فيه أنه قد حمل لواء الحروب النوبية التى عهد بها إليه

مليكه حتى وصل إلى أقصى نقطة فى الجنوب . والسؤال الذى يرد إلى ذهن العالم الأثرى إذ ذاك هو : أين كانت تلك النقطة ؟

وقد عثر على هذا النصب فى أحد معبدين يقع أحدهما فى شمال الآخر على الشاطئ الغربى فى مواجهة وادى حلفا حيث توجد بقايا مدينة « بوهن » Beheni المفقودة التى كانت قد تطورت فأصبحت مدينة كبيرة نسبياً فى عهد أحد أحفاد سنوسرت الأول ، وهو سنوسرت الثالث . وعلى هذا النصب توجد الصورة المعتادة للاله « منتو » وهو يقدم إلى الملك عشرة من الأسرى قد أحكم وثاقهم ، كما يوجد أسماء بعض المدن النوبية مدونة على هؤلاء الأسرى . وهذا أمر روتينى ، ولكن الخبر المزيف فى هذا النصب هو الخاص باسم إحدى هذه المدن ، وهى مدينة « شعت » ، إذ المعروف حالياً من بعض النصوص أن معبد « قمة » ، الذى يقع فى مواجهة « سمنة » على الحدود ، مشيد من « صخور بيضاء من نوع جيد جلبت من شعت » . ووجه التناقض هنا أن « شعت » كانت عند « قمة » أو على مقربة منها ، إذ ليس فى مقدور أحد أن يجلب الحجارة من جنوبها وينقلها عن طريق الشلالات . وعلى هذا إذا كانت جيوش سنوسرت قد وصلت إلى « شعت » واحتلتها مدة كافية للحصول منها على الأحجار اللازمة ، فيبدو أن هذا الملك هو الذى استولى على بلاد النوبة فى الأسرة الثانية عشرة وبهذا يكون قد أخذ كل المجهود على عاتقه ، بينما أن الواقع أن ابن حفيده ، سنوسرت الثالث هو الذى رفع إلى مصاف الآلهة من أجل هذا العمل . وقد شاهدت الأجيال قلاعه وطالعت نقوشه ؛ مما يبرهن على مدى الفائدة التى يمكن أن يجنيها أحد الملوك من وراء الدعاية الناجحة ، أو ما تفعله الدعاية لأى مشروع بوجه عام .

وأبلى القائد « منتوحتب » بلاء حسناً أثناء قيامه بحملته ، كما هو منصوص على النصب الحجرى الذى أقامه — قام بتأديب الجنوبيين تأديباً تاماً ؛ « لقد انتهت حياتهم ، ذبحاً — وأشعلت النيران فى خيامهم — وألقيت حبوبهم فى عرض النيل » .

ملحوظة : نقشوا فيما بعد صورة تمثال له رأس صقر فوق صورة القائد « منتوحتب » الذى كان مرسوماً خلف الملك على النصب . ولا بد أن صانع السلام فى بلاد النوبة قد أصبح مغضوباً عليه آخر الأمر .

وقد عثر « شامبليون » و « روزيليني » على هذا النصب سنة ١٨٢٩ ؛ ولكنهما خلصا الجزء العلوى فقط وأرسلا به إلى « فلورنسا » ، غير مدركين أن هناك جزءاً آخر منه ما زال مطموراً فى الرمال . ومرت ستون عاماً حينما كان السير « هنرى ليونز » ينقب فى هذا المكان فعثر على القطعة المطمورة وأخرجها من الرمل . ولما كان يعلم بوجود الجزء العلوى منها فى « فلورنسا » ، فقد أرسل القطعة التى وجدها إلى هناك ، والتأم شمل الوثيقة مرة ثانية، شأن اللوح الثانى الذى عثر عليه فى « سمنة » .

وفى طريق عودتنا مرة ثانية جنوب النهر إلى « سمنة » تمكننا أن نتوقف فى مكان لا توجد به آثار على الإطلاق ، فيما عدا نقوش الأسماء من أقدم العصور حتى وقتنا الحاضر ، ما دام هذا المكان يمكن أن يعطينا فكرة واضحة عن عظمة الشلال الثانى .

تقع على بعد بضعة أميال جنوب وادى حلفا صخرة « أبو صير » التى « ترتفع شامخة مثل الكاتدرائية وسط تلك المتاهة من الجزيرات الصخرية . وقمتها عبارة عن مجرد حافة ، منحدرة وناتئة جهة الشرق والجنوب ، وقد نقشت فى جميع أنحائها توقيعات ، تجمع بين البارزين والخاملين على حد سواء » . وقد حاولت « أمليا ادواردز » — التى نقلنا عنها هذا القول — أن تعثر على توقيعات « شامبليون » و « لپسيوس » ، ولكن دون جدوى ، ولكنها وجدت اسم « بلزونى » ، رجل السيرك القوى ، ظاهراً كالشمس . وكان ذلك عام ١٨٧٤ م .

ويبدو من فوق قمة صخرة أبو صير منظر يعد من أجمل مناظر العالم ، منظر يسمو بالخيال فى اتساع وسكون ، ومع ذلك فهو ملىء بالحركة وصوت المياه ، وأن القلم الذى يحاول اليوم أن يوفيه حقه من الوصف ليجازف بأن

يوصف باللغو الباطل ، ولذا سأستعين « بسانت چون » الذى عاش فى أوائل العصر الفيكتورى ، فقد اعتلى هذه الصخرة عام ١٨٣٨ .

« وإذا ما نظرنا جهة الجنوب أبصرنا النيل ، وقد بلغ اتساعه حوالى الميل . وقد انبثق من بين مجموعة غير منتظمة من الصخور ، وكأن الأرض قد انشقت عنه لتبرز كل عظمته فى هذا المكان . وإذ يفيض النهر شمالا ما بين جزر لا تعد ولا تحصى من الحجر السماق الأخضر وقد تراكم فى أشكال أبعد ما تكون غرابة ، إذا بالنهر يبلغ أخيراً نقطة تهبط فيها مياهه بقوة شديدة وهى تحدث ضجة صاخبة من فوق منحدر فجائى فى قاع النهر . وحينما يدرك النهر عدم وجود اتجاه معين يندفع إلى أحد الجانبين تارة ، وإلى الجانب الآخر تارة أخرى بفعل الصخور المتقابلة ، تعاكسه الدوامات فيتكسر إلى دوائر . وفى أجزاء عديدة يلوح وكأنه على وشك أن ينفجر ثم يندفع من خلال بعض الفتحات الضخمة بينما يبدو للناظرين شلال من وراء شلال ، يغطيه الزبد ويقذف عالياً بسحب من الرذاذ، فى تتابع عظيم يتجلى أمام الأعين ووسط ذلك كله نكتشف مساحات ملساء من الماء ، تقع فى حماية قنة بارزة فى النهر ، تجعل المياه ساكنة كبحيرة فى منتصف الصيف ،فتكون بمثابة نقيض جميل لزئير الشلالات الهادر » .

ولنعد مرة أخرى إلى الحدود . عثرت البعثة الألمانية الكبرى — التى عملت بين سنتى ١٨٤٢ و ١٨٤٥ تحت إشراف « لپسيوس » — على نقوش هيروغليفية فوق بعض الصخور شمال « سمنة » ، تفيد على سبيل المثال أن : « مستوى النيل فى السنة الثالثة والعشرين من حكم جلالة الملك « أمنمحات » ممنح الحياة ، والاستقرار ، والثروة على الدوام مثل الشمس » .

وكان هذا واضحاً بما فيه الكفاية : تسجيل لارتفاع منسوب النهر إبان حكم « أمنمحات الثالث » من ملوك الأسرة الثانية عشرة . ولكن الأمر الذى حير علماء الآثار هو أن العلامة دلت على أن مقياس النيل كان أعلى من منسوبه وقت الفيضان فى الوقت الحاضر بستوثلاثين قدماً . ولم يكن هذا

الفيضان غير عادى بحيث يخلده الأقدمون بهذه الكيفية ، فقد كانت هناك علامات عديدة أخرى سجلتها مقاييس الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، بلغت فى المتوسط أربعاً وعشرين قدماً فوق منسوب الفيضان الحالى . كيف كان النيل بهذا الارتفاع فى تلك الأيام الخالية ؟ كانت ثمة آراء عديدة فى هذا الصدد لعدة سنين .

وفى سنة ١٨٥٠ أبدى « هورنر » رئيس الجمعية الجيولوجية رأيه فى هذا الموضوع بقوله إن من المحتمل أن سداً تكوّن بفعل انهيار فى شمال « سمنة » ولكنه لم يستطع أن يعثر على أى دليل على وجود انكماش فى المجرى الذى حدث فيه مثل هذا الانهيار . وقد استبعد التحات والتآكل كعامل محتمل لإحداث المنسوب المنخفض الحالى إذ أنه اعتبر هذا العامل من البطء بحيث لا يمكن أن ينجز مثل هذا الانخفاض الكبير فى مثل هذا الزمن الوجيز نسبياً ، ذلك أن أربعة آلاف عام إنما هى مجرد عطلة أسبوعية بالنسبة للعالم الجيولوجى

وقد أبدت « أمليا ادواردز » ملاحظاتها ، سنة ١٨٧٤ ، على هـــذا المنسوب المرتفع فى الأزمنة الغابرة ، وعزت هذا الارتفاع إلى قنطرة طبيعية — ربما كانت تقع عند جبل السلسلة ، فى مصر العليا — قوضها أحد الزلازل فيما بعد . ويرجح أن أمليا أطلعت على رأى « هورنر » ، إذ أن معلوماتها كانت وفيرة بشكل ملحوظ . ولكن نظريتها تعنى أن عمق النيل كان يزيد بمقدار أربع وعشرين قدماً على طول المجرى حتى أسوان ، أى فى الواقع أكثر عمقاً من المجرى عند جبل السلسلة . وهذا معناه وجود بحيرة تبلغ فى ضخامتها حجم البحيرة الحالية التى تهدد الآثار بالغرق ، ولكنها كانت تبعد عنها مساحة كبيرة نحو الشمال ، وتغطى معظم الأماكن التى تقوم فيها الآثار فعلا .

وفى سنة ١٩١٣ كتب « السير وليام ويلكوكس » المدير العام السابق للخزانات فى مصر ، والذى كان ينظر إلى براعة المصريين القدماء فى الهندسة المائية بعين الاحترام والإكبار ، كتب يقول : « من المحتمل أن أمنمحات حاول أن يسد مجرى النهر أملا فى إنشاء خزان ، وأن خلفاءه اضطروا إلى

الإقلاع عن هذه الفكرة ، واستعاد النيل مجراه الأصلي على مدى عدة قرون ، ولم يحاول « السير وليام » أن يفسر الغرض الذى كان ينوى الملك « أمنمحات » أن يستخدم كل هذه المياه فيه ، وهي مياه تجرى في أرض الأعداء .

وكان ثمة اعتقاد ، ما زال سائداً ، بأن قدماء المصريين كانوا يفكرون في مشروع السد العالى عن طريق القيام بحجز مياه النهر بأنفسهم ، واقترح البعض أماكن عديدة مختلفة لإقامة هذا المشروع ، ولكن لم يعثر على أية آثار تصلح دليلا على ذلك .

وفى عام ١٩٠٧ قام « جيمس هنرى برستد » بزيارة الحصون الأمامية أثناء رحلة له خلال بلاد النوبة . وبهذه المناسبة تعتبر الصور الفوتوغرافية التى التقطها برستد إبان هذه البعثة من أفضل وأوضح المجموعات التى أخذت من هذه الآثار ، وما زالت تلاقى رواجاً كبيراً . وقد استطعت أن أستخدم بعض هذه الصور فى هذا الكتاب بإذن من معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو ، الذى كان برستد مديراً له لعدة سنين حتى توفى سنة ١٩٣٥ . وكان يصحب الدكتور برستد عند « سمنة » « ن . دى جاريس دافيز » N. de Garis Davies التى اشتهرت تسجيلاتها لنقوش المقابر المصرية القديمة منذ ذلك الوقت ، وقد لاحظت « دافيز » وجود فجوات كالجفان فى الصخور فى الوادى شرق « قمة » ، وهى القلعة الصغيرة التى تقع فى مواجهة « سمنة » ، وكان من الواضح أن هذه الفجوات قد حدثت بفعل المياه . ولما قاما بعمليات القياس وجدا أن هذه الصخور منخفضة عن العلامات التى وجدت أسفل القلعة لقياس فيضان النيل قديماً بمقدار قدمين . واستنتجا من ذلك أن إبان الفيضان فى عهد الأسرة الثانية عشرة كانت قلعة « قمة » تقوم فوق جزيرة . وقد كتب برستد يقول : « من المحتمل أن الحاجز الجرانيتى كان كبيراً عما فيه الكفاية فى عهد الأسرة الثانية عشرة . بيد أنه ليس فى مقدور أحد أن يخوض فى مثل هذه البحوث سوى خبير جيولوجى » .

ولم يكن بريستد يعرف أن خبيراً جيولوجياً قد خاض فى مثل هذه البحوث فعلا قبل ذلك بخمس سنوات ، ونشر النتائج التى توصل إليها فى « صحيفة الجمعية الجيولوجية التى تصدر كل ثلاثة أشهر » فى العام التالى . والواقع أن الإنسان لا يتوقع من عالم الآثار أن يقوم بالاطلاع على كل التقارير الجيولوجية ، فضلا عن كل التقارير الأثرية التى يتحتم عليه أن يطالعها ، لكى يساير الزمن . وكان هذا الجيولوجى هو «جون بول» John Ball [1]

ولما كان حاصلا على الكثير من المؤهلات فإنه يتعين علينا أن نقبل بنفوس راضية دراسته لمشكلة سد « سمنة » على أنها حل نهائى . وقد ذهب « بول » إلى « سمنة » عام ١٩١٢ خصيصاً لحسم هذه المسألة . وكتب فى تقريره يقول : « ليس من العسير أن يسد مجرى النهر بكتل صخرية ثقيلة فى مجراه الأوسط ، ولكن ليس ثمة دليل على ذلك ، كما اقترح السير وليام ويلكوكس فى الطبعة الثانية من كتابه « الرى المصرى » . ثم أضاف قوله إنه على الرغم من صلابة الصخور فقد تآكلت وأصبحت منحدرات زلقة صقلتها الأطنان العديدة من الرمال والغرين التى تمر فوقها سنوياً . وهذه الفجوات الجفنية [2] على طول الحاجز تشهد على قوة نحات المجرى وقت الفيضان ، وغالباً ما تتداخل الفجوات بعضها فى بعض لدرجة أن الكتل الصخرية تنهار وتواصل عملها فى التآكل . وحتى الصخور التى لم يمسها الفيضان السنوى كانت تتآكل وتتحات بسرعة ، نظراً للتفاوت بين حرارة النهار القائظ وبين برودة الليل . (وهذا معقول للغاية حسب تجاربى الشخصية ، ذلك أنى حينما عدت إلى « أبيدوس » فى مصر عام ١٩٥٩ وجدت أن بعض الصخور الكبيرة التى كانت مألوفة وسط المناظر المحيطة بالمكان منذ عشرين عاماً قد تلاشت بفعل

---

(١) وهو حاصل على الدكتوراه وشهادة المدرسة الملكية للمناجم ، وعضو فى الجمعية الجيولوجية ، وزميل بمعهد المهندسين المدنيين .

(٢) ترجمة لفظ pot-holes وهى فجوات مستديرة كالجفان بسبب التعرية فى صخور صلدة حيث تدور المياه وتدور معها قطع الحصى .

التحلل التلقائى ، ولم يبق مكانها سوى دائرة من القطع الحجرية الصغيرة) .

ويقول « بول » إن المجرى الأوسط العميق عند « سمنة » لم يحدث نتيجة لوجود صخور ملساء هناك ، بل نتيجة لمجرد التآكل البسيط . وأن أكثر المجارى عمقاً تحمل قدراً من الماء المحمل بالغرين أكثر مما تحمل المجارى الأخرى ، ولذا تزداد عمقاً بسرعة أكبر من غيرها . ثم يجرى بول عملية حسابية صغيرة : ثمانية أمتار من التحات العمودى فى مدى أربعة آلاف سنة تعادل ملليمترين فى العام . ولما كانت مساحة الحاجز تساوى ١٠٠,٠٠٠ متر مربع فإن : $\frac{١٠٠,٠٠٠ \times ٢}{١٠٠٠}$ = ٢٠٠ متر مكعب ، نحو مائتى متر مكعب من الصخر تزال كل عام ، ويبلغ وزنها حوالى خمسمائة طن .

ويبلغ معدل تصريف الماء السنوى للنيل عند « سمنة » ١٠٠,٠٠٠ مليون طن من الماء ، ومعدل سرعة جريانه أربعة ونصف كيلومترات فى الساعة وقت الفيضان واثنين وربع كيلو متر فى الساعةوقت انخفاض النيل . ومثل هذه السرعات تستطيع أن تكتسح الحصى الكبير ، وعندما تزداد هذه السرعة بفعل العوائق المحلية تستطيع أن تجرف صخوراً فى حجم رأس الإنسان . ويعتقد « بول » أن بالإضافة إلى هذا الحصى والصخور تستطيع ذارت الغرين ودقيق الصخر العالق فى المياه أن تنحت فى صخور الحاجز بمعدل ستين مليون طن فى العالم .

وهكذا فإن إزالة خمسمائة طن من الصخور فى العام لم يكن « غير مستحيل » فحسب ، بل كان محتملا للغاية . والفجوات الجفنية مسئولة عن ثلثى هذا العمل على الأقل تاركة حوالى ثلاثة جرامات من الصخور لكى تزيلها ذرات الغرين التى تمر فوق الحاجز . وهذا المعدل يتناسب مع مقدار التحات النهرى فى أماكن أخرى فى العام .

والواقع أن « بول » يستخلص من هذا أن انخفاض النيل بمقدار أربع وعشرين قدماً عند « سمنة » منذ عصر الأسرة الثانية عشرة كان نتيجة طبيعية لفعل التآكل ، وهكذا دحض كل المزاعم الخاصة بالسدود القديمة .

وقد تجاهل « سير وليام ويلكوكس » أو كان فعلا على جهل بالبحث الذى قام به « بول » حينما عاد سنة ١٩١٣ فذكر فى كتابه « الرى المصرى » عام ١٩٠٢ – أن أمنمحات حاول أن يقيم سداً فى مجرى النهر . وأن الإنسان ليتساءل عما إذا كان بول قد قام بهذه المهمة بدافع اختبار نظرية « السير وليام ويلكوكس » ، التى تم نشرها فى نفس السنة ، أى سنة ١٩٠٩ ، إذ أنه ذهب من تلقاء نفسه وعلى نفقته الخاصة .

هذا الاستطراد البسيط فى علم الهيدروليكا[1] يمدنا بسبب آخر يعلل لنا تثبيت الحدود عند « سمنة » فى عهد الأسرة الثانية عشرة . فمن المحتمل أن هذا المكان كان الحد الأقصى للملاحة المتيسرة فى ذلك العصر ، حتى بالنسبة لأصغر سفينة كانت تجذب بواسطة الحبال ضد التيار وعند الشلالات . ولا بد إذن أنه كان هناك شلال جدير بالاسم عند « سمنة » فى ذلك الوقت .

---

(١) علم السوائل المتحركة .

— ٥ —

بالإضافة إلى قائمة البردى لأسماء القلاع الموجودة عند الشلالات عثروا على وثيقة أخرى عند معبد الرمسيوم فى الأقصر ، قد أصابها التلف ، وتحتوى على فقرات كثيرة مبهمة . وقد توفر على دراستها فى أوائل العقد الرابع من هذا القرن عالم أثرى شاب هو « بول س . سميذرز » ، « فبذل مجهوداً جباراً فى فك رموزها » على حد تعبير « باتيسكومب جن » فى مقالة له فى « صحيفة علم الآثار المصرية » .

وظهر أن هذه الورقة من البردى عبارة عن نسخ من رسائل موجهة من قلعة « سمنة » وغيرها من القلاع حوالى أعوام ١٨٤٤ — ١٨٤١ ق . م فى عهد أمنمحات الثالث ، خليفة سنوسرت الثالث ، وكانت الرسائل موجهة إلى موظف كبير فى العاصمة المصرية ، طيبة ، ومن ثم أمر بنسخها فى سجل الرسائل بغرض تسجيلها . هذه الورقة من البردى بالذات قد كتب على ظهرها بعض النصوص السحرية ، قد تكون هى السبب فى حفظها من الضيــاع .

هذه الرسائل لا تتناول أحداثاً تاريخية هامة ، ولا تكشف عن أية حقيقة تاريخية جديدة ؛ ولهذا السبب بالذات قد يكون لها جاذبية كبيرة ، فهى تمدنا فى الظاهر بأنباء تافهة عن تحركات النحسيو والميچو من سكان الجنوب ، وتجعلنا نشترك ولو للحظة قصيرة فى الحياة اليومية لسلسلة تلك القلاع ، وهى تتأكد من الغرض من التنقلات العشوائية التى يقوم بها أهل الصحراء ، وتطارد المشتبه فى أمرهم ، وتجلب الرحل المذعورين داخل القلعة لاستجوابهم

وكل هذا يبدو مألوفاً بالنسبة لأى شخص ذى خبرة بعمل المخابرات العسكرية فى نقط الحراسة على الحدود ـ الدورة اليومية التى لا بد أن تحرز شيئاً ؛ ولذلك نملؤها بالأحداث التافهة ؛ مثل المذكرات المتداولة بين المكاتب ؛ وأوامر « إبلاغ المختصين » وإرسال « نسخ إلى . . . » ؛ وفحص وختم جوازات المرور . كل هذا كان يجرى فى قلعة « سمنة » التى كان يطلق عليها اسم « سنوسرت المكين » ، منذ ٣٨٠٦ سنة ، وفى قلعة « صد الميجو » ، وفى بقية القلاع . وعندما نطالع هذه الرسائل ينبغى ألا تغرب عن أذهاننا تلك القيود التى كانت مفروضة على السكان المحليين الذين كانوا ممنوعين من الاتجاه شمال المجرى من « سمنة » دون أن يكون لديهم جوازات مرور رسمية، وإذا سمح لهم بالمسير فإنما بدون ماشية ــ ويعنى ذلك أنه لم يكن فى مقدورهم أن يقيموا هناك ، إذ أن الماشية كانت ثروتهم الوحيدة ومصدر رزقهم .

وهاك جانباً من رسالة موجهة من قلعة « سنوسرت المكين » (سمنة) :

« وصل النحسيو فى السنة الثالثة ، الشهر الرابع من پرت[1] ، اليوم السابع ، وقت المساء لمزاولة التجارة . وقد تاجروا فى البضائع التى أحضروها معهم . . . ثم أبحروا صاعدين النهر إلى المكان الذى وفدوا منه ، بعد أن زودوا بالخبز والجعة . . فى السنة الثالثة ، الشهر الرابع من پرت ، اليوم الثامن ، وقت الصباح . وهذه رسالة فى هذا الشأن . كل شئون أراضى الملك فى أمن وسلام ؛ وكل شئون السيد[2] ــ معيشته ، ورفاهيته ، وصحته ــ فى أمن وسلام . وليجعل الرب سمع الملك ــ حياته ، رفاهيته ، وصحته ــ فى خير حال ! » .

ومن الواضح أن النحسيو أقاموا تلك الليلة على الرحب والسعة . وقد أشر المكتب المختص فى طية على هذه الرسالة بما يلى : « علم ، بعث بنسخ إلى : القاضى ، الناطق بلسان « هيرا كونپوليس » ، « مى منتو » الذى يقيم فى

(١) وهو يعادل فصل الشتاء لدينا الآن . والنحسيو أهل الجنوب .

(٢) أى الملك .

« بتنيو » ، وإلى « أميني » مدير المدينة؛ وإلى كبير المستقبلين ، « سن مرى » وقد تم إبلاغ الجميع فى الواقع .

ويبدو أن أملاك الملك المشار إليها كانت تضم كلا من أراضى التاج وإيرادات التاج من الضرائب والاحتكارات . . . الخ .ومن الواضح أن الحكومة كانت تتولى أمر التجارة كلها ، وأن الموظفين المصريين كانوا مسئولين عن البضائع التى ترسل من مصر بغرض المقايضة ، وعن البضائع التى تجلب من النحسيو .

وفيما يلى جانب من رسالة صادرة من قلعة أيكن – « صادرة من قلعة إلى أخرى » (كمثال للرسائل المتبادلة بين القلاع ، بأسلوب سميذرزالبارع) .

« . . . هذان الحارسان ومعهما سبعون شخصاً من الميچو ممن ساروا فى ذلك الطريق فى الشهر الرابع من پرت ، اليوم الرابع ، جاءوا إلى يبلغوننى عما حدث فى نفس اليوم وقت المساء ، بعد أن أحضروا هؤلاء الميچو . . . فقالوا : لقد عثرنا عليهم فى الجنوب من حافة الصحراء ، شمال نقوش « شومو » ، كما عثرنا على ثلاث نساء كذلك . . هذا هو ما أفضوا به إلىّ . ومن ثم أخذت فى استجواب هؤلاء الميچو قائلا لهم : من أين وفدتم ؟ ، فأجابوا : لقد جئنا من بئر يبهيت » .

ويبدو هذا عمل دورية كانت تقوم بنوبتها . ويرجح أن هؤلاء السبعين شخصاً من الميچو كانوا من الجنود النوبيين الذين يعملون تحت إمرة ضباط من المصريين . ويعتقد بعض العلماء أن نسبة كبيرة من جنود حاميات تلك القلاع كانت تجند من السكان المحليين . ومن المحتمل أن الثلاثة رجال من الميچو ونساءهم الذين عثر عليهم شمال الحدود كانوا يصطحبون ماشيتهم إلى الآبار التى استخدمها أسلافهم على مدى القرون . ولكن ذلك أصبح محظوراً فى هذا الوقت .

وهاك جانباً من رسالة صادرة من قلعة « صد الميچو » (سيرا شرق ؟ – حيث أتعشم أن يتمكن معهد الدراسات الشرقية من التأكد من هذه القلعة) .

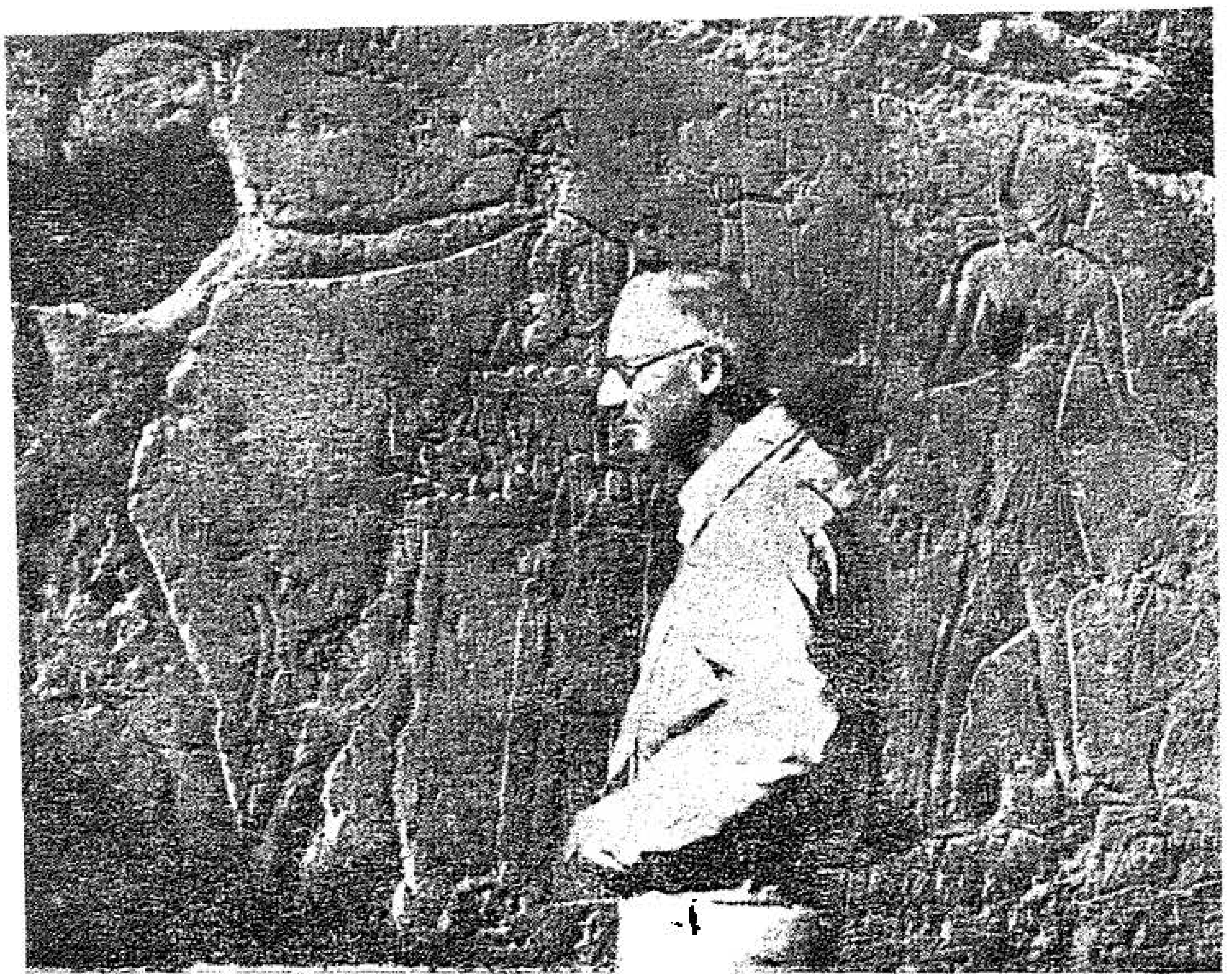

الدكتور « كيث سيلي » مدير البعثة المشتركة يفحص
النص الشهير لمعركة قادش

المؤلف يرسم صور « رمسيس الثاني » التي تزين بوابة المعبد ،
قد اضطر ، نظراً لعدم استواء الأرض ، إلى اتخاذ هذا الوضع التمثيلي

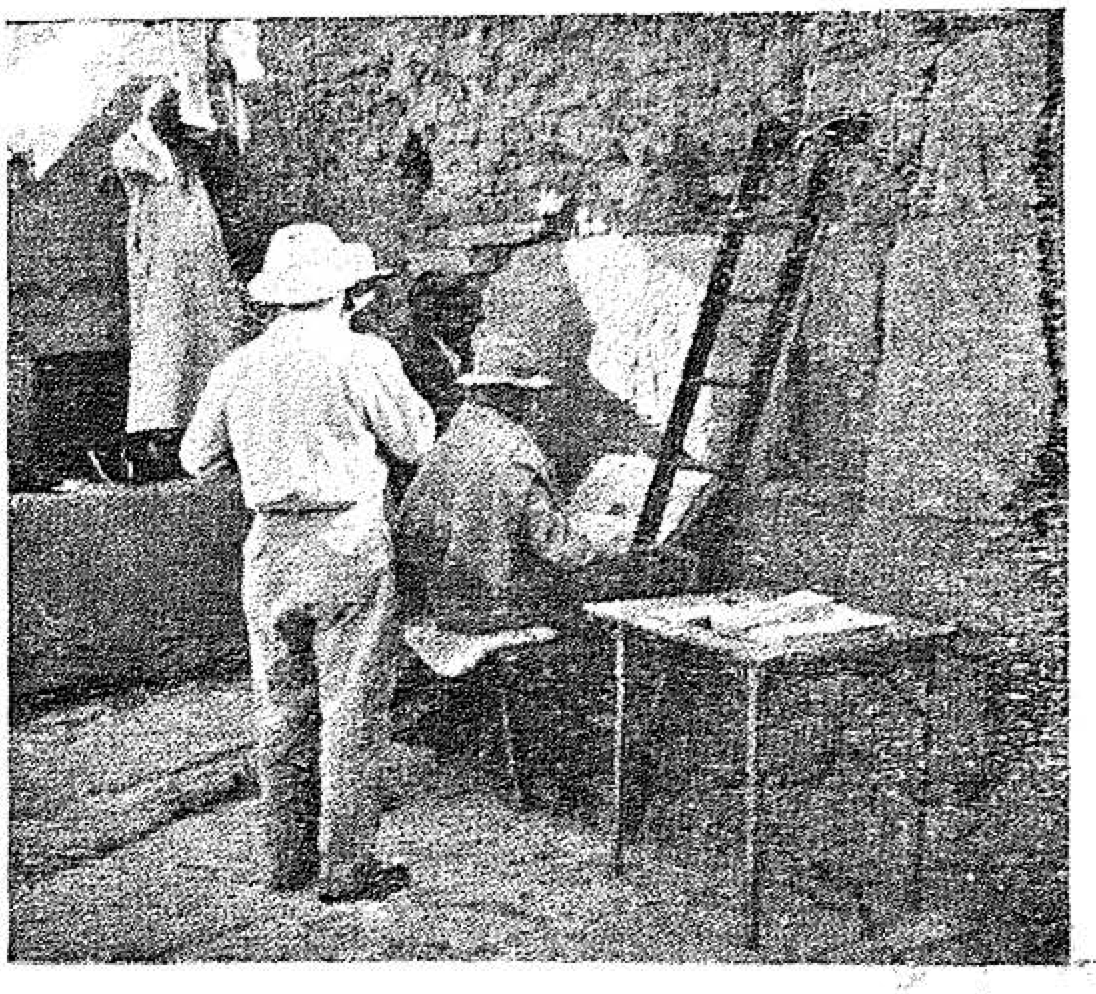

الفنان « ريج كوليمان » من معهد الدراسات الشرقية ينقل منظراً « لغارة نوبية » ، وقد أمسك « يوسف » مرآة تستخدم في الإضاءة . ويرى الأثرى «لبيب حبشى » بالقرب من الفنان يتأمل المنظر

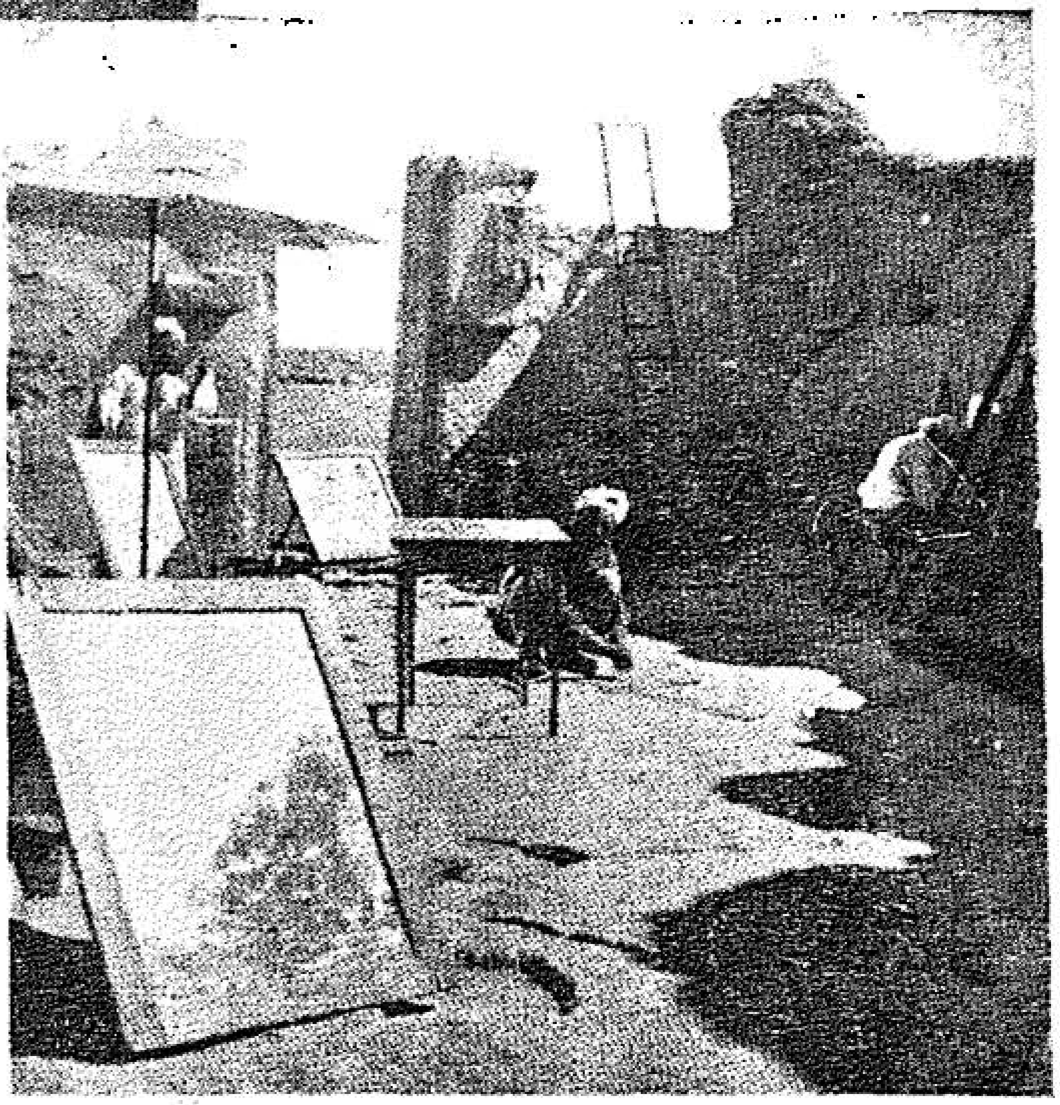

مجموعة من المرايا تعكس ضوء الشمس إلى الداخل في فناء المعبد ، وبوجه خاص على الحائط الذى يعمل به الدكتور «هيوز»

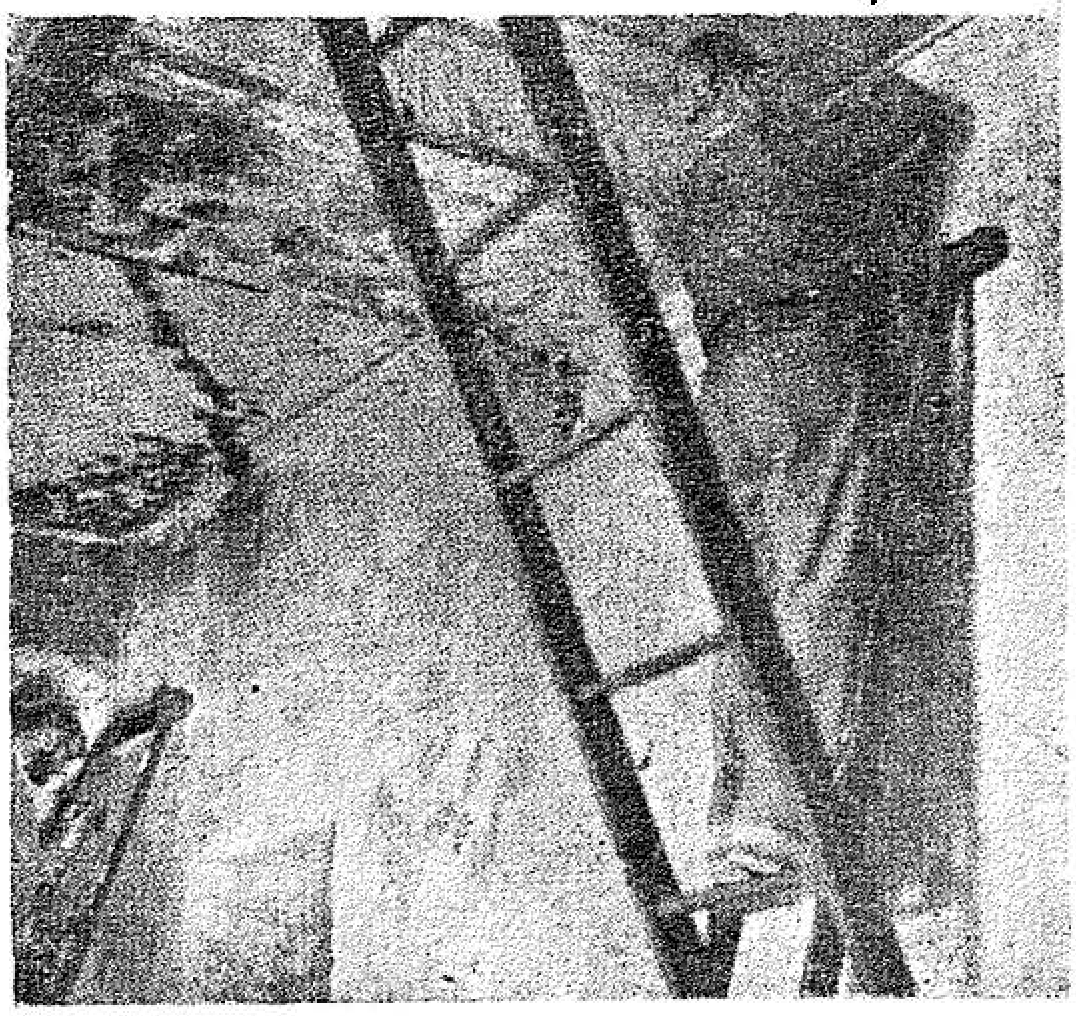

« ريج كوليمان » و « جون فوستر » ينقلان النصوص داخل المعبد

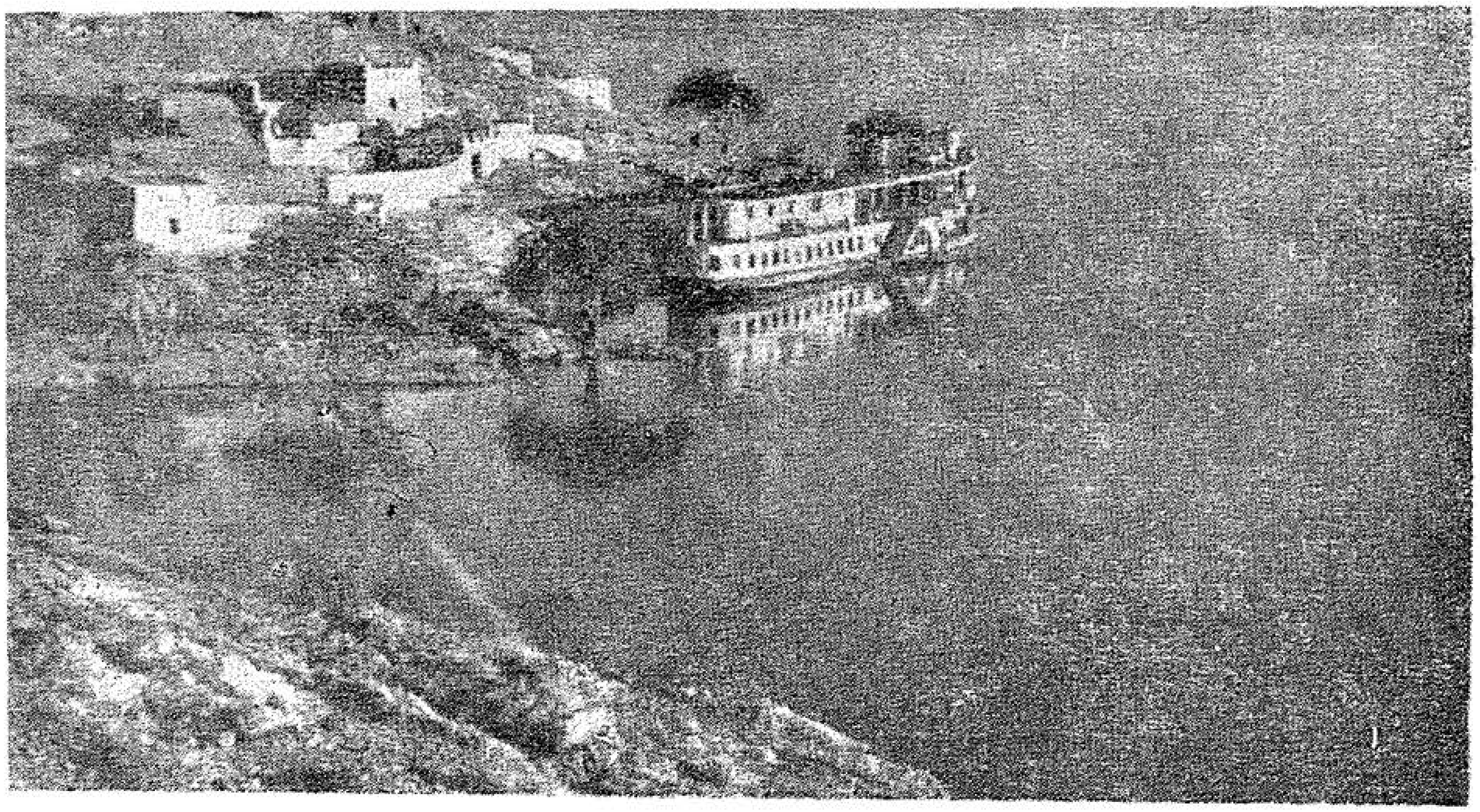

الباخرة «ممنون» ترسو على شاطئ قرية بيت الوالى . ويحجز النهر هنا مياه التخزين أمام سد أسوان الحالى . وعندما يهبط منسوب المياه فى الصيف تظهر الحقول فى الجزء الأمامى من هذه الصورة

بعض الآثار التى عثرت عليها البعثة المشتركة ، وقد وضعت فوق ظهر الباخرة «ممنون» . وهى تتضمن مائدة قرابين فى الوسط ، فى شكل بحيرة مقدسة لها درج يهبط من جميع الجوانب نحو الماء

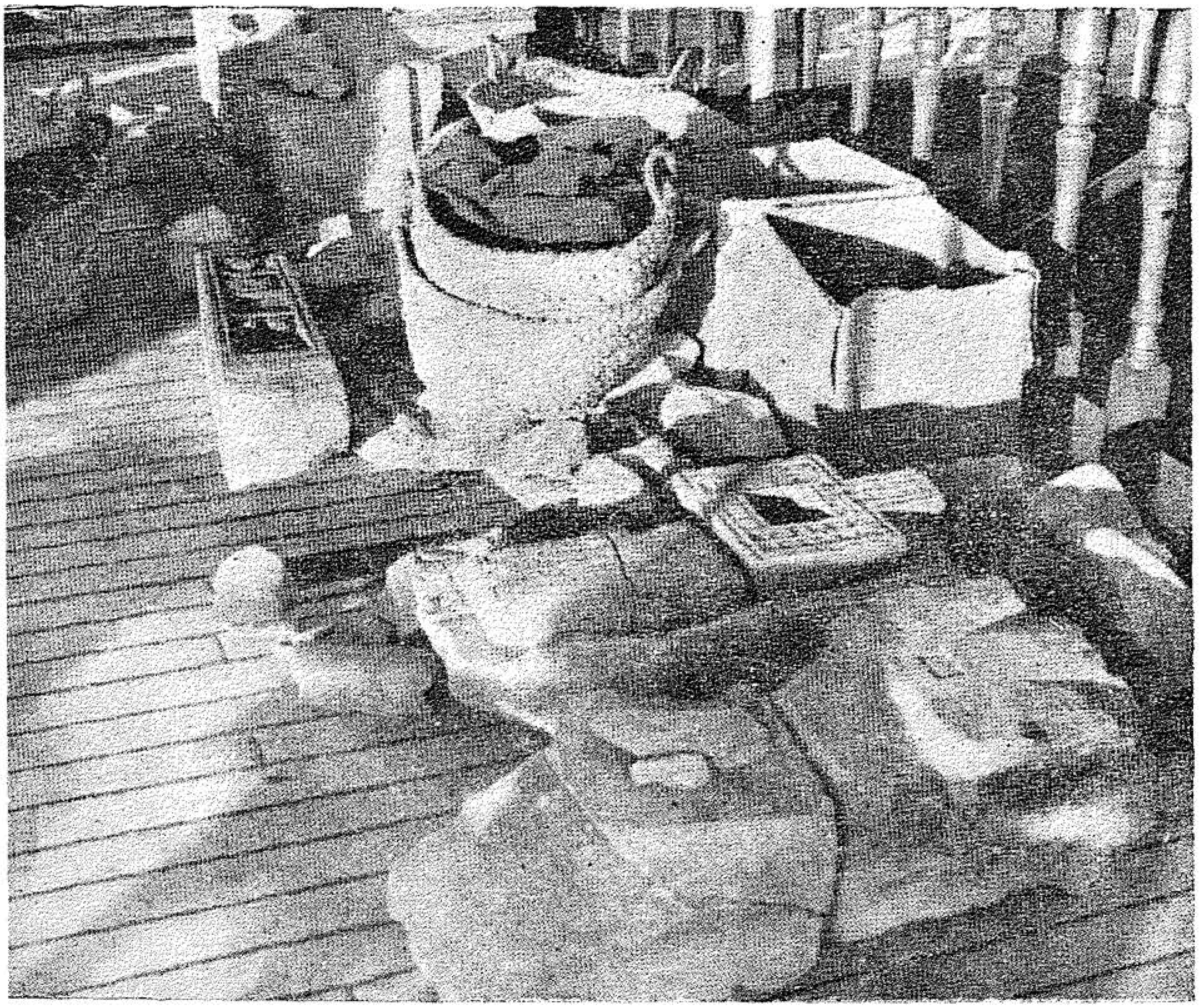

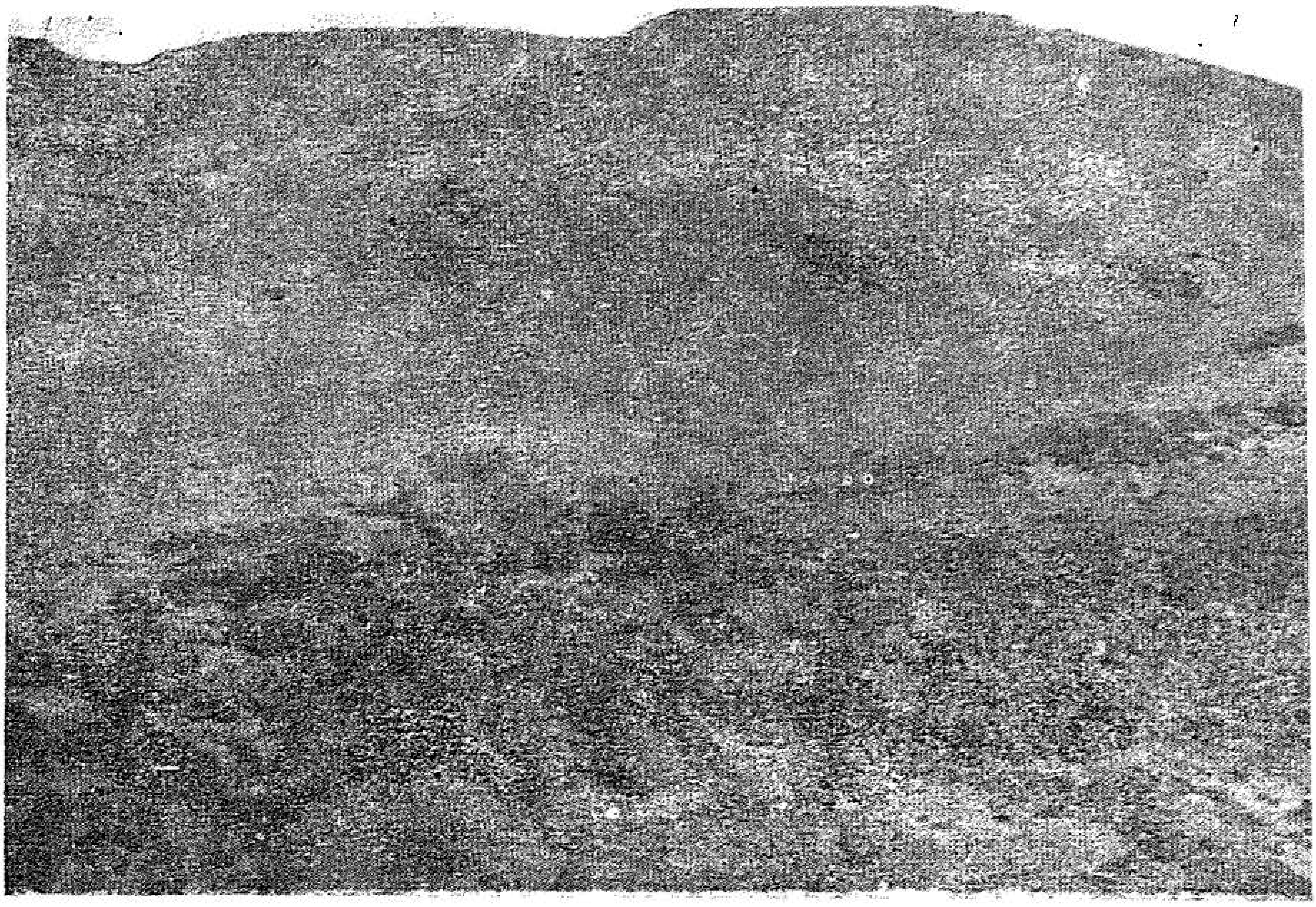

تلال صحراوية تمتد على بعد ميل أو ميلين من النيل ، وتبدو بها أكوام من الأحجار تحدد مواقع بعض المقابر ، وهي في الغالب تنتمي إلى المجموعة التي وفدت إلى النوبة قبل دخول المسيحية بفترة وجيزة

هذا هو كل ما عثر عليه المنقبون في قبر على حافة النهر ، إذ لم يترك اللصوص - الذين جاءوا أغلب الظن في عهد بعيد - سوى العظام

« . . . من الخادم « امينى » الموجود فى قلعة « حسف ميچو » (صد الميچو) ، طبقاً لنظام تبادل الرسائل بين القلاع . وهذه الرسالة إلى السيد له الحياة ، الرفاهية ، الصحة - بخصوص حضورحارس « هيراكونپوليس » . . . وحارس « تچبيو » لكى يبلغوا هذا الخادم فى السنة الثالثة، فى الشهر الرابع من پرت ، اليوم الثانى ، وقت الإفطار ما حدث بقولهم : « إنا قد عثرنا على طريق وطئته أقدام اثنين وثلاثين رجلا وثلاثة حمير » . وهذا بلاغ عن ذلك الحدث . وكل شئون أملاك الملك - الحياة ، الرفاهية ، الصحة - فى أمن وسلام .

ويبدو أن هذا تقرير مقدم من دورية سار أفرادها يومين كى يستطلعوا ما إذا كان هناك أى تهريب يجرى عن طريق الدروب الصحراوية ، متفادياً نقط المراقبة على النهر ، إذ أن قلعة « صد الميچو » تقع إلى الخلف من سلسلة القلاع الواقعة على الحدود .

وفيما يلى جانب آخر من رسالة موجهة من قلعة الفنتين : « بالإشارة إلى نظام تبادل الرسائل بين القلاع نحيطكم علماً ، بعد إذنكم ، بأن رجلين وثلاث نساء من الميچو ، وشخصين آخرين . . . قد وفدوا من الصحراء فى السنة الثالثة ، فى الشهر الثالث من پرت ، اليوم السابع والعشرين . ثم قالوا : « لقد جئنا لنعمل فى خدمة البيت الكبير (١) - الحياة ، الرفاهية ، الصحة » . ولما وجهنا إليهم سؤالا بشأن الحالة فى الصحراء أجابوا : « لم نسمع شيئاً قط ، ولكن الصحراء تموت جوعاً » هذا هو ما أفضوا به . وحينئذ أمر هذا الخادم بطردهم ليعودوا إلى صحرائهم فى اليوم نفسه ، فقالت إحدى هؤلاء النساء من الميچو : « وى ، فلتعطنى رجلى من الميچو فى هذا . . . » ثم قال هذا الرجل من الميچو : « هل يعد التاجر نفسه من بين بضائعه ؟ » .

وهذه الصورة لقوم جياع من البدو يتسولون من أجل العثور على

(١) أى فرعون .

القوت ــ تعد صورة غامضة . ولكن المستجوب الصارم لا يهمه من الأمر سوى معرفة ماذا كان ثمة روح تمرد سائدة فى الصحراء . ولما وجدت المرأة نفسها تواجه مصير العودة إلى الصحراء لكى تتضور جوعاً ، أعتقد أنها ، فى نوبة من اليأس ، أرادت أن تتاجر فى زوجها فتبيعه كعبد من العبيد . ولذا يسأل الرجل فى لهجة تكاد تكون طبيعية عما إذا كان شخص التاجر يعلمن بين بضاعته .

وقد واصل « بول س . سميذرز » دراسته لهذه الرسائل فى الوقت الطويل الذى لازمه فيه المرض ، ومن المؤسف أن نسجل أنه مات سنة ١٩٤٣ ولما يزل فى التاسع والعشرين من عمره ، فكان موته خسارة فادحة لعلم الآثار المصرية . ولو أنه كتب له البقاء ، لنفذ مشروعه الذى كان يقضى باستخلاص أقصى ما يمكن من معلومات من تلك النصوص بشأن الأحوال السياسية والاقتصادية فى بلاد النوبة إبان حكم الدولة الوسطى . وإنى لأتوجه بالشكر إلى جمعية الكشف عن الآثار المصرية لمنحى الإذن باقتباس بعض النصوص من ترجمة « سميذرز » .

والواقع أن هذه الرسائل تعطينا لمحة عن تلك التجارة التى كانت تجرى على نطاق ضيق عند الحدود نفسها . ومن المؤكد أن نظام التبادل على نطاق واسع كان يجرى جنوب تلك الأماكن حيث كانت الأرض أقل جدباً وأكثر ازدحاماً بالسكان ، وعلى اتصال بالأماكن السحيقة فى إفريقية من حيث يجلب العاج والأبنوس والصمغ والأخشاب الثمينة . وأن الإنسان ليبحث عن مركز تجارى متقدم فى مكان ما فى تلك المناطق لا بد أن القوافل كانت تقصده ، وتعود منه محملة بالبضائع ، ومن ثم تتوقف للراحة والتفتيش على الطريق الممهد بين البوابتين عند « سمنة » .

وقد عثر « ريزنر » على مثل هذا المكان حينما توجه نحو الجنوب سنة ١٩١٢ لكى يبحث عن مزيد من آثار « المجموعة (C) » ضمن محاولاته لمعرفة أقصى الحدود التى وصل إليها شعب بلاد النوبة وعلاقاتهم العنصرية والثقافية .

ويقع هذا المكان عند « كرمة » ، على بعد مائتي ميل حول ثنيات النهر جنوب « سمنة » ، وعند الجزء الصالح حالياً للملاحة من النيل عند « دنقلة » ، وحيث توجد مساحة من التربة الصالحة للزراعة تزيد على مساحة أى منطقة شمالا حتى الشلال الأول . وعلى طول الطريق إلى « كرمة » توجد دلائل على وجود المجموعة (C): قطع من الخزف ؛ صور للماشية على الصخور ، ومصاطب منخفضة لدفن الموتى فى جزيرة « ساى » . كما يوجد بناءان ضخمان من الآجر يطلق عليهما السكان المحليون اسم « دفوفه شرق » و « دفوفه غرب » ، وهما قائمان فى مكان يرجح أنه كان جزيرة منذ أربعة آلاف عام ؛ ويؤخذ من النقوش المدونة على أحد الأحجار أنهما أقيما فى عهد أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، أمنمحات الأول أو الثانى . وكانت « دفوفةشرق » مقصورة جنائزية ضخمة من تلك المقاصر التى كانت تلحق بمقابر أفراد المجموعة (C) ، والتى كانت تبنى على شكل كعكة ، فى النـــوبة السفلى . ويقوم هذا البناء شرق جبانة كبيرة بها مقابر ضخمة على شكل الكعك .

أما « دفوفة غرب » التى تبعد ميلين أو ثلاثة وتقع على مقربة من النهر فقد كانت حصناً ومستودعاً ومصنعاً فى الوقت نفسه . وعندما كان « ريزنر » يقوم بعمليات التنقيب عثر على مواد لصنع الفخار وطلائه ، وأدوات للزينة من الميكا ، وحبات من الخرز من الكوارتز المصقول ، إلى جانب أدوات أخرى لم يتم صنعها . وكان يوجد كذلك عدد كبير من طبعات الأختام ، يحمل بعضها طابع حكام الهكسوس من الحقبة التى تلت عهد الأسرة الثانية عشرة ؛

ولكن ريزنر عثر على المفاجأة الكبرى حينما شرع فى حفر المقابر الكبيرة فى ذلك المدفن . وهذه المقابر عبارة عن رواب منخفضة من التراب على شكل قباب ، مقامة فوق جدران مرتفعة فى الوسط بنيت خصيصاً لحفظ شكل القبة . ويحيط بكل رابية دائرة عريضة من الأحجار الداكنة ، كما أن بعض الحصى الأبيض مبعثر فوق الرابية ، بينما يوجد حول القطاع الجنوبى ، من الخارج ، هلال من جماجم الثيران .

وتشمل مساحة المنطقة المقام عليها هذه المقابر الضخمة حيزاً هائلا . ويبلغ مساحة اثنين منهما فقط أقل من مائة متر مربع ، بينما تبلغ مساحة أكبر مقبرة ٤٨٩,٥ متراً مربعاً . ويمكن مقارنة هذه المساحة بالهرم الأكبر حيث نجد المساحة التى أقيمت عليها غرفة الدفن فى الهرم الأكبر تبلغ أربعة وثمانين متراً مربعاً . وقد احتاج الأمر إلى كل هذه المساحة فى مقابر كرمة لأن كل مقبرة لم تكن تضم شخصاً واحداً فحسب ، بل مئات من الأشخاص فعلا . ولم تكن المقبرة الرئيسية والأثاث يشغل أكثر من حيز صغير من الأرضية كلها ، أما باقى المساحة فكانت مغطاة بالهياكل البشرية . وكل هذه الهياكل قد دفنت فى نفس اليوم الذى تم فيه دفن الجثة الرئيسية .

لقد عثر ريزنر على مكان كان يضحى فيه بأفراد العائلة كلها وبحاشية الرجل الذى يموت ، فيصطحبهم معه إلى القبر . وقد تكرر ذلك مئات المرات فى هذا المدفن الضخم على مدى عدة مئات من السنين — وهو شىء لم يعرف قط فى مصر فى عهد الأسرات . وقد قدر فى إحدى هذه الروابى أن عدداً لا يقل عن أربعمائة رجل وامرأة وطفل قد اصطحبوا الشخص المتوفى فى المقبرة الرئيسية . ولم يكن يقل عدد الأشخاص الذين ضحى بهم فى المقابر الهامة عن خمسين شخصاً ، بينما كان يبلغ عدد الأفراد الذين اصطحبوا الميت فى مئات المقابر الصغيرة الأخرى من فرد إلى اثنى عشر بصفة مستمرة .

وليس هناك سوى عادة واحدة معروفة شبيهة بهذه العادة ، فيبعث بأسرة الشخص أو بجزء منها إلى العالم الآخر ، فى رفقة ذلك الشخص عند وفاته ، وهذه العادة تعرف باسم « ساتى Suttee. » فى الهند حيث أبطلت سنة ١٨٢٩ ، وطلب من رجال البوليس أن يحولوا دون الأرامل ودون إلقاء أنفسهن وسط النيران التى تحرق فيها جثث أزواجهن . ويقول « ريزنر » إن ضرباً من هذه العادة كان شائعاً بين بعض الأجناس فى أواسط إفريقية ، على الرغم من أنها لم تكن متبعة على مثل هذا النطاق الواسع الذى كان فى « كرمة » .

وكان المدفن الرئيسى فى الجهة الجنوبية من المقبرة وتوضع الجثة على

سرير مزخرف على جانبها الأيمن ، والسيقان مثنية قليلا ، واليد اليمنى أسفل الخد الأيسر ، بينما اليد اليسرى موضوعة عند المرفق الأيمن . وكانت الجثة ملفوفة بالكتان وقد وضعت الأسلحة وأدوات الزينة الشخصية فى مكانها . وكان هناك مسند خشبى للرأس على السرير ، ومروحة من ريش النعام ، وزوج من الصنادل مصنوع من الجلد ، كان يرتديه الميت فى بعض الأحيان، وعند أسفل الفراش توضع بعض أدوات للزينة وكذلك بعض الأدوات المصنوعة من البرونز . وعلى مقربة من الفراش وحول جدران الحفرة كان يوجد عدد من الأوانى الفخارية . وكانت جثة السيد مغطاة بجلد الثور وأحياناً كانت تغطى جثث الأشخاص الذين ضحى بهم والذين دفنوا بجواره بجلد الثور أيضاً . وكان يدفن على مقربة من الميت بصفة دائمة عدد قد يصل إلى اثنى عشر كبشاً ، ليست بمثابة قرابين ، بل أضحيات حية مثل الآدميين .

وبعد أن أتم « ريزنر » حفر هذا العدد الهائل من المقابر ، الواحد تلو الآخر ، أيقن فى الحال أن هؤلاء الناس قد دفنوا أحياء فى جنازات مريعة . ولم تحنط هذه الجثث ، بل ألقيت فى ردهات وغرف للقرابين داخل المقبرة التى ملئت تماماً بالتراب لحظة الدفن ، كما أن المقابر قد أعدت بحيث تؤوى العدد من الأشخاص المتوقع وفاتهم . ويظهر من أوضاع أفراد حاشية الميت معالم الخوف ، والثبات تحت وطأة الألم ، والحركات الطبيعية لأناس أصحاء يدركون أنهم على وشك أن يموتوا خنقاً ، ويرقد معظمهم على الجانب الأيمن ورءوسهم متجهة نحو الشرق . والبعض كان يغطى وجهه بيديه ، بينما كان البعض الآخر يمسك بحلقه أو بشعره . وكانت إحدى النساء تضغط على وجهها بمروحة من ريش النعام . وقد وضع اثنان جبهتيهما ملاصقتين بعضهما لبعض وكأنهما ينشدان السلوى ، بينما كان يضم آخرون بعضهم البعض فى عناق أخير . وفى بعض الحالات القليلة الجريئة كان الضحايا يرقدون فى هدوء متخذين وضع الموت الذى يتخذه سيدهم . والكل كان يعرف مصيره ، فقد كانوا يدخلون أحياء على أقدامهم ويرقدون حيث يجدون مقراً لهم فى

انتظار الموت . لقد ماتوا ، إن لم يكن عن طيب خاطر ، فطواعية على الأقل تحت وطأة العادة . ولو أنهم كانوا يقتلون أولا أو يخدرون لكانوا قد حملوا ورتبوا فى صفوف منتظمة . ولكنهم كانوا يرقدون حسب ما اتفق فى أماكن وقع عليها اختيارهم ، ومن ثم قضوا نحبهم فى المقبرة ، ذلك أن ضغط التراب يوقف كل حركة لهم ، وسرعان ما يعقب ذلك غيبوبة الموت . وكان أشد هؤلاء شقاء الفتيات الصغيرات اللائى وجدت هياكلهن تحت سرير السيد حيث زحفن فى رعب وفزع ، فوجدن الموت يترقبهن فى الظلام المخيم ، ومن ثم اختنقن فى تؤدة .

ولا بد أن هذا الاكتشاف المريع قد أثار شعوراً عميقاً فى نفس « ريزنر » ، إذ أن تقريره الرسمى الخاص بالحفائر يوضح فى جلاء المنظر الجنائزى ، كما يرجح أنه حدث منذ ثلاثين قرناً من الزمان ، حينما كان الموكب يخرج من « دفوفة » إلى مدخل ردهة المقبرة التى كان يصل طولها إلى ثلاثمائة قدم . وهذه الردهة تظل بالطبع مكشوفة للسماء ، وقد أعدت سلال التراب بنظام . ويحمل السيد المتوفى فوق سريره المصنوع من الكوارتز المطلى باللون الأزرق ، ويرتدى ملابسه من الكتان ، وسيفه موضوع بين فخذيه ، يتبعه حاملو الصناديق التى تحتوى على أدوات زينته وألعاب تسليته ، وصنادله . ويحمل تابعوه عالياً قوارب زرقاء من الخزف بها طاقم تام العدد من البحارة ، فى أماكنهم . أما الحشد من النساء فيسرن خلف الموكب ، وقد حمل البعض أو اصطحب معه الأطفال الذين سوف يلاقون حتفهم معهن ، والكل مرتد أبهى زينته ، كما تحمل الكثيرات بعض مقتنياتهن الشخصية التى يعتززن بها . ويوجد فى صحبتهن بعض التابعين من النساء والخدم الشخصيين الذين سوف يقومون على خدمة السيد فى الحياة الآخرة التى هى خير وأبقى . ويمسك الحمالون ببعض الأوانى الخزفية وقد نقشت بزخارف جميلة ، كما يحملون بعض الأدوات الفخارية التى كان يستعملها السيد فى حياته اليومية .

ولم يكن يمر هذا الحشد فى سكون جنائزى ، إنما كان يتم وسط النواح

والعويل الذى لا نزال نسمعه حتى اليوم من سكان النيل عند دفن موتاهم .
وعند الوصول إلى المقبرة يوضع السرير المصقول فى غرفة الدفن الرئيسية مع الأدوات الشخصية ، وتوضع الأوانى الفخارية والتماثيل الصغيرة فى ردهة القرابين ، ثم تغلق أبواب الغرفة ، وينسحب الكهنة والرسميون من المقبرة وسط الحشد من النساء والتابعين فى الردهة ، الذين لايزالون يولولون ويصيحون صيحات عالية . ثم يبدأ الناس الذين سوف يضحى بهم زرافات ووحداناً ، فى اتخاذ وضع الموت ، وهو وضع يحتفظون به إلى أن تخور عزائمهم — ولا يقوى على الاحتفاظ به حتى النهاية إلا من أوتى إرادة صلدة لا تلين . ثم تبدأ الصيحات والحركات فى التلاشى ، ويعقب ذلك سكون رهيب لا يقطعه سوى ترتيلة الكاهن معلناً ابتداء الرحلة التى لا عودة منها . وعندما تصدر الإشارة ، تمسك الجموع المحتشدة من أجل هذا الحفل بالسلال ، وتلقى بالتراب فوق الأفراد المستلقين . ويناول صف من مالئى السلال هذه الجموع بمزيد من السلال . وتنهال سلة تلو أخرى بلا هوادة فوق رءوس أولئك الصامتين من الضحايا الأحياء الجاثمين على أرض المقبرة . ومن المؤكد أن معظمهم كان يتحول عن وضع الموت الرسمى بمجرد ما ينهال التراب بشكل مفزع فوقهم ، فيغطون وجوههم . وحينما يرتفع التراب وتسود الدنيا ويزداد الثقل فوقهم ، ويشعرون بالتراب الخانق فى أفواههم وخياشيمهم ، تضعف عزائمهم ، وفى نوبة من الهلع واليأس يحاولون أن ينهضوا . ولكن الوقت يكون قد فات ، فقد أمسكهم التراب بقبضته فأصبحوا الآن عاجزين عن الحراك . وسرعان ما يسود السكون فيما عدا صوت التراب ينهال كالمطر دون انقطاع ، ووقع الأناشيد يترنم بها العمال ، والذين يتولون إتمام عملية ملء المقابر بالتراب رجال محترفون . أما الناجون فيتجهون إلى الجانب الجنوبى من المقبرة حيث يقام الحفل الجنائزى الذى يتخلف عنه هذه الحلقة نصف الدائرية من جماجم الثيران التى عثر عليها بعد كل هذه السنين — وهى تذكرنا بتلك الجماجم التى تحيط بالمدافن الصغيرة الخاصة بأفراد « المجموعة (C) » فى بلاد النوبة .

وكتب « ريزنر » يقول إننا قد نكون مبالغين فى المشاعر التى كانت تجيش فى نفوس الضحايا ، ذلك أنهم كانوا محصنين بعقائد دينية لا نشاركهم فيها ، وما من شك فى أنهم كانوا يتخذون أماكنهم عن طيب خاطر ، على الرغم من أننا ندرك من هيئتهم أن مسحة من الخوف كانت تنتابهم فى اللحظة الأخيرة ، وفى بعض الحالات كانوا يصابون بالشنج أو تقلص عضلى ناتج عن الألم الجثمانى[1].

وكان شيئاً مثيراً للدهشة أن يصادف « ريزنر » مثل هذه العادة التى لا تشبه العادات المصرية فى شىء فى مكان كان من الواضح أنه أحد مراكز التجارة المصرية فى وقت ما ولمدة طويلة . وعلى كل ، يحاول « ريزنر » أن يوفق بين الأمرين بقوله إن روح الميت ، طبقاً للعقائد المصرية ، تستمر فى الحياة ، ولذا يحتاج الميت إلى زوجاته، ومستشاريه وخدمه فى الحياة الأخرى . وعلى الرغم من أن المصريين الفراعنة لم يدفنوا زوجاتهم وخدمهم أحياء ، إلا أنهم كانوا يضعون فى المقبرة صور ورسوم هؤلاء الناس ، بالإضافة إلى الطعام والأسلحة وأدوات الزينة وغيرها من الأدوات التى يستعملها الميت فى حياته على الأرض — وحتى صور أعماله وهواياته العادية . وكل هذا يتخذ شكلا حياً فى الحياة الروحية بفضل مفعول الدين السحرى . وهو فى الواقع لا يختلف عن المبدإ الذى أخذ به فى « كرمه » ، ولكنه أفضل منه من الوجهة الإنسانية ، ذلك أن العادة التى اتبعت فى كرمه كانت تختلف عن العادة المتبعة فى مصر فى تجاهلها التام للحياة الإنسانية . ويرجح « ريزنر » أن العادة المصرية الخاصة بوضع رسوم وصور بديلة للأشخاص الأحياء إنما هى عادة متخلفة عن عادة قديمة — تشبه عادة أهل « كرمه » — تلاشت فى عصر ما قبل الأسرات ، على الرغم من أن الأمثلة القليلة النادرة التى وجدت لشخصين أو ثلاثة دفنوا معاً فى عصر ما قبل الأسرات قد تكون لأشخاص ماتوا فى

---

[1] لقد اكتشف علماء الآثار فى أرض بابل فى مدينة أور مثل هذه العادة الجنائزية القظيعة — راجع تاريخ العالم القديم تأليف برستد صفحة ١٥٠ ، ١٥١ .

الوقت نفسه بطريق الصدفة . ثم يقول إن من المحتمل أن المصريين فيما قبل الأسرات قد تخلوا عن دفن الأحياء نظراً لما لمسوه من انقراض السكان نتيجة لذلك ، ولأن فنون الكتابة والنحت أمدتهم بوسيلة سحرية يمكن أن تحل محل دفن الأحياء ، وبهذه الكيفية أوجدوا « حالة عقلية تزداد إحجاماً عن التنفيذ ، وتقل حماساً للقيام بالتضحية الشخصية » . ويعتقد أن عادة كرمه التي تقضى بدفن الأحياء بالجملة تعلل ببعد هذه المستعمرة المصرية عن أرض مصر ، وباتصالها الوثيق بشعب أقل مدنية وحضارة . ولذا يعتقد « ريزنر » أنه يحق للزعماء المحليين فى هذا المركز السحيق أن يمارسوا دفن الأحياء جملة ، كما يعتقد أنه من الطبيعي بالنسبة للموظفين المصريين الذين أقاموا هناك أمداً طويلا أن يرجعوا إلى مزاولة عادة فكرتها الأساسية تشبه عادتهم إلى حد كبير ، وإن لم تكن تشبهها فى الممارسة الفعلية .

وكانت وسائل تحنيط الجثة فى عصر الدولة الوسطى ناقصة ، كما أن صعوبة الرحلة وطولها والأخطار الناجمة عنها جعلت من إعادة الجثة إلى مصر لتحنيطها أمراً يكاد يكون مستحيلا . ومهما يكن من أمر ، يرى « ريزنر » أنهم كانوا يعتقدون أن فى مقدور روح الإنسان ، إذا ما زودت على خير وجه ، أن تقوم بالرحلة فى سرعة وأمان . ولذا كان الرجل يدفن دون لفائف تعوق سيره ، وصندله فى أغلب الأحيان معه فى قدميه ؛ كما كان يرقد ووجهه ناحية مصر ، كما كان يفعل أولئك الأتباع ممن ضحوا بأنفسهم . وينحصر اعتقاد كل فرد من أفراد العائلة فى أنه سوف يتحتم عليه آخر الأمر أن يواجه أخطار رحلة روحية إلى مصر ، وإلا كتب عليه أن يسكن عالماً روحياً وسط أرواح القبائل الهمجية . ولذا كان يرى من الأفضل أن يرحل الآن ، فى حماية رب الأسرة ، الذى لا يفصلهم عنه سوى بضع برهات من الألم . ولم يكن يشك أحدهم لحظة واحدة أن الحياة سوف تستمر كما كانت فى الحياة الدنيا ، ولكنها سوف تكون فى عالم أكثر سمواً ؛ فمن الحكمة إذن أن نسعى إلى المستقبل محاطين بكل ما هو مألوف لدينا ، وفى صحبة من يشعر

الإنسان بحبهم ، والحقيقة ، كما يلخصها « ريزنر » ، أن هؤلاء الناس كانوا ينظرون إلى هذه العادة « لا على أنها شيء يتسم بالقسوة ويخلو من الإنسانية ، ولكنها عادة تمتاز بالكرم ، وعمل مبعثه الإخلاص والولاء . . . . » .

وليس أمراً عملياً أن يطلق على المقبرة اسم مالكها ، كما هو الحال فى مقابر مصر المنحوتة فى الصخر . وعلى كل ، لم يعثر على أسماء فى المقابر العظيمة فى « كرمه » . ولو حدث أن كانت ثمة أسماء ، فإن اللصوص قد قاموا بمحوها ، إذ أن هذه المقابر قد سلبت فى العصور القديمة . ومهما يكن من أمر ، فإن بعض الأدوات والتماثيل الصغيرة من الطراز المصرى والتى نقشت عليها بعض الكتابات الهيروغليفية قد عثر عليها فى بعض المقابر ، مما حدا بريزنر إلى استنتاج أن هذه المقابر كانت مدافن لشخصيات مصرية بارزة . ويجدر التنويه بأن ريزنر قد عثر فى المقبرة العظيمة التى أطلق عليها «K 3» على الجزء السفلى من تمثال « حب چفا » ، وهو أمير من أسيوط ، فى مصر ، كما عثر على تمثال كامل لزوجته « سنيوى » .

و « حب چفا » هذا معروف جيداً لعلماء الآثار المصرية ، أو على الأقل يعرفون مقبرته فى أسيوط . ولم يشغل « حب چفا » مقبرته قط ، ولم يتمها مطلقاً . ولكنها تحتوى على عقد غريب مع كهنة أسيوط بشأن صيانة « الكا » ، أو الروح الخاصة به ، مما يبدو وكأنه يعرف سلفاً أنه سوف يموت خارج البلاد

ولذلك استنبط « ريزنر » أن رجلا قد دفن فى مثل تلك الحالة فى « كرمة » لا يمكن إلا أن يكون « حب چفا » ، نائب الملك فى بلاد كوش ، على الرغم من أن اللقب لم يستخدم فى الدولة الوسطى ، كما لم يرد ثمة ذكر فى مقبرة أسيوط عن تعيينه فى جنوب مصر . وقد ذكر اسم « سنوسرت الأول » ، سيد « حب چفا » ، الذى يرجع « ريزنر » عهده إلى الفترة من سنة ١٩٧٠ — ١٩٣٦ قبل الميلاد ، والذى يحتمل أنه عين « حب چفا » نائباً للملك . كما يحتمل أن يكون الملك الذى جاء بعد سنوسرت ، وهو أمنمحات الثانى ، هو الذى أرسل « حب چفا » لتولى منصبه فى مكان أشبه « بسيبريا » . وعلى أية

حال ، يقول « ريزنر » ، بأن دفن الأحياء بالجملة فى « كرمة » والذى صاحب موت « حب جفا » لا بد قد وقع ما بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٨٨٠ق.م

ويعتقد ريزنر أن « حب جفا » كان أول نائب للملك ، ثم تبعه أصحاب المقابر الأخرى من نواب الملك المصريين الذين عاشوا وماتوا فى كرمة . ثم يقول إن المدفن الكبير استمر أكثر من ٣٥٥ عاماً يضم أفراد المجتمع المصرى الذى أقيم فى الجنوب للإشراف على الطرق وتبادل المنتجات . وكان مجتمعاً مكوناً من الكتبة والمحاسبين والكهنة والفنانين والمزارعين والخدم والحريم والجنود ؛ كما كان مركزاً للإدارة كذلك . وكانت الأعمال الفنية فى المقابر مصرية بلا شك ، ولكنها مهيأة بحيث تلائم المواد المستعملة والبيئة المحلية .

وتبدو آراء ريزنر لأول وهلة وكأنها لا تقبل الجدل ، وقد أيدها معظم الباحثين . ومع ذلك ، يزداد عدد العلماء الذين يعيدون النظر فى مسألة كرمه ، ذلك أن استعداد المصريين للاصطباغ بالصبغة المحلية واتباع عادة التضحية الإنسانية بالجملة لا يبدو من شيم المصريين ، ومن تقبله من العلماء فعل ذلك دون تمحيص كبير . ثم هناك تمثالا « حب جفا » وزوجته ، وقد أخذهما ريزنر قضية مسلم بها أنهما صنعا فى كرمة ، ولم يقم بفحص نوع الصخر لكى يرى ماذا كانت صخراً محلياً أم لا . وكانت هناك أيضاً أجزاء من التماثيل المصرية الملكية يبدو أنها وجدت فى الردهة الوسطى من مقبرة « حب جفا » وغيرها من المقابر ، ولم يستطع « ريزنر » أن يجد لها تفسيراً . وكون مقبرة أسيوط لم تتم أو يشغلها أحد قط لا يعتبر برهاناً قاطعاً ، كما يبدو لأول وهلة ، فثمة حالات أخرى مشابهة . وعلى سبيل المثال تعاون معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو مع مصلحة الآثار المصرية منذ زمن وجيز فى الكشف عن مقبرة من أجمل المقابر المنقوشة التى وجدت فى الأقصر . ولم تكن هذه المقبرة كاملة البناء ، ولم يستخدمها صاحبها قط ، إذ من الواضح أنه أصبح مغضوباً عليه . وسوف يكون لنا شرف نشر تفاصيل هذه المقبرة البديعة حينما تنتهى مشكلة النوبة الحالية .

ويعتقد العلماء الآن أن هذه التماثيل الخاصة « بحب جفا » إنما كانت من بين البضائع القديمة العهد الواردة من مصر ، والتي تم الاتجار فيها مع أهل الجنوب في تاريخ لاحق للتاريخ الذي ينسبه « ريزنر » إلى المقابر ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأشياء التي ترجع إلى عهد الدولة القديمة مما عثر عليه في « كرمة » . أما المركز التجاري فقد وجد بالفعل — وقد أسسه أمنمحات الثاني على وجه التأكيد حوالي سنة ١٩٣٠ ق . م — ولكن هذا هو كل ما في الأمر ، أنه كان مركزاً تجارياً ، وليس مقراً لنائب الملك الذي يحكم مقاطعة كبيرة . وكانت القلعة الموجودة في « دفوفة الغربية » ، قلعة صغيرة لا تتسع لأكثر من مائة رجل ، وهي كافية لحماية مركز تجاري في وقت السلم . ولكنها ليست سوى جزء من عشرة مما يكفي للسيطرة على مقاطعة برمتها . وكان هذا المركز التجاري يضم أرباب الحرف من المصريين الذين كانوا يصنعون أدوات وفق الأسلوب المصري ومعدلة في الوقت نفسه بحيث تلائم احتياجات السوق المحلية . وتتم المقايضة بها في مقابل سلع مصنوعة في الجنوب كانت تنقل بواسطة القوافل إلى الحدود . وهكذا عاش السكان المحليون في رخاء ؛ أما النقطة الجوهرية في الموضوع فهي أن المقابر لم تكن مدافن لنواب الملك ، بل لزعماء محليين ، وهي من الأهمية بحيث تدل ، كما يقول آركل ، على أنها قد تكون الموطن الأصلي لكوش ، أهم دولة وطنية في شمال السودان » .

لقد أطلنا بعض الشيء في الحديث عن « كرمة » ، على الرغم من أنها خارج نطاق السد العالي[1] . ولكنها تعطينا بعداً ثالثاً لصورة بلاد النوبة والعالم القديم حولها ، ذلك العالم الذي نحاول أن نرسم صورته ، كما أنها توضح الثغرات الكبيرة التي ما زالت في معلوماتنا عن أوائل التاريخ المصري . من أين أتت هذه العقيدة الفظيعة التي تقضي بدفن الأحياء والتضحية بهم جملة ؟ من المؤكد أنها لم تبدأ على حين فجأة في مقابر «K 3» . في أي جهات إفريقية

(١) تقع كرمة جنوب الطرف الجنوبي لبحيرة السد العالي بنحو ثلاثين ميلا وتنتهي هذه البحيرة قبل الشلال الثالث بنحو عشرة أميال : راجع الخريطة المرفقة .

كلها يوجد شيء شبيه بهذا ، وعلى نطاق واسع كهذا ؟

إننا ننظر من علياتنا فى امتهان ورعب إلى عظام هؤلاء المئات من المساكين الذين كانوا يجثون فى مقابر كرمه ، راضين بأن يكونوا ضحايا لعقيدة لا تتسم بالإنسانية . ومع ذلك تنتابنا هزة أكثر رعباً حين تقع أبصارنا على عالمنا نحن ، حيث نرقب ، شأن الأغنام ، الاستعدادات التى تجرى من أجل تضحية بالبشر تزيد فى جسامتها وضراوتها على تلك التضحية مليون مرة .

وكانت التضحية بالكتل البشرية فى تلك المقابر هى إجابة ملوك كوش عن السؤال الأبدى الذى يفزع له الإنسان : من أين أتينا ، وإلى أين نذهب ؟ وكانت إجابة أمينة بالنسبة لهم ، ذلك أنهم كانوا يؤمنون بها ، فهل لدينا إجابة أفضل ، بعد مرور ثلاثة آلاف عام ؟

وأن من أسرار التاريخ السقيمة أن حكمة الملوك تنمو بمثل هذا البطء البـــالغ .

بينما كان « الميسينيون » Myceneans ينشئون أول بوادر الحضارة اليونانية ، حلت بمصر كارثة كان لها آثارها السيئة فى بلاد النوبة ، ذلك أن قوماً يعرفون باسم الهكسوس اجتاحوا مصر من جهة الشمال ، ولا يعرف من أمر أولئك القوم الشيء الكثير . وانهارت الأسرة الثالثة عشرة . ربما نتيجة لهذا ، وأعقب ذلك عصر مظلم بين عامى ١٧٨٠ و ١٥٨٠ ق . م ، وهى حقبة ليس فى مقدور علماء الآثار المصرية أن يحدثونا عنها كثيراً ، ولذا أطلق عليها بحق العصر الوسيط الثانى .

وعلى كل ، فإن الظواهر الأثرية فى بلاد النوبة تدل على أن الأمور كانت تسير فى مجراها العادى ، على الأقل حتى تم طرد الهكسوس أخيراً من مصر . ومن ثم هاجم الجنوبيون بعض الحصون ، واستولوا عليها وأحرقوها ، كما رأينا ، أما البعض الآخر فيرجح أن القوات المصرية التى كانت مكلفة بحمايتها قد انسحبت منها . ويعتقد بعض المؤرخين أن سلطات الهكسوس هى التى حملت لواء التجارة والإدارة خلال هذا الوقت ، ويشيرون إلى أختام الهكسوس التى عثر عليها فى كرمة . ولكن يحتمل وجود تفسير آخر لهذه الأختام ، كما سنرى فيما بعد ؛ ومن العسير أن نصدق أن الهكسوس كان فى مقدورهم أن يديروا شئون النوبة من الشمال بينما كان ألد أعدائهم ، وهم أمراء طيبة ، يتحكمون فى زمام النهر فى مصر العليا .

ويعتقد « آركل » أن الصراع بين هؤلاء الأمراء وبين الهكسوس قد أدى إلى إضعاف نفوذ مصر فى بلاد النوبة زمناً كافياً بحيث أعطى الفرصة للقوم

من المجموعة (C) ليلائموا ما بين أنفسهم وبين الحضارة المصرية ، إذ لم يعودوا يخشون النفوذ السياسي لمصر ومن المحتمل أن تكون عودة شعب « الميجو » إلى بلاد النوبة ، وهم الذين خدموا كجنود مرتزقة بين صفوف الجيوش المصرية في حربهم ضد الهكسوس ، قد لعبت كذلك دوراً كبيراً في إضعاف مقاومة « المجموعة (C) » ضد الأفكار المصرية ، لدرجة أن إعادة احتلال النوبة عقب طرد الهكسوس تم إنجازه في يسر وسهولة .

وأخيراً كون أمراء طيبة الأسرة السابعة عشرة وسط تلك الفوضى ، بينما كان الهكسوس لا يزالون في مصر السفلى . وكان الملك « كاموس » Kamose هو آخر ملوك هذه الأسرة .

وفي سنة ١٩٠٨ كان « هوارد كارتر » ينقب عن الآثار المصرية في معبد الكرنك بالأقصر نيابة عن « اللورد كارنارفون » ، فعثر على لوحة حجرية ، كان من الطبيعي أن يطلق عليها اسم « لوحة كارنارفون » ، وقد علم منها المؤرخون أن الملك « كاموس » واصل حرب التحرير التي بدأها سلفه الملك « سقنن - رع » ضد الهكسوس في عهد ملكهم « أبوفيس »

وفي سنة ١٩٣٨ كان مدير الأعمال الفرنسي في معبد الكرنك « شفرييه » Chevrier يدعم أساس الواجهة الثالثة[1] حينما نزع قطعتين من لوحة مكسورة كان قد أعيد استخدامها ضمن الحجارة التي بنيت بها الواجهة . وكانت هاتان القطعتان تحملان نقوشاً لكاموس تؤكد صحة ما جاء في لوحة « كارنارفون » .

وفي عام ١٩٥٤ نزع الدكتور م . حماد ، أحد مديري الأعمال المصريين في الكرنك ، حجراً كبيراً من قاعدة تمثال رمسيس الثاني المقام في البهو الأول أثناء قيامه بإصلاحه . وقد اكتشف أنه لوحة رائعة لكاموس يروي عليها قصته كاملة في نقوش تبلغ ثمانية وثلاثين سطراً محفورة ومحتفظة بطلاتها

(١) ترجمة Pylon وهي الواجهة عند مدخل معبد الكرنك .

الأزرق الأصلي . وتحمل أطراف اللوحة اسم « سنوسرت الأول » مما يدل على أن الملك « كاموس » قد أخذ الحجر من أحد المعابد التي أقامها حاكم من حكام الأسرة الثانية عشرة لكي يحوله إلى لوحة ، ثم استخدمها « رمسيس الثاني » بدوره دعامة لتمثاله الضخم .

ولا تحوى لوحة حماد الخاصة بالملك كاموس تلك الديباجة المنمقة التي تبدأ بها لوحة « كارنارفون » وكذلك القطع الحجرية التي عثر عليها « شفرييه » بل تخوض مباشرة في التفاصيل ، ولا بد أنها مكملة لحجارة شفرييه .

وفي هذه اللوحات يوجه « كاموس » حديثاً مباشراً إلى الملك « أبوفيس » فيقول : « تقرير عن الهزيمة التي لحقت بك داخل بلادك »[1]. وإذا ترجمنا التقرير في شيء من التصرف يصبح هكذا :

« إن أنباء هزيمتك مع جيشك سوف تقابل باستياء في أراضيك . إن سلطتك محدودة بالنسبة لي بحيث لا يمكن أن أكون عبداً لك ، أو حتى لكي تحدد المكان الذي سوف نخوض فيه المعركة . سوف أراك تولي الأدبار حينما يتعقبك جيشي ؛ ولسوف تفقد نساء « أفاريس » القدرة على الحمل — وسوف يتجمد الدم في عروقهن حين تصل إلى مسامعهن صيحات جنودي » .

ثم يعقب ذلك وصف لهجوم مائي بري يشنه كاموس على « أفاريس » ، المدينة التي يتخذها « أبو فيس » عاصمة له :

« سفينتي الذهبية في الطليعة ، لقد كنت مثل صقر جارح في المقدمة . وأخذت أستحث القارب المتين — « مكاى » — في مقابل شاطئ النهر . وسار في أعقابه القارب « زات » إلى شاطئ أفاريس . واستطعت أن أرى نساءها ينظرن من نوافذهن ، وحينما وقعت أعينهن علي تجمدت أطرافهن من

(٢) يقول أحد المترجمين وهو « سوف زيدربرج Säve-Söderbergh » أن الخلط بين الزمنين الماضي والمستقبل يجعل من العسير علينا أن نميز بين الخسائر التي ألحقها كاموس بأبو فيس فعلا وبين ما ينوى أن يلحق به في المستقبل .

الرعب ، ويأخذن فى النظر خلسة من خلال فرجات الأبواب والجدران مثل الجراء فى جحورها كلما يقترب منها أحد . انظروا ، إننى أنا القادم ! بحق آمون لن أسمح لك أن تطأ قدمك فوق أرضى . أيها الأجنبي التعس ، فلتعلم أننى سوف أشرب خمر كرومكم وقد عصره قومكم ، الذين مزقتهم إرباً . سوف أقوض بيوتكم وأجتث أشجاركم وأجر نساءكم إلى جوف سفنى . إننى لم أترك لوحاً واحداً سليماً من الثلاثمائة سفينة المصنوعة من الأرز ، المليئة بالذهب وحجر اللازورد والفضة والفيروز والعديد من الفؤوس النحاسية ، بالإضافة إلى زيت الزيتون والبخور والشحم والعسل الأبيض والأخشاب النفيسة . وكلها كانت جزية مرسلة إلى « رتينيو » فاستوليت عليها جميعاً » .

ومن الواضح أن جزءاً كبيراً من هذا الحديث هو عبارة عن أمانى لا وجود لها إلا فى تصور « كاموس » ، إذ لو أنه استولى على « أفاريس » فعلا لأصبح بيده مفتاح الطريق إلى مصر السفلى . ولكن الهكسوس لم يطردوا من البلاد نهائياً إلا فى عهد خليفته .

ويفترض علماء الآثار المصرية أن « أفاريس » كانت تقع بالقرب من مدينة بورسعيد الحالية . وقد يعزى هذا إلى أن « مانتيو » Mantheo (الذى عاش بعد عصر الهكسوس بألف وثلثمائة عام) كتب يقول : إن أفاريس تقع « على شاطئ البحر » . ومع ذلك ليس ثمة أثر لمثل هذا المكان على الإطلاق فى بلاد مستوية مثل راحة اليد . ولكن استمع إلى « سترابو » حين توجه شخصياً لزيارة قصر « اللابرنت » الشهير الذى بناه « أمنمحات الثالث » أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، والذى كان لا يزال سليما فى عصره ، إذ يقول : « فى مقاطعة « ارسينويت » تقع بحيرة « موريس » العجيبة التى تشبه البحر فى اتساعها ولونها ؛ كما أن شواطئها تشبه شواطئ البحر » .

وبحيرة موريس الآن عبارة عن منخفض طبيعى يقع غرب النيل فى الفيوم ، وبقاياها التى انكمشت أصبحت فى الوقت الحالى بركة قارون . وقد قام أمنمحات الثالث بتطهير المجرى الطبيعى الذى كان يصل البحيرة بالنيل ،

وجعل منه بحراً ضخماً داخلياً يمكن أن يمتص مياه أعلى فيضانات النيل ، ثم يقول « سترابو » الذى شاهد آثار هذا العمل : « ومن ثم أبان انحسار مياه النهر . . . تعود المياه الزائدة إليه بواسطة القناة نفسها ، وتبقى كمية فائضة من المياه تستخدم فى أغراض الرى . وعلى الرغم من أن هذه الأشياء هى من صنع الطبيعة ، إلا أن أمنمحات أنشأ بوابات ذات عيون عند نهايتى القناة يستطيع المهندسون بواسطتها أن يتحكموا فى دخول المياه وخروجها » ؟

وها نحن قد عثرنا على موقع لاقاريس أكثر ترجيحاً من الموقع الأول ، إذ أنها كانت « على شاطئ البحر » وتتحكم فى مصير الدلتا بواسطة قناطرها . وإذا ما استطاع أحد أن يستولى على أقاريس لأصبح فى مقدوره أن يقضى على عدوه جوعاً أو غرقاً حتى يستسلم .

أما عن اسم « أقاريس » فقد كان يطلق عليها فى عهد الهكسوس اسم « ها – وار » ولا يحتاج الأمر إلى خطوات عديدة فى مدارج تحريف الأسماء لكى نتدرج من « أقاريس » إلى « هاقاريس » ، إلى هاقار ، ثم إلى «هاـوار» . وهناك موقع حديث يعرف حالياً باسم « هوارة » ، حيث كان يقع قصر « اللابرنت » والبوابات العظيمة التى كانت تتحكم فى المياه وتعتبر بمثابة مفتاح الطريق إلى مصر . ومن المؤكد أن فى هذا المكان كانت تقع « أقاريس »[1] التى كان يحلم الملك « كاموس » بالاستيلاء عليها .

ويقترح « ويلكوكس » أن السنوات السبع العجاف والسنوات السبع السمان الخاصة بيوسف فى قصة الإنجيل يمكن تفسيرها فى ضوء بحيرة موريس ، ومدينة « أقاريس » وبواباتها . ثم يقول إن يوسف وصل إلى مصر وعمل فى خدمة أحد ملوك الهكسوس المتأخرين الذين كانوا يحكمون مصر السفلى ، فى الوقت الذى كانت فيه مصر العليا تحت سيطرة أسرات طيبة . ومن المحتمل أن يكون هذا الملك هو « أبوفيس » نفسه . ثم قامت حروب لا نهاية لها ؛

---

(١) ولكن يعتقد أغلب العلماء الآن أن أقاريس كانت بالقرب من صان الحجر الحالية على بحيرة المنزلة ، ذلك الموقع الذى عرف أيام الإغريق باسم تانيس .

وحينما كان أمراء طيبة يعدون أسطولا لمهاجمة أفاريس ، فسر يوسف حلم ملك الهكسوس تفسيراً علمياً معقولا ، فنصح جلالته بأن يقوم بتخزين القمح للسنوات العجاف فى حالة ضياع البوابات المنظمة للمياه من يديه . وهذا ماحدث بالفعل ، ذلك أن أمراء طيبة استولوا على « أفاريس » « ها – وار » وأعقب ذلك سبع سنوات سادت فيها المجاعة إذ أنهم استولوا على مفاتيح مياه الدلتا . ثم استعاد الهكسوس أفاريس ، وكان من نتيجة ذلك أن ساد الرخاء سبع سنوات أخرى . ولما استعاد أمراء طيبة المكان أخيراً تسرب اليأس إلى قلب الهكسوس ولاذوا بالفرار من البلاد ، « ثم ظهر ملك لا يعرف يوسف » ولا بد أن هذا الملك هو « أحمس » ، أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وهو الذى تخلص من حكم الهكسوس عام ١٥٧٧ ق . م .

ويعتبر هذا تفسيراً وجيهاً ، يحتمل الصدق إذا كان « ويلكوكس » قد أورد التواريخ الصحيحة ليوسف . وما من إنسان يستطيع أن يقول إنه أخطأ فى ذلك .

ولكن بقى علينا أن نقرأ بقية لوح « كاموس » الذى وجد فى الكرنك ، ولقد وصلنا إلى الجزء الذى يربط بين هذه الاشتباكات النهرية عند أفاريس وبين الأحوال القائمة فى النوبة آنذاك .

يواصل كاموس قصته قائلا كيف أنه قطع الطريق على رسول من قبل « أبو فيس » ، ملك الهكسوس ، وكان يسير فى طريق الواحات متجهاً جنوباً إلى كوش يحمل معه رسالة . ثم لاحظ أن الرسول اضطر إلى السفر بالطرق الصحراوية لكى يتجنب النهر الذى كان فى قبضة يد كاموس فى مصر العليا . ولذلك ليس من المحتمل أن الهكسوس كانوا يسيطرون على بلاد النوبة على الإطلاق ، كما كان يفترض البعض .

ويقول كاموس فى حنق : « لقد وجدت ما يلى مكتوباً بخط يد حاكم أفاريس :

« تحية من « أبوفيس » إلى أمير كوش . أو رأيت ما فعلته مصر ضدى ؟

إن الحاكم كاموس – موهوب الحياة – يزاحمنى فى أرضى ، على الرغم من أنى لم أقم بمهاجمته بالكيفية التى هاجمكم بها . لقد قر عزمه على أن يغتصب أرضى وأرضك ، وقد ألحق بهما أضراراً بالغة . فلتتقدم إلى الشمال ولا تخف، فهو مشغول بأمرى هنا ، وليس ثمة من يعترض سبيلك فى مصر . سوف أعمل على تعطيله ومناوشته حتى تصل . ومن ثم نقتسم مدن مصر فيما بيننا ونعيش فى رغد وسعادة . . . » . وهكذا تستعمل المؤامرة ، فلا غرو إذا كان كاموس قد تملكه الحنق .

وربما لم يكن هذا أول خطاب من نوعه . ومن يدرى لعل تلك الأختام الهكسوسية التى عثر عليها « ريزنر » فى « كرمة » كانت من نوع هذه الرسائل التى يبدو فيها التآمر ؟

هذا اللوح يوضح لنا أشياء كثيرة : أن الهكسوس لم يكونوا مسيطرين على بلاد النوبة ؛ ولكن كانت هناك مملكة « كوش » التى كانت من القوة بحيث لجأ ملك الهكسوس إلى طلب العون منها ، وهو الأمر الذى ارتبنا فيه حينما أعدنا النظر فى عادة الدفن بالجملة فى كرمة . وتمدنا هذه اللوحة بأول دليل أكيد ، كما أوضح « سوف زيدبرج » وهو أن كاموس أغار على بلاد النوبة – ربما قبل أن يبدأ حرب التحرير ضد « أپوفيس » . وعلى مقربة من « توشكا » التى تبعد حوالى ٢٠ ميلا شمال أبى سمبل ، يوجد اسم كاموس منقوشاً على الصخر – وهو الدليل الوحيد ولو أنه غير أكيد حتى الآن على إغارته . والآن نستمع إليه مباشرة وهو يحدثنا عنها .

وبعد أن يشير إلى هذه المؤامرة التى قطع عليها الطريق ، يواصل كاموس حديثه مفاخراً « بأعماله الفذة المدمرة » وكيف أنه أعاد الرسول الأسير مرة ثانية لكى يقص على أپو فيس نبأ الدمار الذى ألحقه بمقاطعة « سينوپوليس » Cynopolis ، كما أرسل قوة لتدمير الواحة البحرية ، على الطريق الصحراوى « لكى يحول بين المتمردين وبين الالتفاف من خلفه . وربما فعل ذلك بغرض قطع الاتصال بين الهكسوس وكوش كذلك .

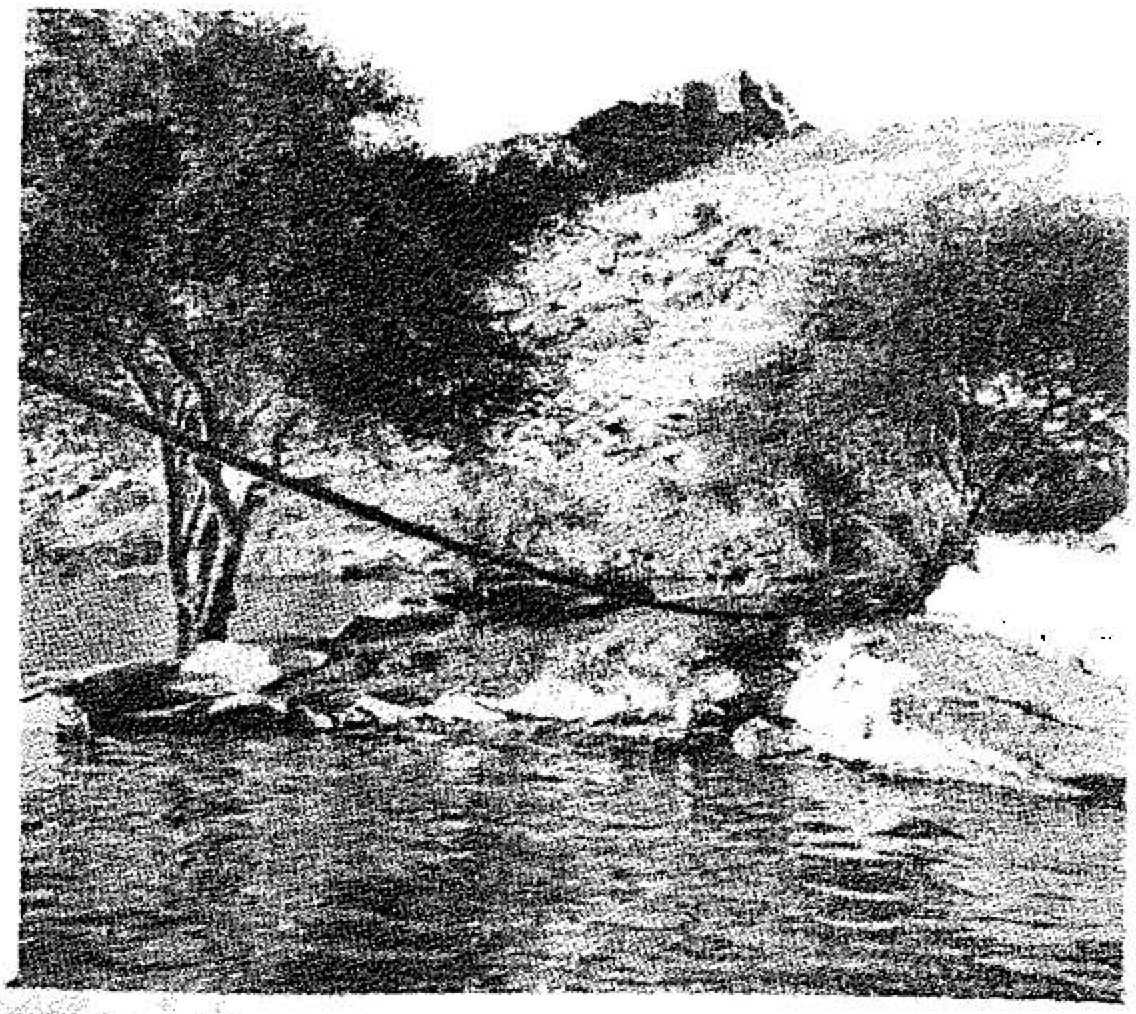

بقايا السور الذى كان يحيط ببلدة « تلميس » القديمة ، والذى أقيم فى عصور المسيحية الأولى لصد غارات البدو عن المبانى المسيحية ، كما يبدو من نافذة الباخرة ممنون

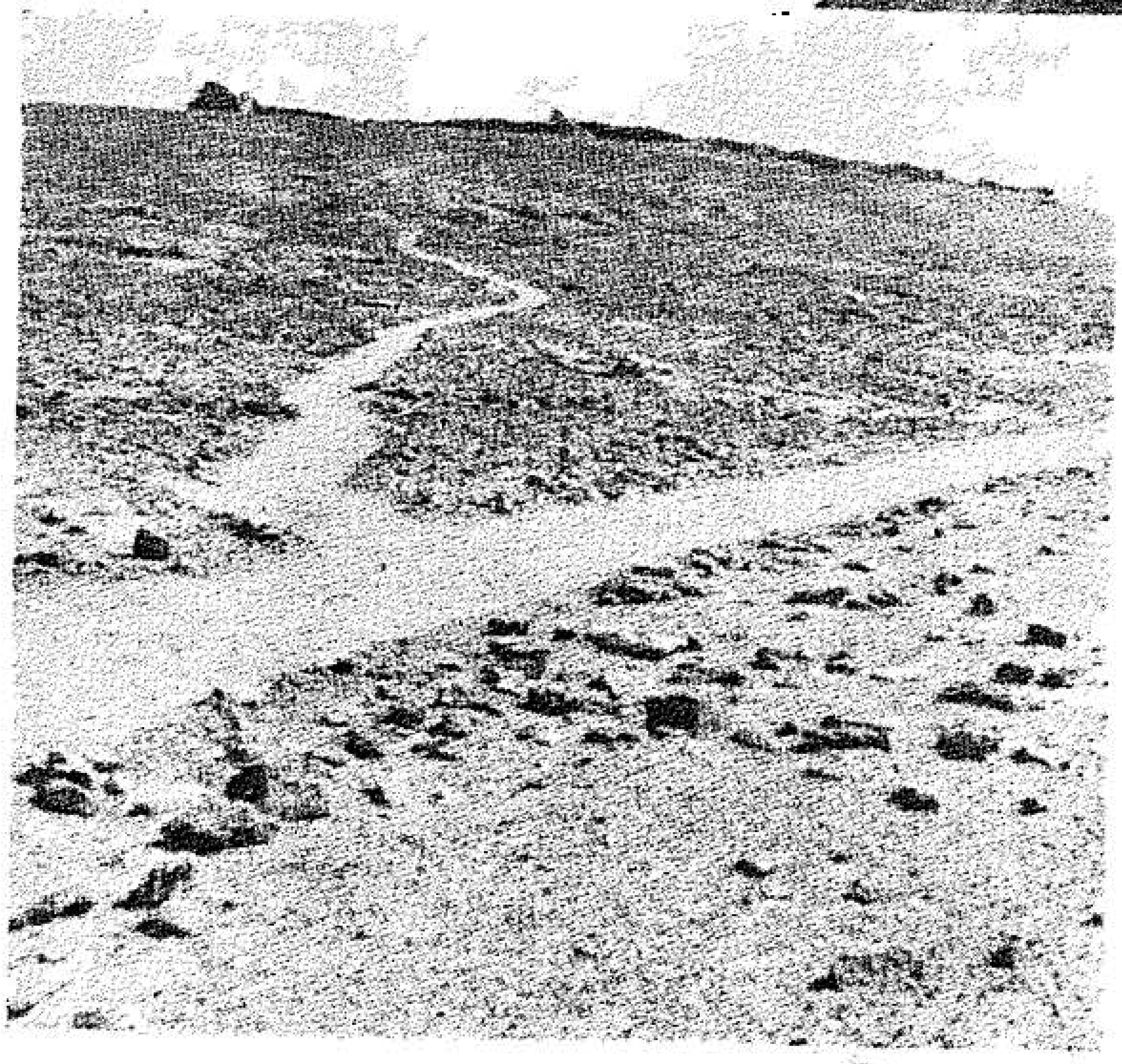

استحكامات « تلميس » ، ويجرى النهر وراء حافة الصحراء

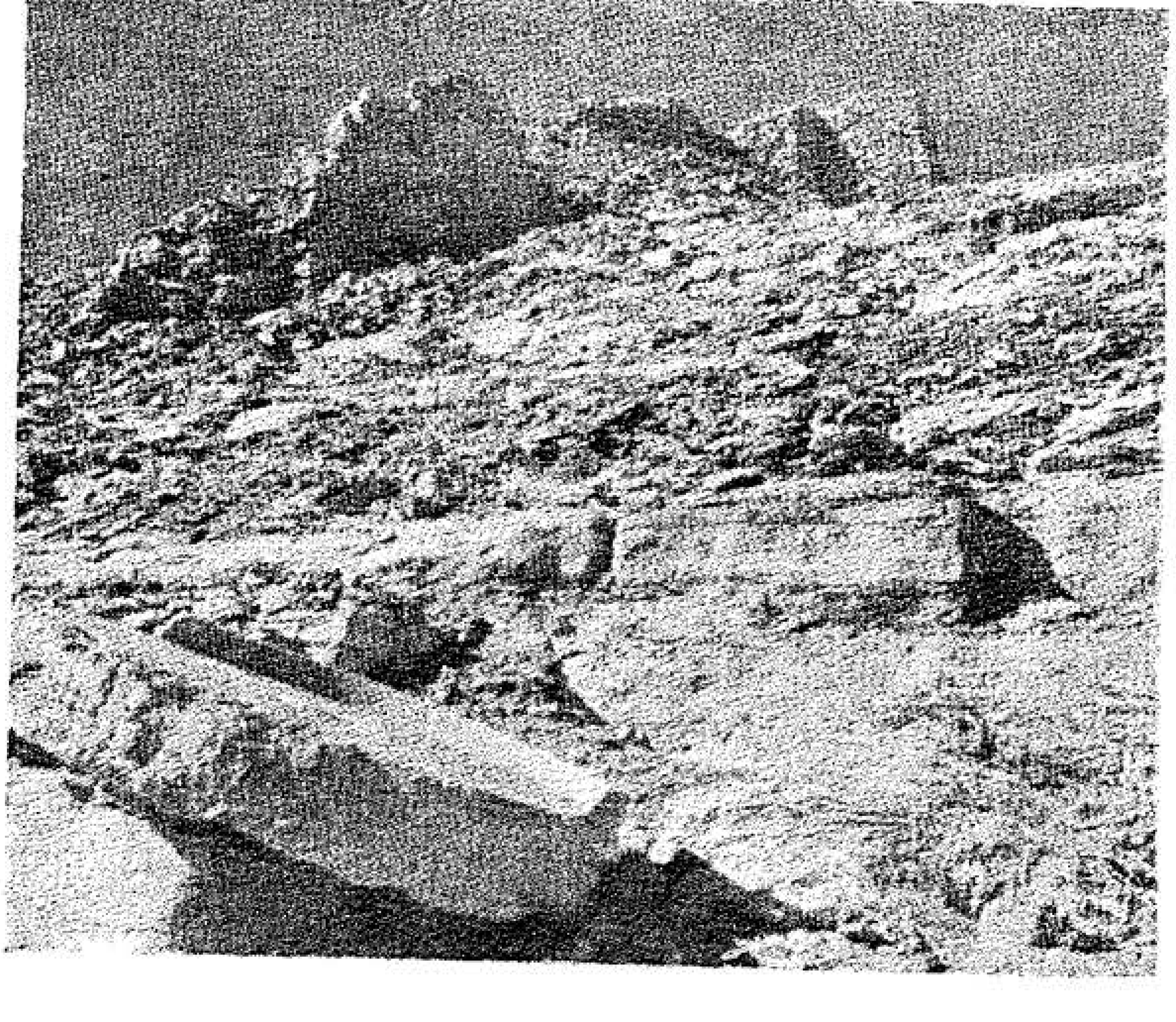

الاستحكامات كما تبدو من مستوى النهر . وفى مقدمة الصورة نرى حجر طاحونة من العصر الرومانى ، نحت بمهارة ، ولكنه مشوه الآن

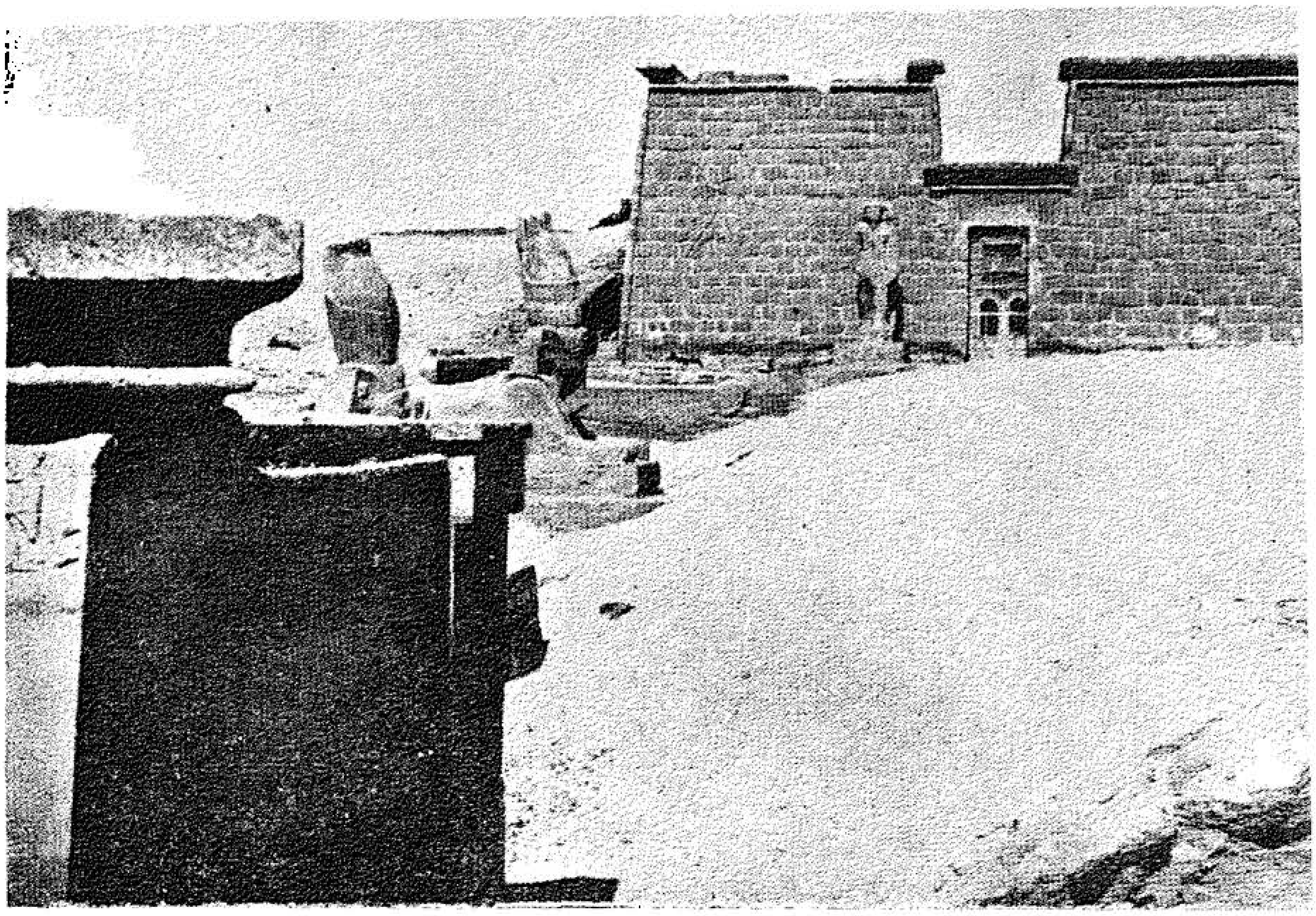

منظران من معبد وادى السبوع ، وقد ظهر أمامه طريق ، على جانبيه تماثيل لأبي الهول

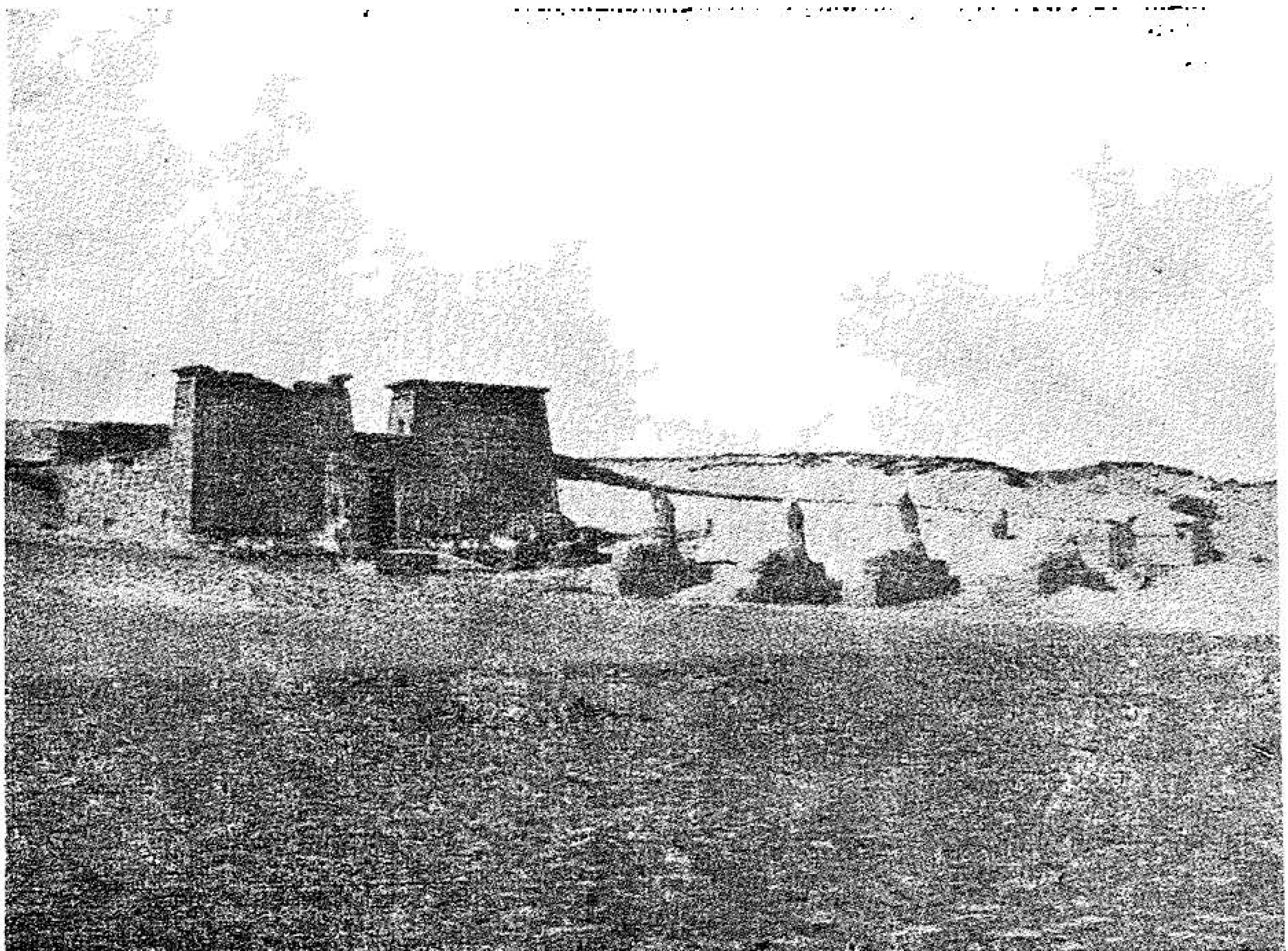

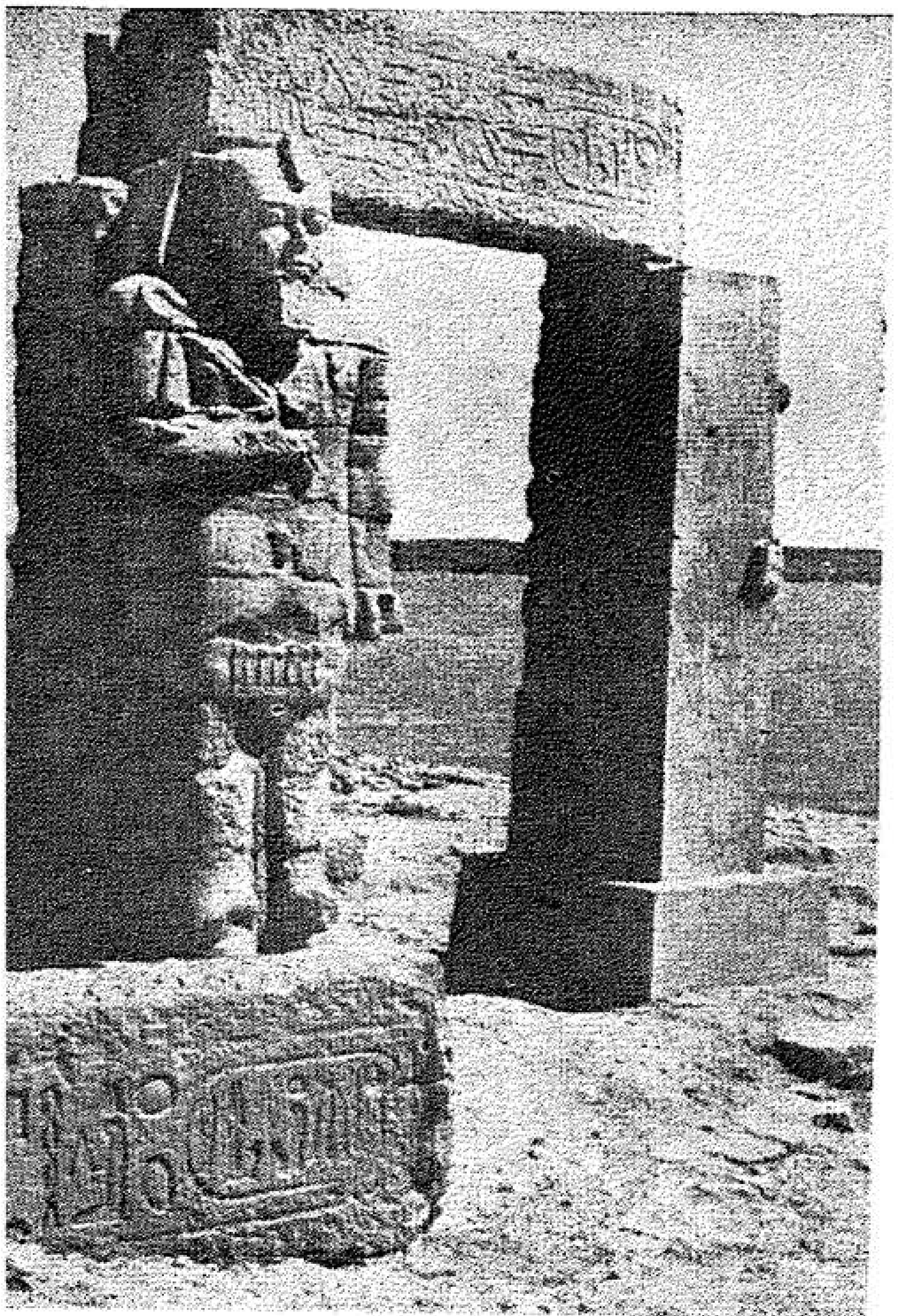

أحد التماثيل الضخمة للفرعون الأنيق
« رمسيس الثانى » بمعبد جرف حسين

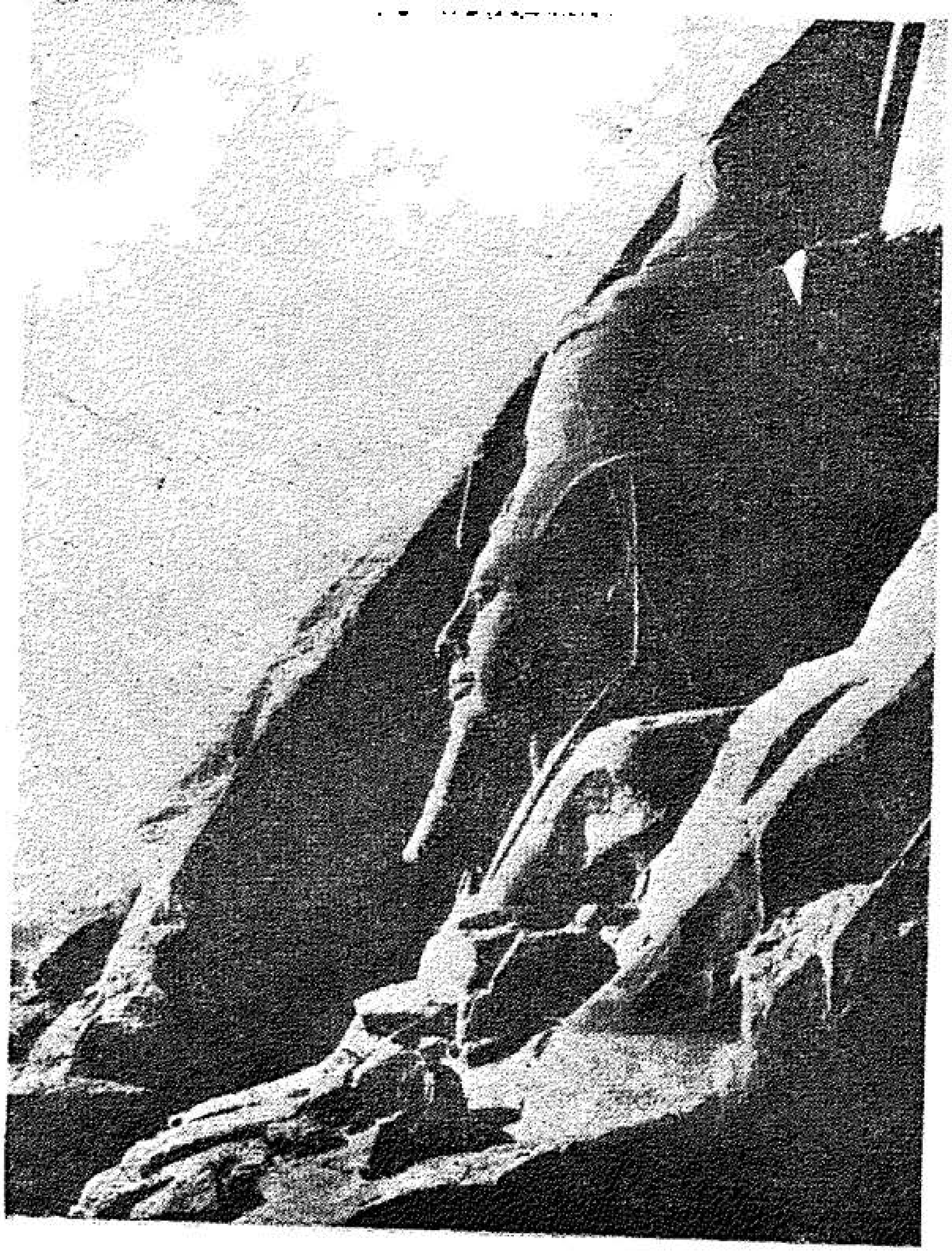

رأس ضخم لرمسيس الثانى
فى واجهة معبده بأبى سنبل

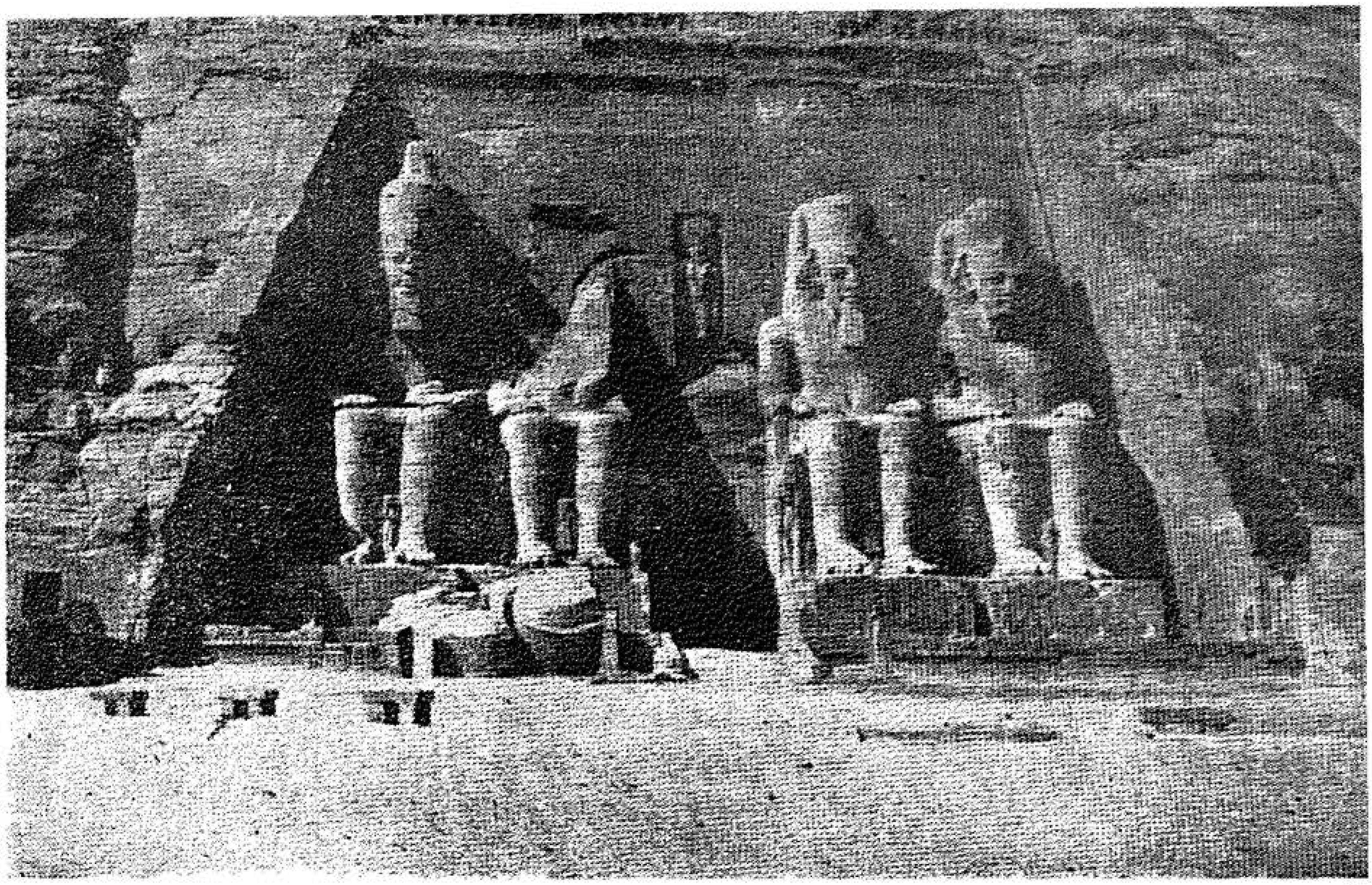

منظران لواجهة معبد رمسيس الثانى الكبير بأبى سنبل . ويبلغ ارتفاع هذا المعبد قرابة مائة قدم ، كما يتوغل فى الهضبة لمسافة مائتى قدم

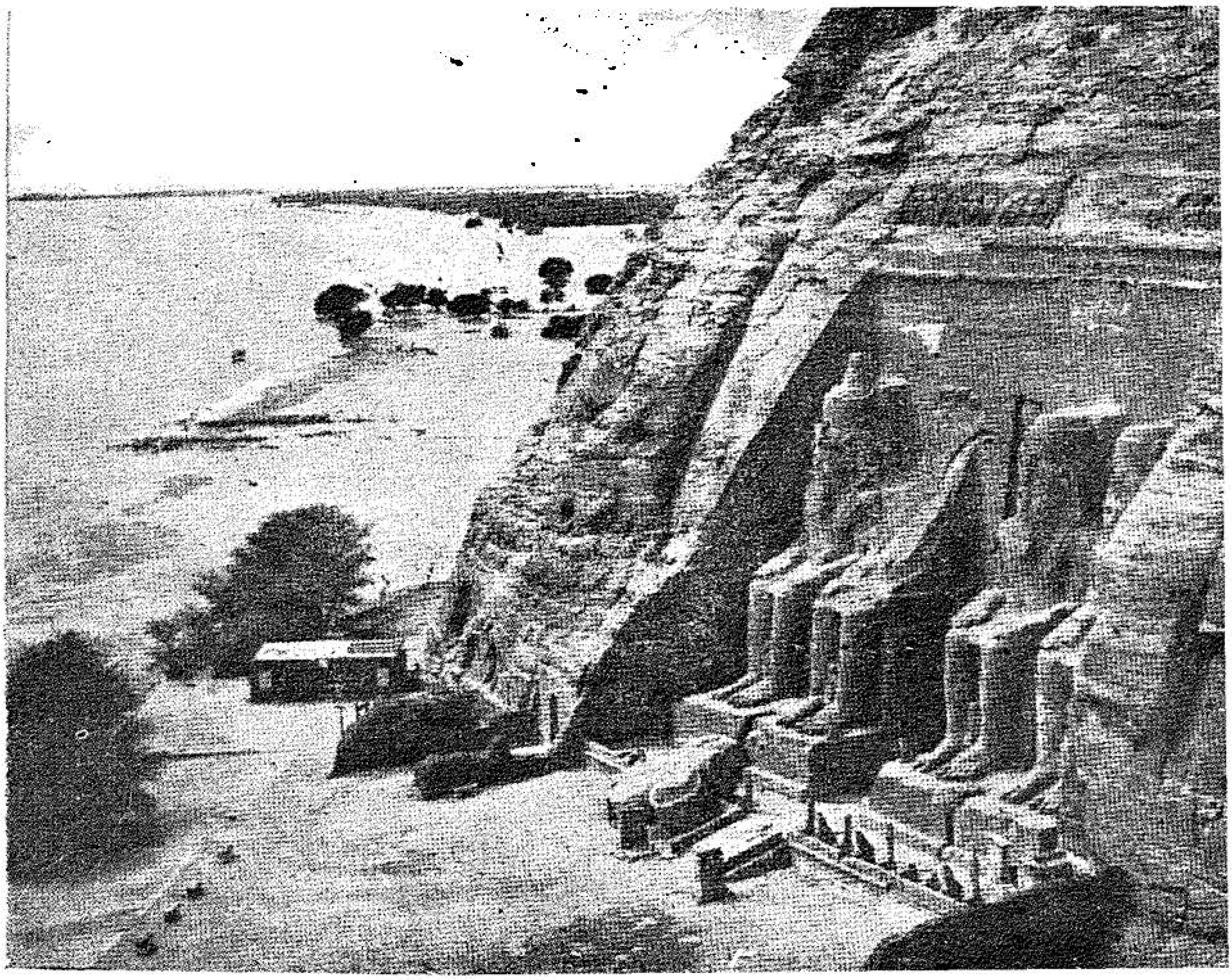

وينهى حديثه بوصف عودته إلى طيبة ، بعد البطولات التى قام بها فى الشمال ، وهى صورة من أجلى الصور التى سجلت فى العصور التاريخية المصرية بشأن رحلة ملكية :

« أبحرت جنوباً تحدونى عزيمة قوية . يا لها من رحلة سعيدة ! ووصلت إلى أسيوط فى موسم الفيضان . وكان البشر يطفح من كل وجه ، والأرض تزخر بأسراب الطيور المائية . وكان شاطئ النهر يانع الخضرة . وكانت إمارة طيبة تلبس لباس الفرح ، ثم خرج النساء والرجال ينظرون إلى وكل امرأة تعانق صاحبتها . ولم تعرف الدموع طريقها إلى وجه واحد . . . فلتسجل كل المكاسب المظفرة التى أحرزها جلالتى على نصب يقام فى طيبة عند الكرنك لكى يظل إلى أبد الآبدين . . . » .

ولقد دس هذا النصب بطريقة مشينة وسط أساس أقيم عليه أحد التماثيل . وعلى كل ، فقد أتيحت له الآن فرصة أفضل للبقاء إلى أبد الآبدين بعد أن أصبح بين يدى علماء الآثار .

ويختلف الباحثون فيما بينهم بشأن التفاصيل الموضحة على النصب ، ولذا فإن النصوص التى اقتبستها مأخوذة من مصادر متعددة كافية بالغرض .

وعلى جزيرة « ساى » فى النيل ، جنوب « سمنة » ، توجد بقايا حصن قديم ضخم بديع المنظر . وحينما مر الأستاذ برستد بهذا المكان عام ١٩٠٧ قال إنه كان معقلا لأحد فرسان بلاد النوبة فى العصور الحديثة ، ولكن « من الواضح أنه يقوم مكان قلعة فرعونية ترجع إلى عصر الدولة الحديثة » .

وقد تكون هذه القلعة من عهد أحمس ، وهو أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، والذى جاء بعد كاموس وطارد الهكسوس آخر الأمر . وقد عثر على تمثال لأحمس فى « ساى » وقد وجدت نقوش تدل على أن أحمس قد وجه عنايته إلى إعادة احتلال بلاد النوبة حينما نفض يده من الهكسوس . ولكن ما من أحد قد قام بالتنقيب فى « ساى » للتحقق من هذا الأمر .

وعلى الرغم من أن « ساى » تقع أعلى النهر بعد الحد الذى يتوقع أن تصل إليه مياه تخزين السد الجديد[1] ، إلا أننى لاحظت أنها مدرجة فى إحدى نشرات الحكومة السودانية على أنها ضمن الأماكن التى سوف تختفى . وربما نخشى أن يلحق الفيضان جزءاً منها . ولسوف يكون أمراً مؤسفاً لو أن «ساى» غمرت بالمياه ، ذلك أن بها مجموعة من الأكمات الكبيرة المنخفضة ، مغطاة بحصى أبيض من الكوارتز ومحاطة بصخور سوداء اللون . ويبدو أنها « كرمة » صغيرة أخرى . ولقد نهبت هذه المقابر فى العصور القديمة ، كما كان الحال مع « كرمة » ، ومع ذلك أمدتنا كرمة بنتائج قيمة ، ويقول « آركل » إن أحد هذه القبور الذى يبلغ عرضه ١٣٠ قدماً ، قد نهب سنة ١٩٢٢ على أيدى شخص يدعى عبد الصمد جاء من الصعيد ، وكون عصابة منظمة لنهب المقابر . أجل ، لسوف يكون من المؤسف أن نفقد « ساى » دون أن نعلم شيئاً عن محتويات هذه القبور ، وعما إذا كان الملك أحمس قد وصل إلى هنالك أثناء زحفه إلى بلاد النوبة .

وعلى كل ، فقد وصل أحمس إلى « بوهن » حيث عثر على جزء من باب يخصه تحت أحد المعابد التى بناها أمنحتب الثانى فيما بعد .

ويقول الأستاذ « امرى » إن قلعة بوهن ظلت « حطاماً ضخماً أتت على بعضه النيران » ، حتى عاد احتلال النوبة إبان عهد الأسرة الثامنة عشرة ، فقد أعيد بناء جدران القلعة التى أقيمت فى عهد الدولة الوسطى و « كونت قلعة قامت حولها مدينة كبيرة حصنت بدورها بواسطة جدار جديد محصن وخندق جاف صمما طبقاً لهندسة عسكرية جديدة ، إذ كانت تتكون من أسوار غير منتظمة ذات أبراج بارزة » . وكان عرض الجدار الرئيسى يبلغ خمس عشرة قدماً وارتفاعه ستاً وثلاثين . وقد وجد إمرى أن الذين قاموا بإعادة بناء القلعة فى الأسرة الثامنة عشرة وضعوا شرفة متسعة رصفت أرضيتها بالآجر ، كما بنوا

---

(١) ولكن بالنظر إلى الخريطة يتبين أنها تقع فى داخل حدود بحيرة الخزان الجديد .

طريقاً غائراً فوق خندق القلعة الأصلى ، لدرجة أن الجزء من القلعة الذى يرجع إلى عهد الدولة الوسطى ، والذى أقيم أسفل هذا البناء ، ظل دون أن يطرأ عليه أى تغيير حتى حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م . وحينما نزع المنقبون جانباً من هذه الشرفة وهذا الطريق ، اكتشفوا أن الأسوار الخارجية للحصن الأصلى والحاجز ذى الفتحات الذى يطل على الجزء المحفور من الخندق فى الصخر فى حالة سليمة تماماً ، كما ذكرنا سابقاً عندما تعرضنا لبوهن فى أيام الدولة الوسطى .

ولا بد أن القلعة التى أعيد تأسيسها ، وطليت واجهتها بالجص ، كانت تؤلف منظراً رائعاً وهى تتألق فى وهج الشمس على مقربة من النيل . ويخبرنا إمرى بأن محيط تحصيناتها العظيمة تمتد الآن إلى أكثر من ميل وهى تحتضن مدينة متسعة تضم معبدين ، ومبانى عامة ، وثكنات للحامية ومحال لتجارة الذهب . وكانت السفن تحمل فى هذا المكان بأموال الجزية ومنتجات الجنوب ولا بد أن هذا المركز كان يسوده مستوى معيشى مرموق ، بل مترف و وهذه هى المدينة التى يقوم الأستاذ « إمرى » وأعضاء بعثته بحفرها قبل أن تلحقها مياه الفيضان .

وفى سنة ١٩٠٧ ركب الأستاذ « برستد » أحد القوارب المحلية ومر جنوباً بالشلالات فرأى عند « تانجور » — وهى تقع جنوب « سمنة » — نقوشاً على صخرة فوق النهر ورد فيها : « السنة الثانية من حكم جلالة الملك تحتمس الأول ، طال بقاؤه . قد مر جلالته جنوب المجرى للقضاء على كوش اللعينة ، بينما كان كاتبه العسكرى أحمس يقوم بإحصاء عدد السفن » .

وقد تأثر برستد بهذه الصورة التى تمثل كاتب الحسابات وهو قابع فوق قمة الصخرة يراجع عدد القطع التى يتكون منها أسطول الملك وهى تسحب سفينة تلو سفينة عبر الشلالات نحو المياه الصالحة للملاحة . وخلال الفترات التى كانت تمر بين عبور السفن ربما كان الكاتب أحمس « يخلد » اسمه فوق الجلمود الضخم القائم عند مرفقه » .

وكان أحمس يراقب السفن التى تتكون منها أكبر قوة وأكثرها توغلا جنوب النهر حتى ذلك الوقت . ويعتقد « برستد » أن الحد الأقصى الذى بلغته حملة تحتمس هى « تومبوس » على مقربة من « كرمة » حيث ترك نقوشاً يفاخر فيها بأنه قد بلغ أماكن لم يسمع عنها الملوك السالفون . لا بأس ولكن سمع أسلافه عن « تومبوس » و « كرمة » بطبيعة الحال ، كما قاموا بزيارة هذه الأماكن ؛ ويفترض « برستد » ، دون أن يقدم أى دليل آخر ، أن ذلك القول كان من قبيل المفاخرة الفرعونية المعتادة ، وأن تحتمس لم يصل إلى أبعد من ذلك . وهناك قلعة مهدمة فى « تومبوس » قد يكون هو الذى قام ببنائها . وعلى كل ، فنحن نعتقد الآن أن تحتمس كان محقاً فى قوله ، وأنه قد بلغ أماكن لم يعرف عنها آباؤه شيئاً . وفى عام ١٩٣٩ شاهد « آركل » نقشاً محفوراً على صخرة من الكوارتز تبعد أميالا عن هذا المكان — على الأقل ٣٥٠ ميلا جنوباً — عند « كرجس » ، وهو نقش شوهد قبل ذلك سنة ١٩٢٦ . وكان عبارة عن نص مما يوضع عند الحدود تركه تحتمس الأول ، ثم ترك مثله تحتمس الثالث . وهذا النص مضافاً إلى قلعة مبنية من اللبن يدلان على أن تحتمس الأول قد توغل إلى أبعد من ذلك أيضاً ؛ إذ لم يعد الآن ثمة شيء يعوق تقدم قواته المجهزة تجهيزاً تاماً ؛ كما يظن البعض أنه توغل إلى « مروى »[1] ، تلك المدينة الغامضة التى تكتنفها الأساطير بالنسبة لأسلافنا حتى عهد قريب . وهذا مما يرجح أن تكون « مروى » قد بدأت مركزاً تجارياً فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ثم أصبحت العاصمة الأسطورية لمملكة « مروى » سنة ٥٠٠ ق . م . وإذا كان هذا هو الحال فعنى ذلك أن مصر كانت على اتصال مباشر بإفريقيه السوداء . ولكن هذا المكان لم تجر فيه حفريات كافية أو لم تنشر عنه معلومات كافية بحيث تمكننا من معرفة الحقائق .

وعند عودته إلى أرض الوطن ، استخدم الملك « تحتمس الأول » القناة

---

(١) تقع مروى على نهر النيل فى الجزء الأوسط من ثنيته الكبرى ، جنوب الشلال الرابع بقليل .

التى شقها « سنوسرت الثالث » عند أسوان منذ أمد طويل . وقد جاء فى أحد النقوش التى وجدت فى جزيرة « سهيل » ما يلى :

« السنة الثالثة ، الشهر الأول من الفصل الثالث ، اليوم الثانى والعشرون ، من حكم صاحب الجلالة الملك تحتمس ، ملك مصر العليا والسفلى ، طال بقاؤه . قد أمر جلالته بحفر هذه القناة بعد أن وجدها قد سدت بالحجارة بحيث لا يمكن لأى سفينة أن تبحر فيها . ثم أبحر فيها شمالا ، وقلبه مفعم بالسرور بعد أن قام بذبح أعدائه — ابن الملك (أى نائبه) « تور » .

ويبدو أن هذه الحملة التى قام بها تحتمس الأول هى آخر الحملات التى قام بها الفراعنة إلى بلاد كوش ، إذ لا توجد أية سجلات تشير إلى قيام حروب تأديبية حقيقية ضد شعوب الجنوب فى الفترة الباقية من التاريخ المصرى . أما الصور التى وجدت فيما بعد والتى تصور الفراعنة وهم يسحقون النوبيين فهى صور رمزية ، صممت لكى تكون بمثابة توازن فنى للنقوش البارزة التى وجدت على الجدران والتى كانت تمثل الفتوحات الآسيوية . وإذا كانت هناك أية حقيقة تكمن وراء مثل هذه الحملات النوبية فإنما هى صد المغيرين القادمين من الصحراء الذين كانوا يناوشون السكان الآمنين على شواطئ النهر ؛ ذلك أن النوبة السفلى أصبحت فى ذلك الوقت ولاية تديرها مصر بصورة قاطعة ؛ أما الأجزاء الأخرى من بلاد كوش والتى تقع جنوباً حتى « كرجوس » على وجه التقريب ، فقد سوى الأمر معها على أن تدفع الجزية بانتظام إلى فرعون مصر . وكان فرعون يعين نواباً ، أطلق عليهم اسم ابن الملك فى كوش ؛ وكانوا مسئولين عن جمع الجزية وتسليمها للخزانة . أما مقر حكمهم فكان فى « معام » وهى « عنيبة » الحالية التى عرفناها قبل ذلك فى معرض الحديث عن مقابر « المجموعة (C) » وقلعة « سنوسرت الأول » المتهدمة . وما زالت هناك آثار كثيرة فى « معام » تنتظر العالم الأثرى ، إذ أنها كانت

---

(١) تقع كرجوس على نهر النيل شمال الجندل الخامس بنحو ٨٠ ميلا عند موقع أبى حمد الحالى

بقعة هامة لعدة قرون ، ولا بد أن بها مدافن عديدة ترجع إلى هذه الحقبة لم تكتشف بعد ، كما أن قصور نواب الملك لم يعثر عليها قط . ومن حسن الحظ أن هذا الموقع تتولاه أيد بارعة ، هي أيدى الدكتور أبو بكر الأستاذ بجامعة القاهرة خلال هذه الأزمة الحاضرة ، وكلنا أمل فى أن نسمع منه أنباء اكتشافات مثيرة للاهتمام .

ولما مات الفاتح العظيم « تحتمس الأول » سنة ١٥٢٠ ق . م ، تمرد أهل كوش ومعهم شعب « المجموعة (C) » الذى كان يقطن النوبة السفلى ؛ ولكن سرعان ما أعاد تحتمس الثانى إلى أذهانهم أن قوة مصر لم تهن بموت فرعون . وكانت هذه هى آخر حملة تأديبية لمدة طويلة ضد السكان المستوطنين هناك . أما عهد الملكة « حتشبسوت » فقد كان عهد تجارة وسلام بالنسبة لبلاد النوبة

وحينما قام « برستد » بزيارة المعبدين اللذين يقعان أقصى الجنوب عند « بوهن » واللذين تم بناؤهما فى ذلك العهد ، عثر على « نقوش تدل على قيام الإحن بين أعضاء الأسرة المالكة فى طيبة » . وقد قطع تمثال الملكة حتشبسوت من الحائط على عمق ست بوصات ، بينما محيت من النقوش كل الدلائل التى تشير إلى الملكة وحل محلها ضمائر المؤنث ونهاياته . ويقول برستد إن اسمى تحتمس الثالث والملكة اللتين نقشا على المدخل يدلان على أن المعبد قد تم تشييده إبان الحكم المشترك بينهما .

وقد تم تسجيل النقوش والصور البارزة التى وجدت على المعبد تسجيلا دقيقاً خلال عامى ١٩٦٠ — ١٩٦١ بمعرفة الدكتور « ريكاردو كامينوس » الأستاذ بجامعة براون برود ايلاند[١] وقد عمل فى « بوهن » بالتعاون مع جمعية الكشف عن الآثار المصرية . وقد أقامت كذلك الملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث معبداً صغيراً فى القلعة المقامة على الحدود عند « قمة » ، أهدياه إلى الإله « خنوم » وإلى « سنوسرت الثالث » الذى رفع إلى مصاف الآلهة . وقد

---

(١) ولاية من ولايات الأمريكية المتحدة .

محى اسم الملكة بطبيعة الحال . وحينما قام برستد بزيارة هذا المكان عام ١٩٠٧ عثر على لوحة بها إحدى صلوات « نبهى » ، نائب الملك تحتمس الثالث . وتعرف الآن أسماء ما لا يقل عن أربعة وعشرين نائباً من نواب الملك ، كما عثر على مقابر عدد منهم فى مصر . وكان هؤلاء النواب يختارون من بين النبلاء المحيطين بالملك ، وتعد المناظر التى تصور تسليم الجزية بواسطة نائب الملك شخصياً إلى أمين الخزانة الملكية من أجمل وأبدع مناظر المقابر فى الفن المصرى بما تضم من أنواع مختلفة من الشعوب ، والملابس ، والعاج ، والأبنوس ، والجلود ، والماشية ، والزراف ، وكلاب الصيد ، والفهود ، العبيد — والأكياس المليئة بالذهب .

وكان هناك ممثل لنائب الملك مسئول عن جمع الجزية من ذلك الجزء من النهر ، « واوات » وممثل آخر يجمع الجزية من منطقة « كوش » ، ومن المرجح أنه كان يقيم فى البقعة الواقعة عند « عمارة غرب » فى نهاية منطقتنا المهددة بالغرق ، فى مواجهة « كوشا » . وقد عثر برستد سنة ١٩٠٨ على بقايا أثرية لمعبد يرجع إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، ويقول إن هذا الموقع « سوف يعوض كثيراً عناء التنقيب فيه » .

ويصعب الاقتراب من هذا الجزء من النهر — إذ أنه ملىء بالشلالات والأماكن الضحلة ، كما أن الأرض على كلا الجانبين وعرة قاحلة . وعلى كل ، فقد قضى « هـ . و . فيرمان » اثنى عشر يوماً فى « عمارة غرب » سنة ١٩٣٧ ، وقد أنبأ بوجود بقايا مدينة كبيرة بها منازل ما زالت بحالة جيدة ، كما أن جدران المعبد بما فيه من نقوش ما زالت قائمة إلى ارتفاع ست أو سبع أقدام . وهناك أيضاً مدافن فسيحة ودلائل على وجود احتلال قبل عهد رمسيس الثانى الذى أقام هذا المعبد . وثار اهتمام فيرمان ، مثل برستد ، فعاد ينبئ جمعية الكشف عن الآثار المصرية بأنه « موقع طيب » لا بد أنه سيعوض عناء التنقيب فيه » ، فأرسلت الجمعية فريقاً لاكتشافه فى الموسم التالى . ولكن الحرب التى شنها هتلر سببت توقف العمل لمدة ثمانية أعوام ، فلم تعد البعثة

إلا فى سنة ١٩٤٧ . وهكذا يمكن استبعاد « عمارة غرب » من قائمتنا التى تضم أسماء المواقع المهددة ، إذ أنها فحصت فحصاً دقيقاً .

هؤلاء النواب المقيمون كانوا من المصريين بلا شك ، وكذلك كان كبار الموظفين الآخرين ، ومع ذلك كان بعض السكان المحليين ممن تمصروا يشغلون مناصب رسمية . أضف إلى ذلك أن الإدارة المحلية كانت فى يد الزعماء المحليين بحيث أصبح لدينا فى عهد الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين نظام لحماية النوبة وإدماجها . وعلى الرغم من ذلك لم تكن النوبة مستعمرة ، ذلك أن المصريين لم يفدوا إليها للإقامة فيها أو لإقصاء السكان الأصليين . وكانت بلاد النوبة لا تزال تعتبر بلداً أجنبياً بالنسبة للموظف أو الجندى ، واستمر الناس يعتبرونها هكذا منذ ذلك الحين . واليوم ما زال المصريون من نسل الفراعنة والذين أصبحوا عرباً مرتبطين بالجزء الشمالى من مجرى النيل ، تماماً كما كان القدماء ، فهم لا يستسيغون الإقامة فى الأجزاء العليا ، أما بالنسبة لأهل الريف فإن الأمر يقتضى حلول كارثة كبرى لكى تحث عائلة على الانتقال بصفة دائمة للاستقرار ولو على بعد بضعة أميال من موطنهم الذى ألفوا الإقامة فيه[1] .

وفى عهد الأسرة الثامنة عشرة كان معظم الموظفين الذين يشغلون مناصب فى بلاد النوبة يعتزلون الخدمة ويموتون فى موطنهم . وإذا مات أحدهم فى النوبة نقل جثمانه إلى أرض الوطن للاحتفال بدفنه الاحتفال اللائق . وكان هذا يعنى الشىء الكثير بالنسبة للمصرى . وهكذا نجد أن المقابر التى بنيت على الطراز المصرى فى بلاد النوبة هى مقابر النوبيين — فى حالات كثيرة ، إن لم يكن فى معظم الأحوال — وقد اتخذوا أسماء وألقاباً مصرية . ولا يوجد سوى عدد قليل جداً من المقابر المزخرفة على طراز طيبة ، ويرجح أن تكون المقبرة الوحيدة من هذا الطراز إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة هى مقبرة أمير

---

(١) تغيرت الأحوال الآن وأقبل الفلاحون على الهجرة إلى أماكن أخرى وخاصة إلى الأراضى المستصلحة حديثاً كمنطقة « أبيس » فى شمال غرب الدلتا وغيرها . (المراجع)

« سيرا » ، « چيحوتى - حتب » في « دبيرة شرق » التي تبعد تسعة أميال شمال وادى حلفا :

دفن هذا الأمير النوبي في مقبرة محفورة في الصخر تبدو مصرية الطابع في زخرفتها لدرجة أن الإنسان ليخال شاغلها من المصريين لو لم يعثر على اسمه وألقابه : وهو يتجه إلى الآلهة المصرية بدعوات مصرية معروفة ، ويهدى مقبرته إلى سيدة الأرضين ، الملكة حتشبسوت . وقد كتب « سيف - زيد ربرج » بعد أن عمل في تسجيل محتويات المقبرة عام ١٩٦٠ يقول : « هذه المقبرة ونقوشها لدليل صادق على أن تمصير الزعماء النوبيين قد تقدم بخطوات واسعة خلال حكم الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث حينما كان « چيحوتى - حتب » يحكم منطقة « دبيرة » ، بحيث أصبح من المستحيل من الآن فصاعداً — بصفة دائمة — أن تميز بين الموظفين المصريين وبين الحكام النوبيين الذين اشتركوا في إدارة هذه المقاطعة المصرية » .

وبدأت معظم القلاع الضخمة التي راقبنا تشييدها في عهد الأسرة الثانية عشرة تفقد أهميتها حينما استتب السلام خلال الأسرات من الثامنة عشرة إلى العشرين . وينبئنا آركل أن مدينة مكشوفة قد بدأت تنمو فيما حول « كوبان » وأصبحت القلعة تستخدم كبيت للمال . وبيت المال هذا كان يحتاج إلى مكان فسيح في ذلك الوقت الذى لم يكن فيه مال أو بنوك ، إذ كانت البضائع نفسها هي التي يتم تخزينها . وقام ملوك هذه الأسرات بتشييد المعابد بدلا من الحصون ، وكان جلها في العراء ، لا يحميها شيء أقوى من الجدران المرتفعة المعتـــادة .

ولقد قيل إن النوبة في عهد الدولة الحديثة كانت مزدحمة بالمعابد ؛ وأن عدد السكان لم يكن يبرر إقامة كل هذه المعابد ، ولكن الفراعنة أقاموها هناك لكي يرهبوا الشعب وتكون بمثابة دليل على تقواهم . وهذا التقدير كثيراً

ما يثنى على قلة عدد المقابر التى عثر عليها من عهد الدولة الحديثة . ولكن ربما كانت النوبة آهلة بالسكان أكثر مما هى الآن ، وأن كثرة المعابد كان لها ما يبررها فى معظم الأحوال ، إذا أعدنا إلى أذهاننا أن الدين والإدارة كانا دائماً مرتبطين ارتباطاً وثيقاً فى النظام المصرى . وقد يعزى النقص فى الشواهد المأخوذة من المقابر إلى أن هناك عدداً منها لم يعثر عليه بعد ، كما يبين « أركل » إما لأنها كانت مرتفعة فوق المستوى المهدد بالغرق بحيث لم تتجشم عمليات المسح الأثرية عناء البحث عنها ، أو لأن الرمل قد أخفاها ، أو لأنها نهبت حتى ضاعت معالمها .

هذه المعابد تعد من بين كنوز بلاد النوبة التى سوف يخسرها العالم خسارة جسيمة إذا غمرتها المياه . وهناك مجموعة كبيرة ، منها تتفاوت من مجرد نماذج صغيرة محفورة فى الصخر إلى معابد ضخمة كمعبد أبى سمبل . وحتى لو قدر لها الخلاص فلن تكون كما هى قط ، بعد أن تنقل بعيدة عن محيطها الطبيعى . ولكنى لا أفكر لحظة فى تثبيط العزائم عن إنقاذها .

وأفضل هذه المعابد ، من الوجهة الفنية ، هو المعبد الذى أمر بزخرفته الملك الرياضى ، أمنحتب الثانى ، فى « عمدا » ، وهى تقع فى منتصف الطريق تقريباً بين أسوان ووادى حلفا . وتطلق مدام « ديروش نوبلكور » أمينة الآثار المصرية فى متحف اللوفر ، على هذا الملك اسم « هرقل المصرى » . ويقص النصب الأثرى عند « عمدا » نبأ بطولات الملك فى سوريا وبلاد النوبة، ومن هنا جاءت شهرته الهرقلية التى تنسب إليه أنه ذبح سبعة ملوك بيديه . وقد علقت جثث ستة منهم فوق حصون طيبة ، ولعل ذلك حثا للشعب على الابتهاج لهذا الحدث . أما الجثة السابعة فقد أرسلت أعلى النهر إلى « نباتا » فى قلب كوش ، وعلقت فى أسوارها الخارجية لكى تحث أهل كوش على حسن السلوك .

وقد وجدت « أمليا ادواردز » أثناء زيارتها التى قامت بها عام ١٨٧٤ أن النقوش البارزة فى معبد « عمدا » غنية بألوانها ، وأنها ترجع إلى عصر

النهضة المصرية حينما بلغ النقش البارز مستوى عالياً لم يبلغه مرة أخرى قط . وأنه يمتاز برشاقة وطلاوة لا تتوافران حتى فى جدران الكرنك المليئة بالقصص » .

وكتب برستد إبان زيارته التى قام بها عام ١٩٠٦ : « هذه الرسوم البارزة البديعة قد نقشت فى رقة وذوق ، ولونت فى إحكام ودقة لا تتوافران إلا فى أروع الأعمال الفنية التى تمت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . ومما يسترعى الانتباه أن هذا المعبد الجميل لم يصادف سوى تقدير ضئيل ، بينما لا يفوقه شىء حتى بين آثار طيبة » . هذا المعبد ، شأن معابد كثيرة غيره ، استخدم فيما بعد ليكون كنيسة مسيحية فغطيت النقوش البارزة بطبقة من الجص ، نقشت فوقها رسوم مسيحية . وحينما قام السائح « نوردن » بزيارة « عمدا » سنة ١٧٣٨ شاهد الجص فوق الجدران وعليه رسم للثالوث المقدس ، وقد تلاشى هذا الرسم قبل أن يقوم برستد بزيارة المعبد ، وكذلك الحال مع الدير الذى يقع على مقربة منه والذى عثر نوردن على بقاياه ، ولكن ليس له أثر فى الوقت الحالى .

وفى عام ١٨١٦ اقترح « ريفو » وهو فنان فاشل كان يتاجر على حساب المصلحة العامة فى مصر فى ذلك الوقت ، أنه ينبغى نزع طبقة الجص لكى تمكن رؤية الحروف الهيروغليفية . وقد لجأ المكتشفون الأوائل ، فى غمرة تصيدهم للآثار المصرية ، إلى تجاهل وتدمير أشياء عديدة نحن على استعداد لبذل الشىء الكثير للحصول عليها الآن .

أما « جو » المهندس المعمارى الفرنسى فقد أبدى إعجابه بالنقوش المسيحية أثناء مروره « بعمدا » بعد ذلك بثلاث سنوات ، ولكنه عبر عن ازدرائه لتلك « الرموز الوثنية » للمصريين . وعلى كل ، حتى إذا حكمنا بمقتضى وصفه فإن الرسوم المسيحية كانت عملا لا يتسم بالرقة وربما لا يستحق أن يحتفظ به من أجل قيمته الفنية . وعلى كل حال، يقول برستد إن الجص قد احتفظ بألوان النقوش المصرية التى استقرت تحته . وينبئنا كذلك كيف

كان السكان المحليون — وقت زيارته — ينزعون من الجدران رؤوس الملوك والآلهة ، والأسماء الملكية الهيروغليفية والنقوش البديعة لكى يبيعوها للسائحين ، وحينما اطلع محافظ المنطقة على الثقوب التى بالجدران ، أجاب الموظف المختص فى أدب بأن الحيوانات المفترسة أحدثت هذه الثقوب وهى تحاول أن تحفر لها مساكن .

وقام برستد باكتشاف الردهة الأولى للمعبد ، التى كانت مغطاة بالقمامة إلى ارتفاع قدمين، لم يكلف أى مكتشف سابق نفسه عناء إزالتها . ولما قام بنزع جزء من الجص الذى لا توجد عليه أية رسوم مسيحية عثر على نقوش تخص « حكانخت » الذى كان نائباً للملك فى عهد رمسيس الثانى ، وعلى نصبين تذكاريين لقائد من المرتزقة كان يقود حاملى السهام من النوبيين ويدعى « إيبوى » ؛ وكذلك على سجل لليوبيـــل الثانى لتحتمس الرابع (وأعتقد أن هذا محل جدال حتى عصرنا هذا) ؛ كما عثر على نقوش قبطية — وهى أشياء لا بأس بها بالنسبة لزيارة قصيرة .

وقد ترك نائب الملك « ميسيوى » ، الذى خدم فى عهد الملك « مرنپتاح » حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م ، ترك خمسة نقوش فى المعبد ، ولكن أسماءه محيت منها جميعاً — وهو مصير كثيراً ما كان يلقاه كل صاحب حياة عملية ممتازة فى مصر القديمة . وقام برستد بتسجيل النقوش الطويلة لمرنپتاح والموجودة فى مدخل الردهة الأولى ، وهى تدل على أن « مرنپتاح » قام بحملة فى فلسطين واجتاح إسرائيل ، كما هو مدون فى لوحته الضخمة التى عثر عليها « فلندرز پترى » سنة ١٨٩٦ فى بقايا المعبد الجنائزى لهذا الملك فى طيبة . وهذه اللوحة تشتمل على أقدم سجل مدون معروف لإسرائيل ، ولهذا يطلق عليها أحياناً « لوحة إسرائيل »[1] .

---

(١) أطلق عليها هذا الاسم لأن اسم إسرائيل ورد بها للمرة الأولى والأخيرة بالنصوص المصرية حين قال فى اللوحة « وأبيدت إسرائيل ولم تبق بها بذرة » ويعتقد بعض المؤرخين أن هذا الفرعون هو فرعون موسى . (المراجع)

وعلى لوحة أخرى فى قدس الأقداس فى « عمدا » ينبئنا الملك أمنحتب الثانى كيف قام بزخرفة معبده الذى أقامه والده تحتمس الثالث من « حجر خالد » . ويقول إن الأبواب صنعت من أفضل أنواع شجر الأرز ، بينما بنيت المداخل من الأحجار « حتى يكتب لاسم والده العظيم البقاء فى هذا المعبد إلى أبد الآبدين » . لقد قاومت هذه الآثار على قدر الإمكان ؛ وكان ممكن أن تقاوم أكثر من ذلك لو أن الزمن وحده هو الذى هاجمها ، ولم يكن معه بنو الإنسان . وليس لديها الآن فرصة فى البقاء إلى أبد الآبدين — ليس على هذه البقعة على الأقل . وقد اقترح البعض نقل هذا المعبد ، ومن ثم توفر « هـ . و . فيرمان » على نقل ودراسة النقوش لكى تقوم جمعية الكشف عن الآثار المصرية بنشرها . وهذا فى حد ذاته مساهمة فعالة فى نشر المعرفة ، سواء نقل المعبد أم لم ينقل .

ولكن الذاكرة تعود بى إلى ما كتبه برستد سنة ١٩٠٦ : « لقد كشف نقل الطبقة من الجص التى وضعت فى العهد المسيحى فى الغرف الخلفية عن بعض الرسوم المصرية البالغة الجمال . وإننا لنتعشم من كل قلوبنا أن يتاح لأحد البارعين فى النقل بالألوان فرصة زيارة هذا المكان حتى يحتفظ بها » .

وقد تم هذا بالفعل ، ذلك أن مركز تسجيل الآثار بالقاهرة قد قام بتسجيل بعض أو كل النقوش البارزة فى « عمدا » للاحتفاظ بها فى سجلاته لكى توضع تحت تصرف العلماء والباحثين . وعلى كل ، فإنى أدرك أن نشر هذه المعلومات ليس من اختصاص المركز ، ولذا لن يراها العالم أجمع [1]. والمحاولة الوحيدة التى تمت لنشر « هذه النقوش البديعة » ذات « الطلاوة والحسن » والتى تضارع روائع الفن فى عهد الأسرة الثامنة عشرة هى التى قامت بها مصلحة الآثار فى القاهرة سنة ١٩١٣ . وقد صرح « هنرى جوتييه » فى مقدمته

---

(١) قام مركز تسجيل الآثار بتسجيل هذا المعبد تسجيلا علمياً شاملا وأخذ فى نشر نصوصه ووصفة الأثرى تدريجياً ، كما شرعت البعثة الموفدة من فرنسا فى إنقاذ هذا المعبد . (المراجع)

لهذا المجلد أن الإيضاح عن طريق الصور لم يكن كاملا ، وأن بعض الظروف العسرة قد تسببت فى خلق بعض الصور الضعيفة . والحقيقة أن هذا أقل من الواقع ، ذلك أن الصور الفوتوغرافية ليست ضعيفة فحسب ، بل هى رديئة للغاية ، وفى أقل من مستوى صور الهواة ، إذ أنها ضعيفة الإضاءة ، مشوهة ، وعليها هالات من النور . أما النسخ الملونة بالألوان المائية للمناظر فهى إعلانات ممسوخة عن هذا الفن الكلاسيكى البديع للأسرة الثامنة عشرة ؛ فهى خالية من المهارة ، ولا تشبه الصور المصرية ، ويبدو أن من قام بها هو صانع ليس له دراية بالفن المصرى ، وليس لديه إحساس بجمال خطوطه الدقيقة . إننى أتمادى فى هذا القول إذ أننى أعتقد أن النشر الردىء أسوأ من عدم النشر على الإطلاق ؛ فهو مدعاة للتضليل ويبخس الموضوع قيمته .

وبالنظر إلى تزايد الاهتمام الحقيقى بالفن القديم فى العشرين سنة الأخيرة ، فإن من المؤسف أن هذا المثل البديع من أمثلة فنون بلاد النوبة لم يقيض له أن ينشر فى ثوب قشيب لكى يتسنى للعالم أن يطيب نفساً به ، وربما لن ينشر الآن قط . ولكى نقصى عن أنفسنا شبح هذه الفكرة القاتمة نورد قول « ويجل » الذى يفيد بأن على سقف معبد عمدا يوجد النقش التالى باللغة اليونانية : « شاهد هيرودوت الذى وفد من « هليكارناسوس »[1] هذا المكان وأعجب به » . ولا شك فى أن « هيرودوت » صديق « سوفوكليس » ، قد قدر قيمة معبد عمدا ، وأعجب به . وقد جاء إلى مصر حوالى عام ٤٥٠ ق.م وأن الإنسان ليستطيع أن يتخيله وهو يحاضر عن جمال ذوق وأسلوب هذه النقوش التى لا بد أنها كانت تستحق الرؤية فى تلك الأيام . وعلى كل ، توجد كتابة أخرى فى أسلوب أحدث تقول : « كلا ، لم يجئ إلى هنا » ، وهو لم يحضر بالطبع ، إذ أنه لم يصل إلى هذا الحد جنوباً قط . ولكن هذه النقوش عبارة عن بعض الهزل كتبه أحد الدارسين ويرجع تاريخه إلى القرن الماضى .

---

(١) مدينة يونانية بآسيا الصغرى .

ويقع جنوب « عمدا » بحوالى عشرين ميلا معبد صخرى صغير بناه تحتمس الثالث ويضم نقوشاً بارزة بديعة من عهد الأسرة الثامنة عشرة[1] وتعرض الجمهورية العربية المتحدة تقديم هذا المعبد مقابل معونة حالية لإنقاذ آثار النوبة . ومن المفروض أن تكون هذه المعونة الأجنبية كبيرة القيمة لكى تكون جديرة بالحصول على معبد مصرى قديم بأكمله ، مهما كان صغيراً — وهناك معابد أخرى أكبر من هذا تخضع لنفس العرض أيضاً — ونوع المعونة المنتظرة فوق طاقة الجامعات والجمعيات ؛ ولهذا يجب أن ترد مباشرة من الحكومات الأجنبية . وتبقى بعد ذلك مشكلة نزع هذا المعبد الصغير من الصخر الذى قد منه ، وهو معبد الليسية .

وقد قام نفس الملك ، تحتمس الثالث ، وابنه أمنحتب الثانى ببناء معبد صغير فى جزيرة « ساى » حيث توجد بعض القبور المقامة على الأكمة والتى لم يتم حفرها بعد ، ولكن لم يبق منها شىء سوى الأساسات فقط ، إذ أنها كانت تستخدم بمثابة محجر فى القرون الوسيطة التى اتسمت بعدم تقدير هذه الفنون .

وقد شغل نواب الملوك بما شغل به ملوكهم من ترك آثار ملموسة تخلد ذكراهم إلى الأبد . ولما كانوا لا يجسرون على إقامة معابد خاصة بهم ، فقد ولعوا بحفر النقوش وإقامة النصب التذكارية الصغيرة . وحينما قام الناشر « جادزبى » سنة ١٨٥٠ بزيارة « ابريم » شاهد « عدة غرف محفورة فى الصخر تعلو عن الأرض بحوالى ثلاثين قدماً » . وللوصول إليها حفرت فى الصخر درجات تشبه درجات السلم تستطيع أن تقبض عليها بأصابع يديك وقدميك . وقد صعد اثنان من بحارة القارب الذى كان يقل جادزبى ، ثم جذباه بعدهما . وأخذ الناشر اللندنى يلقى نظرة على ما حوله ، وهو يلهث ويتأفف — وربما ترتعد فرائصه . وكان حكمه على هذه الأشياء : « لا شىء

(١) يعرف هذا المعبد بمعبد الليسية . وقد قام متحف تورينو بانقاذه واهدى إلى تلك المدينة . (المراجع)

يستحق الرؤية ويعوضنا عن تلك المجازفة » . وهو يعتقد أن هذه الغرف لا بد أن تكون مقابر .

والمسألة كلها تتوقف على وجهة نظر الإنسان والأشياء التي تثير اهتمامه . وقد قام « ليبسيوس » وفريقه بزيارة هذا المكان قبل ذلك ببضع سنوات ونقلوا النقوش الموجودة هناك ؛ وحينما صعد برستد إلى هذه الغرف عام ١٩٠٦ وجد ما يثير اهتمامه على وجه التحقيق ، ذلك أنه عثر على سجل جديد للجزية التي كانت تقدمها بلاد النوبة في عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وتمثل النقوش الملك مستوياً على عرشه في طيبة ، بينما أحضرت الجزية على شكل مواد عينية يحملها الرجال ويقوم بإحصائها المختصون : ذهب ، مواد معدنية ، عاج ، أبنوس ، عطور ، أخشاب معطرة ، نمور ، كلاب صيد ، ثيران وماشية . وكان نائب الملك حينذاك هو « نيهي » الذي حكم في عهد تحتمس الثالث ، وقد أحضر إلى الملك الجزية التي حصلها من الجنوب في السنة الثانية والخمسين من حكم الملك .

هذه الغرف ليست قبوراً في الواقع ، إذ ليس بها مكان يتسع للدفن . وتوجد أضرحه أو مزارات مشابهة لهذه الأضرحة في جبل « السلسلة » في مصر ، وفي موقع بديع يشرف على النهر وكأنها بيوت صيفية شقت في الصخر . ومعظم أصحاب الأضرحة في « السلسلة » لهم قبور في طيبة . وكان من عادة نواب الملك أن يخلدوا على صخرة إبريم ذكرى نجاحهم في جمع الجزية من بلاد النوبة ، وذلك بحفر ضريح خاص بهم . ومن الطبيعي أن نجد ممثلا بين هؤلاء « ستاو » ، نائب الملك رمسيس الثاني الذي تصادف اسمه في جميع أنحاء بلاد النوبة ، إذ كان من أكبر هواة النقوش من بين نواب الملك جميعهم . ويعتقد المؤرخ « بيكي » أن المناظر الموجودة في ضريح « ستاو » هذا إنما هي بمثابة إعلان عن ولائه للملك ، إذ أنها تمثل الكتبة وهم راكعون بين يدي جلالة الملك .

أما الضريح الثالث – ولا يعرف اسم صاحبه – فلا بد أن حفره قد تم أثناء الحكم المشترك للملكة حتشبسوت وتحتمس الثالث ، ذلك أن ما من مرة يظهر فيها اسم الملكة مقروناً باسم تحتمس إلا وقد محى محواً . ويعلق « بيكى » على هذه الظاهرة قائلا إنه مجهود عنيف من أجل غاية ضئيلة جداً . هذا ويوجد ضريح رابع يمثل عليه « أوسر - ساتت » ، ابن ملك كوش ، الذى عاش خلال حكم أمنحتب الثانى ، وهو جالس على العرش وبجواره « ساتت » إلهة الفتين .

وقد شوهت أضرحة « إبريم » ، وانمحى اللون الذى كان يميزها حينما رسمها الفنان « بانكز » Bankes بتكليف من المتحف البريطانى خلال القرن الماضى . ولما كانت هذه الأضرحة قد غمرتها مياه الخزان – حتى قبل إقامة السد العالى – فقد لحق الضرر بهذه النصب التذكارية الخالدة لنواب الملك المساكين . وقد قام بنسخها كاملة « الدكتور كامينوس » عام ١٩٦١ .

وقد بلغ الازدهار والأعمال السلمية ذروتها فى الجنوب ما بين عامى ١٤٧٠ و ١٣٧٠ ق . م فى عهد الملوك التجار ، الذين كان آخرهم أمنحتب الثالث « الفاخر » . وقد أقام معبداً يعرف باسم « المتألق بنور الحق » فى صلب وهو واحد من أعظم بناءين معماريين باقيين فى وادى النيل . أما الآخر فهو معبد فى الأقصر » . وهذا فى الواقع ثناء بالغ (نقلا عن برستد) . ومرة ثانية نجد هنا الخطوط الجميلة والنصب البديعة التى امتازت بها أفضل أعمال الأسرة الثامنة عشرة ، ويوجد على بوابات المعبد سلسلة واسعة من نقوش المعابد هى السلسلة الوحيدة الباقية من عهد ابن هذا الملك ، أمنحتب الرابع ، « الملك الثائر » الذى غير اسمه إلى « أخناتون » ، وأعلن عقيدة التوحيد والمسالمة ، وأعطى لفنانيه حرية تعبير لم يسبق لها مثيل ، وتزوج بأجمل امرأة فى التاريخ هى نفرتيتى . ويعتقد الخياليون أن هذا كله كان من عمل رجل مبدع وملك موهوب ولد قبل عصره بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، إن لم يزد . ويعتقد الواقعيون أنه قد دفع دفعاً إلى هذه الأعمال بواسطة منافسيه من كهنة

الآله آمون . ومهما تكن الحقيقة ، فإن أخناتون المسكين وأعماله لم يدوما طويلا ذلك أن « مدينة الشمس » المثيرة التى أنشأها فى العمارنة فى مصر قد سويت بسطح الأرض عند موته (مما أتاح الفرصة لعلماء الآثار أن يرسموا موقع أساساتها بدقة فى عصرنا الحالى) . ومحيت من على النقوش كل إشارة إلى ذكراه البغيضة ، كما قوضت كل تماثيله فى جميع أنحاء البلاد . وعلى كل ، كانت « صُلْب » بعيدة بعض الشيء عن متناول أيدى شراذم العابثين ، إذ أنها تبعد خمسين ميلا جنوب المنطقة المهددة حالياً[1] ؛ وهو أمر نحمد الله عليه لأن هذه المخلفات النادرة لأخناتون تعد ذات قيمة جليلة ، ولأنها بمنجاة من الغرق وقتاً أطول من غيرها . ولم تتح لمعالم معبد « صلب » أن تنشر على الناس بالوسائل الحديثة . ولا بد أن يتم هذا فى وقت قريب ، إذ أن الرياح تعصف بهذه الأعمال البديعة فتتآكل عاماً بعد عام ، وهى رياح عاتية فى بلاد النوبة . وقد ظل قارب برستد ، بينما كان متجهاً إلى أسفل المجرى (من الجنوب إلى الشمال) ، ساكناً بلا حراك مدة أحد عشر يوماً وليلة بفعل الرياح الشمالية العاصفة قبل أن يستطيع الوصول إلى « صُلْب » ، وكان الجو بارداً زمهريراً .

وفى « سادنجا » ، على مقربة من هذا المكان ، يوجد العمود الوحيد الباقى من معبد أمنحتب الثالث ، وهو المعبد الذى ألهت فيه زوجته ، الملكة « تى » إبان حياتها . وهذا الملك هو الذى ابتدع فكرة رفع الملوك إلى مصاف الآلهة أثناء حياتهم ، وفى معبده بصُلْب نستطيع أن نراه ممثلا على شكل ملك يحتضن نفسه بصفته إله .

وفى « سسبى » جنوب صلب ، توجد ثلاثة أعمدة ، هى بقايا معبد بناه أخناتون ، ويقول برستد إن هذا هو « معبد الشمس الوحيد الذى ما زال باقياً من عهد هذا الرجل العظيم » . ثم يضيف قائلا إن هذا المعبد قد تحول إلى محجر بعد المسيحية ، « وهكذا انكمش المعبد الوحيد الباقى لأخناتون إلى ثلاثة أعمدة

---

(١) تقع صلب شمال الطرف الجنوبى لبحيرة السد العالى بنحو سبعين ميلا ، ولهذا فلن تغرقها البحيرة إلا بعد عدة سنوات من بدء التخزين خلف السد العالى .

فقط . . . وهى كل ما نملك لكى يعطينا فكرة عن أصل هذا المكان الفريد . ولاريب أن هناك أسراراً مدفونة فى هذه المنطقة النائية ، عن أول من ابتدع عقيدة التوحيد فى العالم ، ولا ريب أن هذه الأسرار تنتظر معول المنقبين الذين سيأتون فى المستقبل » .

وقد كان « فيرمان » من أولئك المنقبين فى عام ١٩٣٧ . وقد أثبتت الحفريات التى أجرتها جمعية الكشف عن الآثار المصرية تحت إشراف « فيرمان » صحة الرأى العابر الذى أبداه برستد سنة ١٩٠٧ بأن أخناتون هو الذى أسس مدينة « سيسبى » ، ثم اغتصبها سيتى الأول ، أحد ملوك الأسرة التالية ، ونقش اسمه على آثارها . وقد قام « فيرمان » بحفر وإخراج بعض ما أودع فى الأساس بحالة سليمة فى كل من المعبد والمدينة . وهذه عبارة عن أشياء توضع فى أساس البناء عن قصد بنفس الطريقة التى يضع بها محافظ المدينة فى أيامنا حجر الأساس .

وهذا ولم ترسخ جذور عقيدة آتون التى نادى بها أخناتون فى بلاد النوبة قط — فقد عاشت زمناً وجيزاً — وظل آمون هو الآله الأكبر لألف سنة أخرى .

— ٧ —

فى الوقت الذى كان الفراعنة يقيمون فيه هذه المعابد بذلك الإبداع من الإحساس الفنى الذى ما زال يبهر أنفاسنا ، كانت « الحضارة المينوية » Minoan Culture فى كريت قد ازدهرت ثم قضى عليها الغزاة . وبالمثل فى الصين البعيدة كان الصراع على أشده مع شعب « الهون » الهمجى . وأقرب من ذلك ، كانت حضارة « الموهنجو - دارو » التى بلغت شأواً بعيداً قد استقرت فى الهند منذ أن نقش الملك « چر » قصيدته التى يفتخر فيها على جبل الشيخ سليمان ، ثم أخذت هذه الحضارة تتبلور فى نظام الطبقات الذى ما زال يسيطر على الهند حتى يومنا هذا ؛ وكان العلاميون قد اجتاحوا بابل ؛ أما إنجلترا فكانت أرضاً رعوية ، وكان المزارعون يحصدون زراعتها الضئيلة بمناجل من الصوان، وعصرها البرونزى ما زال مقصوراً على خناجر أجنبية مستقرة فى أحزمة زعماء القبائل .

وكان السلام سائداً فى منطقتنا النوبية . وكما ذكرنا آنفاً ، كانت صور الفراعنة وهم يطأون النوبيين بأقدامهم فى هذه الفترة مجرد تدريب للفنانين وتملق لفرعون . حتى توت عنخ آمون الشاب . وقد وجدت مثل هذه الصورة على الصندوق المزخرف الذى أخذ من مقبرته ، وهو لم يقم قط بحملة على هذه المنطقة على وجه التحقيق .

ومن بين آخر آثار الأسرة الثامنة عشرة معبد صغير صخرى ينسب إلى « حور محب » عند جبل « عودة » فى الجنوب ، فى مواجهة أبى سمبل . ويستند السقف على أربعة أعمدة تنتهى برأس على هيئة برعم زهرة البردى ،

وتوجد غرفتان جانبيتان ، كما يوجد نفق يؤدى إلى السرداب ، وكلها محفورة من صخر صلد . وقد عثر برستد على نقوش بارزة « تناظر أروع ما أنتجته الأسرة الثامنة عشرة ، ولكنها نزعت وغطيت بالجص بواسطة المسيحين الأوائل ، الذين رسموا القديس چورج وهو معتل ظهر التنين » ويلوح أن هذا العمل أغضب برستد الذى كتب يقول : « يطل تمثال المسيح من السقف بين رسوم زخرفية بيزنطية بلا ذوق أو تنسيق ، وقد رأى «بيكى» فيما بعد ، فى هذه الرسوم ألواناً جذابة فى حالة جيدة عما فيها « القديس الذى يعتلى ظهر الحصان » والذى يعلو رأسه تاج مرصع بالياقوت ويرتدى ملابس فاخرة . ويأسف « ويجل » لهؤلاء القدماء الذين انتزعوا الجبس ، ويرى أن الرسوم الباقية « مثيرة للاهتمام للغاية » . وحينما كان « لاپورت » يسير بقاربه على مقربة من المكان استطاع أن يهبط من زورقه حيث اضطر الآخرون إلى التسلق . وهو يعلق بقوله إن بقايا الرسوم ما زالت تحتفظ « بمظهر جميل » ، ولكنه يضيف قائلا إن الناس الذين يشرعون فى فرض عقيدة عن طريق الهدم والتخريب لا يتركون قط نظيراً لما قوضوه . أجل ، إن النقوش الوثنية التى خلفها نحاتو « حور محب » هى فن يفضل الفن الآخر .

وعلى مقربة من هذا المعبد يوجد محراب تذكارى لنائب الملك « پاسر » الذى خدم تحت إمرة « حور محب » و « آى » من قبله ، وهنا خلع على « پاسر » لقب « حاكم بلاد الذهب التابعة لآمون » مما يدل على أن « حور محب » قد أعاد لشريعة آمون الثروة الطائلة التى كان قد سلبها إياها عهد أخناتون ، القائم على التوحيد .

وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة كان رمسيس الثانى هو الذى طغى بآثاره على بلاد النوبة ، عملاقاً كدأبه ، ووصل بفن بناء المعابد الفرعونية القديمة ، التى تمتد من أسوان إلى « كوش » إلى مداه ، بإقامته معبد أبى سمبل . ولقد أقيمت معابد أخرى خلال الألف وخمسمائة سنة التالية ، ولكن السحر والفتنة لم تتوافرا فيها كنفى قبل . ولا شك أن بناة المعابد الذين جاءوا فيما بعد كانوا

جد راضين عما وصلوا إليه من تقدم وعما أحرزوه من اتصالات فنية واسعة . بيد أن زخرفتهم الركوكية[1] الزاهية لا يمكن أن تنافس ذلك الإبداع الراقي الذي ينسب للعصور الذهبية للفن المصري .

وحوالي عام ١٨٢٦ وصل الفنان « جوزيف بنومي » — الذي قام برسم الصور التوضيحية الخاصة بكتاب « ويلكنسون » — « أخلاق وعادات المصريين القدماء » — وصل ومعه برميل من الجبس وفريق من المساعدين إلى مواقع مدينة « تلميس » القديمة التي تقع على بعد بضعة أميال جنوب الصخور القائمة عند « بوابة كلابشه » . وربما كان ممولة « روبرت هي » ، وهو أحد الأثرياء من هواة جمع الآثار القديمة ، بصحبته في هذه الرحلة . وكانوا قد جاءوا لصنع قوالب للنقوش البارزة الموجودة في المعبد المتواضع الذي بناه رمسيس الثاني في « بيت الوالي » ، وقد أدوا هذه المهمة في براعة بعد أن قاموا برش النقوش بالجبس في إفراط لدرجة أنني عثرت على بعض الجبس وقد تجمد في قطرات أسفل الجدار وبقي هناك لأكثر من قرن وربع . وما زالت الخدوش التي أحدثوها بسكاكينهم باقية هناك كذلك ، تاركة آثارها في النقوش ، حينما قاموا بتقطيع الجبس إلى أقسام تمهيداً لإزالته — وهي نقوش يعتبرها « برستد » أفضل كثيراً من غيرها من النقوش حتى تلك الموجودة بأبي سمبل ، والتي تعالج نفس الموضوعات على نطاق واسع . وينبغي علينا أن نتغاضى عن الإهمال الذي بدا من « بنومي » وفريقه ، حيث إنهم أدوا مهمة تسجيلية جليلة ، وحيث إنه لم يكن هناك من يحمي هذه الآثار في ذلك الوقت ، بل على العكس ، كان « بنومي » و « هي » يعلمان أن الأتراك كانوا يضعون أحياناً برميلا صغيراً من البارود في أي معبد من المعابد ثم يفجرون المكان إذا أرادوا يوماً أن يحصلوا على حجارة بطريقة يسيرة . وقد لحق هذا المصير معبد « الفنتين » ، وكان من الممكن أن يتلاشى معبد « فيلة » بنفس الطريقة لو لم

(١) الركوك ضرب من الزخرفة وهي تقابل كلمة Rcoco بالانجليزية .

يكن فى مكان منعزل . ولذا أحياناً ما أقول فى نفسى إننا سعداء الحظ إذ ما زالت كل هذه الآثار باقية فى مصر .

ومهما يكن من أمر ، فإن تلك القوالب التى صبها « بنومى » ما زالت معروضة فى المتحف البريطانى . وقد أعيد ترميم الشقوق التى حدثت فى القوالب الأصلية ، ثم طليت بنفس الألوان الأصلية نقلا عن بعض المذكرات التى أخذت فى ذلك الوقت ؛ ولذا فهى تبدو تماماً كما بدت يوم أن تم تنفيذها — وخاصة الآن إذ أعيد طلاؤها منذ زمن وجيز ، بتكليف من المتحف ، بمعرفة « دوجلاس تشامپيون » الذى قضى حوالى عشرة مواسم فى مصر وهو ينقل عن الأصل .

أما الألوان التى كانت باقية على النقوش وقت زيارة بنومى فقد ذهبت جميعها مع الجبس ، ولذا لم يبق لنا إلا الصخور المجردة من الزخرفة والتنميق — وقد تكون هذه الميزة لا تتوفر إلا فى النحت البارز الذى يعد من الدرجة الأولى ، حيث لا تبقى عليه أى رقعة من اللون تصرف النظر عن رشاقة الخطوط . وهكذا لم يبق سوى عدد قليل من التماثيل والنقوش القديمة محتفظة بألوانها لدرجة أننا نود أن ننسى أن التمثال أو المعبد لم يكن كاملا بالنسبة للأقدمين قبل أن يتم تلوين جميع أجزائه . وأن اليونانيين والمصريين لتنتابهم الدهشة لو قدر لهم أن يرونا ونحن نتأمل أعمالهم فى إعجاب حقيقى بعد أن محى منها اللون فصارت صخوراً عارية .

هذا المعبد الصغير الذى أقامه رمسيس الثانى فى « بيت الوالى » هو المكان الذى تركنا فيه سفينتنا المباركة « ممنون » راسية ، حاملة على ظهرها البعثة المشتركة من المعهد السويسرى بالقاهرة ومعهد الدراسات الشرقية بشيكاغو . ولم يكد سلم المركب يهبط لكى يسد الفجوة الموصلة للشاطئ حتى تحركت البعثة صفاً واحداً على طول الشاطئ الحجرى لكى يلقى أفرادها نظرة على هذا المعبد . وهو محفور كلية فى الحجر الرملى للتل . وإذا ما اجتزت بوابة ضيقة من الحجر وصلت إلى فناء صغير كفناء ملعب للتنس . ربما كان صالة

مسقوفة فيما مضى. وترى النقوش – التى توجد صورة منها فى المتحف البريطانى – على جدرانها فى كل من الجانبين : على اليمين حملات رمسيس الثانى فى الشمال التى قد تمثل حملات حقيقية ؛ وعلى اليسار « حملة نوبية » يتمثل فيها حشد مختلط من أهل « كوش » التعساء وقد وطئتهم سنابك الخيل المتحفزة التى تقود عربة الملك . ولا بد أنها كانت مهمة ممتعة بالنسبة للفنان الذى قطع أشواطاً طويلة فى رسم المناظر التى يباركها الملوك ، على الرغم من أنها بلا شك رسوم تقليدية فى موضوع معهود ، ذلك أنه يصحبنا إلى قلب بلاد كوش فيقدم لنا منظر امرأة منهمكة بين أوانى الطهو تحت شجرة يعلوها أحد القرود . ويهرع صبى نحوها ، من المرجح أنه جاء ليخبرها بأن تترك طعام العشاء وتخلى المكان فى هدوء ، إذ أن « الملك » ، الثور القوى قادم فى هذا الاتجاه،ومن خلف الملك يتمثل رجل مجروح يعاونه زملاؤه على السير . وفى النهاية الأخرى من النقوش يحضر الرجال الجزية التى تشتمل على ماشية ذات قرون طويلة ، وبعض الفهود والزراف ، والقردة .

وفى هذه اللحظة دخل المعبد شيخ تبدو عليه أمارات الحيوية . له شارب أبيض ، وأخذ يسمى لنا كل الحيوانات المتمثلة فى النقوش كما لو كان يتوقع أننا لم نسمع عنها قط . وروى لنا أنه قد شاهدها جميعاً خلال رحلات الصيد التى قام بها إلى السودان مع ضباط الجيش البريطانى . واختتم حديثه بفصل تمثيلى بديع ، يحتوى على تمثيل صامت ومؤثرات صوتية ، وهو يقلد أحد الضباط وقد أسرع إلى تسلق شجرة هرباً من ثور هائج . وكان هذا الشيخ العجوز هو والد حارس المعبد الذى كان شاباً قوى البنية ذا أسنان بيضاء لامعة ويحمل بندقية كبيرة خطرة . وكان الوالد قد كسب عيشه خارج البلاد – شأن معظم الرجال النوبيين – وعاد لكى يقضى أمسيات حياته الباقية فى قريته . ولما سألناه عما سوف يفعله أهل القرية حينما ينتهى بناء السد العالى ، ضحك مغتبطاً وقال : « لقد تحدثوا كثيراً عن ذلك ، ولكن ما من شىء يحدث بالفعل . سوف نرى حين يجىء الأوان » .

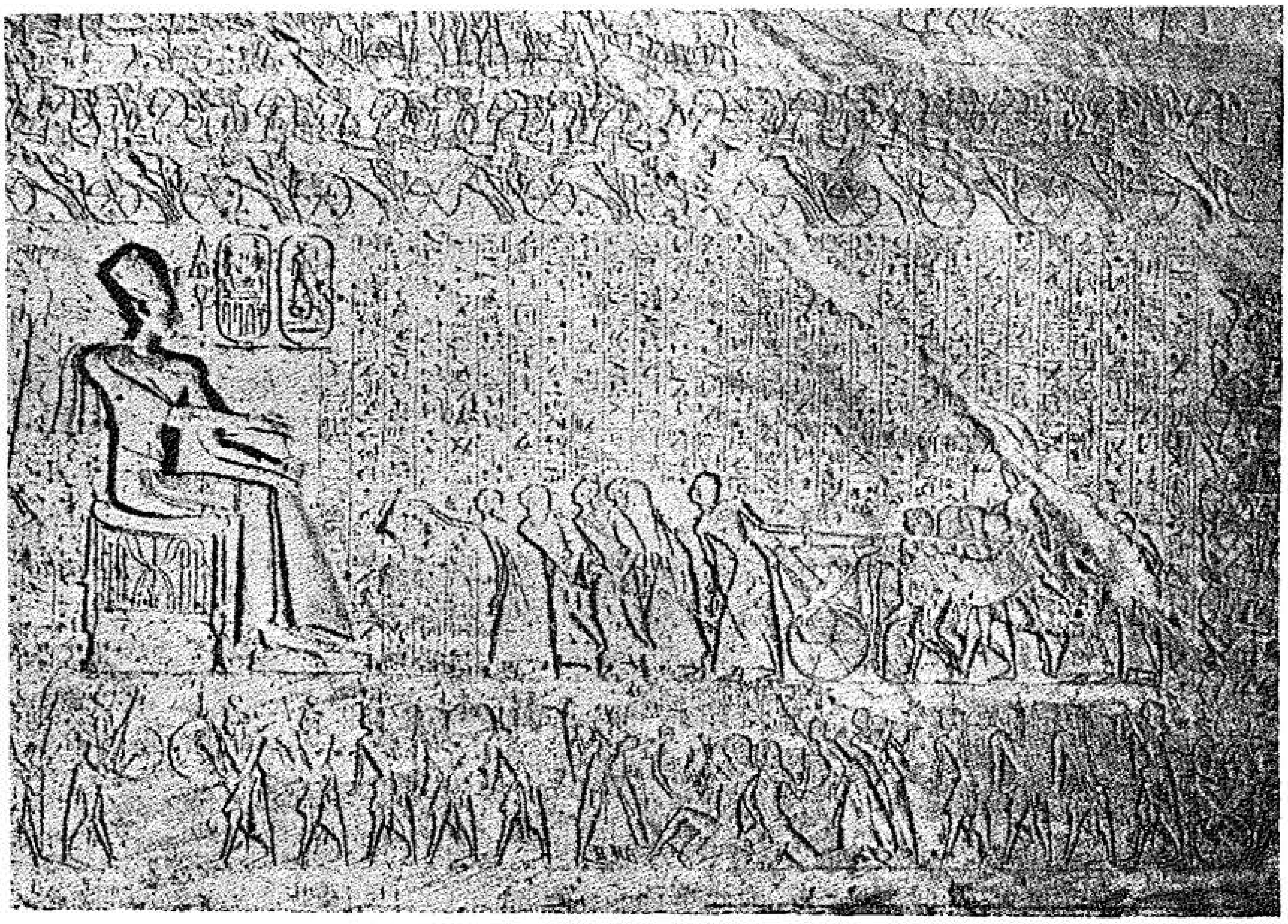

جانب من النقش الكبير لمعركة قادش فى معبد أبو سنبل . ونرى رمسيس الثانى يستعد لخوض المعركة ، إذ أن مركبته فى انتظاره . ونرى أسفل الصورة جاسوسين يضربان

أسد رمسيس الثانى الأليف يرقد تحت قدميه ، فى نقش منحوت بمعبد بيت الوالى . واسم هذا الأسد « الذى يلتهم أعداءه » ، مع أن نظرته هادئة

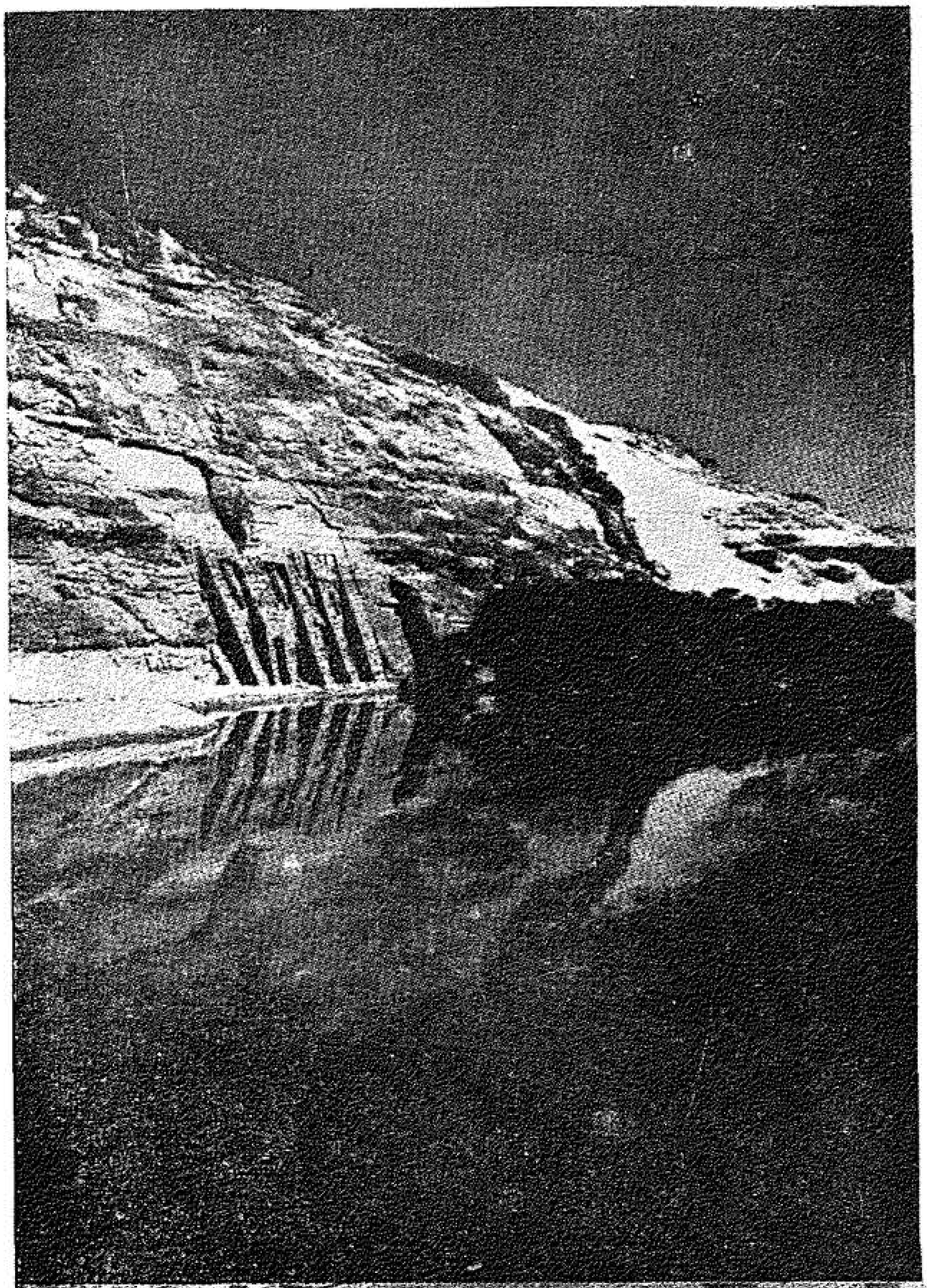

منظران لمعبد الملكة نفرتارى
فى أبى سنبل

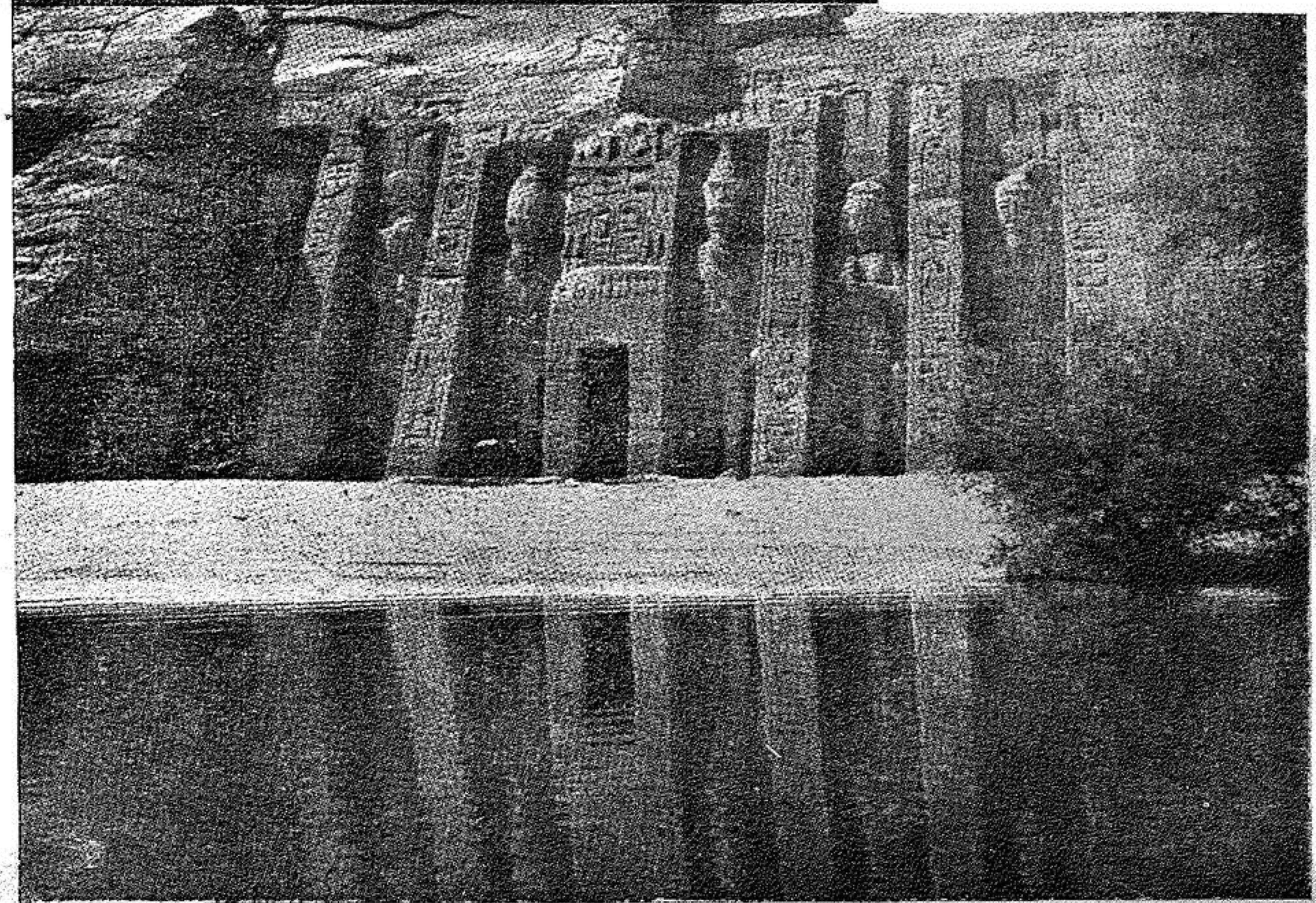

أعمدة بيت « بتح آمون » كاتب مقبرة « آلاف السنين » التى لا تزال قائمة فى تخوم معبد مدينة « هابو » فى طيبة (الأقصر)

جانب من خطاب كتب بالنوبة منذ ثلاثة آلاف سنة من الكاتب المشتاق لوطنه « تحتمس » إلى ابنه « بتح آمون » فى العاصمة طيبة

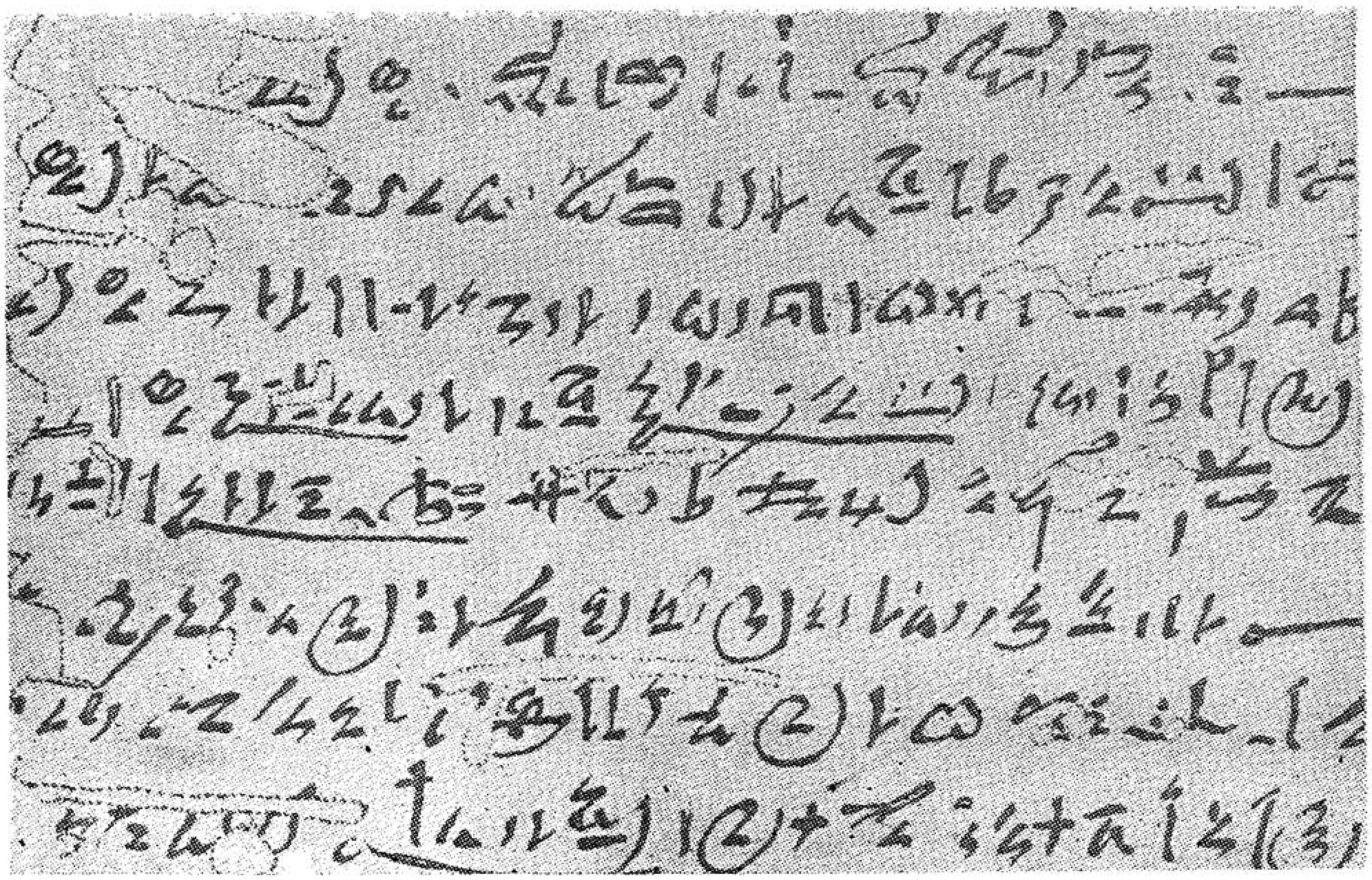

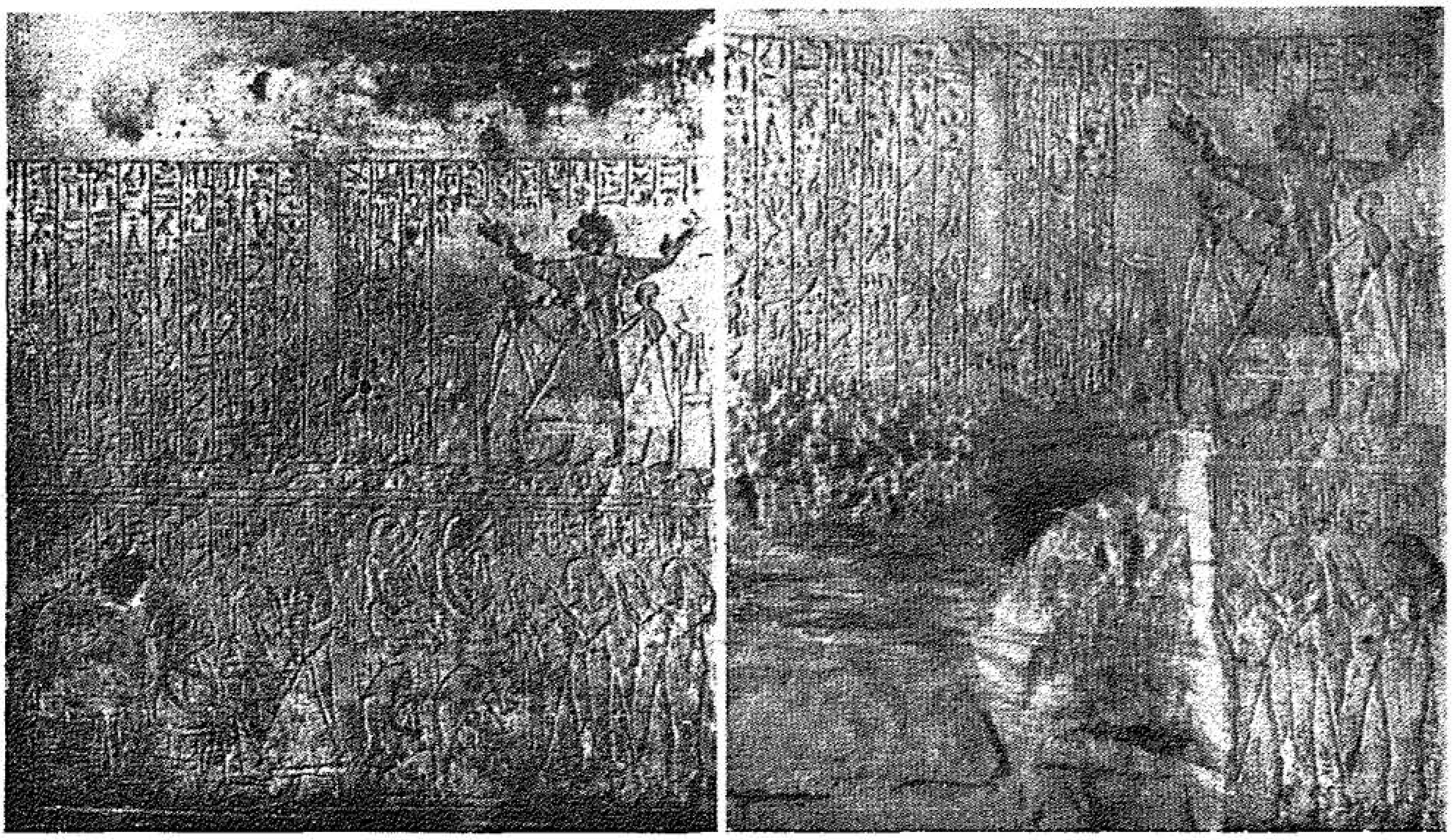

صورتان من مقبرة « بنوت » بالقرب من عنيبة ، حيث نشاهد « بنوت » يرفع إلى أعلى وعائين للدهون مصنوعان من الفضة ، هبة من الملك . ويمكن مقارنة الصورة إلى اليسار التي التقطها « برستد » من خمسين عاماً بالصورة الحديثة إلى اليمين التي تبين مدى التدمير الذي قام به اللصوص في محاولتهم قطع صور الأشخاص لبيعها لتجار الآثار

جانب من رسالة من رمسيس الحادي عشر إلى نائبه في كوش « پانحسي » يطلب منه معاقبة خادم كـول . وهذه نسخة حديثة ترينا جمال الخط الهيراطيقي

ويبدو أن هذا الموقف الذى يتسم بعدم المبالاة يسود هنالك . وقد نقلت القرى مرتين خلال خمسين عاماً . فماذا يهم إذا نقلنا مرة أخرى ؟ ثم ، وهناك التعويضات دائماً . وصادفنا فى طريقنا رجلا يشكل فى اهتمام بالغ قوالب مقوسة من الطوب اللبن لكى يقيم سقفاً معقوداً على شكل برميل . وحينما سألناه بقولنا : « ولكن ماذا تفعل حين يرتفع النهر » ، أجاب باقتضاب : « أقوم ببناء آخر أعلى منه » . أما الشىء الذى ليس فى مقدور هؤلاء الناس أن يتصوروه ببساطة هو أنه لن يكون ثمة مكان أعلى هذه المرة .

وفى نهاية الفناء الأمامى للمعبد الصغير نجد أن التل محفور على شكل واجهة تخترقها ثلاثة مداخل أو أبواب تؤدى جميعها إلى الردهة المستعرضة المحفورة فى الصخر والتى تقوم على دعامتين هما عبارة عن عمودين محززين . ووراء ذلك يوجد قدس الأقداس ، وبه كوة يجلس فيها ثالوث من الآلهة وقد تحطم الآن . ومستوى النحت فى هذه الغرف لا يبلغ درجة عالية ، إذ يحس الإنسان أن المقاولين الذين عهد إليهم بالعمل كانوا مسرعين حينما وصلوا إلى هذه المرحلة ، ومن ثم أسندوا المهمة إلى « أناس من الدرجة الثانية » . أما فى الفناء الخارجى فلا شك أنهم جلبوا خيرة الرجال خصيصاً من طيبة . أما فى الداخل ، فقد حفرت الغرف فى شىء من الإهمال ، فهى ليست مربعة الشكل كما ينبغى ، كما أن السقف منحدر . وكانت الجدران مغطاة بطبقة سميكة من الجبس لكى تستر عيوب البناء ، كما أن نسبة كبيرة من النحت لا تتعمق كثيراً عن مستوى الجبس نفسه — ومجرد لمسة واحدة تهوى بالجبس وتترك حجراً لا نقش عليه . وهذا يجعل من العسير تخليص المعبد من التل ونقله إلى مكان بعيد ، وتجرى الآن بضع محاولات فى هذا الشأن . وعلى الرغم من أننى أنتقد هذا النحت الداخلى ، إلا أننى لا أدينه أو أستهجنه ، ولكن الأمر ينحصر ببساطة فى أنه يوجد فرق شاسع بينه وبين النقوش الجميلة فى الخارج .

وهناك لوحة رائعة فى قدس الأقداس تمثل الملك والآلهة أنوكيس ؛

ينبغي أن تنقذ بأى ثمن . وما زالت معظم الألوان سليمة . وتقول أمليا ادواردز أنه أثناء زيارتها لهذا المكان كانت جميع الألوان فى هذه الغرف محتفظة برونقها ؛ ولكن رواءها قد ذهب الآن ، ربما نتيجة لمحاولة عنيفة أجريت عن حسن نية لتنظيف الجدران منذ وقت مضى . وعلى كل فقد قام « لبسيوس » سنة ١٨٤٤ بتسجيل بعض النقوش الجديرة بالاهتمام ، لم يعد فى الإمكان الآن حل رموزها . وأن هشاشة وضعف هذه النقوش تعد من بين الدواعى التى تدفعنا إلى تسجيل المعبد قبل محاولة نقله . وقد تساءل بعض الناس عن السبب الذى دعانا إلى تسجيل « بيت الوالى » بغرض نشره حيث أن الأستاذ « جونتر رويدر » قد قام بتسجيله كله . ثم نشره عام ١٩٣٨ .

والواقع أن ثمة درجات من النشر بالنسبة للآثار المصرية ، وأن أنفع النشر بالنسبة للعلماء والباحثين هو الذى يقدم صورة طبق الأصل مع إبراز التفاصيل بدقة . وغالباً ما يعتمد تفسير الباحثين على التفاوت البسيط فى أسلوب وشكل الرموز الهيروغليفية . وحينما يصاب أحد النصوص بالتلف فإن أقل أثر باق قد يوصل العلماء إلى حل معانيه . وفى حالة عدم وجود الأثر نفسه ، ينبغى أن يكون فى مقدور العالم الأثرى أن يقلب فى وثائق يمكن الاعتماد عليها بحيث تكون هذه الاختلافات الضئيلة فى الأسلوب وفى أقل الآثار الباقية أثراً قد سجلت بواسطة نساخين متمرنين وروجعت مراجعة دقيقة بواسطة بعض علماء الآثار المصرية . ولذا فإن الصور الفوتوغرافية ليست دائماً دقيقة بحيث تفى بهذا الغرض ، فهى تبرز الشقوق والظلال أحياناً إلى درجة التضليل أو التعمية . أما فى المناظر ذات النقوش البارزة فمن المستحيل فى بعض الأحيان ولنفس الأسباب أن نتابع استمرار الخطوط فى الصورة الفوتوغرافية . ولذا تيسر عملية رسم الخطوط بدقة على الباحث أن يتتبعها فى صفحات كتاب من الكتب . والطريقة المثلى هى أن يتم نشر الصورة الفوتوغرافية والرسم الخطى لكل منظر من المناظر ، وهى الطريقة التى غالباً ما نستخدمها .

وكان ما نشره « رويدر » يعتمد بالضرورة على التصوير الفوتوغرافى فيما

يختص بالمناظر العامة ، وعلى الطباعة فيما يختص بالنصوص . أما الصور الفوتوغرافية التى التقطت منذ خمسين عاماً فهى رائعة حقاً ، وتثير إعجابنا فى يومنا هذا . ولكن المقياس الذى نشرت به يثير السخط عند دراستها بالتفصيل . أما النصوص الهيروغليفية التى نقلها « رويدر » من الجدران ، فقد طبعت بحروف الطباعة الهيروغليفية ، ولم ترسم طبق الأصل أو حتى تصور على حدة . ولكن حروف الطباعة الهيروغليفية تتجه اتجاهاً واحداً فقط ، ولا يمكن أن تقرأ إلا من هذا الاتجاه فحسب ، بينما تتجه النصوص التى على الجدران كلا الاتجاهين حسب تنسيق الفنان لها ، وفى بعض الأحيان تكون مرتبة ترتيباً عمودياً مواجهة لليمين ولليسار بحيث تقرأ من أعلى إلى أسفل ؛ وقد يكون فى هذا بعض المضايقة ، ولكن حينما يكون هناك جزء مشوه على الجدار ، فإن الطباع لا يستطيع أن يوضح هذا إلا بوضع كتلة من الظل مكان الحروف الهيروغليفية المفقودة . وهذا لا يساعد العالم الباحث فى تتبع أية آثار قد تكون باقية على الجدار . أما النشر الذى يعتمد على النقل طبق الأصل فهو يسد هذا النقص . ومن الطبيعى أن تلعب النفقات دوراً كبيراً فى وسيلة النشر ، فمن الواضح أن الطبع من نسخ منقولة باليد أرخص بكثير من اصطحاب المصورين الفوتوغرافيين والفنانين المهرة إلى البقعة المقصودة لفترات طويلة .

وهكذا ، لما كان معهد الدراسات الشرقية من حسن الحظ بحيث وجد فى متناول يده فريقاً متمرساً ومجهزاً تجهيزاً تاماً ، وفى وسعه أن يستخدم الطريقة المثلى فى نشر كنز من كنوز النوبة فى هذه الأزمة الطارئة فقد وجد من الأجدر أن يعيد نسخ « بيت الوالى » مرة أخرى . وإنى لعلى يقين بأن هذا النشر سوف يقنع أى شخص كانت تساوره الشكوك فى قيمته . وينبغى على أن أضيف قولى بأن كتاب « رويدر » بما يتضمنه من تراجم وتعليقات ، كان يحتل لدينا مكاناً لائقاً على نضد داخل المعبد خلال مدة زيارتنا . وكان بمثابة روح هائمة على مقربة منا ، بل كان اسمه يتردد بصفة دائمة على شفاهنا : « ماذا يقول رويدر يا ترى فى هذا الصدد ؟ » — ومن ثم نقوم

بالكشف عن المكان الذى نبغيه بين طيات كتابه، وبهذه الكيفية اشترك « ريلر » فى كثير من المؤتمرات التى كان يعقدها علماؤنا المختصون بالآثار المصرية والذين تمكنوا بهذه الطريقة من أن يحلوا مشكلات كانت من التعقيد بحيث لم يتمكن « رويلر » من حلها بمفرده »

ولذا كانت مفاجأة سارة لنا حينما تلقينا فى اليوم التالى لعودتنا إلى مقرنا فى الأقصر رسالة تفيد بأن الأستاذ « جونتر رويلر » شخصياً فى طريقه إلينا لكى يشاهد الرسوم التى نقلناها من « معبده » ولم نكن ندرى أنه فى مصر . ثم جاء إلى مكتبتنا بعد ظهر ذلك اليوم ، فرأينا رجلا فى الثمانين من عمره ذا لحية بيضاء مدببة ، وشارب ، يتسم بالهدوء ، ولكنه يتسم فى حيوية لا تتناسب مع سنه . وقد أبدى اهتماماً بالغاً بالنقوش التى نقلناها ، كما أننا وجهنا إليه كثيراً من الأسئلة . بيد أنه هز رأسه قائلا : « لقد مر ربع قرن منذ ألفت ذلك الكتاب . كما أننى التقطت الصور الفوتوغرافية ودونت المذكرات الخاصة ببيت الوالى قبل ذلك بإحدى وثلاثين سنة ، فعليكم أن تصفحوا عنى إذا لم تسعفنى الذاكرة » .

وإذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه العوامل ، فإن كتابه يعتبر عملا مدهشاً وكانت مقابلة رائعة — لم نكن نحلم بها — أو قل كحلم يتم فيه اللقاء بينك وبين إحدى شخصياتك المفضلة التى تقرأ عنها فى الروايات الخيالية .

وفى « بيت الوالى » ، بدأنا العمل فى الحال ، بينما أمسك يوسف ورفاقه مجموعة من المرايا الكبيرة لكى تلقى بضوء الشمس داخل خبايا المعبد المظلمة . واستخدمنا صوراً فوتوغرافية مكبرة لأجزاء الجدران وعلى هذه كنا نتأكد من أن كل أثر يمكن رؤيته لنقش من النقوش قد وضعت فوقه العلامات . ثم نقوم بعد ذلك بتحبير العلامات ، وتبييض الصورة تاركين رسماً خطياً للمنظر أو النقش . ومن ثم نأخذ النسخ الزرقاء لهذه الرسوم إلى الجدران مرة ثانية لكى يقوم بمراجعتها اثنان من علماء الآثار المصرية كل على حدة ،

وتكون النتيجة نسخة طبق الأصل لما تبقى فى المعبد ، نسخة خالية من الأخطاء بقدر ما يسمح ضعف الإنسان وتعرضه للزلل .

وفى هذه الأثناء كان الجانب السويسرى من بعثتنا المشتركة ، وهو مكون بالضرورة من مهندسين معماريين ، يسوى الأرض ويأخذ المقاييس اللازمة ، لكى يقوم بتسجيل الشكل الأصلى للمعبد . وقد سبق أن نشر التسجيل المعمارى « لبيت الوالى » من قبل ، شأن الرسوم البارزة والنقوش . وعلى كل ، لدى من الأسباب ما يدفعنى إلى الاعتقاد بأنه حين يتم الدكتور « ريكا » نشر ما توصل إليه من نتائج ، سوف نجد فيها إسهاماً مثيراً للغاية بالنسبة لمعلوماتنا عن فن المعمار فى الأسرة التاسعة عشرة .

وقد حول المعبد إلى كنيسة فى أوائل العصر المسيحى ، ولكن يبدو أن الغرف المحفورة فى الصخر لم تستخدم للعبادة . وهناك صليبان قبطيان محفوران بعمق فى أعمدة البوابة الوسطى ، كما أن ثمة ثقوباً فى الأرضية الصخرية للفناء الذى أقام المسيحيون فوقه سقفاً بعقود من البراميل وقباب من الحجارة المبنية باللبن . وعن طريق تبطين مجموعات الثقوب المماثلة فى الأرضية ، وقياس البقايا المتخلفة من الطوب اللبن ، استطاع المهندسون المعماريون أن يستنتجوا شكل الكنيسة والتغيرات التى طرأت عليها فيما بعد . وحين نتذكر أن بيت الوالى كان كنيسة لحوالى سبعمائة سنة ، لا يبدو عجيباً أن بعض التغيرات قد أحدثت فيه .

هذا المعبد يعد مكاناً مريحاً صغيراً يطيب فيه العمل ، بفنائه الذى تدفئه الشمس ، وبقطعة من النهر ذى المياه الزرقاء الضاربة إلى الخضرة ترى من خلال بوابته . ولكن سرعان ما اضطررنا إلى سد هذه الفتحة بقطعة قماش كبيرة سوداء اللون كنا نحملها لأغراض التصوير الفوتوغرافى . وقد حجبت عنا جانباً من تلك الرياح النوبية العاتية التى كانت تزأر طوال اليوم خلال كل شق وتعبث بكل ركن . وكان من بين أعدائنا البرد والرياح الشريرة التى كانت تعبث بلوحات رسمنا . وفى وقت الضحى كان يوسف أو أحد الرجال

يصنع لنا شاياً ثقيلا ، فندفئ أيدينا على الأكواب التي صب فيها الشاى ، ثم نستمتع بالشمس الدافئة . وكان صديقنا ، وهو عصفور صغير ، دائب الحضور كل صباح وقت تناول الشاى ، يثب حول الفناء بحثاً عن فتات الفول السودانى الذى كنا نفتته له ، على الرغم من أنه من أكلة الحبوب . وحينما كنا نستأنف عملنا كان يستقر فوق الجدار وهو يزقزق فى صوت شجى يشنف أسماعنا .

وكان من العسير علينا ، ونحن نحس ببرد الشتاء ، أن يدخل فى روعنا أننا لا نبعد عن مدار السرطان شمالا سوى خمسة أميال فقط . وكان هدير الأمواج فى النهر يلوح كهدير أمواج البحر وهى تتكسر على الشاطئ الصخرى . وحينما آوى إلى السفينة فى المساء كان صوت هذه الأمواج يصل إلى مسامعى وهى تتلاطم أسفل طنف معبد كلابشة المسكين الذى غمرته المياه . وكانت السفينة تهتز كما لو كنا نسير قاصدين مكاناً ما . وكنت أبيت فى القمرة التى تقع فى مؤخرة السفينة ، وكان بها أريكة نصف مستديرة أسفل النوافذ المقوسة . وكانت النجوم صافية كبلورات الصقيع والسماء مليئة بها كما لم أرها من قبل قط . وكانت تبدو من خلال المرقب المزدوج ملايين من النجوم المتناهية فى الصغر بحيث لاحت السماء وكأنها ملفوفة بغلالة رقيقة منها . ثم يطل القمر بازغاً من وراء الشاطئ الصحراوى ، مثل كرة برتقالية اللون قد طبعت عليها الخريطة القمرية ، وحينئذ تتلاشى النجوم . وكانت البيوت قائمة بواجهاتها الطلية فى غمرة نور القمر وكأنها مناظر مصفوفة على المسرح .

وفى الصباح كنت أطل على جانب المحجر ، فإذا هو سوىّ الجانب كأنه قطعة من الجبن قد سويت حروفها ، ومن فوقه تطل المنازل المطلية بلون سكر النبات والأطباق ملصقة بجدرانها ، ثم أطل من النافذة الأخرى فيقع بصرى على لسان صخرى منبسط بارز فى الماء تتخلله شجرتان من أشجار الوطل ؛ ووراء ذلك يقبع التل الصخرى الذى تقوم فوقه أسوار مدينة « تلميس » القديمة ، والذى أصبح الآن كومة من حجارة كبيرة لا حصر لها، لا يمر

منظرها وأنت تجهد ذهنك فى مدى الجهد الذى بذل فى إقامته لحماية الكنائس والأديرة المسيحية ضد غوائل رجال الصحراء المتوحشين . وبدأت أحب هذا المكان ، ذلك أن نزوة طارئة جعلتنى أشعر بأنى محظوظ بتلك الميزة التى أتاحت لى أن أقيم – ولو لمثل هذه الحقبة الوجيزة – حيث كان الناس يكلون ويصلون لأجل معتقداتهم ويناضلون فى سبيلها . نعم ، وكانوا يؤمنون بها لدرجة الفناء من أجلها .

وكنت أخرج للنزهة عند شروق الشمس أو فى ساعة متأخرة من المساء فوق التل ، وراء جدران المدينة المسيحية . وكانت صحراء قاحلة تجمع بين اللونين الأصفر والأسود ، وتتخللها طبقات سطحية من التلال الصخرية ، ومدفن كبير يمتد ميلا أو يزيد من النهر . وكانت أكوام من الحجارة تتناثر فوق جوانب التل ، وكل كومة تغطى حفرة ضحلة أو شق فى الصخر مسقوف بحجارة منبسطة ويضم رفات ميت . وعلى كل ، لم أعثر على مدفن واحد لم يفتح قط ، بل كان كل منها قد عبثت به الأيدى فى مهارة ودهاء تماماً كما تنخر السوسة حبة القمح وتأتى على ما فيها . وتدل ظواهر الأشياء على أن اللصوص قد يستاءون حينما لا يجدون سوى عظام وأوعية قديمة لدرجة أنهم يحطمون الأوعية فوق الصخور المجاورة . وسألت « لبيب حبشى » عن السبب الذى يدفع اللصوص إلى محاولة نهب مئات من هذه المقابر على حين أن فتح عدد منها كان ينبغى أن يقنعهم بأنه ليس ثمة ذهب أو كنوز ، فأجاب لبيب بأنه فى الأيام الخوالى ، أيام البواخر والذهبيات النيلية حينما كان الأغنياء متخمين بالثروة ، والفقراء يئنون من العوز ، وكانت هناك أسواق حاضرة للأوانى والخرز والخواتم التى يعثرون عليها فى مثل تلك المقابر ؛ ثم ذكر لى اسم أحد المرشدين الذى جمع ثروة طائلة حينما كان يصطحب الجماعات لزيارة آثار النوبة . وكان عند كل بلدة ينزل فيها يبتاع الأشياء التى يقوم السكان المحليون بإخراجها ، بأثمان بخسة ، لكى يبيعها فى محله بالأقصر . وكانت هذه وسيلة يسيرة للحصول على المال بالنسبة للسكان المحليين ، حتى لو باعوا الأشياء بثمن بخس .

وقد أيد هذه الرواية رئيس فريق العمال الذى جاء من مصر لكى يقوم بأعمال الحفائر الخاصة بنا قائلا إنه فى الأزمان الغابرة كانت عصابات « القرنة » (وهى قرية[1] تنافس بيت الوالى فى نبش القبور) تفد إلى النوبة لقضاء فترة من الوقت تقوم فيها بالحفر إذا لم تقنع بسلب مدافن طيبة المجاورة . وكان أفراد هذه العصابات يستقرون فى قرية ما ، ويحفرون المقابر فى المنطقة ، ويبيعون القوسفات الذى يحصلون عليه أثناء العملية ، ومن ثم يرحلون ومعهم الأوانى والخرز والتمائم بعد انتهاء الحملة التى لم تكلفهم إلا مبالغ زهيدة ، ودون علم السلطات أو الحصول على إذن منها . فلا عجب إذن ، إذا كانت الحفائر التى تقوم بها بعثتنا تحت إشراف « الدكتور ريكا » تدعو إلى اليأس حيث إننا نقوم بتصفية مدافن عبث بها قبل ذلك أيد خبيرة ، وإن كانت غير أمينة ، ولكن ينبغى علينا أن نؤدى هذا العمل ، إذ أن هذه هى الفرصة الأخيرة للعثور على أية معلومات مما تبقى من الآثار . وكان ثمة ثلاثون ميلا من الأرض علينا أن ننقب فيها ، إذا أدخلنا فى حسابنا كلا من جانبى النهر . ولم تكن النتيجة مشجعة فيما يختص بالأدوات التى عثرنا عليها ، ولكننا حققنا الغرض الرئيسى ، فقد كان فى مقدورنا أن نفيد بأن هذه المنطقة قد استهلكت من الناحية الأثرية ، بحيث يمكن للمياه أن تفيض فوق تلك المنطقة دون أن نسكب الدمع الثخين على ما كان يحتمل ضياعه إلى الأبد . وسوف تكافأ البعثة ، حسب وعد الجمهورية العربية المتحدة بصفة تعويض ببعض أشياء ذات قيمة أثرية كبيرة من مخازن مصلحة الآثار .

وعندما قمنا بالتنقيب عن مبان فى هذه المنطقة يرجع تاريخها إلى العصور الرومانية انفرجت أسارير « الدكتور ريكا » بعض الشىء . وكانت هذه المبانى عند « طافة » و « دارموس » على مقربة من « باب كلابشة » . وكانت المبانى الواقعة فى « طافة » تشكل لغزاً محيراً على الدوام ، وفى اعتقادى أن

(١) تقع غرب الأقصر .

هذه الحفائر سوف تلقى ضوءاً جديداً ومثيراً للاهتمام فيما يتعلق بالغرض الذى أقيمت من أجله .

وفى آخر يوم من أيام شهر فبراير شاهدت طيور اللقلق تحلق من فوق ، وقد أخذت جماعة منها تدور حول المعبد وهى تمط رءوسها وتسحب أرجلها ، وتنشر أجنحتها السمراء والبيضاء استعداداً للتحليق فى الجو . وبخفة ماهرة بدأت تستأنف رحلتها لا تلوى على شىء ، بل اتجهت إلى باب « كلابشة » لكى تعود قافلة إلى أوروبا . وكانت هجرة الطيور مبكرة هذا العام . وقلت فى نفسى إن أسلاف هذه الطيور قد مروا هنا بنفس الطريقة حينما كان رجال رمسيس يحفرون هذا المكان . وماذا سيفعل الطير يا ترى بتلك البحيرة الضخمة التى سوف تتكون إبان حياة طائر واحد منها ؟ هذه البحيرة التى لن تكون نتيجة للدورة البطيئة التى تجرى عليها سنن الطبيعة التى غيرت مجرى النهر القديم وفتت جنادله على مر آلاف من أجيال تلك الطيور . ولكن سرعان ما تجرى بحيرة لم تجر مثلها من قبل فى إفريقية . فهل ستظن اللقالق أنها قد ضلت سبيلها ؟

وفى مكان مقدس منذ العصور القديمة عند « جرف حسين » على بعد حوالى عشرين ميلا جنوب « بيت الوالى » توجد نقوش ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ وعصر الدولة الوسطى ، وقد عثرت بعثة إيطالية على مدافن خاصة بالمجموعة (C) كما عثرت على مستعمرة سكنية عبر النهر ، وذلك خلال الأيام القليلة التى مكثتها هناك عام ١٩٦١ . وهنا أيضاً أقام « ستاو » (المتحمس للنقوش) نائب الملك رمسيس الثانى معبداً صخرياً لمليكه ، رغبا على أمل أن يظل اسمه فوق ذلك النصب التذكارى الخالد . ولا بد أن هذا المعبد كان يتميز بعظمة خاصة فى عصر الرعامسة ، فقد كانت البوابة على مقربة من الماء ، وكان هناك طريق رئيسى اصطفت على جانبيه تماثيل أبى الهول ، يؤدى إلى سفح التل . ثم توجد عدة درجات تؤدى إلى بوابة تفضى إلى بهو ذى أعمدة ، وأخيراً نجد القاعة الكبرى التى تبلغ مساحتها خمساً وأربعين قدماً

مربعاً ، منحوتة فى الصخر وتستند على ستة تماثيل لأوزوريس يبلغ ارتفاعها ثمانى وعشرين قدماً . وقد اسودت الجدران الداخلية وتغير لونها بفعل القذارة منذ القدم ، ولكن تنظيفها حديثاً كشف عن ألوان بديعة على النقوش التى حفظتها القذارة من العدم ، كما أنها كشفت عن أوجه القبح فيها . وأما التماثيل الضخمة فممتلئة وكئيبة إلى درجة الغرابة . وهى فاشلة فشلا ذريعاً بالنسبة لتماثيل « بيت الوالى » . ومن المؤسف أن التاريخ لم يسجل ما قاله رمسيس لستاو حين شاهد هذا المكان . ومن المحتمل أنه لم يره قط ، وإلا ما قدر العيش لستاو حتى يحفر نقشاً آخر . ولابد أن ستاو كان ذوقه سقيماً ، وأنه كان يستخدم قاطعى أحجار غير مهرة من السكان المحليين . وتقع على عاتق مركز تسجيل الآثار مهمة كئيبة ، هى مهمة تسجيل آثار هذا المعبد ، وسوف تجرى فيه أول محاولة من نوعها لتخليص المعابد المحفورة فى الصخر من الصخرة الأصلية . وهو اختيار موفق .

ويعد المجهود الثانى الذى قام به رمسيس الثانى فى هذه المنطقة مجهوداً أكثر توفيقاً من الوجهة الجغرافية ، إذ على بعد أربعة وتسعين ميلا جنوب أسوان يقع « وادى السبوع » المعروف و « الشهير بطريقه الطويل الذى تصطف على جانبيه تماثيل أبى الهول التى اشتق منها اسم وادى السبوع . وتبعد الأطلال عن النهر بحوالى خمسمائة ياردة وتقوم وسط سهل فسيح ، يرجح أنه كان خصباً فى وقت من الأوقات ، ولكن الرمال طغت عليه الآن » . وكانت تقع بعيدة عن النهر فعلا منذ ١٢٥ عاماً حين كتب عنها « سانت جون » ، ولكن تماثيل أبى الهول الآن غارقة حتى رءوسها – التى على شكل إنسان – فى المياه معظم أوقات السنة . ولا بد أن السير خلال طريق التماثيل كان بالغ الروعة(١) .

(١) يقع وادى السبوع شمال شرق كورسكو بنحو عشرين ميلا وهو عبارة عن واد وسط الجبال ستغمره مياه السد العالى إلى مسافة أكثر من ثلاثين ميلا شرق النهر ولكن المعبد الذى يطلق عليه وادى السبوع يقع غربى النهر .

وتعتبر النقوش الموجودة بوادى السبوع تكراراً لما كان يضعه رمسيس الثانى غالباً فى معابده بالنوبة ، مع إضافة قائمة بأسماء أبنائه ــ وهى تضم ١٧٠ ابناً ، منهم ١١١ كانوا من الذكور .

أما البوابة فهى مخلخلة جداً بحيث يصعب انتزاعها ، كما ينبغى اقتلاع الأحجار من حول الجزء من المعبد المحفور فى الصخر حتى يمكن نقله . ويقوم المعهد الفرنسى بإعادة نقل النقوش والرسوم ، على الرغم من أنها نشرت بواسطة « جوتييه » حوالى سنة ١٩٠٩ ؛ ويقوم المعهد الآن بدراسة المنطقة تحت إشراف الأستاذ فرانسوا دوما من ليون .

وفى الوقت الذى نشر فيه «جوتييه» كتابه عثر « بارسانتى » ــ وهو مهندس معمارى قام بإصلاح كثير من المعابد بتكليف من مصلحة الآثار ، وكان مسرفاً فى استخدام الأسمنت لدرجة أنه عرف بين علماء الآثار باسم « بارسمنتى » ــ على إحدى عشرة لوحة فى المعبد . وكانت كلها تحمل أسماء ستاو « طبعاً » ومساعديه . ثم عثر « فيرث » فيما بين عامى ١٩١٠ ، ١٩١١-على خمس لوحات أخرى فى معبد صغير بناه « أمنوفيس » الثالث على بعد حوالى مائتى ياردة من معبد رمسيس . وهذه اللوحات مثيرة للاهتمام أكثر من سابقتها إذ أنها تعتبر بطاقات زيارة لشخصيات هامة للغاية . وقد توفر على دراسة هذه اللوحات الخمس ، الموجودة الآن بمتحف أسوان ، لبيب حبشى الذى كتب يقول إن إحدى هذه اللوحات قد دون عليها اسم السيدة « نفرت - موت » التى يرجح أن تكون زوجة ستاو ، نائب الملك . وفى مقدور الإنسان أن يصفح عن جانب من اندفاع ستاو وسقم ذوقه ما دام قد ضمن اسم زوجته فى تلك السجلات التى لا تنتهى .

وقد نحتت لوحة أخرى من أجل رجل يعنى اسمه « بعل » العادل[1] وكان حريصاً على أن يظهر بمظهر المتعبد للآلهة المصرية والسامية على السواء ،

(١) بعل هو أحد الآلهة السامية فى سوريا والجزيرة العربية .

مما يدل على أن الأجانب كانوا يفدون إلى هذا المكان بغرض تصريف الأعمال أو التنزه .

وتشير ثلاث من هذه اللوحات الخمس إلى « آمون ، رب الطرق » ، وهو لقب لم يطلق عليه رسمياً قط على جدران المعابد ، ويستنبط لبيب أن هذه كانت تسمية محلية شائعة للإله ، خلعت عليه بسبب الطرق الصحراوية التي كانت تؤدى من وادى السبوع إلى بعض الواحات فى الغرب .

وعلى بعد مائة وعشرين ميلا جنوب أسوان تقع الدر (حيث شيد رمسيس الثانى معبداً صغيراً آخر من الصخر) . وقد كتب « سانت چون » سنة ١٩٣٨ يقول : « إن الدر هى ألطف مكان رأيته حتى الآن فى وادى النيل » ، ذلك أن الشوارع كانت متسعة ونظيفة للغاية ، تحفها حدائق منسقة محاطة بأسوار وقد ملئت بأشجار البرتقال ، وأشجار النخيل ، والسنط ، « وترتفع وسط ميدان فسيح شجرتان بديعتان من أشجار الجميز ، بنى حول جذعيهما طوار نظيف حيث يفترش السكان أبسطتهم ويدخنون فى كنف الظل . وليس ثمة مظهر من مظاهر البؤساء أو المتسولين أو النساء المهلهلات الثياب ، أو الأطفال العرايا الذين تعلوهم الأقذار » ؛ ثم يتحدث عن طرق جميلة تصطف على جوانبها أشجار النخيل ، كما يتحدث عن حقول القمح والطباق والقطن وهى تبدو كبستان يانع .

ولكن كم تتغير الأشياء فى سرعة ! أو كيف تختلف نظرة الأفراد إلى الأشياء ! إذ لم تمر ثمانى سنوات حتى مر جادزبى الناشر وقد غلت مراجل غضبه فقال إن الدر « لا تزيد على قرية بائسة ليس بها حانوت واحد من أى نوع ، والفضل يرجع إلى الأتراك » . مما أعاد إلى ذهنى حديثى عن افتقار « بيت الوالى » إلى مشروعات تجارية . وعلى كل فقد أشار جادزبى أيضاً إلى « شجرة الجميز الرائعة ، التى أعدها فى اعتقادى أكبر شجرة وقع عليها بصرى . وقد اصطفت المقاعد من حولها حيث كان الحاكم يجلس لكى يصرف شئونه ؛

وسار من خلفنا حشود من النساء والأطفال ، ولكننا لم نر الرجال » . ومن المحتمل أنهم كانوا يتوارون خوفاً من عصبة التجنيد .

وما من شك فى أن « الدر » قد ساءت حالها حين زارتها « أمليا ادواردز » عام ١٨٧٤ . وقد تجمهر حولهم « حشد غفير من بائعى العاديات الملحوحين » ولم يكد يتقدم من هذا المأزق سوى بعض البحارة من الذهبية . وهذا هو الذى دفعها إلى القول بأن النوبيين « ما زالوا متوحشين » .

وقد قال جادزبى إن المدينة ، التى كانت عاصمة النوبة السفلى فى ذلك الوقت ، كانت تبعد حوالى الميل عن النهر . ولكنها تقع الآن على النهر مباشرة بما فيها من أشجار جميز وغيرها ، منذ تمت التعلية الأولى لسد أسوان ؛ بيد إن المعبد الصغير ما زال واضحاً للعيان . وقد قامت أمليا بزيارة المعبد وهى « تبحث دون جدوى عن منظر المعركة على الجدار فى الفناء حيث شاهد شامپليون ١٨٢٩ الأسد المقاتل الشهير لرمسيس الثانى والذى وصف بأنه « خادم جلالته ، يمزق أعداءه إرباً » وقد اختفى هذا المنظر فى مدى خمسة وأربعين عاماً » .

ويشك برستد فى صحة وجود الأسود المقاتلة . ويقول إن أسد « الدر » هذا يعض أحد الأسرى ، وكانت الكلمات « خادم جلالته » تصحب مراسيم تقديم أسرى الحرب ، قرابين للإله . ولا يمكن أن يكون برستد قد شاهد المنظر الأصلى ما دام قد اختفى عند زيارة « أمليا ادواردز » له (عام ١٨٧٤) ولكن لا بأس — إذ أن مؤلفات « لپسيوس » ، تشتمل على رسم لهذا المنظر ، ومن المؤكد أنه يمثل الأسد وهو ينهش قطعة من ساق أسير موثق اليدين والساقين . ولم يكلف « شامپليون » نفسه عناء الرسم ، بل اكتفى بإيراد النص نفسه : « الأسد ، خادم جلالته يمزق أعداءه إرباً » ، وكتب فى رسائله يقول : « يلوح لى أن الرسم يوضح أن الأسد كان موجوداً بالفعل وأنه سار فى أعقاب رمسيس إلى المعركة » .

وعلى كل ، يؤكد « برستد » أن النقوش التى تمثل معركة قادش فى الأقصر ، والرمسيوم ، وأبى سمبل تنفى نفياً باتاً ما جاء فى إحدى الأساطير ، وهو « أن أسود رمسيس الأليفة كانت تصحبه وتساعده فى الحرب » . أما الأسود المتحفزة المرسومة على عربة الملك ، حسب رواية برستد ، فهى جزء من زخرفة العربة — أى أنها نقوش ، وليست حيوانات أليفة حية . وإنك لتجدها ممثلة أيضاً على العروش . ولكن برستد يعترف بأن رمسيس كان يصطحب فعلا أحد الأسود الأليفة فى حملة قادش . ولكنهم رسموه وقد قيدت مخالبه الأمامية ، وذلك فى جميع المناظر التى تمثل المعسكر . ثم يقول « برستد » إنه ما من دليل على أن هذا الأسد كان له أية علاقة بالمعركة . أما الأسد الوحيد الذى لا شك فى أنه كان حياً ويجرى بجوار عربة الملك فى المنظر الموجود بأبى سمبل فيفسره برستد على أنه سمح له بأن يعدو هنالك أثناء المسير فقط ، ولكنه لم يشترك فى القتال . والحقيقة أن قيمة وجود أسد فى معمعة القتال أمر مشكوك فيه ، ذلك أنه قد لا يعض سيده ، ولكن ألا يمكن أن يعض الرقيب الأول[1] بحسن نية ؟

ولرمسيس الثانى أسد جميل صغير فى « بيت الوالى » ؛ ولكنه ليس من نوع أسود القتال . وهو يجلس بجوار عرش الملك — وإنى أشك فى أن مخالبه مقيدة . وهناك آثار لبعض الأحزمة — أما اسم هذا الأسد فهو « هذا الذى يلتهم أعداءه » ؛ ومع ذلك ترتسم على محياه أمارات طيبة تدل على أنه يفضل التهام البسكوت .

وفى الوقت الذى أقاوم فيه ميلا فى نفسى لتبرير أخطاء المصريين القدماء ، فإنى أعتقد أن المناظر التى تمثل الأسد وهو يعض الأسرى ليست دليلا على الاغتيال الفعلى للعاجزين ، اغتيالا يتسم بالجبن وعار التلطخ بالدم ، إذ أن مثل هذا العمل الذى يتنافى مع الروح الرياضية لم يكن متبعاً فى مصر ، تماماً مثل مدافن التضحية بالجملة فى كرمة . ويحدونى الاعتقاد بأن مناظر ضرب

(١) جندى ذو أربعة شرائط .

الملك للأسير وعض الأسد للأسرى هى مناظر رمزية تمثل فرعون وهو يطيح بأعدائه ، كما كان عثل بثور هائل ينزل الرعب فى صفوف النوبيين ويفترسهم بقرونه . ويمكن أن نؤكد أنه لوأن فرعون كان يستخدم الأسود فى المعارك الفعلية ما كان فى مقدور أى فنان مصرى ألا يورد منظر أسد يقاتل بجوار الملك .

ولنعد إلى الحديث عن معبد « الدر » الصغير نفسه الذى سوف تبتلعه المياه إن لم ينتزع من مكانه . لم يرق هذا المعبد كثيراً فى نظر « أمليا ادواردز » إذ تقول عنه إنه « ذو تصميم ردىء وتنفيذ غير دقيق . وكله حطام ؛ ولكنه حطام لاتتوافر فيه سمة من الجمال » . وكان هناك بعض مناظر تمثل العبادة ، والقتل ، والدهان بالزيت ؛ كما كانت هناك قائمة ناقصة تتضمن أسماء أبناء رمسيس الثانى ، عثر عليها شامبليون . وثمة شىء نادر آخر — « شجرة نخيل منقوشة يستند عليها الملك بينما يقدم القرابين لآمون رع » . وهى الشىء الوحيد ذو القيمة الفنية من بين بقية الأشياء نظراً للطريقة الطبيعية الفذة التى استخدمها الفنان . وقد أشار « برستد » عام ١٩٠٦ إلى معبد « الدر » بقوله : « ذلك البناء المترهل ، ليس ثمة نقوش أدل من هذه النقوش على تدهور الفنون الإقليمية إبان حكم رمسيس الثانى » . وحتى إذا سلمنا بأن برنامجه فى البناء حرم مهندسيه المعماريين من الحصول على أصحاب المهارة الفنية للعمل بالأقاليم ، فإن هذا لا ينفى حقيقة هامة « وهى أن معابد هامة مثل معابد الدر وجرف حسين تظهر ؛ مثل هذا العمل الردىء للغاية » ، لدرجة أن العلماء اضطروا إلى تبديل العمود الرئيسى للقاعة الرئيسية أثناء عملية الحفر مما أدى إلى انحناء فى العارضة (العتب) انحناء ما زال ملحوظاً حتى وقتنا هذا . ويبدو أن « خيرة مثالى العصر » كانوا يعملون فى أبى سمبل على حين أن الرجال « الذين كانوا ينحتون النقوش الملكية فى الدر كانوا أشبه بقاطعى الأحجار » .

وتقع على عاتق مركز تسجيل الآثار مهمة كئيبة أخرى ، هى مهمة تسجيل آثار معبد « الدر » ، شأن معبد « جرف حسين » ، وسوف يكون هذا

المعبد حقل تجربة آخر فى محاولة انتزاع المعابد الصخرية من الصخر الأصلى قطعة واحدة . ومعبد الدر كذلك هو أحد المعابد التى وعدت الجمهورية العربية المتحدة بإهدائها مقابل المساعدة الأجنبية فى بلاد النوبة . وقد وصف فى الدليل على أنه « معبد الدر العظيم الذى أسسه رمسيس الثانى » . وعلى كل ، فهو معبد مصرى قديم حقيقى .

— ٨ —

قال لى « أوزبرت لانكستر » وهو يتفرس فىَّ وعيناه تومضان بالدهشة ، وكأنه يحملنى تبعة ما سوف يحدث : « وها هو أبو سمبل يراد له أن يوضع فى جزيرة تبعد أميالاً عن أى مكان ما ، مثل شريحة من الجبن فوق طبق . وهو لا يساوى شروى نقير بدون الإطار الموجود فيه ، بل سوف يبدو سخيفاً لا محالة » .

كان الناقد المعمارى الصريح فى طريقه إلى بلاد النوبة فى صحبة « آلان مورهد » وزوجته ، وكنت مدعواً إلى العشاء معهم حينما رست باخرتهم النيلية فى الأقصر . وكان كتاب « مورهد » : « النيل الأبيض » قد نشر منذ أمد قصير ، وتطرق الحديث إلى إبداع هذا النهر العظيم الذى استطاع أن ينساب بهذه القوة ويتوغل فى الفيافى لكى يغذى نمو الحضارة لأمد طويل . ثم تطرقنا بطبيعة الحال إلى الحديث عن بلاد النوبة ، وعن « أبى سمبل » والمشروع الإيطالى الذى يقضى برفع المعبد فوق مستوى التخزين القادم .

وسألنى « مورهد » فى هدوء عما إذا كان من رأيى أن تنفق مثل هذه الأموال الطائلة فى صيانة أثر واحد فقط . فأجبته بقولى إن أية أموال تقدم من الخارج سوف تستخدم فى هذا الغرض بالذات فحسب ، ولن تستخدم فى إنقاذ آثار أخرى أو ينتفع بها فى أغراض دنيوية مثل إنشاء الطرق والمستشفيات . ولما كان الأمر ينحصر فى أن « تأخذه كله أو تتركه كله » فمن الأفضل أن يتم قبول العرض ولو أدى الأمر إلى أن يتحطم المعبد أثناء محاولة إنقاذه . ولسوف يضيع على كل حال إذا رفضت هذه الأموال .

وقال « مورهد » فى إصرار : « ولكن هل أبو سمبل فى نظرك يساوى ستين مليوناً من الدولارات ؟ » وقلت فى نفسى إنه على جانب من المكر والخبث حين يوجه إلى سؤالا كهذا ، فمن ذا الذى يستطيع أن يحدد بالنقود قيمة أثر فريد ؟ وحينئذ أجبته بقولى : « نعم » وعلى أية حال ففى نظامنا الاقتصادى أن كل عمل ينقل النقود من جيب إلى آخر هو عمل صالح ، فيما عدا الحرب .

لقد لاقى أبو سمبل دعاية كبيرة وتملقاً بالغاً للدرجة أن كثيراً من الناس يعتقدون أنه لا يوجد مكان آخر فى بلاد النوبة . ولذا فمن الخير أن نترك النقاد يتحدثون لكى يكون هناك نوع من التوازن ، إذ لا تجد كل النـــاس متحمسين من أجل إنقاذ هذين الحرمين الأثريين. فى أبى سمبل توجد أربعة تماثيل للملك رمسيس الثانى الذى أله نفسه ، محفورة من الصخر الصلد على واجهة المعبد العظيم . وفى المعبد الأصغر ، الذى بنى للملكة نفرتارى والإلهه « حتحور » ، يبدو تمثالا الملك والملكة وكأنهما يخطوان صاعدين من الجبل . وتوجد قاعات كبرى داخل الصخر رسمت على جدرانها مناظر ذات أهمية عظيمة وقيمة فنية كبيرة . وقد كتب شامپليون سنة ١٨٢٩ يقول : « إن معبد أبى سمبل العظيم وحده يستحق عناء الرحلة إلى بلاد النوبة » ، أما « بركهارت » الذى اكتشف المعبد العظيم سنة ١٨١٣ فقد كتب يصف رأس رمسيس الضخم (وكانت هى كل ما استطاع رؤيته فى ذلك الوقت ، إذ كان بقية التمثال ما زال مطموراً فى الرمال) : « إنه لأعظم وجه شاب معبر ، وهو أقرب إلى نموذج الجمال الإغريقى منه إلى أى تمثال مصرى قديم وقع عليه بصرى » .

وكتبت « أمليا ادواردز » تصف الرأس الضخم : « إنه أكمل وجه خلفه لنا الفن المصرى . . . من أجمل الوجوه فى التاريخ كله » .

أما « أوزبرت لانكستر » فقد كتب عام ١٩٦٠ يقول : « هذا الفرعون المصاب بجنون العظمة ، ينظر إلى الصحراء فى غرور لا أساس له » . ثم قال عن التمثال إنه ليس بذى قيمة فنية كبيرة .

وقد قال لى أحد علماء الآثار المبرزين المطلعين إنه يعتبر محاولة إنقاذ هذا المكان إسرافاً لا طائل من ورائه ، ذلك أنه توجد أشياء أخرى أكثر أهمية فى بلاد النوبة . وأطلق زميله على معبد « أبى سمبل » : « قطعة من حب الظهور الرخيص » . والحقيقة إنى لم أعثر على أى عالم من علماء الآثار المصرية البارزين يحبذ فكرة إنفاق أموال طائلة فى إنقاذ أبى سمبل . وقد قال أحدهم : « إن الحكومة لا يحالفها التوفيق فى فكرة تحويله إلى مكان سياحى » . ويعتقد آخر أنه إذا رفعت التماثيل من مكانها المحصن فإنها سوف تتآكل بفعل المناخ فى موقعها المكشوف . ثم قال الأول متهكماً : « لا تخف ، سوف يحميها أحد فنادق هيلتون فى جانب وكازينو فى الجانب الآخر » .

ومع أن معظم علماء الآثار المصرية غير متحمسين لفكرة إنقاذ أبى سمبل بينما البعض يعارضها معارضة صريحة ، فإن ذلك لا يعنى أنه لا يستحق أن ينقذ ، ذلك أن علماء الآثار المصرية لهم مآرب أخرى ، فهم يودون أن يروا تلك الأموال وقد أنفقت على اكتشاف آثار أخرى — فى أماكن تاريخية حيوية لم تمسسها يد من قبل — مثل مناطق الدلتا . وعلى كل ، لم يكن برستد من بين الذين ينظرون إلى الأمر بفتور إذ يقول : « ليس هذا المعبد من أبرز مبانى العالم فحسب ، بل هو مستودع لسجلات تاريخية عديدة كذلك . . ولن ينسى أحد من فريقنا تلك الانطباعات التى اكتسبها خلال الأسابيع التى قضيناها تحت ظلال معبد الشمس الرائع . وسواء وسط العواصف أو تحت وهج الشمس ، أو فى ضوء القمر أو عند بزوغ أشعة الفجر الذهبية ، أو عند الشفق أو فى الظلام الدامس ، كانت تماثيل رمسيس الضخمة تطل عبر النهر بنفس النظرة الساكنة، وتعلو شفاهها نفس الابتسامة الغامضة . كنت آوى إلى فراشى تلك الساعات القليلة تراود مخيلتى تلك الأشكال الضخمة وقد كساها ضوء النجوم ، فينعم قلبى بالسرور إذ أتيحت لى فرصة عمل شىء فى سبيل المحافظة على هذه السجلات الباقية من العصر الذى أنشأها . . هذه المبانى التى لا مثيل لها » .

حتى « أوزبرت لانكستر » الذى يقول عن نفسه بأنه « ليس من غلاة المعجبين بالفن المعمارى المصرى » يعترف بأن فكرة الواجهة هى فكرة مذهلة بأكملها وأنها قد حازت احترامه وإعجابه ، كما كسبت احترام « سانت چون» عام ١٨٣٨ ، ولكنه عاد فاستدرك قائلا : « . . . تلك التماثيل الضخمة الهائلة، التى يوحى منظرها لأول وهلة بالنبل والسمو » هى كتلة هائلة تمثل أشخاصاً أحياء، تترك هذا الأثر فى الذهن ، فلا تجعله فى غمار حيرته ، يفحص مصادر العواطف التى أقامتها . ». وقد يدهش السائح لكبر جرمها ، وقد يذهل الآخرون أيضاً إذا ما ذكر لهم طول لحى هذه التماثيل ، وعرض مناكبها ، أو أبعاد آذانها التى تكبر آذان « ميداس »[1] ؛ ولكن إذا كان تأمل الأعمال الفنية يعد من بين مباهجه ، فلن تتأثر نفس السائح تأثراً قوياً قط بمثل هذا التقليد الفظ للإنسانية .

ومع ذلك فإن بعض الفنانين يعدون هذا المزيج الهائل من فن المعمار ، وهندسة المناجم ، والفنون الجميلة ، نصراً لهذا التصميم وهدفه الذى ينحصر فى أن يوقر فى ذهن الناظر جلالة الملك وقدسيته ؛ وما من شك فى أنها تحقق هذا الهدف ، ذلك أن أثرها فى النفس قوى وأسلوبها يعد نصراً مؤزراً . وقد عرف المثالون ، الذين كانوا يعملون فى آلاف الأطنان من الحجارة ، عرفوا بالدقة الأجزاء التى ينبغى عليهم أن يتركوها دون نحت لكى يحدثوا الأثر القوى المذهل الذى يوحى عن بعد بالانطباع المطلوب لأول وهلة . وهو يعد نحتاً على مستوى أعلى من مستوى إقامة التماثيل ، إذ أنه نحت على مستوى معمارى . ورءوس الملك هى صورة رائعة التصوير عنى الفنانون عناية فائقة بتنفيذها — لدرجة أنها نسخ طبق الأصل لبعضها البعض دون أن يبلغ مقدار الاختلاف أكثر من جزء من البوصة . ولكن بقية كل تمثال قد نحت على

---

(١) ملك فى إحدى الأساطير اليونانية خلع عليه « أبولو » فى إحدى المسابقات الموسيقية أذنى حمار فعرف بعد ذلك بكبر أذنيه ، كما اشتهر بأنه كان يحول كل شىء يلمسه إلى ذهب . (المترجم)

مدى عريض ؛ فتجد السيقان قائمة فى صلابة ، والصدور والأجسام ضخمة ممتلئة ، وأصابع اليد والقدم فى كتلة واحدة . وقد أعد كل شيء بحيث يترك أثراً قوياً ، ولا شك فى أنه يحدث هذا الأثر .

وتقع خلف التماثيل القاعة الكبرى التى يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً ، وهى منحوتة فى الجبل إلى عمق مائتى قدم ، بحيث ترسل الشمس فى منتصف فبراير بشعاعها إلى طرفها الأقصى ، ومن ثم يخترق المعبد ويتسلط على المقصورة (قدس الأقداس) عند أقدام الآلهة مثل النار المنبعثة من السماء . وكل هذا جزء من الأثر المرسوم . إن هذا الشعاع يمثل رع ، إله الشمس ، وهو ينفذ إلى الداخل . وقد كتب « جادزبى » يقول : « إن الأثر لمذهل فعلا » . ثم يضيف قوله : « توجد أربعة تماثيل فى الطرف القصى من المعبد ، وهذه تبدو مخيفة عن بعد ، ولكن حينما اقتربنا منها بدت كالتماثيل الأخرى فى جمالها » .

وأشهر النقوش البارزة على جدران المعبد هى التى تصور معركة قادش الكبرى ، وهى على حد تعبير برستد « أول معركة فى التاريخ نستطيع بواسطتها أن نتابع التوزيع الاستراتيجى للجيوش المحاربة ، ونتبين أن المناورات المضللة لتحريك القوات فى مهارة، وهى مستترة وراء التلال وأسوار المدينة ، كان فناً قد مارسه الأقدمون وتطور إلى درجة عالية » . وفى هذه المعركة نشاهد رمسيس وقد أحاطت به جيوش الأعداء من كل جانب ، وقطعت سبل الاتصال بينه وبين جيوشه ، ثم يلقى القبض على الجواسيس ويعذبون حتى يكشفوا عن مكان العدو . ويبدو رمسيس واقفاً بمفرده ، ثم تصل الإمدادات ، ويتم النصر فى النهاية . « فى هذه الآثار التى تسجل التصادم بين مصر وبين العالم الشمالى برزت أوربا أول ما برزت فى الوثائق المدونة » ، هكذا ينبئنا برستد وهو يؤكد لنا أهمية صنع سجلات متناهية فى الدقة عن « ملامح الوجه ، والملابس ، والأسلحة » .

وهى لوحة ضخمة تمثل معركة حامية الوطيس ، ويبلغ طولها ٥٧ قدما وارتفاعها ٢٥½ قدم ، وبها حوالى ١١٠٠ شخص وهى تشتمل على تفاصيل

عديدة للمعركة كلها بما فيها حصار قادش على نهر الأورنط (العاصى) فى سوريا . ونرى الملك فى هذه المعركة وقد ركب عربته يطارد الهاربين ؛ ونرى فيها الموتى والذين على وشك الموت ، ونرى خيولا بلا فرسان ؛ ونرى بعض أهل القرى يتوارون خلف مواشيهم يحتمون بها . وترى المعسكر مليئاً بالمناظر التى تعطينا صورة واضحة عن حياة الجيش فى مصر القديمة ، ومثل حياة الفرسان فى تاريخنا : فنجد الرجال يطعمون بعض الخيول وهى تصهل فى ضجر ، والسائسين يطاردون بعض الخيول الأخرى لوضع العتاد والمهمات عليها ، ويحملون الماء فى دلاء متصلة بعضها ببعض ؛ ثم نجد أحد الضباط الجرحى يجلس ورأسه بين يديه بينما يحاول خادمه التسرية عنه بقص آخر أنباء فرقته على مسامعه ، وجراح يضمد قدم ضابط آخر ، أما الجنود العاديون فيجلسون القرفصاء وهم يتناولون الطعام من صحفة أمامهم .

وقد شاهد « سانت جون » هذه المناظر بعين ملؤها الشك والريبة ، إذ أنه يعتقد أن تلك المناظر إنما تشير إلى بلاد النوبة ، ولكن هذا موضوع آخر : « النحت ، مثل الشعر ، يعرف كيف يسبغ العظمة والفخامة على أشياء صغيرة لكى يجعلها تلوح عظيمة ، وهكذا يبدو إسقاط بضع قرى نوبية والتغلب عليها فى هذه القصيدة الصامتة وكأنه ينافس حصار طروادة تماماً كما يحلو لأحد الشعراء الحماسيين أن يطلق عليه اسم « غزو بلاد النوبة » (ويحط المؤرخون المحدثون من شأن حصار طروادة كذلك) . و « سانت جون » هو مؤلف « تاريخ أخلاق وعادات اليونان القديمة » . وإنى أشك فى أنه قد أضفى على اليونانيين الإطراء البالغ الذى يعيب على معاصريه إضفاءه على المصريين القدماء . ثم يقول « ممنون (وهو الاسم الذى يطلقه على رمسيس) محاطاً بكل مظاهر الأبهة والعظمة البربرية ، يمسك فى إحدى يديه صولجاناً ينتهى برأس على شكل زهرة اللوتس ، بينما يمد اليد الأخرى وهو يتحدث بكل ما يميز الحاكم المستبد الشرقى فى كبرياء، حديثاً حماسياً وهو جالس .. » ويصف « سانت جون المناظر التى تمثل المعركة وهو يؤكد الأجزاء الوحشية منها ،

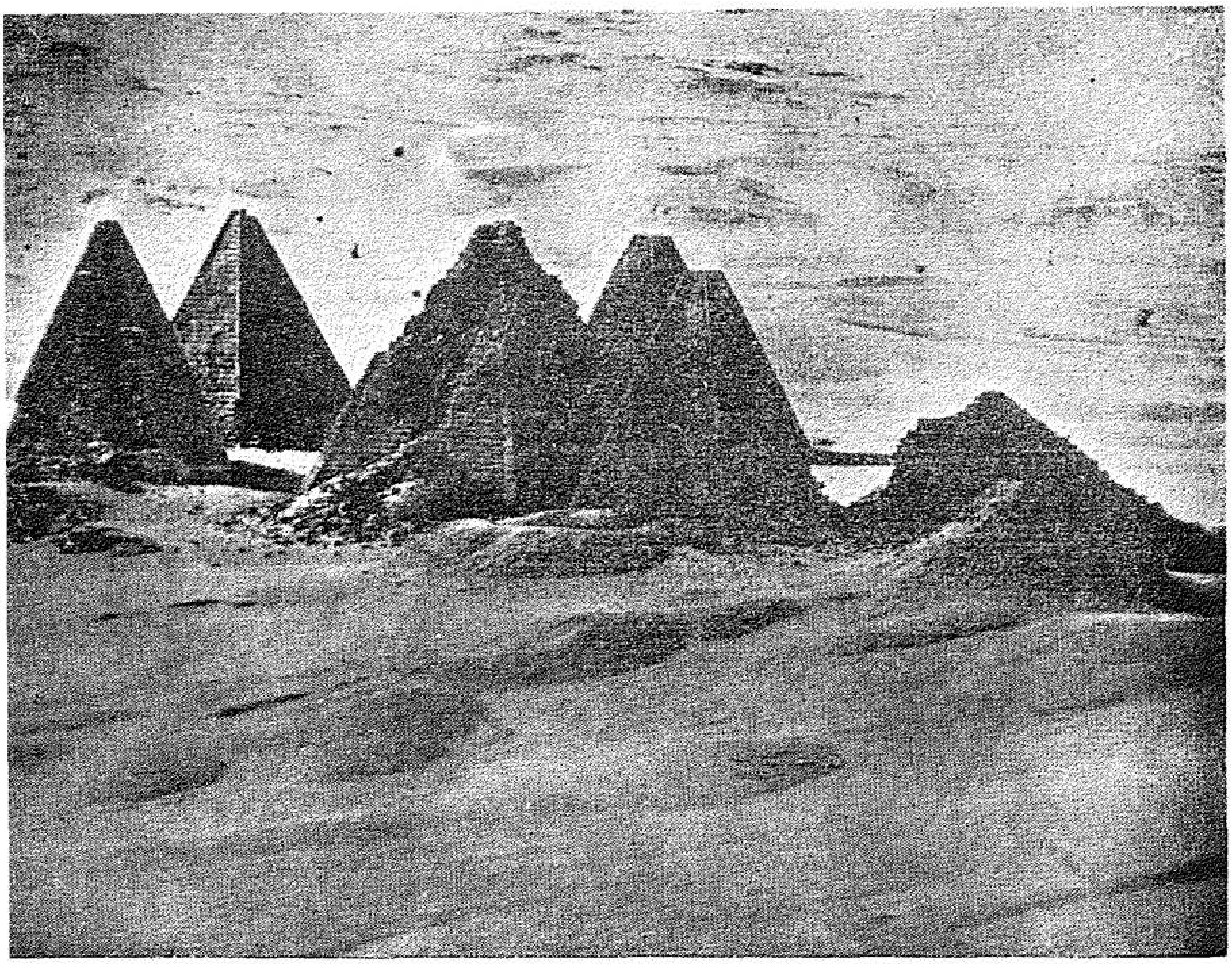

أهرامات ملوك وملكات كوش (الصورة العليا) عند جبل برقل ، والصورة السفلى عند مروى ، فى النوبة السودانية

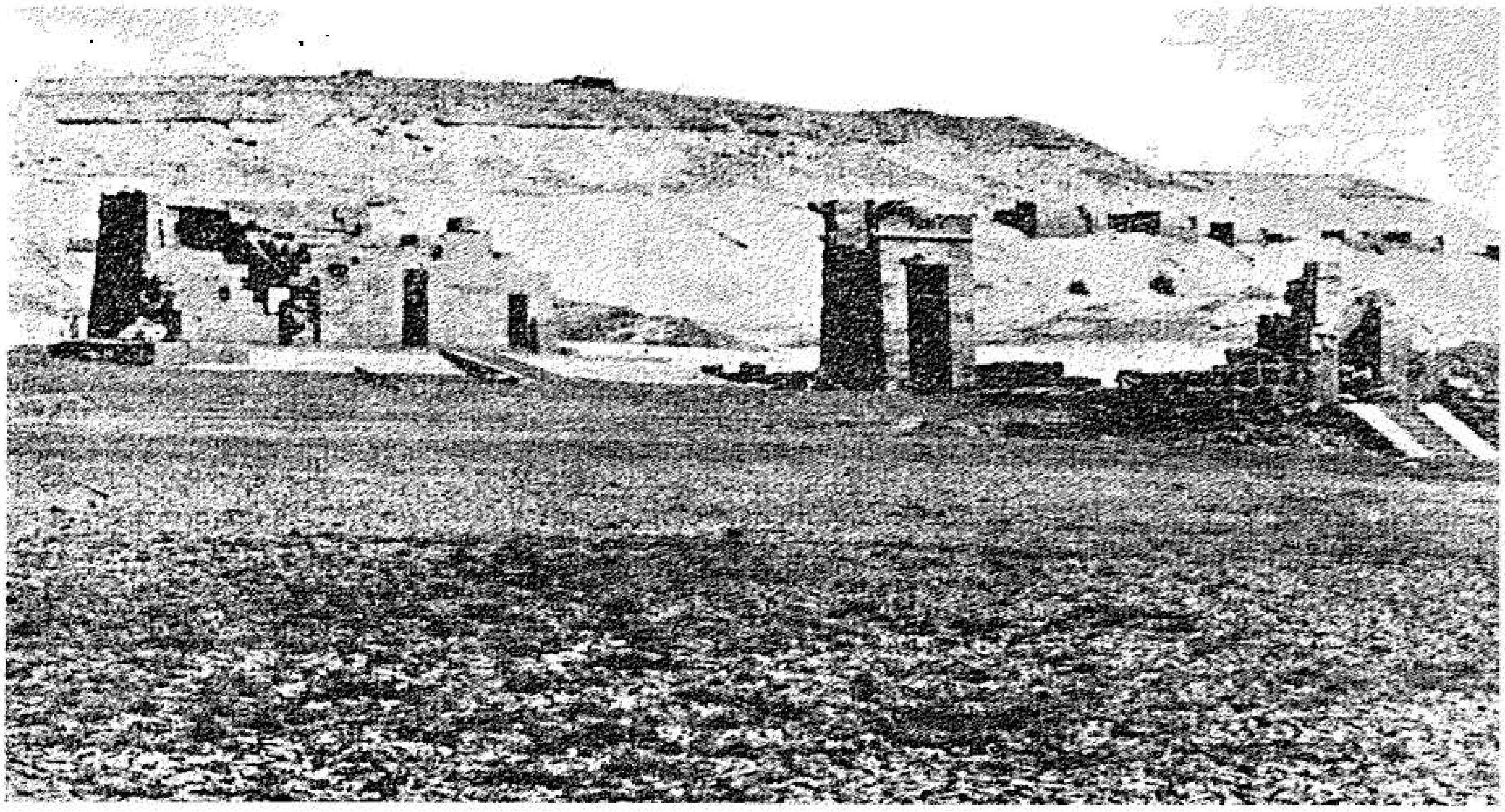

معبد دابود الذى بناه الملك النوبى «آرجامون» كما يبدو قبل فكه سنة ١٩٦٠ بواسطة مصلحة الآثار المصرية

المعبد أثناء فكه حجراً حجراً . وقد صفت أحجاره الآن فى جزيرة الفنتين بالقرب من أسوان

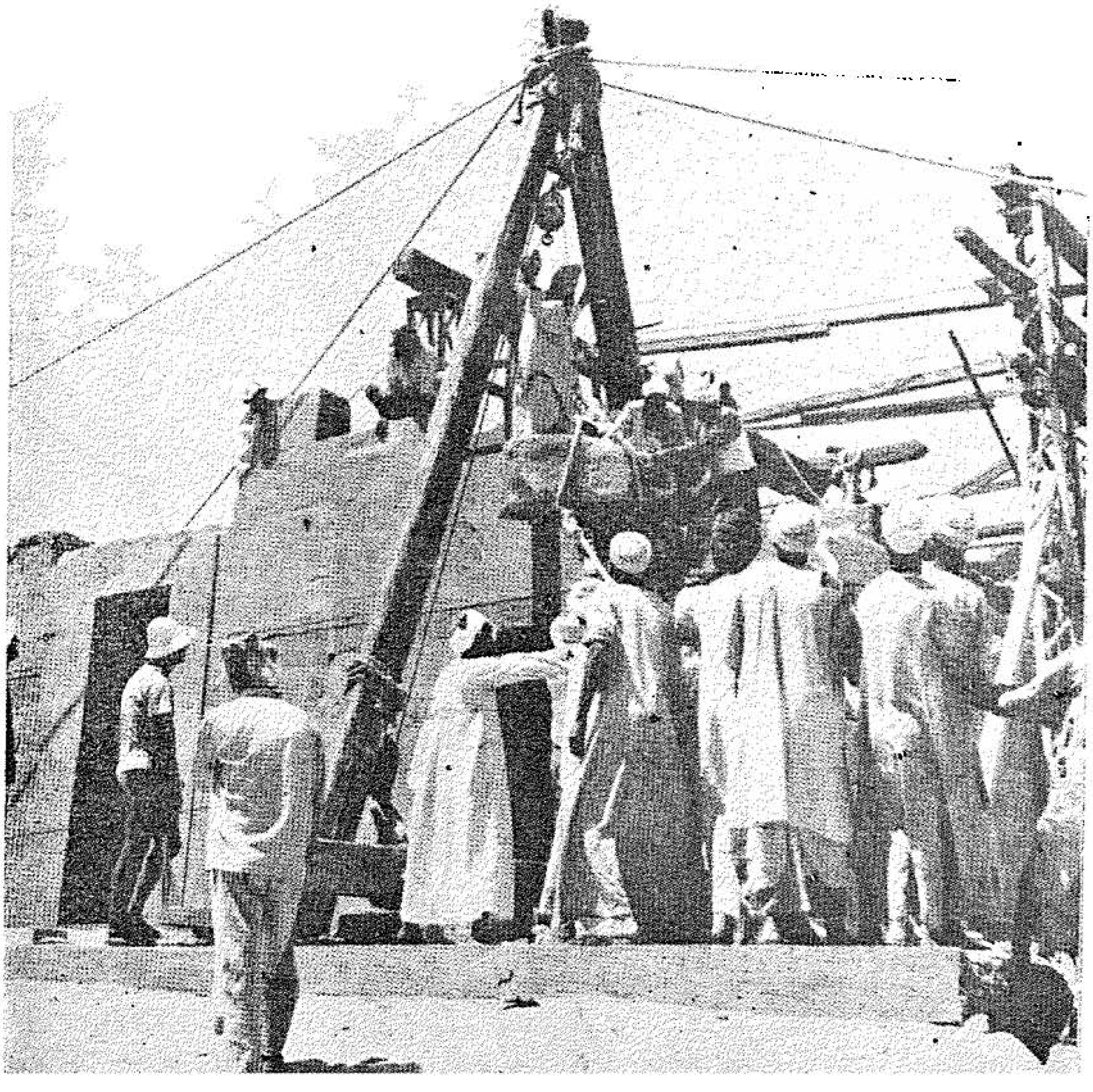

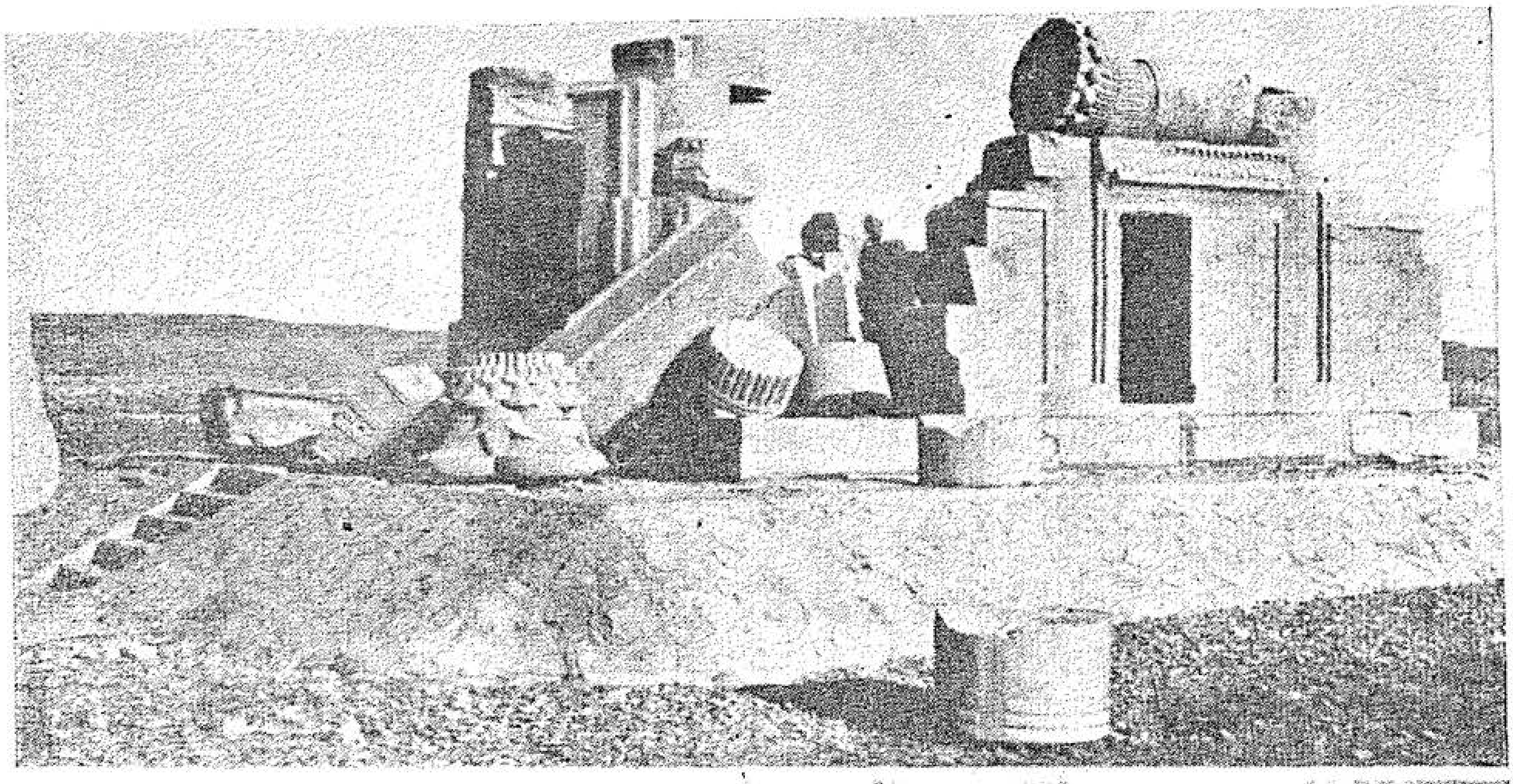

معبد قرطاسى قبل فكه نهائياً . وحين يتم إعادة بنائه سوف يعود إليه بهاؤه

معبد قرطاسى على « صندل » يرسو على ضفاف جزيرة الفنتين . وسوف يعاد بناؤه على البقعة التى يقع الاختيار عليها (قد تمت عملية إعادة بنائه الآن على الضفة الغربية للنيل فى منطقة السد العالى)

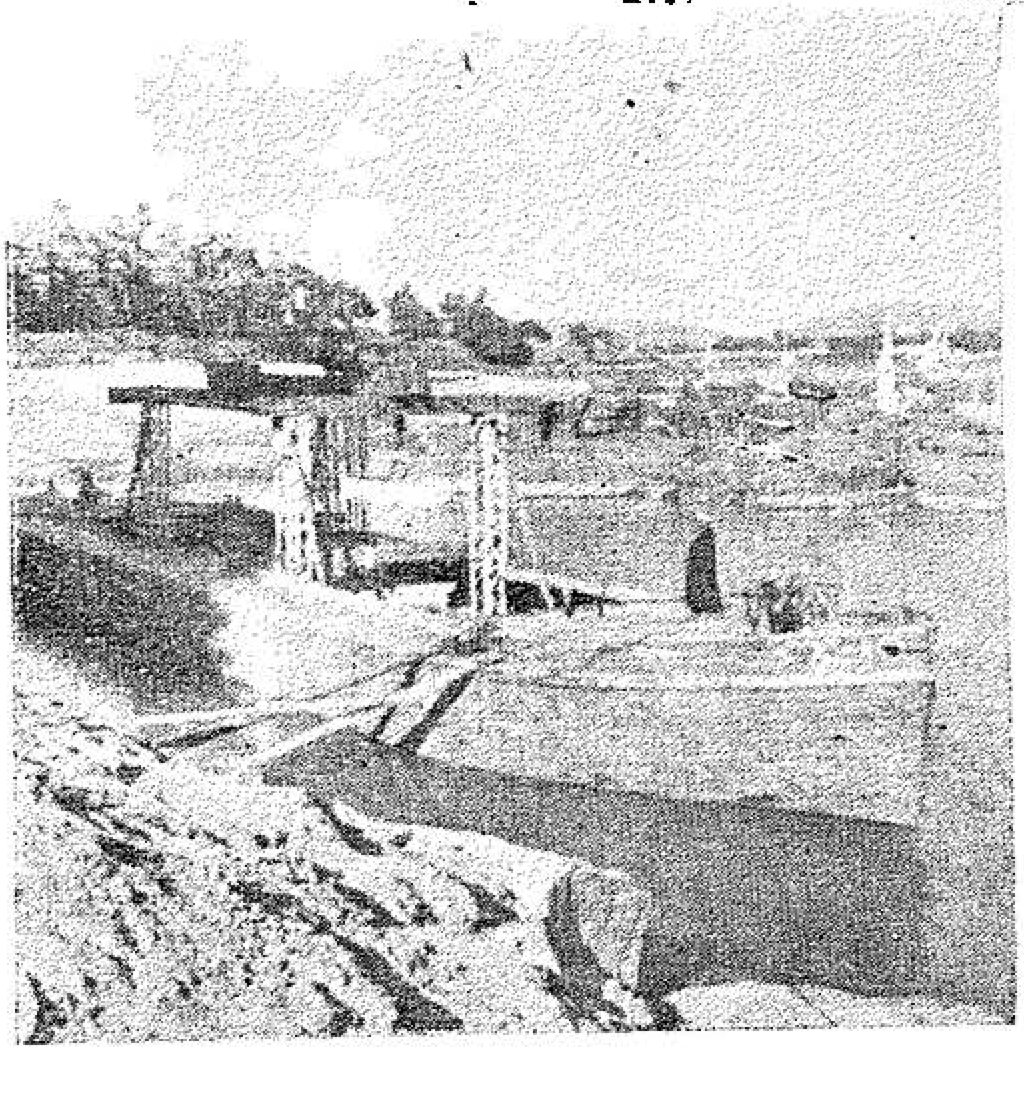

معبد تحمله سفينة

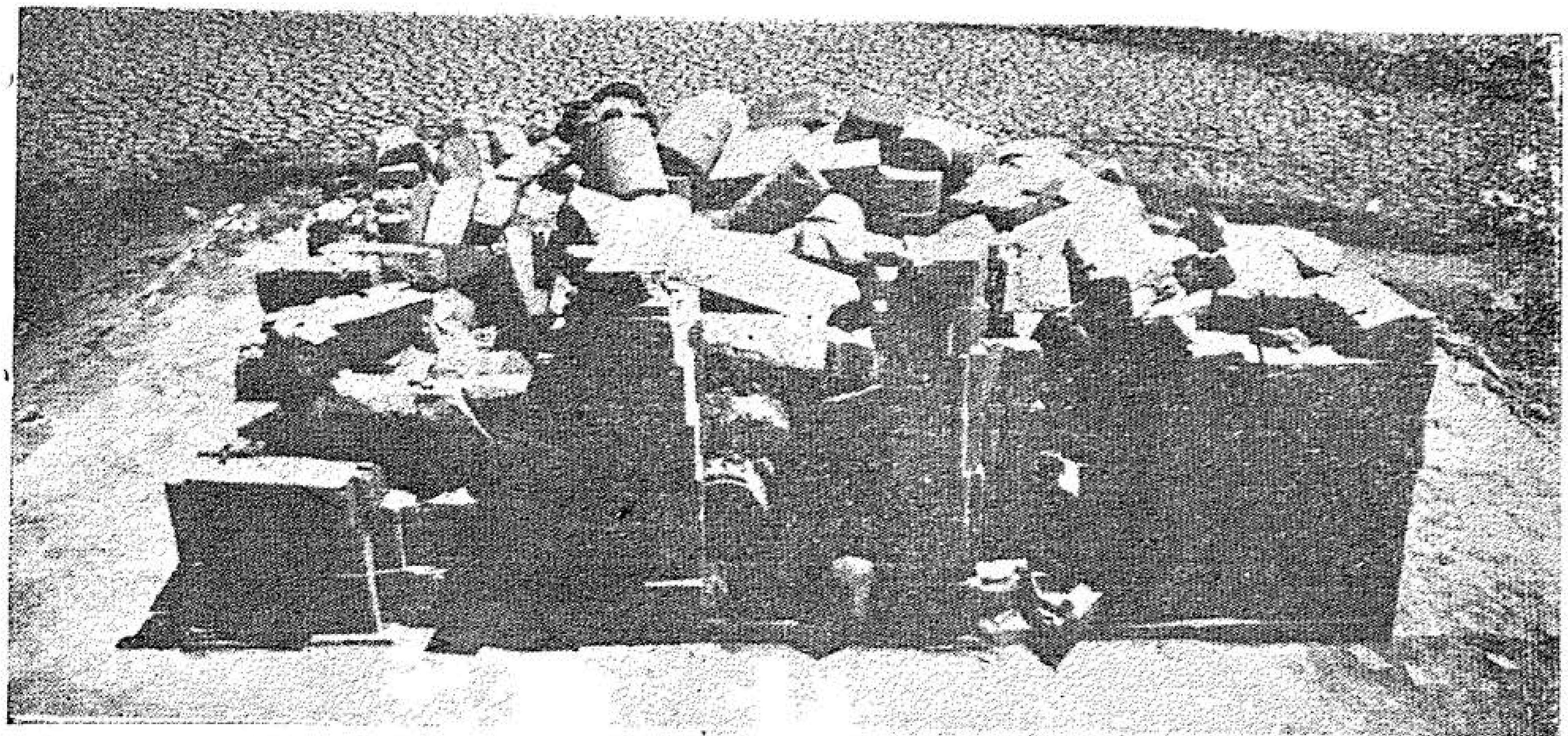

معبد طافه قبل نقله

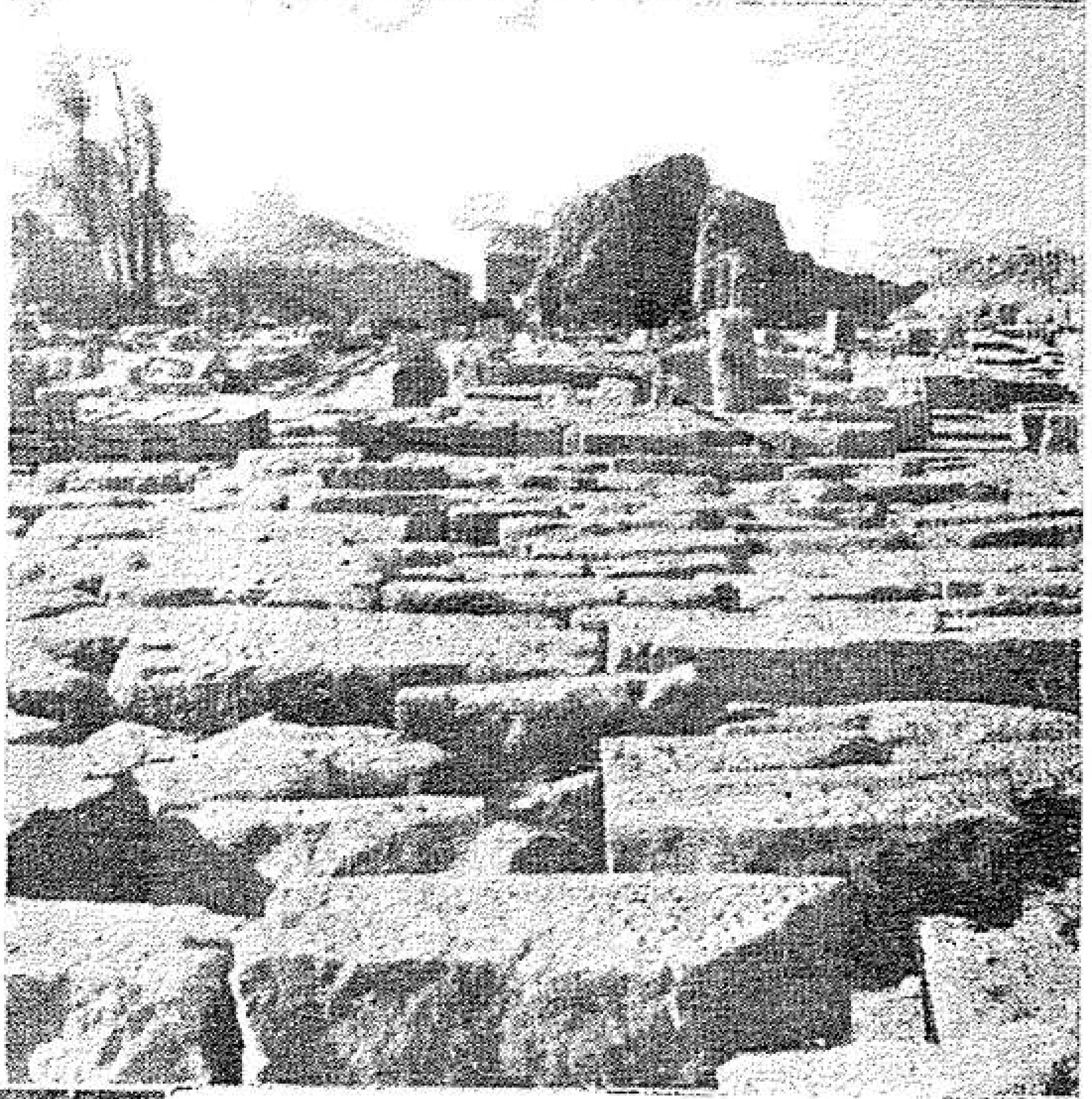

أحجار معبدى طافه وادبود ، وقد صفت بعناية فوق جزيرة الفنتين ، بعد فكها بواسطة مصلحة الآثار المصرية . ويمكن رؤية قبر أغا خان يعلو التل فى الخلف

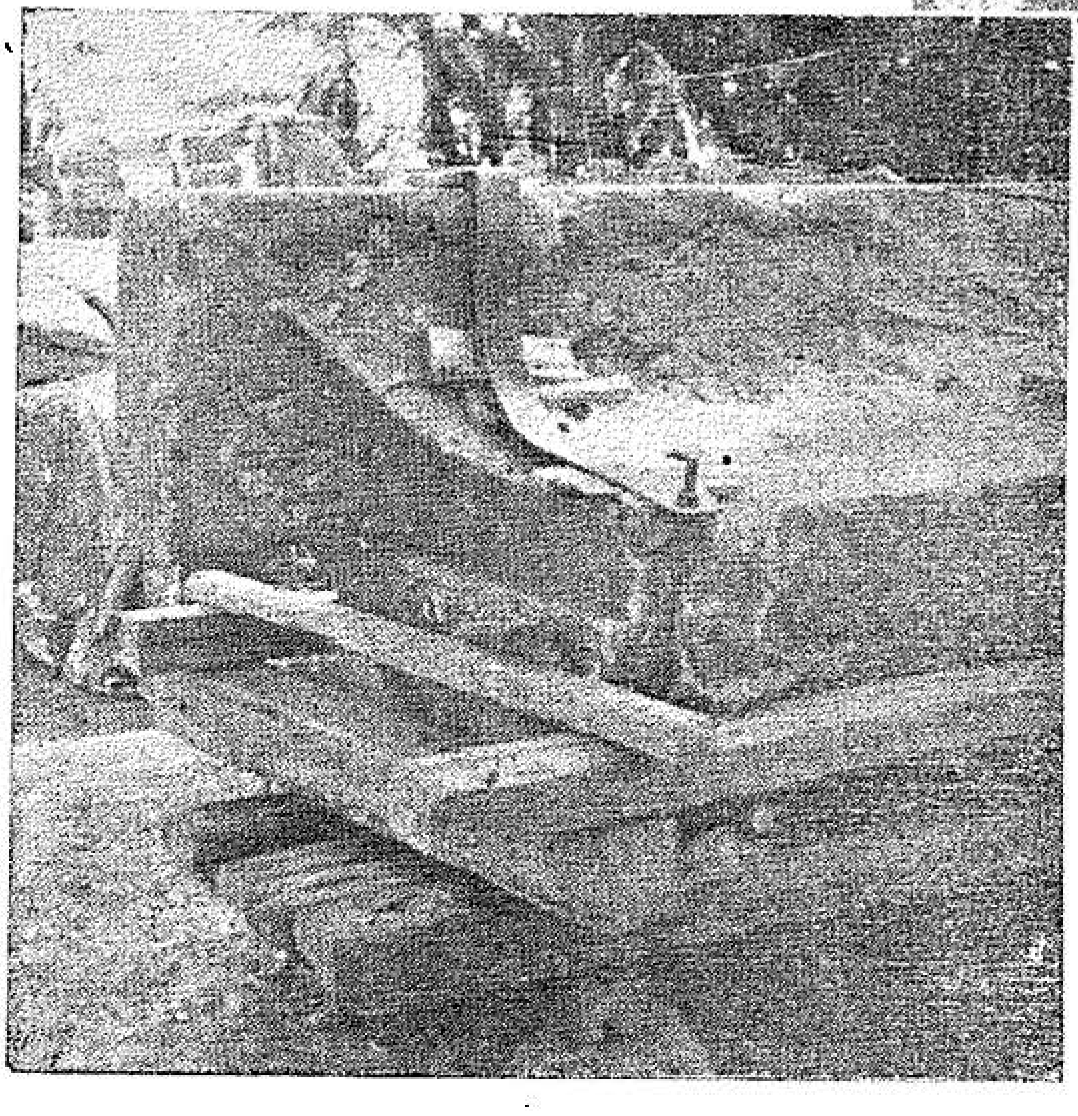

كورنيش محطم ، ضمت أجزاؤه إلى بعضها البعض بواسطة حزام حديدى ، بعد فكها

ثم ينهى وصفه بقوله : « استطاع الفنان ، فى مهارة تتسم بالتملق ، أن يحشد ويضاعف من صور الفوضى والمذابح حول الملك » .

ويقول لاپورت إن المعبد ، بعد أن تم حفره ، يعطى انطباعاً غير حقيقى بأنه أكبر من حجمه الأصلى ، إذ أنك لا ترى سوى المدخل فحسب : وتضيف طبيعته كبناء تحت سطح الأرض إلى الإحساس المتعمد بالغموض الذى يحيط به فرعون المتأله نفسه ، وهو يسبح بحمد نفسه على لسان آلهته التى اخترعها .

مزيف ، منفوخ ، سوق ، رائع ، مهيب ، نبيل – كل هذه الصفات تتوافر فى أبى سمبل ، باختلاف الناظرين إليه . ولما كان هذا المعبد يثير مثل هذه الانفعالات والعواطف المتضاربة ، ولما كان من أبرز المبانى فى العالم كله ، ولما كان فريداً فى نوعه ، ويعد مستودعاً لسجلات تاريخية هامة – كل هذا كفيل بأن يجعل المعبد جديراً بالإنقاذ ، لو أمكن إنقاذه حقاً . ومن الممكن أن يتم إنقاذه لو أن حكومات العالم تبرعت بمبلغ الثمانية عشر مليوناً من الجنيهات المطلوبة لإنقاذه – وهو مبلغ يبدو تافهاً لو قسم فيما بينها .

ويعتقد الأستاذ « پيترو جازولا » ، مدير الفنون فى « ڤيرونا » والمفتش العام لمصلحة الآثار فى إيطاليا ، أن من الممكن إنقاذ هذه المعابد من خطر الفيضان برفع الكتل الصخرية التى نحت فيها كل معبد ، ثم تركها على أساس مرتفع فوق مستوى البحيرة الجديدة : وهو وزميله الأستاذ « جوستاڤو كولونتى » على ثقة بأن فى مقدورهما أن يرفعا المائتى وخمسين ألف طن التى يتكون منها المعبد الكبير إلى علو مائتى قدم فوق أساسه الحالى دون الإخلال بحالة توازنه . ويقترحان نزع الصخر الذى فوق المعبد ، ثم يحفران من حول كتلة المعبد ومن تحتها ويحيطانها بصندوق مقسم من الخرسانة المسلحة . وسوف تعمل مائتان وخمسون رافعة مائية على رفع الكتلة بضربات ترتفع مليمتراً واحداً فى كل مرة ، وذلك لكى يظل اللوح المسطح الذى يحمل كتلة المعبد فى وضع أفقى تام طوال الوقت ، بصرف النظر عن حمولة كل رافعة .

وسوف تستخدم أجهزة ألكترونية فى الكشف عن حدوث أى خلل حتى ولو فى رافعة واحدة ، ومن ثم توقف العملية . وحتى لو تم ذلك ، فإن أقل خلل فى كتلة من كتل الأساس قد تعرض جميع الكتل للخطر . ولكى تتم مراقبة هذه العملية سوف تستخدم مستويات من السائل متصلة ببعضها البعض بحيث تعطى إشارة للوحة المراقبة إذا ما حدث أى انحراف ، حتى يتمكن المشرف على اللوحة من إعادة اللوح المسطح إلى مكانه بواسطة صف من الروافع يمكن التحكم فيه عن بعد .

وكلما ارتفع البناء ثلاثين سنتيمتراً توقفت العملية ، ريثما تركب أعمدة مقننة ، ثم يعاد تعديل الروافع فى مقابل الأساسات بعد أن تكون قد رفعت بنفس المقدار .

وفى نهاية مرحلة الرفع كلها ، وهى ٢٠٤ أقدام ، سوف تخلص الكتلة — المستقرة على أساساتها — من القفص المسلح المقسم ، ويعاد إنشاء المناظر التى كانت تحيط بها على قدر الإمكان ، حتى تبدو المعابد كما هى عليه الآن ، على هذا المستوى الجديد ، حينما ترتفع المياه .

لقد عدّ بناء رمسيس الثانى لمعبد أبى سمبل منذ ٣٢٠٠ سنة إحدى علامات الطريق الخالدة فى انتصارات البشرية . وإن رفع هذه الأطنان الهائلة من الحجارة المتزنة فى أمان بهذه الكيفية سوف يكون عملا رائعاً من أعمال الهندسة الجبارة ، وعلامة أخرى من علامات الطريق فى تاريخ الانتصارات البشرية ، إذ أنه عمل لا مثيل له من قبل . ويكفى هذا الحافز وحده دافعاً للإقدام على مثل هذا العمل(١) .

وربما يكون مشروعاً كهذا قد أفزع برستد عام ١٩٠٧ حينما كتب يقول : « لقد دام هذا المعبد أمداً طويلا ، وفى حالة جيدة من الصيانة لدرجة أن

(١) ترك هذا المشروع جانباً لضخامة نفقاته وأخذ بمشروع يهدف إلى تقطيع جدران وتماثيل المعبدين إلى أجزاء ثم إعادة تركيبها أعلى الهضبة .

الزائر يغادر المكان وهو يحمل الانطباع بأنه باق بقاء الجبل الذى قُدَّ منه . لقد قوبلت فى كل مكان بعاصفة من الريبة وعدم التصديق حينما كنت أذكر أن معبد أبى سمبل مقضى عليه بالفناء . وقد وجدت أن التماثيل الصغيرة المتجمعة بين التماثيل الضخمة تفنى بسرعة ، وقد فقدت أنوفها ، وفقد البعض وجهه كله ، أو قدميه ، أو أصابع رجليه . . . وذلك منذ أمد قريب جداً . والكل قد رأى تلك الأجزاء الضخمة المهيبة للتمثال الثالث وقد تصدعت فى كومة من الحطام البالى . . . كما أن التمثال الذى بجواره على وشك أن يلاقى نفس المصير . . . ويوماً ما ، ولن يكون ذلك اليوم ببعيد ، لا بد أن تتحطم (الأجزاء العليا) وتنهار كذلك . أما فى داخل المعبد فالحالة لا تفترق كثيراً . . بل كسور عديدة . . . هذا المعبد الرائع يسير حثيثاً نحو الفناء ، وليس من المحتمل أن يكون فى مقدور أحد تجنب النكبات التى تهدد المكان عن طريق القيام بأى عمل يجرى من قبيل الترميم » .

وإنا لنتعشم أن يكون « برستد » مبالغاً فى قلقه على المعبد الذى أحبه ، إذ سوف يكون أمراً مؤسفاً حقاً أن نتجشم كل هذه المتاعب والنفقات لا لشىء سوى تسليم أبى سمبل إلى التآكل عن طريق الرياح ، وإلى الفناء العاجل الذى لن نخلصه منه شىء حتى ولو أقيم أحد فنادق هيلتون فى جانب منه وأحد الكازينوهات فى الجانب الآخر .

ولبرستد كلمة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى غير مطمئنة إذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الضجة والدعاية التى تثار حول أبى سمبل :

« لا يوجد مجلد واحد أو سلسلة من المجلدات تضم سجلات أبى سمبل كاملة — لكى تحفظ على مر العصور — وفقاً لأحدث وسائل تسجيل النقوش » . وهذا القول يرجع إلى عام ١٩٠٧ ، وما زال ينطبق على أيامنا هذه ، إذ ليس ثمة سجلات كاملة منشورة عن أبى سمبل . حقيقة إن الموقف لا يدعو إلى اليأس كما كان أيام برستد ؛ ذلك أن مركز تسجيل الآثار يعمل فى أبى سمبل منذ عدة سنوات ، ولا بد أن فى حوزته الآن وثائق كاملة عن

كل شيء فى المعابد ، أخذت عن طريق التصوير الفوتوغرافى ، وأحدث وسائل التسجيل (الفوتوجرامترى) Photogrammetry ، لوضعها فى محفوظاته .

ومع ذلك ، لا أستطيع أنا وأنت أن نذهب لشراء مؤلف يحوى المعالم الكاملة لهذا المكان ذى الشهرة العالمية لكى نقوم بدراسته فى مكتبتنا الخاصة . وإنى لأشك فى أنك تستطيع أن تشترى ولو رسماً خطياً دقيقاً للوحة الخاصة بهذه المعركة الشهيرة ؟

شعرت أمليا ادواردز بالأسى حينما وقع بصرها على بقع بيضاء تعلو وجه أجمل رجل فى التاريخ ، وذلك حينما رست ذهبيتها عند أبى سمبل . وكان السبب فى ذلك هو الجص الذى استخدامه « بنومى » و « هبى » مرة أخرى ، وكان ما زال يشوه الرأس الضخم لرمسيس الثانى بعد أن رفعا القالب عنها بخمسين سنة ، وكان المتحف البريطانى قد كلفهما بذلك .

ونظمت أمليا رجال سفينتها فأعدوا سقالة وقاموا بتنظيف كل الجبس ، مدفوعة فى ذلك بروحها الطيبة ، أو قل بنقطة ضعف من ناحية فرعون وسيم الطلعة . ومع ذلك بقيت بعض البقع البيضاء فى الأماكن التى وضع فيها الجبس على الحجر . ولما كانت أمليا قد عقدت العزم على أن مليكها لن يبقى ملطخاً أمام الأجيال القادمة كلفت الطاهى بأن يصنع عدة جالونات من القهوة الثقيلة لكى يصبها على وجه التمثال . وهكذا ندين بالبشرة السليمة للتمثال القابع أقصى الشمال على واجهة معبد أبى سمبل العظيم لعملية التنظيف بالقهوة الثقيلة التى جرت عام ١٨٧٤ .

وقد دس أحد أفراد جماعة « أمليا » عصا فى فجوة ، فإذا بالرحلة السياحية التى قامت بها « أمليا » للتدرية عن نفسها تنقلب إلى بعثة لاكتشاف الآثار ، ذلك أنها وجماعتها عثروا على مقصورة « نحوت » الصغير المحفورة بجانب المعبد الكبير . وفى غمرة من الاضطراب أخذوا يفحصون العجائب الجديدة التى تكشفت أمام أعينهم . ولاحظت أمليا بين هذه الأشياء نقوشاً مكتوبة باللغة الهيراطيقية ، ولم يكن فى مقدورها أن تقرأها بالطبع .

ومنذ فترة وجيزة ، أى حوالى عام ١٩٥٨ ، قام أحد المتحمسين بتنظيف هذه النقوش فطمسها . ولم يكن لدى أى واحد من علماء الآثار المصرية نسخة منها . وهذا مما يوضح أهمية تسجيل ونشر الآثار ، ذلك أن عملية تنظيف المعابد هى مهنة تحتاج إلى عناية وخبرة مثلما تحتاج فى رد صورة من الصور إلى أصلها . فهل ترضى أن تدعو البواب لكى ينظف لوحة من لوحات « رمبرانت » ؟

ولحسن الطالع أن أمليا ضمنت فى كتابها – الذى نشر منذ حوالى سبعين عاماً – رسما لهذه النقوش استطاع « الأستاذ تشرنى » من جامعة أكسفورد أن يستشف منها بمهارة فائقة نقشاً كتبه أحد نواب الملك لوضعه فى السجلات (ولكنى أعتقد أن نائب الملك لم يكن ستاو هذه المرة) .

ومع ذلك فقد ولت الأيام الذهبية لاكتشافات الهواة ، إذ أن الأمور أصبحت أكثر تنظيماً الآن ، وعلى كل فقد كان من الممكن أن تصبح سيدة أمريكية هى « مسز آن أرشبولد » من نيويورك سبباً فى اكتشاف آخر عام ١٩٣٣ لو أنها ثابرت فى جهودها . ولكن الوقت فات الآن ولن نهتدى إلى ذلك الاكتشاف قط ، ذلك أن بعض الناس تساءل فى وقت من الأوقات عما إذا كان ثمة معبد ثالث يقبع تحت البحر الخضم من الرمال التى تنساب بين معبدى أبى سمبل . ولما سمعت « مسز أرشبولد » عن ذلك من المستر « أميل باريز » أحد موظفى مصلحة الآثار ، عرضت مبلغ ألفى دولار – حوالى ٥٥٥ جنيهاً فى ذلك الوقت – لتغطية مصاريف إجراء حفائر فى ذلك المكان . وقد عثروا على لوحتين للحاكم « پاسر » ، نائب الملك رمسيس الثانى ، وهو يصلى للإله آمون ، ثم توصل العلماء إلى محجر قطعت منه كتل كبيرة ، كان من الواضح أنها استخدمت لبناء هام . ولكنهم لم يتوصلوا إلى أى مبنى . وكان لا يزال هناك كمية كبيرة باقية من الرمال حينما نفدت قيمة الهبة التى قدمتها « مسز أرشبولد » . ولم ترفع هذه الكمية قط حتى الآن .

ويشك علماء الآثار عامة فى وجود معبد ثالث هناك . ومع ذلك يظل هذا المعبد لغزاً صغيراً محيراً لن نجد له تفسيراً إلى الأبد .

وثمة نقوش كثيرة حول هذه المعابد تضم حوالى ثلاثين نقشاً من النقوش الصخرية تتدرج من الأسرة السادسة إلى الأسرة الحادية والعشرين ، ويعكف لبيب حبشى على نقل هذه النقوش تمهيداً لنشرها فى القريب العاجل . وقد أخبرنى بأن من المرجح أن هذا المكان كان مقدساً منذ العصور الأولى . وربما كان لهذا أثره فى اختيار رمسيس لموقع يقيم عليه المعبدين الكبيرين . وليس من قبيل إضاعة الوقت سدى جمع هذه النقوش القديمة قبل أن تغمرها المياه ؛ ومن الممكن التوصل إلى استنتاج تواريخ هامة ، ونتائج تاريخية ، وتعاقب أحداث ، واستنباط علاقات شخصية ، من مجموعة كبيرة من هذه النقوش إذا نشرت على الوجه الأكمل . وعند قرية « توماس » على مقربة من « الدر » يعمل الأستاذ « چاك لاكلان » من ستراسبورج فى تسجيل النقوش الخاصة بعض الشخصيات الهامة على الصخور . ويعمل معه فرنسى آخر هو الأستاذ « چاك لوير » من الالزاس . وعند قرية « الشيخ داود » القريبة تقوم بعثة أسبانية بفحص بقايا قلعة بيزنطية — أو ربما يتضح أنها أحد الأديرة . ولسوف يشاهدون فى المحاجر اسم ستاو — الكائن فى كل مكان — على رأس طريق القوافل المؤدى إلى الواحات ومصر السفلى ، كما يشاهدون أسماء ملوك مجهولين مثل « كاكارع » و « سينرع » .

وتنتهى عند معبد « عكشة » القائمة الطويلة لبرنامج مبانى رمسيس الثانى فى بلاد النوبة . وقد عثر برستد على بعض بقايا قليلة لمعبد كرس لعبادة الملك نفسه . ولكن العالم الأثرى الفرنسى ، « ڤيركوتر » وزميله الأرجنتينى « ووزنفسر » يعملان هناك فى هذه الأزمة ، وقد وجدا أن بوابة المعبد مهدمة ومطمورة فى الرمال ، وعليها نقوش فى حالة جيدة ما زالت تحتفظ بألوانها ، كما عثرا على لوحات تشبه بعض لوحات أبى سمبل حتى فى الأخطاء الهجائية .

وإبان الألف سنة التى أعقبت وفاة رمسيس الثانى لم يشيد أى بناء ذى أهمية بالنوبة ؛ ولكن عثر على بضع مقابر خاصة منقوشة ، وقد يكون هناك مقابر أخرى ؛ إذ وجدت مقبرة أقيمت فى الأسرة العشرين جنوب « عنيبة » ، على مقربة من مدينة « معام » التى كانت مقراً لنواب الملك ، وهذه المقبرة تخص « پنوت » نائب « واوات » الذى كان علاوة على ذلك مديراً للمحاجر ومشرفاً على الضياع الملحقة بالمعبد . وعلى جدران هذه المقبرة تتمثل القصة التى تنبئ كيف أقام « پنوت » تمثالا لرمسيس الرابع فى المعبد ، حيث كانت تعمل زوجته منشدة . وفى مقابل ذلك بعث إليه الملك بآنيتين من الفضة مليئتين بالطيب قدمهما إلى « پنوت » نائب الملك شخصياً . ويقبض النائب فى فخر على الآنيتين ، كل واحدة منها فى يد ولا يزال يقبض عليهما على حائط مقبرته حتى اليوم . وسوف تنزع هذه المناظر وغيرها من النقوش الهامة من الصخر وتنقل إلى مكان أمين .

وإذا سرنا قليلا جنوب المجرى وفى الجهة المقابلة ، عند « توشكا » نجد أن فريقاً من العلماء من پنسلفانيا (بالولايات المتحدة) يعمل تحت إشراف « كيللى سمپسون » وقد اكتشف مقبرة خلال الموسم ١٩٦٠ – ١٩٦١ ، وعثر على بعض التماثيل البديعة – وهى التماثيل الصغيرة التى تشبه المومياء وتوضع فى المقابر . ولقد علمت أن المقبرة تضم إلى جانب ذلك نقوشاً مثيرة للاهتمام ، ولكن ينبغى علينا أن ننتظر حتى يتم نشرها لكى نعلم على وجه التحديد دلالة هذه النقوش .

ويوجد فى « توشكا » مقابر من جميع عصور التاريخ ، حفر معظمها ونشرها الأستاذ « يونكر » من ڤينا عام ١٩١٢ . وعلى كل ، من بين المقابر التى لن تحفر مقبرة « ولد النجومى » أحد زعماء الدراويش وقد مات عام ١٨٨٩ أثناء قيامه على رأس جيش لغزو مصر . وعلى مقربة من « توشكا » هزم الجيش الإنجليزى المصرى بقيادة الجنرال « جرنفل » جموع الدراويش الذين كانوا مسلحين فى الغالب بالسهام والدروع – وهى حادثة تعيد نفسها

فى التاريخ وتعيد إلى ذهننا ما كتبه « سترابو » عن هزيمة الملكة « قنديسى » حينما قامت على رأس حملة لمهاجمة الفيالق الرومانية وهى مسلحة بعتاد ضعيف بالقرب من هذه الأماكن . منذ ألفى سنة تقريباً . وسوف نتعرض لهذا فيما بعد إذ أننا الآن بصدد دراسة السنوات الأخيرة التى تدهورت فيها المملكة الحديثة .

كان المصريون المحبون لمسقط رأسهم والذين كانوا يعيشون فى بلاد النوبة يعتبرون أنفسهم ذوى حظ عاثر ، وكانوا يبعثون برسائل كثيرة مثيرة للشجون إلى ذويهم يعبرون فيها عن الحنين إلى الوطن . وبعض هذه الرسائل محفوظ فى متاحف مختلفة ، ولكن لم يتيسر إلا لعدد قليل منها أن ينشر ويترجم – وهو أمر مؤسف – إذ أنها وثائق إنسانية تقرب ما بيننا وبين المصريين . وقد أسعدنى حسن الطالع فمكننى من اقتباس بعض هذه الرسائل التى قام بترجمتها زميلى الدكتور « ادوارد ونت » وهو كرم أعبر له عن امتنانى البالغ خاصة مع علمى بأن معظم علماء الآثار المصرية يتكتمون تكتماً شديداً على المخطوطات التى فى حوزتهم قبل أن تنشر رسمياً . ولذا فإن هذه اللمحة السابقة للنشر تعتبر ميزة نادرة .

أرسل شخص من طيبة ، يدعى تحتمس ، وهو موظف يشغل منصب « كاتب المقبرة » إلى بلاد النوبة ، فى معية نائب الملك فى « كوش » القائد « پعنخى » الذى كان يعمل أيضاً كاهناً أكبر من كهنة « آمون » . وقد بعث تحتمس من مكانه النائى برسائل إلى ابنه وزميله فى المهنة « بتح ـ آمون » الذى لا يزال قبره قائماً ، وهو عبارة عن حطام حسنة المنظر يتسنى لى رؤيتها كل يوم أثناء تأدية عملى فى معبد رمسيس الثالث فى الأقصر . وقد عاش هذا الموظف فى فترة حكم رمسيس الحادى عشر ، آخر فراعنة المملكة الحديثة ، وربما كان الملك ما زال على قيد الحياة ، ولكن السلطة كانت قد انتقلت إلى أيدى كهنة الآله آمون . وليس يهم ذلك الآن إذ أن السياسة لم تبدل من أمر المشاغل الشخصية اليومية لتحتمس وأصدقائه الذين كانوا يهتمون بأمر

ابتعادهم بعضهم عن بعض وعواطفهم تجاه بعضهم البعض ، وصحتهم وشئونهم العامة :

من تحتمس كاتب المقبرة إلى الكاتب « بنح - آمون » ، و « شلملوا » ، مرتلة آمون :

« أتمنى لكم حياة مديدة ، ورخاء ، وصحة ، وليرعاكم آمون رع ، ملك الآلهة ، إنى أبتهل كل يوم إلى آلهة هذه الأرض لكى يمنحوكم الحياة والرفاهية والصحة ، حياة مديدة ، وشيخوخة منعمة حصيفة ، وأن يسبغوا عليكم نعماً وفيرة ، وأن يكتبوا لى عودة ، أضمكم فيها إلى صدرى .

لقد وصلت إلى مقر رئيسى ، والواقع أننى وجدت أنه قد بعث إلى بقارب يقلنى . وقد عثروا على على مقربة من إدفو . أما أنا فقد أجتمعت برئيسى عند مدينة الفنتين . . . فأعطانى خبزاً وجعة ثم قال لى ، ليرعاك مونتو . . . » .

عسى أن تتضرعوا إلى آمون إلهى الذى يتربع على عرشى الأرضين[1] أن يعيدنى سالماً إليكم ، ولتنظروا بعين الرعاية لأبناء « حمشيرى » ، و « شلمدوا » ، ولتمنحوا أطفال الإقليم الجنوبى بعض الزيت لكى يستهلكوه ، ولا تدعوهم يفتقرون إليه . ولتحيطوا برعايتكم ابنة خنسوس فلا تهملوا أمرهـــا .

لا تقلقوا من أجلى ، فإن رئيسى قد فعل كل خير من أجلى . وعليكم أن تولوا المجندين كل اهتمامكم ، فلا تدعوهم يفرون ، أو يجوعون .

ثمة أمر آخر تبلغونه لامنحتب العامل . . والملاحظ « بنباون - خر » وهو أن يتوسلوا إلى آمون وآلهة مدينة « هابو » أن يعيدونى سليماً معافى من غمار الحيـــاة » .

من تحتمس ، كاتب مقبرة ملايين السنين العظيمة لفرعون ، رمز الحياة

---

(١) أى أرض الشمال وأرض الجنوب .

والرخاء والصحة ، إلى « بتح - آمون » كاتب المقبرة :

« إنى أتوسل كل صباح إلى « آمون - رع - حر آختى » حين يشرق وحين يغرب ، أن يهبك الحياة ، والرفاهية ، والصحة ، وأن يحوطك بالرعاية أمام الآلهة والناس . . . لا تهمل أية مهمة تتعلق بشئونى فى الحقول ، وأعنى بذلك القمح الذى ستزرعه ، وأغرس الخضراوات من أجلى كذلك . وعليك أن تحيط برعايتك « شلملوا » وأطفالها ، و « حمشيرى » ، وابنتها كذلك ، إننى ما زلت على قيد الحياة ، فلا تنزعجوا من أجلى . . . » .

من تحتمس إلى « بتح - آمون » والمرتلة « شلملوا » :

« . . . إنى أتضرع إلى آمون رع ، ملك الآلهة ، وإلى آلهة الأكام والروابى التى أعيش عليها ، أن يعيدونى . . . حتى يتسنى لى أن أضمكم إلىّ ما دمت على قيد الحياة .

كيف حالكم ؟ وكيف حال « حمشيرى » ، وابنتها والكاتب ؟؟؟ « أمنحتب » ، و « تاكيميني » الابن ، و « شلسموت » ، وبقية الرجال . . ؟ ما معنى أن تمر كل هذه الأيام دون أن تبعثوا (خطاباً) واحداً ؟ اكتبوا إلىّ .. وأخبرونى عن حالكم ، خيراً كان أم شراً ، ولتسلموه إلى الرجال الذين سيحضرون إلى هنا . : ولسوف يسلمونه بدورهم إلى الكاتب « قنخنوم » الذى سيبعث به إلى . . . مع الرجال الذين يفدون من « الفنتين » . . »

وفضلا عن ذلك ، لا يغيب عن بالكم أن تأخذوا المياه إلى آمون المتربع على عرشى الأرضين ، وأن تتوسلوا إليه أن يعيدنى من « يار » حيث أقيم ، إذ أن النعاس لا يطرق جفونى سواء بالليل أو بالنهار ، فقد استبد بى القلق عليكم . وعلاوة على ما تقدم لا تنسوا أن تأخذوا المياه إلى آمون ، المتصل بالخلود ، وأن تتضرعوا إليه بقولكم : أو تعيده إلينا سالماً ؟ كما لا تنسوا أن تبعثوا إلىّ برسالة . . »

وإنى لأتوجه كل يوم إلى « حوريس » إله « كوبان » بالدعاء لكى

عنحكم الحياة ، والرخاء ، والصحة ، ولتتوسلوا إلى آمون ... آمون ذو الوجه المليح ، وإلى « مرسيجر » أن يعيدنى حياً سليماً حتى أضمكم إلى صدرى فى الفناء المكشوف لآمون المتربع على عرشى الأرضين » .

من تحتمس إلى الكاتب « كاروى » والكاتب « بتح - آمون » :

« إنى أتوجه (كل يوم (بالدعاء إلى « خنوم » ، و « ساتيس » ، و « أنوكيس » لكى يطيلوا فى أعماركم ويهبوكم الصحة ، ويبعثوا فيكم نضرة الشباب . (ثم يلى ذلك بعض تعليمات خاصة بصنع بعض السهام) .

ليت شعرى ، ما معنى علم الكتابة إلىّ مما تكنه قلوبكم ؟ إن آمون مطلع عليكم . إنى لأتمنى لو أن « حمشرى » مختفية هنا ! أرجو أن تكتبوا إلىّ ، وألا تكفوا عن الكتابة إلى عن أحوالكم . أتمنى لكم دوام الصحة ، التوفيق » .

لاحظ كيف بدأ تحتمس يتوجه بالدعاء إلى الآلهة المحلية لبلاد النوبة من أجل خير أصدقائه الذين يشتاق لرؤيتهم جميعاً . وأن الإنسان ليتساءل عن ذلك الشىء الذى لم يتوخوا الصراحة بشأنه . ويمكن أن نحدس بأنه كان شيئاً يتصل بعواطف « حمشرى » نحوه . ويستشف من الخطابات التى أرسلها فيما بعد أن بعض الأطفال الذين كانوا تحت وصايته قد حضروا للإقامة معه ، مما سرى عنه بعض الشىء وفى الخطاب التالى يستفسر فى الحال عن « حمشرى» وابنتها ويطلب من « بتح - آمون » أن يدعو آمون المتربع على العرشين : « فلتعده سالماً وتكتب له سلامة الوصول إلى مصر من تلك البلاد النائية التى يعيش فيها ، لكى تراه واقفاً فى فنائك المكشوف بعد أن كتبت له الخلاص » . وهذا الفناء المكشوف يقع فى معبد رمسيس الثالث على مقربة من بيت « بتح - آمون » ، وما زال سليماً حتى الآن . وفى مقدورك أن تقف هناك اليوم حيث « ضم إلى صدره » « بتح - آمون » و « حمشرى » حين وصل إلى أرض الوطن (وأملنا أن يكون قد وصل بالفعل (. وفيما يلى بعض المقتطفات من رسالة أخرى :

من تحتمس إلى « بتح - آمون » ، والمرتلة « شدمدوا » ، و « حمشيرى» منشدة آمون :

« إنى أدعو حورس إله كوبان ، وحورس إله عنيبة ، وآتوم إله الأرض أن يهبكم الحياة والرخاء والصحة ، وحياة مديدة ، وشيخوخة منعمة حصيفة، وأن تشفعوا لدى آمون المتربع على عرشى الأرضين ، إلهى الكريم ، أن يعيدنى حياً معافى ، لكى أتمكن من ضمكم إلى صدرى حين عودتى من « يار» حيث كتبت على العزلة فى هذه الأرض النائية .

وقد سألت الدكتور « ونت » عن موقع « يار » ، هذه فأجابنى بأن موقعها لم يعرف بعد . وقد يكون تحتمس قد استخدم هذا التعبير للدلالة على الجحيم !

ثم يقول تحتمس :

« إننى الآن على وفاق مع رئيسى ، فهو لا يهمل أمرى ، ذلك أنه أمر أن تصرف لى جرة من « المدكت » كل خمسة أيام ، وخمسة أرغفة من الخبز أتناولها كل يوم ، وكذلك جرة من « النو » بينما هو يتسلم كل يوم خمس جرار من « الهن » مليئة بالجعة أثناء عمله . ولقد زال عنى المرض الذى كان قد أصابنى ولا تقلقوا أنفسكم بسببى بعد أن عاد الأطفال الذين كانوا يقيمون معى . . . لا تنزعجوا من أجلى لأى سبب من الأسباب ، فإننى على ما يرام . ولتدعوا آمون . . . الخ » .

ويعقب ذلك ذكر عدد من الأشياء ينبغى على « بتح - آمون » أن يعتنى بأمرها حتى يصل إلى ذكر تفاصيل عن أشياء ساذجة مثل : عليك أن ترعى أمر الجحش الذى ولدته حمارة « نوفريتى » وتدربه ، ولا تنس أن تعتنى بأمر الطائر الصغير وأن تعمل من أجله كل ما ينبغى عمله . ولتقل له . . « ادع آمون أن يعيده إلينا . . . » .

وفيما يلى أحد الردود التى بعث بها « بتح - آمون » :

« . . . إنى أتوجه بالدعاء كل يوم . . . إلى كل إله وكل آلهة يتسنى لى رؤيتهم كل يوم أن يهبوك الحياة ، والرخاء والصحة ، ونعم كثيرة فى ظل الرب . وليكتب لك آمون عوداً سالماً حتى أمتع النظر بمرآك . . وحتى يمكن لإخوتك ومن هم تحت وصايتك أن . . . يضموك إلى صدورهم » .

ثم يواصل حديثه فيطمئن تحتمس بأن الغلة قد زرعت والخضراوات قد اعتنى بأمرها وأنه يرعى شئون المنشدة « شلملوا » وأطفالها و « حمشرى » وأطفالها ، تلبية لرغبته .

« والحق أنهم على قيد الحياة ، اليوم ؛ وغداً يلقون الله ، وإنك الوحيد الذين يرغبون فى رؤيته ... أما بخصوص قولك : « لا تهمل الكتابة إلى بشأن أحوالك » فما عسى أن يحدث لنا طالما أنت باق على قيد الحياة ؟ إنك أنت الذى ينبغى عليك أن تكتب لنا عن أحوالك . . . ونتمنى أن تكون صحتك على ما يرام . . . » .

وآخر ما يرد من طيبة هى أنباء طيبة نفسها التى تبعث الدفء فى قلب تحتمس الوحيد المسكين فى مكانه النائى :

« . . . الأطفال الآن فى خير حال . و « حمشرى » وابنتها على ما يرام ، لم يصبهما أى مكروه . أما رجالك فكلهم أحياء ، منعمون ، وفى صحة جيدة ، وأنت الوحيد الذى يتوجهون بشأنه بالدعاء إلى آمون المتربع على عرشى الأرضين لكى يعيدك سالماً ، مرفهاً ، متمتعاً بأسباب الصحة . . » .

وما أن فرغت من قراءة هذه الرسائل حتى أصبحت مهتماً بأمر هذه الجماعة الصغيرة الجذابة من الناس الذين عاشوا قبل ميلاد المسيح بفترة تعادل الزمن الذى مر على مجىء وليم الفاتح بعد الميلاد ، وقد استرعى بصرى نبأ ورد فى أحد تقارير « أركل » التى نشرت فى « صحيفة علم الآثار المصرية » عام ١٩٥٠ ، وقد جاء فى هذا التقرير أن أركل لاحظ فى « سابو » ، على مقربة من « جلدى » ، التى لا تبعد بدورها كثيراً عن « تومبوس » الواقعة

على النيل فى السودان ، لاحظ بعض النقوش التى تشير اثنان منها إلى « الكاتب تحتمس » . وقد أذهلنى ذلك النبأ ؛ أيمكن إذن أن تكون هذه المنطقة هى أرض « يار » ؟ وإذا كان هذا هو تحتمس الذى نحن بصدده ، فإن التعليل المعقول لتعيينه فى هذه البقعة النائية هو وجود محجر فى « تومبوس » ، وقد استمر هذا المحجر يستخدم مورداً للجرانيت الأشهب الذى كان يستعمل فى إقامة التماثيل الملكية بعد أن شيد تحتمس الأول « على الأرجح » قلعة هناك حوالى سنة ١٥٢٨ ق . م بمدة طويلة . ومن المرجح أن تحتمس كان يقيم فى هذه القلعة بالذات .

وهنا تبرز أهمية جمع النقوش مرة أخرى . وكم كان بودنا أن يكون فى حوزتنا نسخ طبق الأصل من هذه النقوش !

— ١٠ —

قبل تبادل هذه الرسائل المفعمة بالحسرات والحنين إلى الوطن بأحد عشر عاماً سطر خطاب آخر ذو علاقة بصديقنا « تحتمس » وبالأحداث التي لحقت بمصر . هذا الخطاب محفوظ في متحف « تورين » ، وهو موجه من الملك رمسيس الحادي عشر ، ويستهله بمقدمة ملكية في أسلوب منمق — وكانت سلطة الملك حينئذ على وشك الانهيار — وفيما يلي ترجمة برستد لهذه الرسالة :

« حورس . . الثور المكين ، محبوب رع ، محظى الآلهتين ، ذو القوة المكين ، داحر مئات الألوف ، حورس الذهبي ، واهب الحياة للأرضين ، صاحب الجلالة — رمز الحياة ، والرخاء ، والصحة — العادل . ملك مصر العليا ومصر السفلى ، رب الأرضين ، ابن رع ، رب التيجان ، رمسيس :

أمر ملكي صادر إلى ابن الملك ، حاكم قادش . . . « پانحسي » ، توجه إلى كبير خدم فرعون رمز الحياة ، والرخاء ، والصحة ، ومره بأن ينجز العمل الذي كلفه به فرعون — واهب الحياة والرخاء والصحة — مليكه ، ذلك العمل الذي أرسل لأدائه في الإقليم الجنوبي » .

ثم يعقب ذلك تفسير كنه العمل المنوط به ، وهو إنجاز بناء « معبد خفيف للآلهة العظيمة » ، وشحنه ، وإحضار بعض الحجارة و « أزهار نبات « الكالتا » وعدد كبير من الأزهار الزرقاء (للصباغة) ؛ لوازم الصناع » .

كل ذلك لمطاردة خادم كسول ! ولكن ثمة مزيداً من الأمور الخطيرة كانت تبدو في الأفق تخبئها القدر لرمسيس الحادي عشر ، أمور أجل وأخطر من المعابد الخفيفة والأزهار الزرقاء ، كانت إيذاناً بانتهاء عهد بأكمله — نهاية

عهد الفراعنة الحقيقيين الذين حكموا مصر القديمة ، إذ فى خلال عامين اندلعت نار حرب أهلية فى « طيبة » ، وقدم « پانحسى » من بلاد النوبة ، لا يحمل معه زهوراً زرقاء ، بل يصحب جنوداً نوبيين يخمد بهم لهيب الحرب . وعقب ذلك بفترة وجيزة شغل رجل يدعى « حرحور » منصب نائب الملك خلفاً لپانحسى ؛ وأصبح نائب الملك حرحور ، بصفته كاهناً أكبر ونائباً للملك ، هو الحاكم الفعلى لمصر العليا . ويقول البعض إنه كان ملكاً بالفعل ؛ ولكن جاء فى رسالة بعث بها تحتمس بعد عشر سنوات : « هل فرعون ما زال سيداً ؟ » ومن ذلك يتبادر إلى الذهن أن فرعون كان لا يزال هناك ، مجرد رمز ، يأتمر بأمر كاهنه الأكبر الذى كان يشغل منصب نائب الملك . وفى ذلك الوقت كان الكاهن الأكبر ، نائب الملك . هو « پاعنخ » ، ابن « حرحور » — وهو بعينه القائد « پاعنخ » الذى كان يعمل فى خدمته تحتمس المتاع شوقاً إلى الوطن وهو فى أرض « يار » .

وقد دام حكم هؤلاء الملوك الكهنة زهاء ١٢٠ عاماً كانوا خلالها فى صراع دائم مع الأسرات الحاكمة الليبية التى سيطرت على مصر السفلى . وقد شاعت الفوضى فى هذه العصور التى أستغلق أمرها على المؤرخين . وهى لا تعنينا فى شىء سوى أنها تركت بلاد كوش مستقلة استقلالا فعلياً ، إن لم يكن اسمياً ، وأن الكهنة المصريين اللاجئين فى بلاد النوبة وغيرهم بذلوا الكثير فى سبيل تمصير طريقة الحياة فى البلاد . ثم دارت عجلة التاريخ دورة مذهلة ، ذلك أن كوش هزمت مصر :

وكانت مقاطعة « نباتا » — الواقعة فى أعالى منطقة « دنقلة » الغنية — هى مقر ملوك كوش ومن المرجح أنهم من سلالة الزعماء الذين دفنوا فى المقابر العظيمة فى « كرمة » . ولم يعد ملوك « نباتا » يضحون بأتباعهم — فقد تم تمصيرهم فى ذلك الحين — ولكنهم التزموا العادة القديمة التى كانت تقضى باستخدام الأسرة فى المدافن الملكية .

وليس هناك سوى بضعة سجلات مدونة عن نشأة مملكة كوش ، وكل الشواهد التى لدينا مستمدة من الجبانات الملكية فى « كورو » و « نورى » فى منطقة « نباتا » . فى هذه المنطقة تتدرج المقابر من مجرد حفرة بسيطة تعلوها كومة من التراب إلى أهرامات منحدرة تضم أسفلها غرفاً للدفن . ويقدر العلماء أن تاريخ هذه الجبانة يبدأ سنة ٨٦٠ ق . م . ولم يعرف حتى الآن أسماء أصحاب الست عشرة مقبرة الأولى . ثم تأتى مقبرة شخص يدعى « پعنخى » . ويعتقد بعض العلماء أن تسمية هذا الملك بنفس الاسم الذى كان يحمله القائد « پاعنخ » الذى تحدثنا عنه والذى عاش منذ قرنين من الزمان يدل على أن ملوك كوش يرجع أصلهم إلى « طيبة » . ولكن بالنظر إلى أنهم كانوا قد تمصروا فليس لذلك أهمية كبيرة ، والأرجح أنهم كانوا من أصل وطنى .

إننا نعلم أن « كاشتا » والد « پعنخى » كان قد بدأ غزو مصر ، وجاء « پعنخى » ، أول ملك عظيم يتولى الحكم فى عهد هذه الأسرة الخامسة والعشرين ، (والتى تعرف باسم الأسرة الأثيوبية) فأتم هذا الغزو . وقد دون هذا الملك القصة برمتها على لوح طوله ست أقدام وعرضه خمس أقدام . وعثر بوصات فى معبد آمون المقام على جبل « بركال » بإقليم « نباتا » سنة ٧٣١ ق . م وتحكى القصة كيف أن « پعنخى » أرسل جيشاً استقل عدة قوارب ليحارب ضد « تافنخت » فى « سايس » ، وحدثت معركة بحرية فى مكان ما شمال طيبة . وقاد بنفسه جيشاً حتى وصل إلى « هرموپوليس » فى مصر الوسطى ، واستولى عليها فى غضون ثلاثة أيام ، ووجد أن « نمرود » أمير « هرموپوليس » لم يقم بإطعام الخيول كما يجب أثناء حصار المدينة ، إذ كان « پعنخى » مولعاً بالخيول . وكان « نمرود » من الفطنة بحيث أحضر معه فرساً أصيلا قدمه إلى « پعنخى » عند التسليم . وتضم اللوحة صورة لهذا الحصان . ثم وصل « پعنخى » إلى « ممفيس » واستولى عليها بعد أن أبحر بسفنه حتى بلغ أسوارها إبان ارتفاع النيل ، لدرجة أن الأجزاء الأمامية من السفن برزت فوق تلك الأسوار .

وأصبحت مملكة كوش ومصر تمتد الآن من « نباتا » إلى البحر المتوسط ، وكانت « نباتا » هي مقر الحكم . ونقل « شباكا » — الذي تولى الحكم بعد « بعنخي » سنة ٧٠٧ ق . م — العاصمة إلى طيبة . وهو بعينه الملك « سو » الذي ذكر في التوراة . وكان « حوشيا » ملك إسرائيل تابعاً لملك « آشور » ، ولكن ملك آشور وجد أن « حوشيا » يتآمر عليه ، إذ بعث ببعض الرسل إلى « سو » ، ملك مصر ، ومن ثم كف عن دفع الجزية إلى ملك « آشور » الذي ألقاه في غياهب السجن . وكانت هذه هي بداية التدخل في شئون سوريا وفلسطين الذي أثار حنق الملوك الأشوريين ووضع حداً في النهاية لسيطرة كوش على مصر .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الوسيلة التي تحول بها الأسلحة الجديدة مجرى التاريخ أحياناً إلى روافد جديدة ، فبينما كان الأشوريون يستخدمون الأسلحة المصنوعة من الحديد ، وكانوا يخلفون أثرهم هذا في الجزء من آسيا الواقع على البحر المتوسط ، كان الغزاة من العناصر الكلتية الذين كانوا يحملون أيضاً أسلحة من الحديد يطاردون الأيبريين والسكان الذين كانوا يصنعون الأقداح من البرنز في بريطانيا . وكانت قرطاجة تزدهر في هذه الآونة ، وروما قد تم تأسيسها ، والدويلات اليونانية في طريقها إلى الظهور ، وكان مقدراً لهاتين الدولتين الأخيرتين أن تسيطرا بدورهما على مصر ، ولما يمض وقت طويل بعد .

وفي عام ٦٨٩ ق . م توج « طهراقة » — وهو الملك الذي يلي « بعنخي » من الملوك ذوي الشأن في حكم كوش ومصر — في كل من « تانيس » و « طيبة » . وقد قام طهراقة بتشييد معبد له من الصخر في جبل « بركال » ، كما أمر بنحت أربعة تماثيل ضخمة له على وجه هذا الجبل المنعزل الذي كان مقدساً بالنسبة لآمون رع ، إله الهواء . ومن المؤكد أنه كان يحاول أن يفوق معبد أبي سمبل والتماثيل التي أقامها رمسيس الثاني هناك . ولكن حتى نوع الأحجار كان أقل جودة من التي نحت منها معبد أبي سمبل ، كما أن رياح

آمون قد أبلت تماثيل « طهراقة » فى جفاء وغلظة . وقد يكون هناك معبد لم يكتشف بعد فى الجبل ، بين التمثالين اللذين يقعان فى الوسط ، كما هو الحال فى أبى سمبل . ولكن هذه البقعة بعيدة عن منطقة الخطر . ولذا يمكن لها أن تنتظر .

وبعد ذلك أحضر « آسر حادون » ، ملك آشور ، جيشاً منظماً مزوداً بعتاد قوى ، وطارد « طهراقة » نحو الجنوب ، ثم استولى على « ممفيس » ، وعين « آسر جادون » عشرين من تابعيه حكاماً على هذه الأقاليم ، ثم عاد إلى وطنه حيث توفى عام ٦٦٨ ق . م ، وحينذاك عاد « طهراقة » إلى الظهور فى الدلتا وطرد أولئك الحكام . وقام « آشور بانيبال » ، بن « آسر حادون » بغزو طيبة والاستيلاء عليها . وهرب « طهراقة » إلى كوش حيث حفر بعض النقوش التى يزعم فيها أنه قد أوقع الهزيمة بالآشوريين والحيثيين وقبائل الصحراء الشرقية . وبعد أن طاب نفساً بهذا العمل مات سنة ٦٦٣ ق . م ، ودفن فى هرمه الذى أقامه فى « نورى » بنباتا .

ورأى خلفه « تانوت ـ آمن » فى المنام أنه أخذ حيتين ، كل واحدة منهما فى يد . وقد فسر هذا الحلم بأنه يود استعادة مصر كلها من بين براثن الآشوريين . وبدأ المسير وفى طيبة أكرموا وفادته . وواصل سيره حتى بلغ « ممفيس » . ولكن حلمه انتهى عند هذا الحد ، ذلك أن قوات « آشور بانيبال» وصلت حينذاك ، فهرب « تانوت ـ آمن » عائداً إلى « نباتا » . ودمرت طيبة على يد الآشوريين سنة ٦٦١ ق . م ، وأصبح « أبسماتيك الأول » ، أحد أتباع « آشور بانيبال » فى الدلتا ، ملكاً على مصر العليا ومصر السفلى .

وهكذا انتهى حكم ملوك كوش لمصر الذى دام خمسة وسبعين عاماً . ولم يقم ملوك كوش بمحاولات أخرى لاستعادة مصر ، على الرغم من أنهم استمروا يطلقون على أنفسهم اسم ملوك مصر العليا والسفلى مدة ألف سنة أخرى أو نحو ذلك .

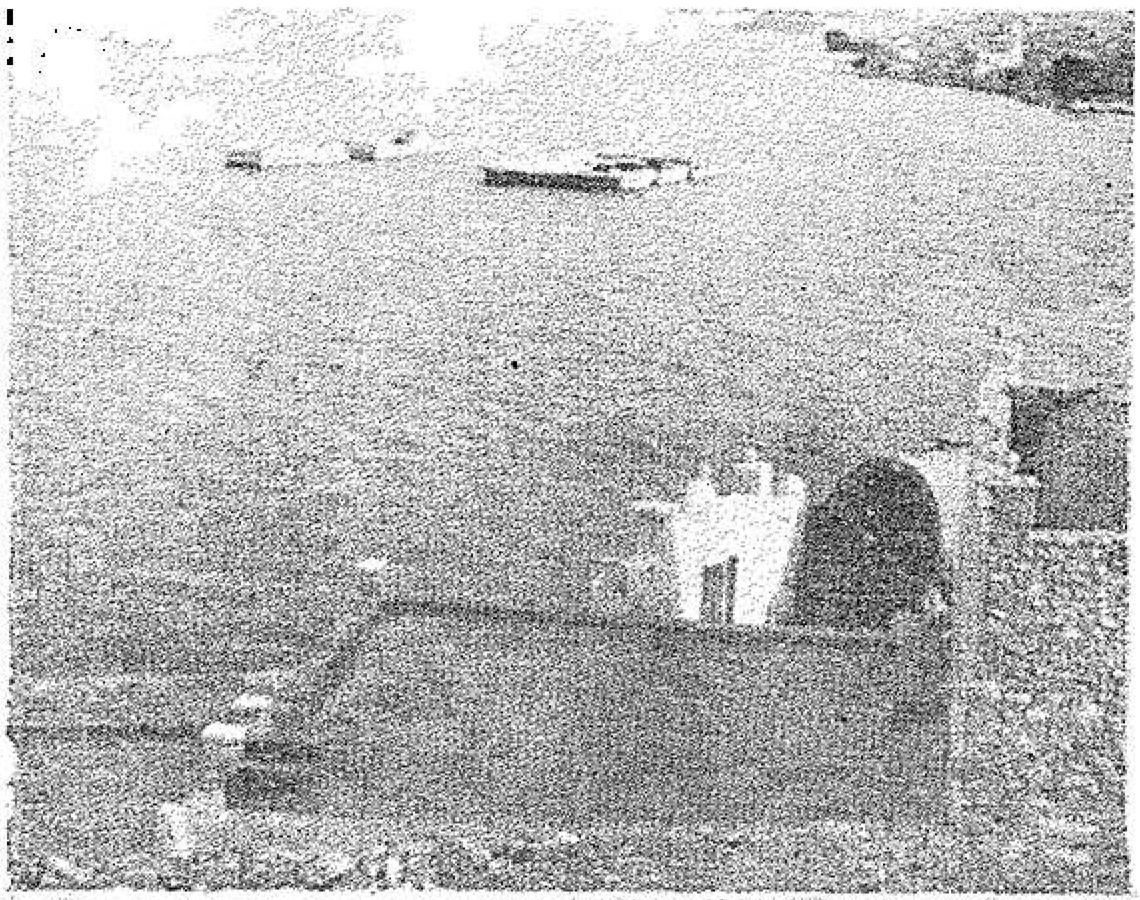

معبد كلابشة فى الوسط ، وقد شيد إبان عهد الإمبراطور الرومانى أوجسطس . وتغرقه الآن مياه سد أسوان الحالى معظم أيام السنة

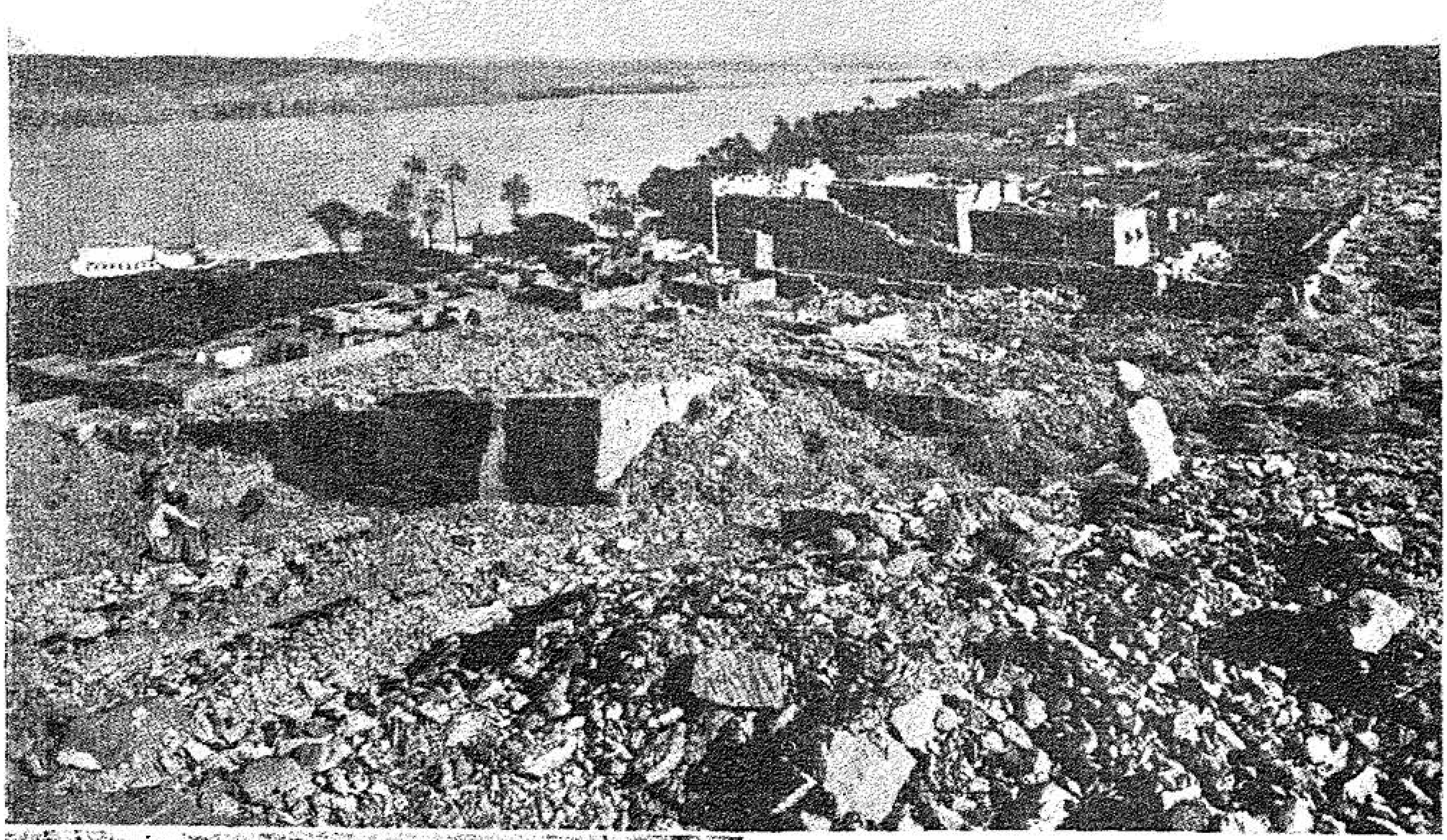

نفس المنظر منذ خمسة وخمسين عاماً

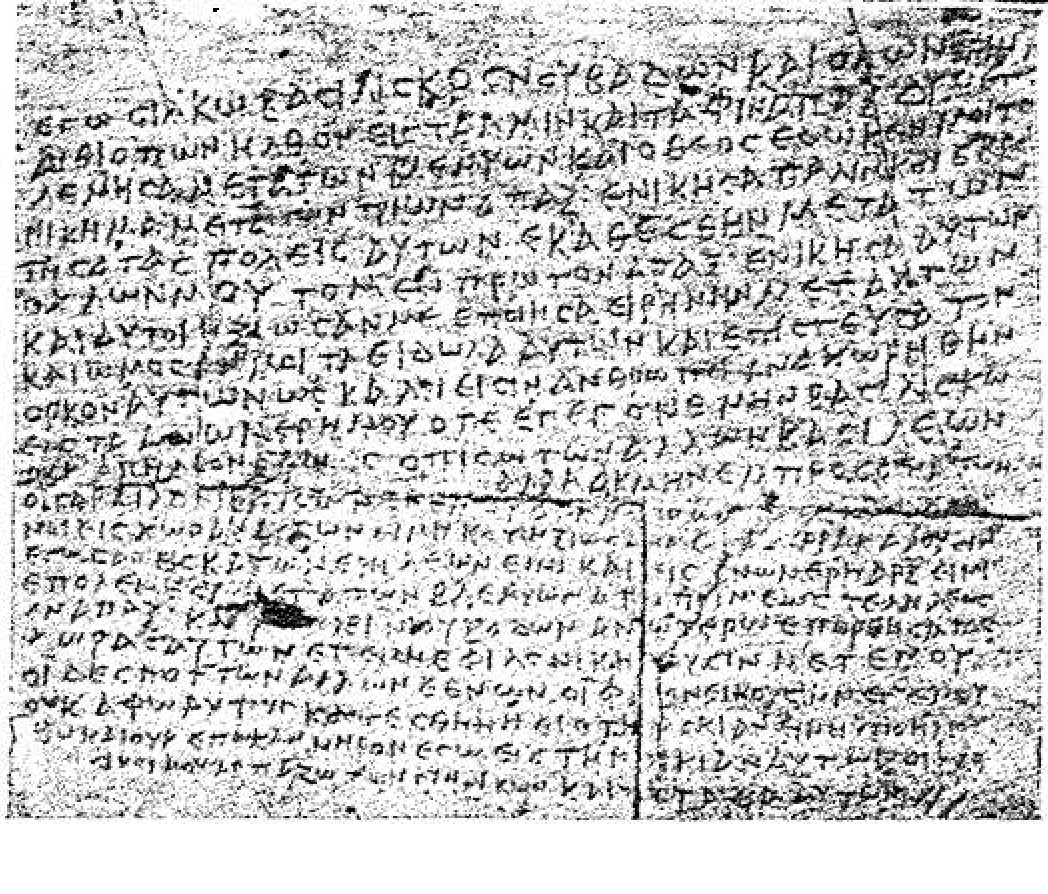

النقوش اليونانية للملك « سلكو » فى معبد كلابشة ، ويدعى فيها بأنه هزم البليميين

يرجح أن هذه البقايا الخاصة بكنيسة وموقع مسيحى منيع فى « بخيت » يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر بعد الميلاد . وهى نموذج لمواقع أخرى عديدة شيدت حينما كانت المسيحية تتخذ موقف المدافع فى هذه البقعة من النيل التى يندر أن يزورها أحد الآن . وقد التقط برستد هذه الصورة منذ خمسة وخمسين عاماً

جزيرة ساى فى النوبة السودانية ، وهى تضم مخلفات من عهد الأسرة الثامنة عشرة على الأقل بما فيها مقابر لم يتم التنقيب عنها قط . وهذه الأعمدة عبارة عن بقايا كنيسة مسيحية

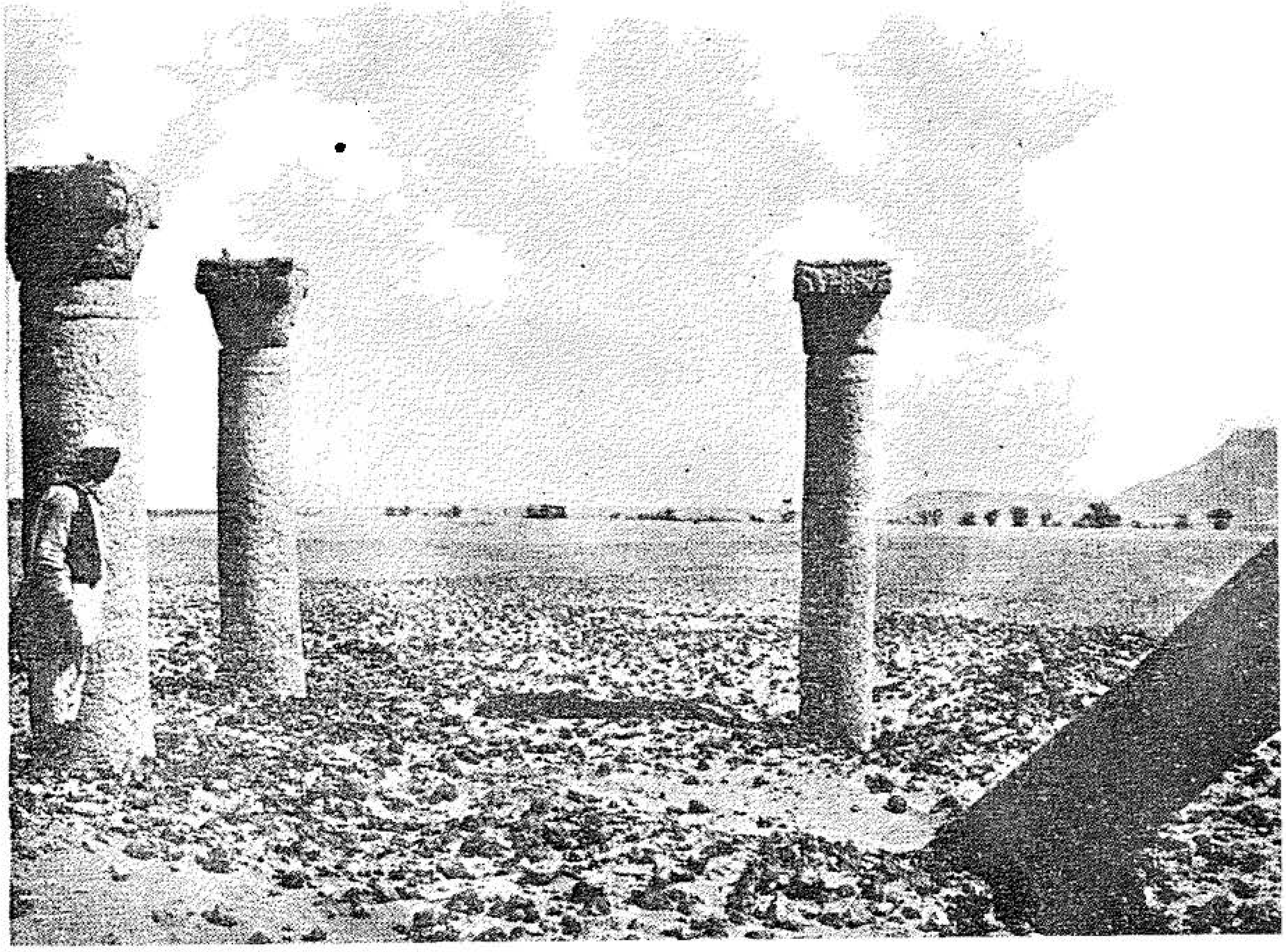

وبعد مرور حوالى ١٢٠ سنة على انسحاب ملوك كوش من مصر ، نقلت عاصمة كوش إلى « مروى » عبر انحناءة النهر الكبيرة ، حيث طوروا أسلوباً فنياً خاصاً بهم يشبه أسلوب الفن المصرى إلى حد كبير ، كما استحدثوا حروفاً أبجدية كتبت بها اللغة المروية التى لم تحل رموزها بعد . وتنوعت العلاقات مع مصر منذ ذلك الحين ، ولكن لم تعد ثمة منازعات شديدة بينهما ، أما تاريخ أسراتهم المعقد فيخرج عن نطاق بحثنا الحالى .

ويحكى هيرودت — الذى يمكن الاعتماد عليه دواماً فيما يختص بالقصص الطريفة ، وإن لم تتصف معلوماته التاريخية دائماً بالدقة — كيف اختير « أبسماتيك » ملكاً على مصر . يقول إن الاثنى عشر تابعاً الذين عينهم « آشور بانيبال » عقدوا فيما بينهم اتفاقاً ودياً متبادلا قائماً على أساس نبوءة تقضى بأن « من يسكب منهم الخمر المقدس من إناء برونزى فى معبد « هيفا يستوس » ، حيث اعتادوا أن يجتمعوا ، ينبغى أن يصبح ملكاً على مصر كلها » . وفى أحد هذه الاجتماعات المتبادلة التى يشيع فيها علم الثقة ، أخطأ الكاهن الأكبر فى الحساب ، فلم يحضر سوى أحد عشر قدحاً ذهبياً من الأقداح التى تسكب منها الخمر ، ولذا فإن أبسماتيك ، الذى وقف آخر الجمع ، لم يحصل على قدح فسكب خمره من خوذته البرونزية . ولم يكن هذا من قبيل الخداع ، إذ أن الملوك كلهم كانوا يضعون مثل هذه الخوذات على رءوسهم ؛ ومع ذلك قرَّ عزم الباقين على أن يجردوه من معظم سلطته ، فقاموا بمطاردته فى المستنقعات . ولما شعر بالأسى استشار أحد الكهنة فأخبره بأنه ينبغى عليه أن يأخذ بالثأر حين يقع بصره على رجال من البرونز قادمين من البحر . وأعتقد أن هذا أكثر مما يؤمل . وعلى كل ، فقد أخذ يراقب البحر ، إذ لم يكن لديه ما يعمله على شواطئ المستنقعات ، ولكن ويح له ! انظر ! ها هم رجال يرتدون دروعاً من البرونز قد جاءوا بالفعل وهم يخوضون فى المياه متجهين نحو الشاطئ . لقد كانوا من « الأيونيين » و « الكاريين » ، وهم من القراصنة المحترفين ، أجبرتهم العاصفة على الالتجاء إلى الشاطئ .

ووعدهم أبسماتيك أن يجزل لهم العطاء إذا انضموا إليه . واستطاع بمعاونتهم أن يقضي على منافسيه الأحد عشر وينصب نفسه سيداً على مصر .

واستقر « الأيونيون » و « الكاريون » عند المصب البلوزى للنيل . وعقب ذلك بفترة طويلة اصطحبهم الملك « أمازيس » إلى « ممفيس » ليكونوا حرساً خاصاً له . ويقول هيرودت : « لا زالت آلات رسو سفنهم (آلات الرفع) وحطام بيوتهم باقية حتى عصرى هذا » . وهذا من الجائز ، إذ لم يكن قد مر على هذه الأحداث سوى مائتى عام .

ثم يقص هيرودوت على مسامعنا رواية هؤلاء اللاجئين من البحر ، ولكنى أحبذ رواية « تيودور الصقلى » وهى رواية أكثر طرافة . يقول « تيودور » إن « أبسماتيك » استولى على مصر بمساعدة الجنود المرتزقة من بلاد العرب ومن « كاريا » و « ايونية » ، ومن ثم استقر هؤلاء عند المصب البلوزى . ونقلهم بعد ذلك الملك « أمازيس » إلى « ممفيس » كحرس خاص له . ولكى يكرمهم أثناء حملته السورية ، وضعهم أبسماتيك على يمين خط المعركة وحط من شأن المصريين « الطبيعيين » بوضعهم على اليسار ، فاستشاط المصريون غضباً .

« . . . لدرجة أن مائتى ألف منهم ثاروا عليه واتجهوا إلى « أثيوبيا » لكى يستقروا فى مواطن جديدة . وأرسل الملك فى أثرهم بادئ الأمر بعض قواده لكى يعتذروا عن الإهانة التى لحقت بهم ؛ ولما لم يعيروا هؤلاء انتباهاً ، تبعهم الملك بنفسه ، بصحبة بعض النبلاء ، عن طريق البحر . ولكنهم واصلوا سيرهم ودخلوا مصر على مقربة من النيل ، حيث توسل إليهم أن يثنوا عن عزمهم ، وأن يذكروا آلهتهم ، ووطنهم ، زوجاتهم ، وأطفالهم ؛ ولكنهم صاحوا صيحة رجل واحد ، وهم يدقون بأيديهم فوق دروعهم ، ويلوحون بسهامهم ، إنهم طالما يملكون أسلحتهم فى أيديهم ، يستطيعون فى يسر بلوغ دولة أخرى ؛ ثم قلبوا طية معاطفهم وأظهروا أسلحتهم السرية ، وهم يصرخون قائلين طالما أنهم مزودون بهذه الأسلحة ، فلن يعدموا مطلقاً

زوجات أو أبناء . ولما كانوا يمتازون بهذه الإرادة القوية وبهذا الإباء والشمم فقد كانوا يزدرون كل شيء يبدو ثميناً قيماً في نظر الآخرين ، وهكذا استقروا في تربة غنية منتجة في « أثيوبيا » ، وقسموا الأراضي فيما بينهم ، كل حسب نصيبه » .

ويقول « هيرودوت » إنهم استقروا أعلى المجرى من « مروى » ، على بعد يساوى المسافة من الفنتين إلى هناك ، ثم يقول : « يستغرق السفر إلى بلاد المهاجرين — حيث ينساب النهر من الغرب إلى الشرق — مدة أربعة شهور » . وهذا يجعل مقرهم على مقربة من المكان الذى يتصل فيه نهر « السوباط » بالنيل (؟) وفي هذا المكان ينساب النهر من الغرب إلى الشرق بالفعل . ومن الغرابة أن يعرف هيرودوت ذلك[1].

وعلى الساق اليسرى من التمثال المهشم القائم على واجهة معبد « أبى سمبل » يوجد نقش ردىء الصنع بلغة يونانية ركيكة يفيد أن : « الملك أبسماتيك قد حضر إلى الفنتين ، وأن هؤلاء الذين كانوا في معية أبسماتيك بن « ثيوكليس » ، هم الذين قاموا بكتابة هذه الكلمات .

لقد ساروا في النيل حتى وصلوا جنوب « كرجوس » حيث لا يمكن عبور النهر بعد ذلك . وكان الجنود المرتزقة تحت إمرة « بوتاسيمتو » ؛ وكان المصريون بقيادة « أمازيس » . وقد كتب هذه السطور « دامبركون » بن « أموبيكس » و « بيليكوس » بن « أوداموس » . وقد ظن العلماء لفترة طويلة أن هذا يعتبر سجلا لرحلة المهاجرين ؛ ولكن لسوء الطالع يشير في الحقيقة إلى حملة عادية أكثر تنظيما من الأخرى أرسلها « أبسماتيك الثانى » وتوغلت فيما وراء « نباتا » إلى أسفل الشلال الخامس ، وربما لمجرد رفع العلم على هذه المنطقة عام ٥٩٠ ق . م .

---

(١) ولكن هذا القول لا يتفق مع ما قاله هيرودوت من أن المكان يبعد عن مروى بقدر ما بين مروى والفنتين (أى أسوان) والأرجح أن يكون المكان عند شندى حيث يجرى النيل من الغرب إلى الشرق مسافة مئتين ميلا . وتقع مروى جنوب الشلال الرابع بقليل .

لقد كان عصراً مثيراً ، على الرغم من أن الحياة فى هذا الجزء من النهر لم تكن تضطرب سوى بموجة صغيرة من هذا المد العظيم للأحداث التى كان يموج بها العالم القديم ، ذلك أنه كان عصر الإصلاحات الديموقراطية التى أجراها « سولون » فى « أثينا » ، وكانت الإمبراطورية الآشورية على وشك الانهيار ، ومع ذلك استطاع « نبو ختنصر » أن يستولى على بيت المقدس ويأخذ اليهود أسرى إلى مدينة « بابل » . وفى الوقت الذى كان فيه الأبناء الجدد للمهاجرين يعاونون آباءهم فى حرث أراضيهم الجديدة ، كان زعيم قبيلة صغيرة فى آسيا قد استولى على بابل وأطلق سراح اليهود . وكان اسمه « كورش » . وفى ذلك الوقت كانت التماثيل التى نعجب بها الآن بصفتها ممثلة للفن الإغريقى تنحت فى المصانع . وفى الهند ، كان الأمير « جوتاما » — الذى أطلق عليه فيما بعد اسم « بوذا » — يتأمل تحت ظلال الشجرة فى بودهى . أما فى الصين ، فكان هناك موظف صغير قد وطد العزم على أن ينهل من موارد العلم ، وكان يجوب الآفاق مع حواريه فى زهد وتقشف — وكان اسمه « كنفوشيوس » .

وفى عام ٥٢٥ ق . م غزا « قمبيز » المتوحش ، السكير ، المستبد ، الذى أطلق على نفسه اسم ملك العالم ، غزا مصر (هكذا يقول هيرودوت ، بالإضافة إلى بعض بيانات أخرى قليلة الشأن) . وأعدم الملك الأسير « أبسماتيك الثالث » ، بينما حاول « قمبيز » أن يغزو بلاد « كوش » ولكن جيشه لم يستطع التقدم أبعد من « إبريم » ، كما يقولون . وتروى قصص عديدة عن السهام والرماح والخوذ التى عثر عليها فى أجزاء متفرقة من الصحراء ، وهى من مخلفات « جيوش قمبيز الضائعة » ، ولكنى لم ألمح واحدة منها قط . ويقول « چان دى نيكيو » فى مذكراته « إن جنود قمبيز من الفرس دمروا مدينة أسوان وهم فى طريق زحفهم إلى الجنوب ، ثم عبروا النهر . . . ونهبوا « فيلة » كما فعلوا فى المدن الأخرى » .

ويجدر بنا أن نذكر أن المعابد الشهيرة لم تكن قد شيدت هناك بعد .

وعلى كل ، فلم يترك احتلال الفرس لبلاد النوبة أى أثر فى هذه المنطقة خلال الـ ١٩٣ سنة التى مرت حتى قدوم الإسكندر الأكبر . أما فى العالم الخارجى فقد توالت الأحداث التى منها معركة « ماراثون » ، وحياة « سقراط » وموته ، وعصر « بركليس » ، وعبور صديقنا « هيرودوت » من أثينا لكى يقوم بزيارته لنا .

ويرجح أن حكم البطالمة الذين جاءوا فى أعقاب غزو الإسكندر الأكبر لمصر لم يقابل بالكراهية والنفور ، بل يمكن القول بأنهم لقوا ترحيباً بصفتهم مخلصى المصريين من الفرس . وقد اندمج البطالمة مع أهل البلاد ، فأكرموا وفادة الكهنة المصريين ، وأقاموا المعابد ، وأوقفوا عليها الأموال ، ومن أشهر هذه المعابد وأجملها المعابد التى أقاموها فى « فيلة » .

وكانت الحدود بادئ الأمر فى الجزء الشمالى من بلاد النوبة السفلى ، ولكنها امتدت حتى الشلال الثانى ، وكان امتداداً سلمياً ، فأصبح هناك الآن مستعمرة مصرية فى الشمال ، وجالية مروية (أو كوشية) فى جنوب هذه المنطقة . وتتولى بعثة أسبانية أعمال التنقيب حالياً فى المدينة الواقعة عند « مروى » وفى الجبانة الواقعة فى « أرجين » على مقربة من وادى حلفا . وثمة مواقع أخرى فى انتظار من يقوم بالتنقيب فيها : أحدها قريب يقع عند « عكشة » ، على سبيل المثال ، وموقع آخر عند « سيرة غرب » وكلها فى الجزء من النوبة الواقع فى السودان .

أما معبد « دابود » ، الذى يبعد جنوب أسوان عشرة أميال فقط ، فقد شيده الملك المروى « أرك آمون » حوالى سنة ٢١٠ ق . م فى عصر بطلميوس الرابع . وهو المعبد الذى لم أره قائماً قط ، بل رأيته مقطع الأوصال فى جزيرة الفنتين ، وهو الآن مفكك الأجزاء وعلى استعداد للسفر إلى الخارج ، إذ أنه أحد الآثار التى عرضت الحكومة المصرية إهداءها فى مقابل المعونة الخارجية فى بلاد النوبة .

اما « قرطاسى » ، وهو المعبد الصغير الذى يليه ، فهو المعبد الذى أطلقت عليه « أمليا ادواردز » أنه : « مجرد ركام من الأعمدة الجميلة » ، ويرجع إلى عهد البطالمة . وهذا هو المعبد الذى وقع عليه بصرى — داخل قارب مكشوف — فى ضوء قداحة ، فبدا شيئاً صغيراً ، لا تبلغ مساحته سوى خمس وعشرين قدماً مربعاً ، ومع ذلك سوف يكون صورة جميلة يزدان بها موقع جديد ، وبالمعبد رأسان يمثلان الالهة « حتحور » يقومان بحراسة البوابة ، كما توجد أربعة أعمدة أخرى تنتهى قمتها على شكل زهرة .

وقد بنى « أرك ـ أمون » معبد « د كا » كذلك ، وهو يبعد سبعين ميلا جنوب أسوان ، على مقربة من « أيقور » التى يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشرة ، ثم أضاف بطلميوس الرابع القاعة الخارجية . ويحكى « تيودور الصقلى » أن « أرك ـ آمون » تلقى تعليما يونانياً صحيحاً فى بلاط بطلميوس فى الإسكندرية . ونتيجة لهذا التعليم المستنير ربما ارتاب « أرك ـ آمون » فى الأمر حينما أمره كهنة آمون فى « مروى » أن يقتل نفسه جرياً على العادة الصارمة التى كانت متبعة هناك فى تلك الآونة حين كان الكهنة يقدرون أن الملك على وشك أن يحل محله ملك آخر ولكن « أرك ـ آمون » قدر هذه المرة أن الكهنة هم الذين حان استبدالهم ، فسار نحو « برنب » — أى بيت الذهب — وقطع رقاب الكهنة بنفسه .

هذا وقد اتخذت الترتيبات اللازمة لإنقاذ كل آثار البطالمة فى النوبة من الغرق . وعلى الرغم من أن هذه الآثار لا تبارى الفن العريق الذى خلفته لنا الأسرة الثامنة عشرة ، فإنه يبدو أن لها قيمة كبيرة إذ أنها تتمشى فى الزمن مع الحوادث والناس والأماكن التى تكون جزءاً من صورة الماضى المألوف لنا : أرشميدس ، هانيبال ، تدمير قرطاجنة ، مكتبة الإسكندرية ، أنطونيو وكليوباترا .

وفى عام ٤١ ق . م كان مارك أنطونيو يطوف أرجاء الولايات الشرقية فقابل كليوباترا ، سليلة البطالمة ووريثتهم ، ملكة مصر . وحينما اقتسم

الظافرون الثلاثة : أنطونيو ، واكتافيوس ولپيلوس الإمبراطورية الرومانية فيما بينهم وقع اختيار أنطونيو على مصر وكليوباترا .

تصور الإسكندرية فى ذلك العصر ، ولما يمض على تأسيسها ثلاثمائة عام ، رشيقة ، مرفهة ، مثقفة ، أجنبية ، ليست مصرية على الإطلاق ، إغريقية صرفة فى نظرتها ، وعلاقتها الثقافية ، متجهة نحو الشمال عبر البحر ، وليست جنوباً إلى أعالى النهر ، ولا بد أن الأراضى الواقعة فيما وراء هذه المدينة كانت تبدو أماكن قفرة مجدبة ، عبارة عن ظل خلفى من الحقول ، والفلاحين ، ومورد يقيم أود مجتمعها المتمدين السامى القائم على الشاطئ . وليس من المحتمل أن تكون كليوباترا قد قامت بجولات فى داخل البلاد طيلة حياتها ، ولا يرجح أنها قد شاهدت حتى تمثال أبى الهول . أما عن رحلتها العائمة فى سفينتها الفاخرة عبر « بيت الوالى » فى منطقة النوبة — فهذه صورة خيالية ينبغى علىّ أن أغلق عينى دونها ، على مضض .

أما قصة الحب العظيمة القصيرة الأمد التى طالما ملكت خيال العالم ، فلم تترك أى أثر فى بلاد النوبة ، اللهم إلا نقشاً أو اثنين على الأرجح . وإن الإنسان ليتساءل إلى أى مدى يمكن المبالغة فى قصة حب حين يتعلق بها مصير الملكية ومصير أسرات حاكمة برمتها . وبعد أن تلاقى الحبيبان بعشر سنوات حدثت موقعة « اكتيوم » التى فرت منها كليوباترا إلى مصر بسفنها المدحورة ، وجاء أنطونيو فى أعقابها . ولما حوصرا فى الإسكندرية ، فرغت جعبة الحياة من مسراتها التى كانت تخبئها لهما ، فقتلا نفسيهما . وأصبحت مصر وبلاد النوبة — ولاية رومانية .

ووجد الرومان مملكة كوش القوية تقع على حدودهم الجنوبية سنة ٢٩ ق . م ، وتتخذ من مروى عاصمة لها . وأوضح حاكم مصر « كورنيليوس جالوس » أن المحمية الرومانية تمتد حتى الشلال الثانى ، وعقد معاهدة بهذا المعنى :

وفى أعقاب ذلك مباشرة قام «سترابو» بزيارة مصر، وزار أسوان فى صحبة صديقه الحاكم الجديد «آليوس جالوس». وما من شك فى أنه قضى وقتا طويلا فى مكتبة الإسكندرية، يجمع مادة لكتابه الشهير «الجغرافيا».

ومهما يكن من أمر، فإن أهل كوش القاطنين فى مروى نقضوا المعاهدة بعد زيارة سترابوا للجنوب بسنتين وكانوا قد بدأوا يولعون بشبه الاستقلال الذى كان يتمتع به أهل منطقة الحدود تحت حكم البطالمة الذى اتسم بالتسامح والود. وقد كتب «سترابو» فى أعقاب ذلك سجلا لتلك الأحداث المعاصرة فى كتابه «الجغرافيا».

«تشجع الأثيوبيون حين علموا أن جانباً من القوات الرومانية فى مصر قد ذهب مع «آليوس جالوس» عندما كان يشن حرباً ضد العرب، ومن ثم قاموا بمهاجمة المصريين فى طيبة وحامية سين (أسوان) التى تتكون من ثلاث فرق، وفى هجوم خاطف احتلوا «سين» و «الفنتين» و «فيلة» وأسروا السكان، كما حطموا تماثيل قيصر. ولكن «پترونيوس» قام، على رأس جيش قوامه حوالى ١٠,٠٠٠ جندى من المشاة و ٨٠٠ من الفرسان ضد جيش أثيوبيا المكون من ٣٠,٠٠٠ مقاتل، واضطرهم أول الأمر إلى الارتداد إلى «بسلخيس» (أى «دكا» حيث يوجد معبد «أرجامون») ثم بعث إليهم بالرسل يسألونهم عما استولوا عليه، وعن الأسباب التى دعتهم إلى شن هذه الحرب، وحينما أجابوا بأن حكام الأقاليم قد أساءوا إليهم، أخبرهم بأن هؤلاء لم يكونوا حكام البلاد، إنما يحكمها قيصر. وطلبوا منه أن يمهلهم ثلاثة أيام يتدبرون فيها أمرهم، ولكنهم لما لم يفعلوا ما كان ينبغى عليهم أن يفعلوه «شن هجوماً عليهم وأجبرهم على أن يخرجوا للقتال؛ وسرعان ما لاذوا بالفرار إذ كان ينقصهم النظام والأسلحة الجيدة؛ وكانوا يحملون دروعاً كبيرة مستطيلة مصنوعة من جلد الثيران الخام، وكان بعضهم مسلحاً بالبلط، والبعض بالرماح، والبعض الآخر بالسيوف.. ومن بين هؤلاء الهاربين قواد الملكة «قنديسى» التى كانت تحكم الأثيوبيين فى ذلك

الحين - وهى امرأة يغلب عليها طباع الرجال ، ولا ترى إلا بعين واحدة . كما قام « بترونيوس » بمهاجمة « بسلخيس » والاستيلاء عليها . . . ومن « بسلخيس » واصل سيره إلى « بريميس » ، وهى مدينة محصنة ، بعد أن اجتاز كثبان الرمال التى غلبت جيش قمبيز على أمره حين أطاحت به عاصفة هوجاء . . ومن ثم استولى على الحصن لأول وهلة . . كما استولى على « نباتا » ودمرها عن آخرها حتى سواها بالأرض . . . وعاد ثانية بعد إن استقر رأيه على أن من العسير التوغل فى المناطق التى تقع جنوباً . بيد أنه قام بتحصين « بريميس » فيما بعد ، ووضع فيها حامية قوامها أربعمائة جندى ترك لهم مؤونة تكفيهم لعامين ، ثم شد رحاله إلى الإسكندرية . وفى هذه الأثناء زحفت « قنديسى » تجاه الحامية وقد حشدت آلافاً من الجند،ولكن « بترونيوس » هب لمساعدة الحامية وبلغ الحصن قبل « قنديسى » ؛ وحينما أمن المكان باستخدام عدة وسائل جاء إليه بعض الرسل ، ولكنه طلب منهم أن يذهبوا إلى قيصر (أوجسطس) ؛ وحينما أكدوا له بأنهم لا يعرفون من هو قيصر أو المكان الذى ينبغى عليهم أن يذهبوا إليه ليعثروا عليه ، أرسل معهم بعض الجند يحرسونهم وذهبوا اتوهم إلى « ساموس » إذ أن قيصر كان موجوداً هناك . ولما حصل الرسل على كل شىء توسلوا من أجله ، رفع عنهم كل ظلم حتى الجزية التى كان قد فرضها » .

و « بريميس » هذه هى « إبريم » حيث وقف القارب بالناشر « جادزى » ورفعه البحارة لكى يطلعوه على معابد نواب الملك فى الأسرة الثامنة عشرة وذلك من فوق صخرة مرتفعة عليها بقايا مدينة بها حصن . ولما كانت هذه البقعة ذات أهمية استراتيجية على الدوام ، فلا بد أن الطبقات السفلى منها ترجع إلى عصور قديمة جداً . وسيكون أمراً ذا شأن كبير أن نرى مخلفات هذه الأحداث المثيرة التى سوف تنقب عنها « جمعية الكشف عن الآثار المصرية » ، التى عهد إليها بحفريات « إبريم » . وقد عهد با كتشاف المدينة إلى أيدى ذلك المنقب الخبير ، « سيتون لويد » الذى ظهر له منذ فترة وجيزة

كتاب يحوى معلومات مستفيضة عن الفن القديم فى الشرق الأوسط .

ويبدو أن الملكة « قنديسى » كانت ذات شخصية جذابة . ولعل بعد ذلك بستين سنة كان « رجل أثيوبيا » الخصى صاحب السطوة والجاه إبان حكم « قنديسى » ، ملكة الأثيوبيين ، يجلس فى عربته فى طريق غزة ، وهو يطالع « أساياس » حيث جاء الحوارى فيليب إلية . وليس من المحتمل أن تكون « قنديسى » التى ذكرها « سترابو » ووصفها بالغلظة والخشونة ، ليس من المحتمل أن تكون هى نفس المرأة ، فان « قنديسى » كان لقباً يشبه لقب فرعون . « و « قنديسى » هذه ذات العين الواحدة كانت على ما يلوح أرملة حكمت البلاد حكماً مستقلا من « نباتا » . وليس من « مروى » ويعتقد البعض أنها كانت آخر الحكام الذين دفنوا فى «نباتا» ، وأن الهرم الذى وضع عليه « ريزنر » علامة (×) هو قبرها . وليس ثمة أثر يدل عليها بعد حملة « پترونيوس » ويبدو أن « نباتا » لم تقم لها قائمة بعد هذه الحملة . وظل السلام يسود المنطقة طوال مائتى عام تحت حكم الرومان ، استطاع خلالها شعب الصحراء الشرقية « البليميون » ، أن يتسربوا إلى ذلك الجزء من النوبة ويحتلوه تدريجياً . وكانوا شعباً محباً للحروب ورث أفراده حضارتهم عن مملكة مروى . وأسلافهم اليوم هم قبائل البشاريين و « العبابدة » الذين عرفهم الكتاب العرب القدامى باسم « البجه » .

وأقام الرومان بضعة معابد فى بلاد النوبة ، كما ألحقوا بعض المبانى بالمعابد التى كانت موجودة حينذاك . وكان أكبر عمل يقومون به فى أوائل عهد احتلالهم هو معبد « كلابشة » أكبر معابد النوبة القائمة ، وقد شيد إبان عصر « أجسطس » على موقع من مواقع الأسرة الثامنة عشرة . ويقول « جادزبى » إن المعبد يستحق أن يقطع الإنسان ألف ميل لكى يشاهده ، إذ أنه أثر رومانى ، ويشبه الآثار الموجودة بأثينا أكثر من أى آثار أخرى فى النوبة أو مصر . وقد اعتبره « ماسپيرو » أجمل معابد النوبة على الإطلاق ؛ ولكن « بوكى » والغالبية العظمى من النقاد يقولون إن الزخرفة التى به تبعث

على الأسف . ويقول عنه شامپليون : « لقد جعلوا الجدران غنية بالزخرفة لأنهم لم يعرفوا كيف يجعلونها جميلة حقاً » . وتوجد فى الغرفة الأمامية نقوش تمثل الأباطرة الرومان وهم يقدمون القرابين للآلهة . أما النقوش البارزة الموجودة فى الهيكل فقد احتفظت بلونها حتى ارتفعت مياه الخزان الحالى وأغرقت المعبد بأكمله فيما عدا الجزء العلوى منه . ولكن الرسوم كانت ضعيفة ، وكانت وجوه الآلهة أشبه بوجوه الزنوج ، كما أن الملابس وغطاء الرأس منمقة لدرجة مضحكة .

ويوافق العام الرابع والعشرون بعد الكارثة التى منيت بها الملكة «قنديسى» عام الصفر فى التقويم المسيحى ، حين ولد « الطفل » الذى عظمت الأجيال رسالته البسيطة الحكيمة ثم أساءت تأويلها وتحليلها ، وشوهت معالمها حتى تولد عنها نموذج من الدرجات الكهنوتية كفيل بأن يفزع صاحب الرسالة ، واستخدم أتباعه السيف وآلة التعذيب[1] والمحرقة[2] لتدعيم الحجة الواهية . وقام الحكام يقتتلون وانبرى الرجال يغتال بعضهم بعضاً باسم المسيح الذى لم يلقن بنى البشر سوى العطف والتسامح .

ولكن المسيحية التى دخلت النوبة كانت مصفاة من بعض وحشيتها ؛ أو ربما كانت لا تزال فى نقائها الأول إلى حد ما ؛ وأنها لصورة جميلة حقاً ، ولكن أوانها لم يكن قد حان بعد ، ذلك أنها استغرقت بعض الوقت لكى ترسخ أقدامها ، والناس دائماً يبدلون طرائقهم فى تؤدة وبطء .

وفى هذه الأثناء هزم الرومان بريطانيا ، وكررت الملكة « بوديسيا » نفس الثورة العديمة الجدوى التى قامت بها الملكة « قنديسى » وفى باريس عاصمة بلاد الغال الرومانية كان البحارة الغاليون[3] يضعون تمثال آلهم ،

---

(١) آلة استعملتها محاكم التفتيش فى العصور المظلمة تمط الجسم محدثة ألماً فظيعاً يدفع إلى الاعتراف وهى تقابل لفظة rack .

(٢) ركام من الحطب لحرق جثة .

(٣) نسبة إلى بلاد الغال .

« اسوس » رب الغابات إلى جانب الآلهة الرومانية فى البقعة التى تقف عليها الآن كنيسة نوتردام فى باريس .

وبعد ميلاد المسيح بأربعة وخمسين عاماً أرسل الإمبراطور « نيرون » حملة سارت فى النهر حتى « مروى » ووصلت فى اكتشافاتها حتى السدود النباتية من البوص فى المستنقعات التى لم يجتازها أحد بعد ذلك لمدة ألف وثمانمائة عام . ولم يرق سحب القوارب فى منطقة الشلالات فى نظر الرومان العمليين الذين استخدم تجارهم ، بدلا من ذلك ، طريق القوافل القديمة إلى « دارفور » عبر واحة الداخلة حيث شيد الأباطرة بعض المعابد ورمموا البعض الآخر . وكان يقطن على طول هذا الطريق شعب يطلق عليه اسم « نوباتاى » وهو نفس الطريق الذى عاد منه « حرخوف » ومعه ثلاثمائة حمار محملة بما لذ وطاب . وكان هؤلاء « النوباتيون » جباة الضرائب على طرق القوافل ولعله اسم مهذب لقطاع الطرق . ومهما يكن من أمر ، فلا بد أنهم تفاهموا مع الرومان بطريقة ما . وكانوا أعداء ألداء للبليميين الذين يعيشون فى الصحراء الشرقية ؛ ولما عجزت الحاميات الرومانية فى أسوان والنوبة السفلى عن كبح جماح البليميين ، تم التفاهم فى عصر الإمبراطور « دقلديانوس » Diocletian على أن يستقر بعض « النوباتيين فى الجزء الشمالى من النوبة السفلى حتى يكونوا حاجزاً بين الرومان والبليميين » .

ومنذ حوالى عام ٣٠٠ ميلادية يلوح أن البليميين قد احتلوا الموقع الرومانى عند « طافه » وهو الموقع الذى قام بفحصه الجانب السويسرى من بعثتنا . وكان يقع عند البوابة الطبيعية للنهر عند باب « كلابشة » ذات الصخور المرتفعة . وفى الشمال كان يوجد معبدان ، أحدهما كان إبان زيارة « أمليا » عبارة عن حطام ، وكان السكان المحليون يقتلعون منه الأحجار أما الآخر فقد انتزع من مكانه ، وقد شاهدته موضوعاً فى جزيرة « الفنتين » ، وكان معبداً رومانياً خالياً من النقوش ، ولكن « بيكى » يصفه بأنه نموذج رائع للمبانى التى شيدت فى العصور الأخيرة . وهو أحد الآثار المعروضة

كذلك للإهداء مقابل العون الخارجي . وقد أجريت الحفائر السويسرية فوق قمة الصخور حيث تصادفك أروع المناظر فى بلاد النوبة ، مما يدفع الإنسان إلى التفكير فى أن المبانى التى كانت مشيدة هناك ربما كانت بيوتاً للهو مثل قصر « تيبريوس » فى جزيرة « كابرى » . ولكن كان لهذه المبانى أمر آخر يحتاج إلى تفسير ، ذلك أن المبنى الشمالى كان عبارة عن غرفة قائمة على إفريز مرتفع وسقفها قبو من الآجر ، بينما البناء الجنوبى له مصطبة من الآجر وجدرانها مغطاة بالحجارة .

وحينما وقع بصرى على « طافة » عادت إلى ذهنى قصة رواها الكاتب العربى ، أبو صالح ، رغم أنها قصة بعيدة عن التصديق .

« يقال إن النبى موسى ، قبل أن يغرب عن وجه فرعون ، أرسله فرعون على رأس حملة إلى بلاد السودان ، لكى يشق طريقه فيبلغ أقصاها (كانت ثمة أفاع وحيوانات ضارية فى هذه الأرض الصخرية) بيد إن النبى موسى كان حكيما يعاونه الرب فى جميع أعماله ، ولذا زحف بجيشه إلى السودان ، تصحبه بعض الطيور مثل الديوك والبوم . وحين سمعت الزواحف والوحوش صوت الديوك والبوم يدوى بالليل وبالنهار ، ولت هاربة ، وهكذا لم ير موسى واحدة منها . وعندما بلغ « طافة » وتوقف هنالك لمحته ابنة الملك . وفى صحبته الطيور ، فوقعت فى حبه ، وهكذا بعثت إليه بعض الرسل يعرضون عليه أن يفتحوا له أبواب المدينة . . . وبهذا سهلت له الاستيلاء عليها . واستولى موسى عليها بأن عرض عفواً عاماً فى حالة التسليم ؛ وقد منح الأمان للسكان بالفعل ، فأحضروا له الأموال » .

ومن الغرابة بمكان أن بقايا « دير موسى » فى « دارموس » قائمة فى مواجهة « بيت الوالى » تقريباً ، عبر النهر ؛ ولا بد أن الاسم علاقة ما بأسطورة الغزو العاطفى لموسى ، على الرغم من وجود دير فى « طافة » نفسها كان يتوقع الإنسان أن يحمل اسم موسى ، ولكن لم يحدث ذلك ويقول أبو صالح

فى هذا الصدد : « فى مدينة « طافة » يوجد دير « أنسون » وهو دير عتيق ، ولكنه شيد فى مهارة وأناقة بحيث لم يتغير مظهره حتى الآن على الرغم من تعاقب الأجيال » . وقد شاهدت «أمليا» ثمانية عشر حجراً من أحجار الأساس، مقسمة إلى أقسام ومحاطة بجدران تحدد موقعه ، وخطر ببالها أنها بقايا أحد الأديرة . ولكن هذه البقايا قد غمرت منذ تعلية السد الحالى .

وقد قام زملاؤنا السويسريون بفحص ما تبقى من « دارموس » فى مواجهتنا . وتفيد الروايات المأثورة بوجود كنيسة ذات أهمية فى هذا المكان ، وإن كان لا بد من وجودها تحت منسوب الخزان الحالى ، إذا كان قد بقى منها شيء . أما الحطام الباقى من « دير مومى » فلا زال قائماً فى جزيرة وعرة ، ويبدو عليه معالم تدل على أن المكان قد هوجم وأحرق فى العصور المسيحية . ومما يحكى أن البعض قد عثر فى هذا المكان على قنبلة حارقة مما كانت تستخدم قديماً ، وهى مصنوعة من الفخار ، وبها حزوز صغيرة مثل قنابلنا اليدوية ؛ وكانت تملأ بالزيت الساخن وتوصل بالفتيل . ولم لا ؟ أم ترى كان كارل « فينجرهوت » يحاول أن يسخر منى ؟

فى الثالث من نوفبر عام ١٩٣١ ، فى آخر موسم للمسح الأثرى الذى أجرى قبل التعلية الثانية لسد أسوان الحالى ، وفى نهاية المنطقة المهددة على وجه التحديد ، وقع بصر الأستاذ « إمرى » على مساحة شاسعة مغطاة بالآكام تقع على مسافة قصيرة جنوب أبى سمبل فى « بلانة » و « قسطل » على كلا الشاطئين . وكان « بيركهارت » قد شاهد هذه الآكام عند مروره بها عام ١٨١٣ ، وظنها صناعية ، إذ أنها تشبه أكوام التراب الموجودة فوق القبور فى سهول « طروادة » .

وقال « سانت جون » نفس القول بالضبط عام ١٨٣٩ — وما من شك فى أنه نقل عن « بيركهارت » . ثم أضاف قائلا : « من المحتمل أنها تضم بعض العظام وقد تضم زهريات من الفضة أو الذهب ، بعض الأسلحة ، وغيرها من الأشياء التى كانت توضع عادة مع الموتى فى العصور الغابرة ، إذ لا شك فى أن هذه البقعة كانت مسرحاً لمعركة كبيرة » . وكان يعتقد أنها نفس المعركة الممثلة على جدران معبد « أبى سمبل » . ثم قال إن الكولونيل « هوارد فايس » فتح إحدى هذه المقابر فى نفس العام ووجد أنها مكونة من الرمل والحجارة دون أى دليل على وجود أساسات صناعية . وكان هذا الخطأ من حسن حظ « إمرى » ، حيث إن أية إشارة إلى وجود آثار قديمة كانت كفيلة بأن تجعل السكان المحليين ينقضون على المقابر . والواقع أن الأهالى كانوا يعتقدون أنها تلال من الحبوب جمعها الساحر جحا ، ثم حولها أحد الشياطين إلى تراب » وكان هذا أيضاً من حسن طالع « إمرى » .

وقد حدث نفس الشيء عند مرور « أمليا » ، فقد قر عزمها على أن تجعل بحارة قاربها يقومون بحفر أحدى المقابر فى طريق عودتها، ولكن نقص المئونة جعلها تغير رأيها . وقد لاحظت بثاقب فكرها أن الكثبان مغطاة بتربة غرينية ، وأنها ليست رواسب طبيعية . ولذا كانت تراودها ، شأن « سانت جون » أحلام عن « الأسلحة . والمجوهرات ، والأوعية المطمورة » .

وكانوا على حق — ومع ذلك عجزوا عن بلوغ الهدف : إذ حينما أزال « أمرى » و « عبد الباقى » (أمين المتحف القبطى فى القاهرة حالياً) أول رابية بعد تنقيب دام أسبوعاً عثرا بادئ الأمر على غرفة للدفن لم تمسسها قديماً أيدى اللصوص — وهم آفة لا محيص عنها — وتحتوى على بعض الأوانى الفخارية وأكياس من الجلد تحتوى على بعض البلح . وعلى منحدر يفضى إلى الداخل من جهة الشرق عثرا على عظام لبعض الخيول وحلى فضية بديعة خاصة بالخيل ، وهى معروضة الآن على نماذج للخيل فى متحف القاهرة . وفى المقابر الأخرى عثر على عظام خيول وكلاب وجمال وحمير ورجال ونساء وأطفال ، ومن العجيب أنها شبيهة بمدافن الضحايا بالجملة فى « كرمة » . ولم تدع الأشياء والأوانى الفخارية التى عثر عليها مجالا للشك فى أن المقابر الموجودة فى « بلانة » و « قسطل » كانت مدافن لشخصيات هامة . ولكى يزداد الباحثان يقيناً عثرا على عظام بعض الملوك وتيجانهم على رءوسهم ، وسيوفهم بجوارهم .

وحصل البروفسور « أمرى » على منحة إضافية من مصلحة الآثار ، واصطحب معه أربعمائة رجل إلى أسفل النهر . وأخذوا ينقبون مدة أربعة فصول فى هذا الموقع المدهش الذى أماط اللثام عن أسرار عديدة .

والآن سجل علماء الآثار وصول شعب إلى هذه المنطقة من النهر ، وكان يعيش فى يسر ورخاء فيما بين القرنين الثالث والسادس الميلادى ، وبهذا سدت الثغرة التى كانت تفصل بين العهد المروى والعهد المسيحى . واستخدم هؤلاء الناس مقابر من نوع المصاطب تدل الأوانى الفخارية التى وجدت فيها

على أنهم تأثروا بأهل « مروى » . وأطلق عليهم علماء الآثار اسم « المجموعة X » ولكن لا بد أنهم كانوا إما « نوباتيين » أو « بليميين » . ويعتقد الأستاذ « امرى » الذى يقوم حالياً بفحص مزيد من مدافن « المجموعة » فى إبريم ، بأن أفراد هذه المجموعة كانوا من البليميين ، ويبدى من الأسباب ما يبرر هذا الاعتقاد .

يعتقد « إمرى » أن مقابر « بلانة » و « قسطل » تمثل مملكة مستقلة من « البليميين » قامت فى جنوب النوبة السفلى منذ حوالى سنة ٣٠٠ ميلادية ، وأن هذه المقابر هى عبارة عن مدافن ملكية خاصة « بالمجموعة » وأنهم كانوا من « البليميين » — والحقيقة أن كل أفراد « المجموعة X » من « البليميين » وليسوا من « النوباتيين » . ويدعم هذا الرأى بقوله إن المجموعة شغلت معظم هذه المنطقة من القرن الثالث إلى القرن السادس الميلادى ، وأن أشكال المقابر ومحتوياتها مأخوذة بطريقة مباشرة عن « المرويين » الذين أعقبهم البليميون بعد ذلك . وكان أفراد هذه المجموعة من الوثنيين ، يعبدون آلهة « مروى » ومصر القديمة ، وكانوا يمارسون عادة التضحية بالآدميين أو الحيوانات ، كما كانوا لا يعرفون الكتابة .

وقد اتخذ « دقلديانوس » من « النوباتيين » ، حائلا بينه وبين هؤلاء القــزم .

وفى هذه الأثناء كانت العقائد المسيحية ونظراتها إلى الحياة تتغلغل فى العالم القديم . وهى عقائد خطيرة تهدد كيان المجتمعات الوثنية التى كانت تخشاها وتمقتها لأول وهلة خشية أن تقضى على مصالحها وحقوقها المكتسبة . ولا بد أن سلسلة الاضطهادات الكبرى على يد « ماكسيمنيوس » قد دفعت عشرات من المهاجرين إلى أن يلوذوا بالفرار من مصر إلى بلاد النوبة ، وهناك لجأ إلى التلال والصحراوات مجموعات من المؤمنين والنساك الزاهدين وكان تواضعهم وبعدهم عن الحرب وحياة التأمل التى كانوا يحيونها مما أثار حب الاستطلاع عند السكان المحليين وثمة أدب بأكمله لآباء الصحراء يخلب اللب

بما حوى من وصف لحياتهم التى وهبوها للإيثار وخدمة الآخرين وإنكار الذات والتأمل فى ملكوت الله . وكانت الكتب مليئة بأفكارهم وحكمهم : « إن الخصام يودى بالإنسان إلى الغضب ، والغضب يسلمه إلى عمى العقل ، وعمى العقل يدفعه إلى إتيان الأعمال الشريرة » . وقد تكون فلسفة ساذجة بالنسبة لنا ، ولكنها مع ذلك ثورة فى نظرة الإنسان إلى الحياة والعلاقات الإنسانية عامة ، ثورة لم تنحصر فى تأملات المفكرين المجردة ، بل كانت توشك أن تطبق فى الحياة اليومية للناس العاديين .

وكان أثرها على الناس عظيماً لدرجة أن روما اضطرت ان تعترف رسمياً بالعقيدة الجديدة . وقد اعتنقها أول إمبراطور مسيحى ، « قسطنطين الأكبر » بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م. وجعلها جزءاً لا يتجزأ من السلطة الإمبراطورية القائمة على القوة ، والإرغام ، والدين ، وذلك حينما نقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى بيزنطة ، عام ٣٣٠ م. وعقب ذلك بتسعة وأربعين عاماً صدر مرسوم « تيودوسيوس » الذى يقضى بأن تصبح مصر والنوبة ضمن البلاد المسيحية ، كما منعت بمقتضاه إقامة المراسم والطقوس القديمة . وما من شك فى أن الآلهة القديمة لم تندثر فى الحال ، بل إن « البليميين » كما نعرف تمسكوا بآلهتهم حتى منتصف القرن السادس الميلادى . ولكن التغير فى اعتقادى جاء أخيراً عن طريق الإغراء التبشيرى ، كما جاء عن طريق القوة . وفى المعابد « التى كان الناس يعبدون فيها أزوريس — الذى بعث من جديد وفق أقدس أسرار المراسم المصرية ، أصبح الناس يعبدون المسيح الحى وفقاً للأسلوب البسيط الذى كانت تنتهجه الكنيسة القبطية البدائية » ، على حد تعبير « أمليا ادواردز » .

ثم اضمحلت مملكة كوش وسقطت آخر الأمر فى يد « أكسوم » إمبراطور أثيوبيا ، ومن ثم ظهرت ثلاث ممالك ، انتهى بها الأمر جميعاً إلى اعتناق الديانة المسيحية : مملكة « نوباتيا » وتمتد من الشلال الأول إلى الشلال الثالث ؛ و « ماكوريا » وتمتد حتى جنوب مروى ، وعاصمتها دنقلة

القديمة ، ومملكة « علوة » وعاصمتها « سوبا » على مقربة من موقع الخرطوم الحالى .

وقد زعم ملك اسمه « سيلكو » ، أنه « ملك جميع النوباتيين والكوشيين » وترك نقوشاً باليونانية فى معبد « كلابشة » يسجل الهزيمة النهائية التى حاقت بالبليميين وهو يزعم فى عبارات التفاخر الأجوف مثل « إننى أسد البطاح والسهول » ، و « لقد حزت قصب السبق على الملوك جميعاً » و « حاربت البليميين ومنّ الله علىّ بالنصر . . . فعقدت معهم صلحاً ، وأقسموا على ذلك بأوثانهم » .

ولا نعرف عن الملك « سيلكو » سوى النزر اليسير ، ولكننا نستنتج أنه كان ملكاً مسيحياً ، وأن المسيحية انتشرت فى عهده سنة ٥٣٠ م شمال شرق إفريقية من البحر المتوسط إلى أثيوبيا . والواقع أننا لا نعرف سوى القليل عن الألف سنة التى عاشتها النوبة فى العصور الوسطى ، ويعتقد العلماء أمثال « ب . ل . شينى » الذى عمل فى السودان أن الحضارة النوبية قد أسىء إليها كثيراً ، وذلك لأن بعض الكتاب العرب المعادين يميلون إلى احتقار النوبيين سكان العصور الوسطى واعتبارهم برابرة معتدين . ويؤكد « شينى » أنه كان عصر جهود فنية يانعة خلفت آثاراً لا تنمحى . وما من شك فى أن المائة سنة التى مرت ما بين حكم « سيلكو » وبين الفتح الإسلامى تميزت بإقامة كنائس عظيمة وتحويل بعض المعابد إلى كنائس ؛ ولا شك أيضاً فى أن عديداً من الكنائس قد شيد قبل ذلك . ومن العسير أن نعرف تاريخ هذه المبانى فى كثير من الأحوال ، كما كانت مزخرفة وفقاً لأسلوب الفن المسيحى الأول الذى لا نملك سوى أمثلة ضئيلة منه . ولما كان الكثير من هذه الزخارف قد نقش على الجص فقد نزعت من جدران المعابد ، إذا لم يكن بواسطة المسلمين ، فبواسطة علماء الآثار الأوائل . ولما كانت الكنائس مبنية بالطوب اللبن فلم تبق على مرّ الأجيال كما بقيت معابد الأسرة الثامنة عشرة المشيدة بالحجارة ، على الرغم من براعة تشييد هذه الكنائس ، وقد أجريت فى الماضى بعض

البحوث فيما يختص بهذه الكنائس العتيقة ، ولكن ثمة عدداً كبيراً منها لم يزل قائماً دون أن يفحصه أحد قط . وينبغي علينا الآن أن ننقذ ما تبقى من بعض هذه المخلفات العتيقة من الديانة المسيحية ، وإلا ضاعت إلى الأبد .

أما النوبة السودانية فتعتبر أغنى البقاع من حيث الكنائس والأديرة . وقد عثرت بعثة ميخالوفسكى البولندية فى « فرس غرب » على رسوم مسيحية فى اللحظة الأخيرة من موسم قصير عام ١٩٦٠ — ١٩٦١ . وقد علمت أنها كانت رسوماً بديعة ، وتحتاج إلى معاملة خاصة لنقلها . ويرجح أن « فرس » كانت العاصمة فى عهد « سيلكو » . ولولا الحملة التى تقوم بها منظمة اليونسكو لإنقاذ هذه الآثار لما أمكن قط العثور على مثل هذه الرسوم .

ومن المعروف أنه توجد ثلاث كنائس فى « سيرة شرق » وهى ضمن الامتياز الممنوح لمعهدنا الخاص بالدراسات الشرقية (وأنعشم أن يكون هذا بالإضافة إلى « صد الميجو ») وقد بدأت الحفريات بالفعل فى ديسمبر ١٩٦١

وعلى بعد حوالى ميل من الصخرة التى نقش عليها الملك « چر » نموذجه المبكر لمنظر يمثل حملة نوبية ، توجد كنيسة عبد القادر وعليها الرسم المعروف الذى يمثل حاكم « نوباتيا » وهو يمسك بنموذج للكنيسة ويرتدى لباس الرأس ذا القرنين ، شعار ملوك النوبة . ويقول أركل فى هذا الصدد : « وقد أخذت القرون بالطبع عن قرون آمون الذى كان يرتدى لباس رأسه ملوك مروى » . ولا بد أن تاريخ هذا الرسم يرجع إلى ما بعد سنة ٦٥٠ ميلادية ، إذ فى الفترة ما بين هذا التاريخ وما بين سنة ٧١٠ م اتحدت مملكتا « نوباتيا » و « ماكوريا » لأسباب لا تزال غامضة حتى اليوم . وكانت دنقلة القديمة عاصمة هذه المملكة النوبية المسيحية ، واحتفظت « نوباتيا » بشخصيتها تحت حكم « إباتش » epach الذى أطلق عليه العرب اسماً أكثر جاذبية ، هو « سيد الجبل » . ويخبرنا « أركل » بأن هذا اللقب العربى يستحق المزيد من البحث ، ذلك أنه يحمل نفس المعنى الذى تحمله كلمة « توماجيرا » tumagera ، وهو اسم شعب قد يكون فرعاً من الأسرة الملكية المروية التى ربما انتقلت غرباً بعد

سقوط « مروى » ، وأسست ممالك مقلصة عبر إفريقية امتدت حتى شمال « نيجيريا » . وتدل النسور المزدوجة الموجودة على رداء « سيد الجبل » فى هذا الرسم على التأثر بالفن البيزنطى ، على الرغم من انقطاع الروابط مع بيزنطه على أثر الفتح العربى . وإننا نعرف أن اللغة اليونانية كانت مستعملة فى الكنائس وعلى شواهد القبور حتى سنة ١١٨١ . ويقترحون نقل هذا الرسم المشهور لاپاتش وإلا يسجل بألوانه .

وفى جزيرة « مينارتى » القريبة التى قد تكون مع « مور » قلعة « أيكن » المفقودة ــ توجد أطلال مسيحية يعتقد « ڤيركوتر » أنها بالغة الأهمية . ومن المرجح صحة هذا القول ، إذ أن « مينارتى » كانت تضم عدداً كبيراً من السكان فى تلك الآونة بالنسبة لجزيرة صغيرة كهذه . ولحسن الطالع خولت جمعية الكشف عن الآثار المصرية حق التنقيب فى « مروى » ، ولذا يحتمل أن نتوصل إلى حل نهائى للغز « أيكن » إلى جانب إلقاء المزيد من الضوء على جوانب الحياة فى بلاد النوبة فى العصر المسيحى .

أما الكنيسة المحصنة والمساكن الموجودة بجزيرة « ابكنارتى » التى تبعد عن هذه الأماكن بمسافة قليلة نحو الجنوب فهى مدرجة كذلك ضمن قائمة الطوارئ الخاصة التى كتبها « ڤيركوتر » . ولكن من ذا الذى سيقوم بالتنقيب عنهـــا ؟

وفى سنة ١٩٤٥ عثر « آركل » على موطن مسيحى محصن فى جزيرة « أتيرى » التى تقع جنوب « سمنة » . وكان الموطن يضم كنيسة صغيرة مبنية بالآجر وبها آثار رسوم من بينها صورة شخص يرتدى ثوباً . وحتى الآن لم يتوافر لدى أحد الوقت أو المال اللازمين لكى يكتشف المكان طيلة سبعة عشر عاماً .

ولكن القائمة تصبح مملة بعد ذلك ، فلا بد أنه يوجد حوالى ٢٧ كنيسة معروفة فى المنطقة السودانية وحدها لم يتم التنقيب عنها بعد ، وبالإضافة إلى

هذه يوجد على الأقل ستة مواقع قد تشتمل على بقايا كنائس أو أديرة وكلها مواقع معروفة ، ولن أخمن جزافاً عدد المواقع المسيحية المجهولة التي ما زالت باقية بعد ذلك . وقد تقوم بحصرها جميعاً البعثة الاسكندناوية المشتركة وبعثات المسح الأخرى ، ولكن تبقى مع ذلك كله مهمة التنقيب عنها وتسجيل آثارهـــا .

أما في بلاد النوبة المصرية فمعظم الكنائس كانت معابد محولة سبق ذكرها في هذه الصفحات ، ففي سنة ٥٧٧ ميلادية حول الأسقف « تيودور » جزءاً من معبد فيلة إلى كنيسة وسمح للناس بأن يقيموا في الأماكن المجاورة التي كان يكتنفها الغموض في الأزمان الماضية . وحينئذ أصبحت المساكن المبنية بالطوب اللبن ملاصقة ، كعشاش النحل ، بأروقة المعابد وأبهائها . وأصبح رواق المعبد الكبير كنيسة صغيرة للقديس « ستيفن » ، كما أصبح هناك كنيسة مستطيلة الشكل في الطرف السفلي من الجزيرة . وأخذت فيلة المقدسة تعج بالحياة والدخان والكلاب وأجراس الصلوات والغدو والرواح وتناول الغذاء وسط آلهة العصور الغابرة ، وهي مشوهة مقطعة الأوصال . وهذا الوصف الذي اقتبسته عن « أمليا » في تصرف يكاد ينسحب على كل معبد في جميع أنحاء النوبة فقد حولت جميعها إلى أماكن للعبادة المسيحية خلال المائة عام التالية .

وبينما كان الأسقف « تيودور » ينظر إلى دخان التكريس المقدس وهو يتطاير في الهواء ، كان يشب طفل في مكة قدر له أن يكون له المعول الذي قضى آخر الأمر على كنيسته . ولم يتحقق هذا إبّان حياة محمد ؛ والحقيقة أن الدين الجديد في النوبة لم يتلاش بسرعة ، تماماً كما حدث للآلهة القديمة ، بل بقيت مجتمعات مسيحية بعد الطوفان الإسلامي في أديرتها ومواطنها المحصنة ، بل بقي ملك مسيحي يحكم دنقلة حتى القرن الرابع عشر على الأقل .

وفي نفس السنة التي تحول فيها معبد فيلة إلى كنيسة أقام القس « إبراهام الصليب » في معبد « أوجسطس » الصغير في « دندور » — كما تحكي لنا

بإسهاب أحد النقوش هناك . وهذا المعبد معروض لقاء المعونة الخارجية ، وهو يستحق عناء الحصول عليه ، إذ يتميز بأهمية فريدة ، وهى إهداؤه إلى الأبطال المحليين « پتيسى » و « پيحور » . ويتمثل هذان البطلان وهما يقدمان القرابين إلى « إيزيس » بينما يتمثل الإمبراطور نفسه وهو يقدم القرابين إلى البطلين بصفتهما الهين . وهذا المنظر المدهش لم يكن متوقعاً ، وأن كان يتمشى مع سياسة المهادنة التى سار عليها الرومان ، والاندماج تحت لواء ديانة الأقطار الخاضعة لهم . وتنبئنا لوحة هناك بأن هذين البطلين مدفونان فى «تل مقدس» . ولكن لم يتم العثور على مقبرتهما بعد . أو هل سيقدر لها الاكتشاف قط ؟ كان من المقرر أن تعمل بعثة بلجيكية فى هذه المنطقة ، ولكن سوء العلاقات بشأن الكونغو وضع حداً لهذا الاتفاق . ومن المؤسف حقاً أن تتدخل السياسة فى التعاون العلمى .

وتحول معبد « كلابشة » بالطبع إلى كنيسة . وكان ثمة رسم مسيحى يمثل منظر الأتون المستعر ، ولكن لا بد أن يكون قد امحى الآن .

ويصف لنا « ويجل » موقعاً شبيهاً بالدير فى « مدك » وسط النوبة السفلى ، ويرجح أنها كانت مجمعاً من النساك الزاهدين ربما يرجع تاريخه إلى أوائل العصر المسيحى فى بلاد النوبة . وكانت هناك عنابر صغيرة مبنية بالأحجار وسط الصخور ، وسقوفها منخفضة بدرجة لا تسمح بالوقوف . وعلى مقربة منها ، توجد كنيسة صغيرة من كسر الأحجار يعلوها سقف مبنى بالطوب اللبن ، وبها قبة مهدمة وعقود من الآجر . وبجانبها توجد استراحة متواضعة للضيوف خصصت لراحة المسافرين إلى « توماس » عبر الصحراء . وكان « آباء الصحراء » يتأملون ويتفكرون فى هذا المكان عبر السنين الطويلة ، وهم يلقون جانباً بأنانيتهم فى غمار عقيدة غريبة عن الوثنية ، حيث كان الناس يخشون أن يصيبهم الشر من الأرواح الخبيثة الشريرة فى الكون ، ولا يحجبون عنه داخل أنفسهم . وانقضت أعمار هؤلاء النساك فى التأمل فى قرارة أنفسهم ، وفى الصلوات ، وفى التخلص من أدران الجسد ، وفى عمل الخير ، فى الوقت

الذى جاء فيه الفرنجة إلى فرنسا والسكسون إلى إنجلترا ، ودمر « الفندال » روما ، وتنصر « كلوفيس » ، وأقيمت كنيسة « سانت صوفيا » المجيدة . وقد عثر على عظام هؤلاء القديسين النوبيين فى شقوق الأقبية التى عاشوا وماتوا فيها .

وفى عام ٦٤١ م قام عمرو بن العاص ، قائد الخليفة عمر ، بغزو مصر ، وأصبحت بلاد النوبة ولاية من ولايات الإمبراطورية الإسلامية . وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة حدث تمرد فى بلاد النوبة فسار إليها القائد المسلم عبدالله ، حتى وصل إلى « دنقلة القديمة » حيث دمرت قواته المدينة ، بما فيها الكنيسة العتيقة بواسطة الصخور التى يقذفها المنجنيق ، فوافق الملك « كوليدوزو » koleydozo على أن يدفع جزية سنوية مقدارها ٣٦٥ عبداً لعمرو بن العاص ، وأربعون عبداً لحاكم مصر ، وعشرون لحاكم أسوان ، وخمسة للقاضى ، واثنا عشر لمراقبى العبيد « على أن يكونوا خالين من العاهات الجثمانية ، سواء من الذكور أو الإناث ، وألا يكون من بينهم رجال أو نساء طاعنين فى السن ، ولا أطفال صغار » . وكان العرب يلمون بكل شىء عن تجارة العبيد . وأن الإنسان ليتساءل عن الزمن الذى مضى عليهم وهم يقومون بتجارة العبيد على الشاطئ الشرقى لإفريقية عن طريق « زنجبار » .

وتدل المعاهدة التى فرضها عمرو على الملك « كوليدوزو » على العدالة المطلقة والتسامح نحو الديانة المسيحية اللتين كانتا تميزان سياسة الفتح تحت حكم الأمويين : « يا أهل النوبة ، سوف تعيشون آمنين فى رعاية الله ورسوله محمد » . وكان فى مقدور المواطنين من كلا الجانبين أن يعبروا الحدود بصفة مسافرين ، ولكن ليس بغرض الإقامة ، ولهم حق الحماية . وينبغى على النوبيين ألا يأووا عبيداً فارين من المسلمين ، كما ينبغى عليهم أن يحترموا ويعتنوا بأمر المسجد القائم فى مدينتهم . ولكن لم تكن ثمة فقرة فى هذه المعاهدة تنص على وجوب اعتناق الدين الإسلامى . وفى حالة نقض المعاهدة ، سوف يلجأ عمرو إلى العدوان « حتى يقضى الله بيننا وهو خير الحاكمين » . وقد أقسم

المسلمون على المحافظة على شروط المعاهدة بالله ورسوله محمد ، وطلبوا من النوبيين أن يقسموا « بكل ما هو مقدس فى دينهم ، بالمسيح وحوارييه » .

وكثيراً ما يصورون العرب فى التاريخ والقصص الخيالية على أنهم غلاظ قساة . حقيقة إن القراصنة من المشارقة الذين كانوا يمتازون بالوحشية والعنف كانوا يقطعون الطريق على السفن المارة عند شاطئ بلاد المغاربة ، وكان المسيحيون يقيدون بالسلاسل إلى مجاديف السفن ، وكان العبيد يسحلون فى الأدغال تحت وقع لهيب السياط . ومع ذلك ، فإن الأجناس الأخرى لم تعدم كذلك وجود القراصنة ومحاكم التفتيش وتجار العبيد . أما عن الرق فإن الذى يقدم على شراء طير برى فى قفص لا يقل وحشية عن ذلك الذى ينصب له الفخ فى الأحراش . والواقع أن الصورة الشائعة للعرب فى التاريخ صورة مشوهة تشويهاً بالغاً ، ذلك أن العرب كانوا حماة الحضارة والثقافة خلال مطلع العصور الوسطى فى أوروبا التى كانت معاصرة للمسيحية الأولى فى بلاد النوبة . ولقد أقام الحكم العربى فى أسبانيا حضارة من أعظم الحضارات فى العالم . ويقول « بترى » إن تجاهل هذه الحقيقة يعد تجاهلا لأنصع صفحة فى العصور الوسطى .

وهكذا لم يكن الفاتحون العرب أعداء للمسيحية فى بلاد النوبة إلا عندما كان يقوم تمرد من جانب الأهالى . ولما كانت ديانتهم تقوم على التقوى والبر ، فقد كانوا يشعرون بعطف بالغ وتسامح نحو المسيحى المخلص ، أما عصر التعصب فقد جاء بعد ذلك بمدة طويلة . ويلبئنا أبو صالح أن الملك سليمان ، ملك النوبة ، اعتزل العرش فى عهد الخليفة المستنصر بالله . ولما سئل عن سبب ذلك أجاب : « هل هناك ملك يستطيع أن يتقى غضب الله وهو يتمسك بالحكم بين الناس؟ هل فى مقدوره أن يحكم دون أن تتحكم فيه عواطفه؛ أو يريق الدماء بدون وجه حق ؛ أو يجبر الناس على أن يفعلوا ما ليس فى صالحهم ؟ » وكان الملك يقضى وقته فى الصلاة فى كنيسة الوادى ، التى سميت

باسم سانت « أنوفريوس » فى صحراء . . . . (هذه الكلمة مفقودة للأسف) على مسيرة ثلاثة أيام من الطرف القصى للنوبة وعشرة أيام من أسوان . ومن ثم أحضروا وزير مصر إلى القاهرة حيث استقبل بالحفاوة والتكريم ، وأقام فى دار أنيقة . وكان الوزير كثيراً ما يتردد عليه لزيارته وتجاذب أطراف الحديث معه ، ووجد أنه يقصد وجه الله بكل قلبه وجنانه ، متخلياً عن كل ما يرغب فيه الرجال . وبعد ذلك بعام مات الملك ودفن فى دير سانت جورج فى إحدى ضواحى القاهرة .

ويروى لنا قصة بديعة أخرى عن « زخارياس » أحد ملوك النوبة . وكان قد تأخر هذا الملك عن دفع الجزية أربعة عشر عاماً – مما يدل على أن الخليفة المأمون قد تسامح معه مدة طويلة . ولما كان مقدار الجزية أربعمائة عبد فى السنة ، فإن الملك زخارياس لم يستطع بحال ما أن يحصل على خمسة آلاف وستمائة عبد فى آن واحد . ولذا بعث بولده « جورج » إلى بغداد بدلا عن ذلك ، فتأثر الخليفـــة كثيراً حين رأى أن الملك وإن لم يستطع دفع الجزية فإنه أرسل أغلى ما ملكت يمينه ، كما أعجب بالخضوع البنوى الذى أظهره الابن فأسبغ بعض هباته على الملك « زخارياس » وأعاد الابن إلى القاهرة لكى يعيش فى بيت أمير مصر ويقوم بدراسة الآداب والعلوم . وعاد « جورج » أخيراً إلى أبيه الذى أسس كنيسة كبيرة . وعند تدشين الكنيسة هبطت الروح القدس على إحدى أوانى الماء المعدة للاحتفال « فأخذ الملك هذا الماء فى يده وحمله إلى بيته » . وإذا تتبعنا هذه القصة نجد أن أبا صالح يخبرنا عن كنيسة أقيمت فى مكان ما . ويعتقد « مونريه دى فيلار » المهندس المعمارى وعالم الآثار ، أن هـــذا المكان هو « تلميس » . وقد كتب أبو صالح يقول : « فى هذا المكان تقع كنيسة ذات نسب متناسقة ، جميلة التصميم ، وتطل على النهر ؛ وبداخلها صورة للملك الأكبر ، « جورج » بن « زخارياس » ، ملك النوبة ، وقد طعن فى السن ، وهو يجلس على عرش من الأبنوس المطعم بالعاج والمموه بالذهب الخالص » . وكان الملك يبلغ من

العمر ثمانين عاماً ، ويضع فوق رأسه تاجاً مرصعاً بالأحجار الكريمة ويعلوه صليب ذهبي له أربع أذرع وقد رصعت بأربع جواهر .

وليس من المحتمل أن تكون هذه هي الكنيسة التي أسسها الملك «زخارياس» ولكنها كنيستنا في « بيت الوالي » على وجه التأكيد – وهي الكنيسة التي كانت في المعبد – إذ أن « تلميس » هي المدينة التي أقيمت فيها هذه الكنيسة . وكنت أفكر كثيراً في الأمير « جورج » الذي شب ليصبح ملكاً مرهوب الجانب كأبيه ، وذلك حينما كنت أعمل في « بيت الوالي » ، وأخذت أبحث عن أية قطعة من هذا الرسم البديع لعلها سقطت بين الأحجار . ولكنه اختفى تماماً ، ولم تبق من الجص المسيحي بقية .

ويتطرق أبو صالح إلى الحديث عن المعبد القريب ، فيعطينا انطباع كاتب معاصر عن معبد كلابشة حوالي سنة ١١٧٣ م :

« في نفس المدينة يوجد معبد عتيق كبير الحجم ، يحتوي على صور ورسوم في غاية الإبداع ، كما يوجد به أعمدة ضخمة هائلة تملأ النفس بالإعجاب والذهول إذ كان في مقدور الناس أن يشيدوا مثل هذه المباني . . ويضم كذلك قاعة فسيحة تبدو للناظر وكأنها قطعة واحدة : وهي مسقوفة بألواح صلدة سمراء من الحجارة المصقولة ، ويبلغ طول كل منها خمس عشرة ذراعاً ، وعرضها خمس ، وسمكها خمس ، ويوجد من هذه الألواح خمسة وعشرون ملتصقاً بعضها ببعض بحيث تبدو قطعة واحدة » .

وهذا يعني أن طول الحجارة التي استخدمت للسقف اثنتان وعشرون قدماً على الأقل، وفي هذا بعض المبالغة . « وفي نفس المعبد توجد بئر ذات عمق كبير يهبط إليه الإنسان بواسطة عدة درجات ، وإذا ما هبط الإنسان إلى آخر درجة وجد ممرات مقبوة ذات منعطفات في مختلف الاتجاهات ، لا ندري أين تنتهي ، ولذا حينما يجرؤ الإنسان على الدخول فيها يضل الطريق ، وربما يقضي عليه إذا لم يعد أدراجه على وجه السرعة » .

ويقول عبد اللطيف ، وهو كاتب عربي آخر :

« حينما ينظر رجل أوتى حساً مرهفاً إلى هذه الأطلال ، فإنه يجد نفسه مدفوعا إلى أن يستميح العذر للعامة من الناس فى اعتقادهم فى الأقدمين بأن حياتهم كانت أطول من حياتنا وأن بنيتهم أقوى من بنيتنا ، أو هل كانوا يملكون عصا سحرية يضربون بها الحجارة فتثب نحوهم . ويجد العقل الحديث نفسه عاجزاً عن تقدير ما تطلبه هذه الأعمال من معلومات هندسية ، وتركيز للفكر ، وعناء فى الدراسة ، ومثابرة فى العمل ، وسيطرة على المعدات ، وتطبيق عملى » .

إن الحياة فى النوبة إبان عهد « زخارياس » والأمير « جورج » والمائتى سنة التى تلت ذلك ، لا بد أنها كانت تشبه الحياة فى إنجلترا فى عهد « السكسون » فى نفس الفترة : الملك الصغير ، الرهبان والقساوسة ، الحياة المركزة حول كنيسة القرية والتقويم الدينى . ثم أغار الدانماركيون ونصب الملك « كانرت » عرشه على مقربة من الأمواج يتحكم فى المد والجزر ، ولكن حياة الفلاح سارت على نفس الوتيرة عاماً بعد عام . وفى بلاد النوبة ، استغلت نفوس جريئة فرصة اضمحلال الخلافة وأغارت على البلاد ، بل إنها استقرت فى مصر العليا ، بيد إن الفلاح استمر يروى حقوله ويسمد نخيله ، ويتوجه إلى الكنيسة ليحملق فى رهبة وبلاهة فى صورة الملك « جورج » من الأيام الخالية . كان الفلاح فقيراً ، ولكنه لم يكن يعانى الفقر المدقع ؛ كان جاهلا ، ولكن كان ثمة نوع من الغبطة يشعر بها فى حياته الرتيبة المرتبطة بالتربة والنهر الخالد . وفى اعتقادى أن بلاد النوبة كانت مكاناً ترفرف عليه السعادة إبان سنى المسيحية السبعمائة فيها . ومن الممكن أن نمد هذه الحقبة سبعمائة سنة أخرى إلى الوراء حتى قدوم البطالمة ، لو أننا اعتبرنا زحف « پترونيوس » على إبريم عام ٢٥ ق . م . وبعض القلاقل التى أحدثها البليميون بعد ذلك بخمسمائة عام مجرد اهتزازات على سطح كيان تميز بالاستقرار والسكينة النسبية إذا قورن بأماكن عديدة أخرى .

ولكن أيام الهدوء كانت على وشك أن تنتهى فى أواخر العصور الوسطى فى أوروبا حينما هبط وليم الفاتح أرض بريطانيا واستولى الصليبيون على أورشليم وألقى «بربروسا» بقفاز التحدى فى وجه البابا، وبدأ الكورس[1] والقبا[2] فى كنيسة نوتردام بباريس.

وفى سنة ١١٧١ ميلادية، أى قبل الشروع فى بناء الكاتدرائية العظيمة فى «سنلى» على مقربة من باريس بعامين، تسبب بعض النوبيين من ذوى العزم فى إتلاف هذه الرقية، ذلك أن حكم الفاطميين فى مصر كان قد انتهى على يد صلاح الدين، فقامت هذه النفوس القلقة بالاستيلاء على أسوان، لا شك على جهل منها بمعدن صلاح الدين، وبدأ هؤلاء الأفراد فى احتلال مصر العليا. ولكن صلاح الدين أرسل حملة تحت قيادة أخيه «شمس الدولة» إلى مدينة إبريم — مقر «سيد الجبال» — التى كانت محاطة بسور. وفى هذا المكان توجد كنيسة كبيرة جميلة، بديعة التصميم، سميت تيمناً بسيدتنا العذراء الطاهرة مريم. وفوق هذه الكنيسة توجد قبة عالية يرتفع فوقها صليب كبير. وحينما زحف شمس الدين بقواته على مصر العليا فى عهد الخليفة المستعدى، سنة ١١٧٣ غزا هذه البقعة وتركت قواته المدينة حطاماً، وأسروا النوبيين هناك. ويقال إن عدد النوبيين كان يبلغ ٧٠٠,٠٠٠ رجل وامرأة وطفل؛ كما عثروا على سبعمائة خنزير فى ذلك المكان. وأمر «شمس الدين» بأن يحرق الصليب الموجود على قبة الكنيسة، وأن يؤذن المؤذن للصلاة من فوق قمتها. وقد قامت قواته بنهب كل ما صادفهم فى هذه الناحية وسلب كل ما فى الكنيسة، كما قتلوا الخنازير. وقد عثروا على أحد الأساقفة فى المدينة فأخذوا يعذبونه؛ ولكنه لم يجد ما يعطيه لشمس الدولة الذى سجنه مع بقية الأسرى وألقى به فى القلعة التى كانت قائمة على تل مرتفع، ومحصنة للغاية».

---

(١) كلمة معربة معناها جوقة الترنيم.

(٢) فجوة شبه دائرية فى كنيسة.

هذه هي قصة أبو صلاح الذى عاصر هذه الأحداث . وربما يتم العثور على بعض الآثار التى تدل على هذا الحدث المشئوم ، حينما تتقدم أعمال التنقيب الجارية فى « إبريم » ولكن هذه المعركة لم تكن آخر المعارك التى دارت فى المدينة القابعة فوق ذروة التل .

ويقول أحد المؤرخين فى معرض حديثه إن الهدوء ساد بلاد النوبة طوال المائة سنة التى أعقبت غارة « شمس الدولة » . وهل هناك ما لا نقبل أن نتنازل عنه عن طيب خاطر فى سبيل أن نهنأ بمائة عام من السكينة والهدوء فى هذه الأيام ؟ ! ولكنها كانت فترة ضئيلة إذا قيست بتاريخ النيل المديد . وهى مع ذلك فترة كافية لكى يشب جيل من النوبيين ، ثم يطعن فى السن ، ثم يأتى جيل آخر فيترعرع ثم يهزم مرة أخرى : ٣٦,٥٠٠ يوم تدور فيها السواقى بلا هوادة ، ويولد أناس ، ويدفن آخرون ، ويتزوج قوم ثم ينجبون ، ويحتفل البعض ، ويأسى البعض الآخر وتتكون صداقات ، وتنشب أحقاد ، وتترى فيها أيام العطلات ، وأيام الأسواق . . .

وبينما كان النوبيون ينعمون بأيامهم الهادئة ، استولى صلاح الدين على « أورشليم » مرة ثانية . وأخفقت الحملة الصليبية الثالثة ، بقيادة « فيليب أوجسطس » ملك فرنسا و « رتشارد قلب الأسد » ملك إنجلترا عن أن تستعيدها مرة أخرى ، وغرق « بربروسا » الذى كان فى رفقتهم . وفى بريطانيا بعد مرور ثلاثة وعشرين عاماً على هذا الحديث وضع الأمراء « الوثيقة العظمى » ماجناكارتر أمام الملك « جون » وناولوه ريشة مغموسة فى المداد لكى يوقع بها . وأطلق المماليك سراح العبيد من الأتراك ، واستولوا على عرش مصر سنة ١٢٥٠ م وظلوا هناك حتى الفتح العثمانى عام ١٥١٧ م .

وفى سنة ١٢٧٢ قام النوبيون ، تحت قيادة ملكهم « داود » بمهاجمة مدينة عربية على شاطئ البحر الأحمر . ولست أدرى لماذا ، ولكنه كان آخر

عمل عدائى يقومون به تحت قيادة ملك مسيحى . وجاءت حملة تأديبية من مصر ، فهرب « داود » ، ولكنه أسر ومات فى السجن .

أما آخر ملك مسيحى على بلاد النوبة ، فهو « كرنبيس » Kerenbes ويبدو أن عيبه الوحيد بالذات هو أنه كان مسيحياً ، فقد عزل ونقل إلى القاهرة سنة ١٣١٥ ؛ وتولى عبدالله أحد المسلمين ، مقاليد الملك فى « دنقلة » ولكنه اغتيل بدوره على يد « كنز الدولة » ، أحد زعماء أسوان الذين كانوا يطمعون فى العرش ، وأصبح تاريخ هذه الحقبة مملا ممجوجاً للغاية ، مثل ملخص لإحدى القصص التاريخية المسلسلة[1] فمثلا فى عام ١٣٦٦ تآمر ابن أخ ملك النوبة — طمعاً فى اعتلاء العرش — مع بعض عرب « اكرما » واغتال الملك بمعاونتهم . وفى الوقت نفسه تحصن الموالون لأخ الملك المقتول فى جزيرة « ساى » . وقام الملك المزيف بجمع جيش جديد للهجوم على « ساى » بعد أن خان أصدقاءه عرب « اكرما » وأشعل النيران فيهم . وحينئذ ظهرت جيوش السلطان التى عهد إليها استرجاع الملك الشرعى وتصفية عرب « اكرما » . . . وهكذا .

ولن تزداد معلوماتنا إذا أفضنا فى ذكر المعارك ، والمؤامرات ، والاغتيالات ، والاغتصابات التى حدثت طوال المائتى سنة التالية ؛ إذ أنها لن تؤثر فيما شرعنا فى دراسته — أى آثار النوبة التى يهددها السد العالى — وما يجرى بشأن إنقاذها . ولم تترك هذه الحقبة فى هذا الجزء من النهر أية آثار ذات أهمية تذكر بالنسبة لعالم الآثار أو المعجب بالفن ؛ كما أن المعلومات الضئيلة التى يمكن الحصول عليها من هذه الآثار هى فى متناول اليد من واقع السجلات المدونة . والواقع أننا بهذا نقترب من التاريخ الحديث ، ومن أيام النوبة الأقل هناء .

---

(١) وربما يشير المؤلف إلى تلك القصص التاريخية المسلسلة التى تنشرها الصحف والمجلات الأمريكية . (المترجم)

فى عام ١٥١٧ ميلادية استولى الأتراك على مصر ، وأصبح « سليم الأول » سلطاناً على البلاد . ومنذ ذلك الوقت حتى بداية القرن الذى نعيش فيه والنوبيون ، شأن بقية المصريين ، يستغلهم الأتراك بلا رحمة . وعين سليم حكاماً على النوبة أقاموا الحصون فى « أسوان » ، و « إبريم » ، وجزيرة « ساى » ، وغيرها من المساكن ووضع فيها حاميات من جنود البوسنة « المرتزقة » . ويقال إن الحكام نسوا أمر حامية « إبريم » فظلت تقيم هناك حتى القرن التاسع عشر . وقد قال « سانت چون » عام ١٨٣٨ أن بعض سكان « الدر » يتميزون ببشرة بيضاء ، ويرجح أنهم من سلالة جنود « البوسنة » . كما لاحظت « أمليا ادواردز » سنة ١٨٧٧ أن بعض النساء فى « ابريم » ذوات شعر أحمر مموج وعيون سماوية اللون . ومهما يكن من أمر ، فإن النساء ذوات الشعر الأحمر كن « أقل جاذبية وأكثر شبهاً بلون زيت الخروع من مثيلاتهن فى الأماكن الأخرى » . ومن قبيل الصدف ، أن عرض على أمليا أثناء زيارتها أن تبتاع أمة حبشية فى حالة جيدة جداً لقاء مبلغ عشرة جنيهات . ولم يمر على هذا أكثر من مائة عام .

وفيما بين عامى ١٧٩٨ و ١٨٠١ كان احتلال نابليون الوجيز لمصر ، ثم أعقب ذلك تعيين محمد على والياً على مصر . ولم يغير هذا التبديل من الأمر شيئاً بالنسبة لفقر الفلاحين النوبيين والمصريين الذين كانت تغتصب منهم محاصيلهم وكانوا يعملون سخرة تحت ضرب السياط . وأما إذا لم يجدوا لدى الواحد منهم شيئاً يغتصب فإن المسئولين يستولون على متاع جاره بدلا منه ، فالأمر يستوى لدى الباشا .

وفى عام ١٨١٢ كانت جيوش محمد على تزحف على بلاد النوبة تهلك ما يصادفها من حرث ونسل كأنها الجراد المنتشر . وكان الباشا يتعشم أن يجد من الثروة والرجال فى السودان ما يكفيه لكى يحقق استقلاله عن تركيا . ولكنه لم يعثر على ضالته ؛ وكانت الحملة تتسم بالغلظة والقسوة ، كما تعتبر آخر المعارك بينه وبين المماليك ، وهم الأسرة الحاكمة التى تغلب عليها محمد

على . وقد نشبت هذه المعركة فى « ابريم » . وما من شك فى أنها تركت آثاراً ينبغى على المنقبين الحاليين أن يكشفوا أسرارها .

ولكن متاعب النوبيين لم تنته حتى حين كف الباشوات عن عادات السلب والنهب . وبعد الاحتلال الأجنبى الذى فرض على البلاد فى العقد الثامن من القرن الماضى ، كان مقدراً لأراضى النوبة أن تصبح ميداناً للمعارك بين جيوش الدراويش وبين الجيوش البريطانية والمصرية فى الأيام الأخيرة من ذلك القرن . ويحدثنا « برستد » عن العثور على بعض المخلفات فى بوهن من « بعض المعارك التى قامت بين البريطانيين والدراويش » . ويقول « إمرى » فى معرض حديثه عن « كورسكو » إن الثكنات البريطانية كانت لا تزال هناك عام ١٩٣٠ من وقت أن كان خطر الدراويش قائماً من عام ١٨٨٤ — ١٨٩٨ . وبينما كان ينبش بين أطلال أحد الحصون البريطانية على الشاطئ الغربى ، عثر على قطع من زجاجات البيرة يرجع تاريخها إلى العصر الفكتورى ، كما عثر على رقعة من رقاع الداما التى كانت تصنع محلياً ، وجزء من رسالة . ثم يذكر « إمرى » أنه قد عثر على أشياء قريبة الشبه من تلك خلال قيامه بالحفر فى حصون الأسرة الثانية عشرة . « إنها ليست سوى مسألة تاريخ فحسب ، وليست حملة السودان سوى حدث ضئيل فى تاريخ بلاد النوبة المشبع بالدماء ، تلك البلاد التى تكون الطريق الرئيسى بين مجاهل إفريقية والبحر المتوسط » .

إنه لمن دواعى الارتياح أن أطلق العنان لأفكارى تعود أدراجها إلى الأيام التى قضيتها منذ أمد وجيز بين ربوع بلاد النوبة ، فأرى نفسى وقد جلست عند جدار مشمس ، أتبادل الحديث بشأن السفر إلى الخارج مع « ذى القبعة المتراخية » الذى يقيم وراء أسوار المدينة القديمة والذى كان يعمل فى الإسكندرية — وأعتقد أن هذا هو السبب فى أنه كان يرتدى تلك القبعة ؛ أو أتحدث إلى « الصياد المسكين » ، الذى استطاع أن يبرى بطريقة ما — وكثيراً ما كنت أسمع أصداء ضحكات سعيدة صادرة من بيته ، أو أقوم

بزيارة أحد بيوت القرية تبلغ نظافته حداً غير معقول ، وقد زين بطرف قديمة جمعها صاحب البيت مدى حياته .

ومن دواعي السرور أن أرى النوبة وقد سادها السلام وعمها الرخاء مرة ثانية ، قبل أن تتلاشى إلى الأبد .

وبالأمس ، لم يكن أحد يعرف سوى النزر اليسير عن بلاد النوبة ، بل إن علماء الآثار أنفسهم لم يكونوا يعرفون عنها الشيء الكثير .

واليوم تثير بلاد النوبة اهتمام العالم بأجمعه . ولكنه — إلى حد كبير — اهتمام مسرحي : التهديد الدرامي بالغرق ، مجهودات الأمم المتحدة في آخر لحظة لإنقاذ الآثار ، المحاولة الرائعة لرفع معبد أبي سمبل البديع . كل هذا كفيل بأن يجعلك تنسى أن ثمة أناساً يعيشون على أرض النوبة كذلك .

ومع ذلك ، غداً لن يكون هناك وجود لبلاد النوبة على الإطلاق . سوف تشطب بلاد عزيزة برمتها من قائمة المواطن البشرية — تلك الوديان الصخرية التي قضى فيها الرهبان المسيحيون سني حياتهم في التأمل والعبادة سوف ترقد ساكنة لا حراك بها في قيعان خضراء ، وتلك المزارع الصغيرة القابعة على مقربة من حافة النهر حيث ظل الفلاحون يكدون وهم يرفعون عقيرتهم بالغناء طيلة قرون طويلة بينما تمر بهم جيوش فرعون وتزحف فيالق الرومان ، ويهيم المبشرون القادمون من « بيزنطة » عزل من السلاح — تلك الحقول الصغيرة لن تشنف آذانها تنهدات السواقي . سوف تختفي المعابد ذات الألوان الوضيئة القائمة على ثنيات النهر بدرجاتها المهيبة وطرقها التي تحف بها تماثيل أبي الهول ؛ سوف تختفي الكنائس ذات القباب ، التي تشمخ بيضاء مشرقة في ضوء الشمس وصليب المسيح يتلألأ فوق جدران طالما تحدت عباد الأوثان ، سوف تختفي مساجد القرى التي قامت على آثار تلك الكنائس ، وسوف تختفي تلك البيوت الحالية المنسقة بأفنيتها الأمامية النظيفة وأطباقها التي تتلألأ على جدرانها . أو يهم كل ذلك في حقيقة الأمر ؟ لقد استقرت المعابد التي

كانت تبهر الأبصار يوماً من الأيام ، استقرت على الأرض خرائب وأطلالا على مدى مئات من السنين ، وقد عبثت بطلائها حبات الرمال التي تذروها الرياح ، وانتزع الأهالي أحجارها شيئاً فشيئاً . وهذه الكنائس قد تداعت ، لبنة لبنة ، حتى عاد معظمها تراباً في تراب . ومقابر الآلاف من المجهولين سوف تسبغ على موتاها سباتاً هادئاً تحت غطاء من أغوار بعيدة . أما الحفنة الباقية من أسلافهم الأحياء فلسوف ينتقلون من أماكنهم مرة أخرى . وليس هذا بأمر جديد عليهم ، فقد تنقل عدد كبير منهم أكثر من مرة قبل ذلك .

كلا ، لا يهم الأمر على الإطلاق بالنسبة للعالم الخارجي الكبير . وكل ما في الأمر أن أصحاب الخيال لن يكون في مقدورهم بعد ذلك أن يقفوا فوق صخرة شامخة ويشخصون بأبصارهم إلى تلك المساحات الممتدة وهم يقولون : « عبر هذه البقعة مرت فيالق بترونيوس » ، أو : « فوق هذه الصخرة بالذات ، في نفس هذا المكان ، نقش « ستاو » اسمه » .

ثمة طرق أخرى نستطيع بواسطتها أن نندمج مع الماضي ، طرق أقل انسياقاً مع العاطفة وأكثر نفعاً . لا يهم كثيراً لو أن النوبة لم تدم معنا بصخرها وتربتها . ولم يكن في مقدور سوى القليل من الناس أن يروها بأبصارهم . وليس في مقدور سوى القليل من الناس أن يروا اليونان ، أو روما ، أو مناظر مصر العظيمة ؛ ومع ذلك لو أن هذه الأماكن تلاشت كما تتلاشى النوبة ، فلن تموت ولن تكون أقل حقيقة بالنسبة لهؤلاء الذين لم يشاهدوها قط ، فهي ماضينا ، وحاضرنا كذلك . وهذا هو الحال مع بلاد النوبة التي أسهمت واشتركت في كل هذا الماضي ، منذ العصور المظلمة السحيقة التي تم على مرورها في هذا العام قرابة مليون سنة ، كانت النوبة هي الطريق الرئيسي إلى إفريقية حين كانت قبائل العصر الحجري تعيش في غابات أوروبا . وكانت هناك سلسلة من القلاع التجارية العظيمة في بلاد النوبة حين ظهر صانعوا الدنان من المعدن في جنوب غرب أوروبا . وفي الوقت الذي كان فيه الملك سليمان يقيم معبده في « أورشليم » كانت الحضارة النوبية في طريقها إلى النضج .

وبينما كانت روما على وشك التأسيس ، جعل النوبيون من أنفسهم أسياداً على مصر ردحاً من الزمن ، وطيلة ألف عام بعد ذلك الوقت ، بعد عصر « بركليس » و « سقراط » و « بوذا » و « كنفوشيوس » ، والمسيح ، عقد لواء الحكم لأسرات النوبيين فى « نباتا » و « مروى » . وكانت هذه المنطقة من بلاد النوبة ملاذاً لأناس أتقياء ورعين على مدى عدة قرون . وربما كان عدد كبير منهم عبارة عن نساك ورهبان قذرين ذوى عادات وأفكار شاذة ، جهال غلاظ مثل السوقة فى أديرة التبت . ومع ذلك كانوا يتصارعون هناك على مقربة من النهر مع مشكلات الخير والشر من تلك الزاوية الجديدة التى منحها المسيح للعالم بطريقة يستطيع الرجل العادى أن يفهمها . وكان ذلك يعد ثورة فى الفكر الشعبى ، وسيلة مختلفة لاتصال الإنسان بالإنسان . وعلى الرغم من أنهم كانوا رهباناً غريبى الأطوار بالنسبة لنا ، ينبغى علينا أن ندرك أن « آباء الصحراء » كان ينظر إليهم الناس فى أيامهم على أنهم مفكرون تقدميون ، خطر على النظام القائم ، لقربهم إلى قلوب الطبقات المحرومة . وما زلنا نصارع مشكلاتهم ،وربما فى شكل مغاير ، ولكنها لم تزل مشكلات علاقة الإنسان بالإنسان . ولو أن أحد المفكرين الحاليين الذين يدعون التقدم خطر له أن يتهكم على العقد الأخلاقية لأولئك النساك المتعبدين ، فإنه يرتكب إثماً فى حق النور ، إذ أنه هو وأفكاره ثمرة تأملات الملايين العديدة الذين سبقوه ، وثمرة نتاج أعمالهم . ينبغى عليك ألا تسخر من التاريخ ، إذ أن التاريخ هو أنت .

وهكذا ، لن تموت النوبة حين تغمر المياه صخورها ووديانها ، فهى جزء من معرفتنا الكلية لأنفسنا ، تلك التى تجعلنا نشعر بماهيتنا — نحن معشر الجنس البشرى العجيب على هذا الكوكب الغامض .

وهكذا يضيف كل مسلك من سلوك الإنسان وكل فكرة من أفكاره فى الماضى إلى الضوء الذى نراه به الآن . وما تستطيع النوبة أن تضيفه ، سجل طويل يأسر الألباب ، يغطى المدى الواسع لتاريخ الإنسان ، ويعكس كل

ما جرى فى العالم الخارجى ، وتضم بين خبراتها مختلف الأحزان والأفراح الشائعة فى قصة الإنسان ؛ السلام والحرب ، الرخاء والشدة ، النصر والهزيمة ، السيادة والعبودية ، الجمال والاضمحلال – سجل لسنوات ، بل لقرون كلها هدوء وسلام .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠٢٨ س.ت ٦٣٤١١

ديسمبر ١٩٦٦

٤٠ م

Bibliotheca Alexandrina
0579719

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ج.ع.م
تليفون ٩٠٠١١٨ س.ت ٦٣٤١١